

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

الباب الرابع - من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك

٢ ... الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢

الفصل الأول - في أصول تعيين على الكاتب معرفتها ،

٢ ... وفيه ثلاثة أطراف ... ٢

الطرف الأول - في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها

٢ ... من الألفاظ ... ٢

» الثاني - في أصل وضعها ... ٤

» الثالث - فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،

٧ ... وفيه نوعان ... ٧

النوع الأول - ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام

٧ ... وأهل الكفر ... ٧

» الثاني - ما مشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر

والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء

٩ ... المسلمين، وهي ضربان ... ٩

الضرب الأول - الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق

٩ ... عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩

الضرب الثاني - مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة - تحرير

١١ ... أوضاعها، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقبتها ١١

الفصل الثاني - في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،

١٦ ... ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦

الطرف الأول - فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،

وتخلف منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع

١٦ ... منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

- النمط الأول — ما يكتب في طرزة الهدنة من أعلى الدرج... ١٦
- » الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد، وفيه مذهبان ... ١٧
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبارة ... ٢٦
- النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر — أن تكون الهدنة من الجانبين جميعاً، وفيها للكتاب ثلاثة مذاهب... ٢٩
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة» ونحو ذلك ... ٢٩
- الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «استقرت الهدنة بين فلان وفلان» الخ ... ٣١
- » الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ «الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام في كتابة نسخ من دواوينهم... ٧٢
- الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين ملوك مسلمين، وفيه فصلان... ٧٩
- الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩
- » الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرزة والمتن، وفيه نوطان ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ... ٨٤ ...
- » الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،
- وفيه مذهبان ... ٩٧ ...
- المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ... ٩٧ ...
- » الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله »
- وربما كرر فيها التحميد ... ١٠٠ ...
- الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسخ الواردة على العقود
- السابقة ، وفيه فصلان ... ١٠٨ ...
- الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
- الآخر ... ١٠٨ ...
- » الثاني — المفاخعة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩ ...

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق
- بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ... ١١٠ ...
- الباب الأول — في الجديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ٥
- فصول) ... ١١٠ ...
- الفصل الأول — في المقامات ... ١١٠ ...
- » الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ... ١٣٨ ...
- الصنف الأول — الرسائل الملوكيّة ، وهي على ضربين ... ١٣٩ ...
- الضرب الأول — رسائل الفزوّ ، وهي أعظمها وأجلّها ... ١٣٩ ...
- » الثاني — « الصبيد ... ١٦٥ ...
- الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتعريض ١٧٢

صفحة

- الصف الثالث - من الرسائل - المغاخرات ٢٠٤
- » الرابع - » الأسئلة والأجوبة ٢٤٠
- » الخامس - » ما تكتب به الحوادث والمجريات ٢٥١
- الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ؛
- في قدمات البندق ٢٨٢
- » الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
- في الصدقات ، وفيه طرفان ٣٠٠
- الطرف الأول - في الصدقات الملوكة وما في معناها ٣٠٠
- » الثاني - في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ... ٣١١
- الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب
- عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة
- بمراعاة التراجم المسجوع فيه ، ومحاولة الفصاحة
- والبلاغة ، وفيه طرفان ٣٢٢
- الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،
- وهو على صفتين ٣٢٢
- الصف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات
- الكتب ، ونحوها ٣٢٢
- » الثاني - التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة
- والقصائد المنظومة ٣٣٥
- الطرف الثاني - فيما يكتب عن الفضاة ، وهو على أربعة
- أصناف ٣٤٠
- الصف الأول - التقاليد الحكيمة ٣٤٠
- » الثاني - إسمجالات العدالة ٣٤٦

صفحة	
٣٥٠	الصفحة الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها
٣٥٣	» الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب...
٣٥٥	الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج
٣٦٠	الباب الثاني - من المقالة الماثرة في الهزليات

الخاتمة

٣٦٦	في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب...
٣٦٦	الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان
	الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
٣٦٦	الفرض من ذلك بثلاثة أمور
٣٦٦	الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً
٣٦٧	» الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن
٣٧١	» الثالث - بيان معالم البريد
	الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
٣٧٢	البريد، ويشتمل على ستة مقاصد
	المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
	هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
٣٧٣	وما ينتهي إليه مرا كل جهة... ..
٣٧٩	» الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية
٣٨١	» الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز
٣٨٣	» الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز
٣٨٥	» الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز
	» السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
٣٨٥	المشرفة والمدينة المتورة... ..

صفحة	
الباب الثاني — من الخاتمة في مطارات الحمام الرستائي، وذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان	٣٨٩
الفصل الأول — في مطاراته	٣٨٩
» الثاني — في أبراج الحمام المقررة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية	٣٩٢
الباب الثالث — من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول	٣٩٥
الفصل الأول — في نقل الثلج	٣٩٥
» الثاني — في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام	٣٩٦
» الثالث — في هجن المعدة لنقل ذلك	٣٩٦
الباب الرابع — من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان	٣٩٨
الفصل الأول — في المناور	٣٩٨
» الثاني — في المحرقات	٤٠١

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربية بالقسم الأدبي

بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيْسِيرِ، وَتَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْفَى مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَنُصَلِّيْ وَنُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهِدَايَةِ وَشَهَائِمِ السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَحْبَابِهِ التَّجْوِمِ الثَّوَابِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْأُمَمَ مَاتَارِيهَا ، وَالشُّعُوبَ بَسِيرِهَا وَأَخْبَارِهَا ؛ وَمِنْ أَكْثَرِ الْأَثَارِ قِيَمَهُ ، وَأَغْزَرِهَا دِيَمَهُ ؛ مَا تُعْرِفُ بِوَاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ قِرَائِحُ الْجَهَائِدَةِ الْحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ الرَّاقِيَةُ فِي مَسَالِفِ الدُّهُورِ إِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنِي بِشَأْنِ عِلْمَانِهَا ؛ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ ؛ وَتَحْلُهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَنَاسِبِهَا وَمَعَادِيهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدَةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدَةِ ؛ وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهِدِهَا فِي إِثْنَاءِ دَوْرِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا ؛ لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَائِرَهُمْ وَطَوَائِرَهُمْ الَّتِي أَوْدَعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَتَبِيحَةَ بَحْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيزَةُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مُسَابِقِي «الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ» فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ ، مَيِّدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْاِكْتِفَاءِ .

وسارت من بعدهما تهاض « بغداد » دار السلام، ومركز الخلافة العباسية وكنية العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يتلوه الخلفاء لعلماها من أنواع التحف، ويقرؤونه عليهم من بذر الأموال : حبا في نشر العلم ويُلَوِّغُه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم عصورها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفاتيح، يوم كانت تنشر على العالم ألوية الحضارة، وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وقد تضرع ذراعها : مريحة بكل وأغد عليها من أهل العلم والآداب ، خصوصا بعد أن طوّحت يد الرديء بمذنب العراق وحواضر الأندلس، ودارت عليها الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال الحميد والحضارة . فوفد علماءها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضالّتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردا حثيا يزدهم عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاهية بأكار العلماء ونوايخ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمرأؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملوكها الإعظام والإجلال، وأخذوا يساعدهم، ويألفون في احترامهم وإحراز النعم عليهم، ويستجمعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا لا يؤسسون مسجدا للصلاة، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا ويسيدون في داخله نخزانه كتب جامعة، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف، ورغبة في تقييد الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلقها الفاطميين خزانة كُتُب كُبرى ، كانت من أجل الخزانين
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .
يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كُتُب أعظم من التي كانت بالقاهرة
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : رَدُّ مناهل العلم
المدبة ، وتَفَقُّدُ إلبائيه الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأليم الإسلامية ،
فَفَرَّقَتْ شِسِمًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العاقبة ، وصارت كل واحدة لا هيا
بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

قلَّ الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار
على كثرتها ، وأمنت إليها يد النسيان تَبَثُّ بنفائسها أُنَّى شامت بدون محاسب
أورقيب . وأستولى الميرون على الديار المصرية على أغصان ما كان مودعًا فيها من
الكتب والآثار ، وتناولوا منه إلى بلادهم وممالكهم ما شاء الله أن ينقلوا .

وعاشى اليوم تُنادى أهل مصر من وراء البحار ، ويتأججهم بما كان لسيفهم
الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقي في تلك العود والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنًا عليها ،
لاحق طيه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر متدفرون لم يبتد إليه بعد ، أو يحين حكم
عليه بالسجن الأبدي لا يجِدُ لنفسه خلاصًا .



تلك كانت حالة مصر حينئذ من النهر كادت تَلْعَبُ بكل ما بَنَى أهلها في الزمن
السَّابِقِ من تَجْدِيدِ وَأَسْأَسُوا مِنْ قُوَّةٍ - لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِهَا خَيْرًا ،
بِجُلْسِ عَلَى أَرِيكَتِهَا ذَلِكَ الْمُصْلِحَ الْكَبِيرَ ، وَالْعَصَائِيَّ الشَّهِيدَ ، مُؤَسِّسَ «مِصرَ الحَدِيثَةِ»
سَاكِنُ الْخَنَانِ "مُحَمَّدَ عَلَى بِاشَا" رَأْسَ السَّائِلَةِ الْعَلَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ .

فَإِنَّهُ - نَوَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَهُ - أَعَادَ لَهُذِهِ الْأُمَّةِ سَالِفَ تَجْدِيدِهَا ، وَنَبَّهَ الْأُنْكَارَ بَعْدَ
طُولِ رُقَادِهَا ، وَنَشَرَ الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ بَيْنَ أُنْبِيَائِهَا ، وَأَرْسَلَ الْغِنَاءَ الْعِلْمِيَّةَ إِلَى
أَشْهُرِ الْجَامِعَاتِ بِأُورُوبَا : لِيَتَعَلَّمُوا أَسَالِيبَ التَّعْلِيمِ الْحَدِيثَةِ ، وَيُودِدُوا إِلَى مِصْرَ
بُفُنُونٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ تَدْعُو إِلَيْهَا سُنَّةُ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ .

وَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءَ وَالْأَدَبَاءَ ، وَجَعَلَهُمْ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ . وَوَصَلَ
الْجَيْلَ بِالنَّهَارِ فِي سَبِيلِ إِنْهَاضِهَا وَإِسْعَادِهَا ، وَأَسَّسَ الْمَدَارِسَ ، وَشَادَ دَوْرَ الصَّنَاعَاتِ
وَالْمَعَامِلِ فِي حَوَاضِرِ هَذَا الْقَطْرِ السَّعِيدِ .

وَأَنْشَأَ "الْمَطْبَعَةَ الْأَمِيرِيَّةَ الْكُبْرَى" ، وَجَهَّزَهَا بِكُلِّ مَا يَلْزَمُ لَهَا مِنْ
الْآلَاتِ وَالْعُدَدِ ، حَتَّى صَارَتْ مِنْ أَزْوَاقِ دَوْرِ الطَّبَاعَةِ فِي الشَّرْقِ ، وَأَخْشَارِ
لَهَا تَوَابِغَ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاطِينِ الْكُتَّابِ : لِيَقُومُوا بِتَضَحُّيِّحِ مَا يُطْبَعُ فِيهَا . وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ
الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي تَقْوِيَةِ النَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ ، وَنَشْرِ الْعُلُومِ
وَالْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَمِيعِ أُنْحَاءِ الْعَالَمِ .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المتفوره "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهمها بعدده ولله طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً ومائتيه قدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب ، يتفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأما ثلاث خزائنها بنفائس الأسفار وجلال المؤلفات ، من مصر وغيرها من سائر الممالك ، بما كان يتفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة ، والمؤلفات القديمة ، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية .

وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات ، وأثر خالده من الآثار الباقيات ، ولها على العلم وأهله الأيدى التي لا تشكر ، والمقائير التي تذكّر فتشكر ، فقد أعدت للترغدين إليها قاعة كبرى للمطالعة ، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والسماة ، والكتاب والشعراء ، والمتحججون والحكماء وغيرهم : يردون نبرها ، ويؤلون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم ، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا"
وزير المعارف الأسبق وجه - حفظه الله - عنايته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها
التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكائنها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم
بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع
الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فأختار طائفة مما فيها من نقائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا
المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطبع في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتُشترق
أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قرب ومن بعد ؛ ضئلاً بما أن
تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وعُرفها ، لا ينفع بها غير فريق من المقيمين
في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

"صبح الأعشى في كتابة الإنسا"

(للقليشندى)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْمَا أَطَالَ الْكَاتِبُ فِي وَصْفِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَجَوَّدَ فِكْرَهُ ، وَأَجْهَدَ قَلَمَهُ
فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبِقِيَمَتِهِ الْعَالِيَةِ وَالْأَدْبِيَّةِ - فَانْه لَا يَبْلُغُ تَعْدَادَ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ
الْقَوَائِدِ ، وَأَنْطَوَى تَحْتَهُ مِنَ الدَّقَائِقِ .

فَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرُ ، عَظِيمُ النِّفَعِ ، كَبِيرُ الْفَائِدَةِ ، لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مَنَوالِهِ فِي عَالَمِ
التَّأْلِيفِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكَتَابَةِ . وَلَا تُعَدُّ مُبَالِغِينَ إِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ أَنْفُسُ كِتَابٍ
أُلِّفَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَارِيخِ آدَابِهَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ الْقَلَقَشَنْدِيُّ مُؤَلِّفُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي الْعُصُورِ الْأَوَّلَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
مِنَ الْإِنْتِشَارِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لُغَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّامِعَةِ
وَالَّذِينَ الْحَنِيفِ ، تَبَعًا لَإِنْتِشَارِهَا فِي أَكْثَرِ أَنْحَاءِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ : فِي بِلَادِ فَارِسَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فِي الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ (وَقَاهَا اللَّهُ) فِي بِلَادِ أَفْرِيْقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فِي بِلَادِ الصِّينِ ، فِي بِلَادِ
كَثِيرَةٍ مِنْ أَوْرُوبَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلِّفُهُ كَيْفَ زَهَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ الشَّرِيفَةُ فِي عُصُورِ الْخُلَفَاءِ : مِنْ
بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَغَزَرَتْ مَادُنَّهَا ، وَأَتَسَّعَ نِطَاقُهَا ، وَدَنَا قِطَافُهَا : فَصَارَتْ
لُغَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، لُغَةُ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، لُغَةُ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ ، لُغَةُ الْجَدَلِ وَالْمُنَاطَرَةِ .
كَمَا صَارَتْ لُغَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ : فِي أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَثْبِيقِ
الْعُقُوبِ ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ . وَعِلُومِ الْفَلَسَفَةِ ،
وَالرِّيَاضَةِ ، وَالتَّجُومِ ، وَالْعَلَبِّ ، وَالْكِيمْيَا ، وَمَا أَشْبَهَهَا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَا بَلَّغَتْهُ مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْإِرْتِقَاءِ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، تَبَعًا لَضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ، مِمَّنْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالِدِينَ . كَمَا يَبِينُ لَنَا طَبَقَاتُ الْكُتَّابِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَرُسُومُهَا وَرُسُومُهَا، وَمَنْ وَلِيَهَا : مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَائِكِرِ وَلَايَاتِهِمْ، وَخُلَفَاءِ نَبِيِّ أُمِّيَّةِ الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ، وَخُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بَيْتِغَدَادَ وَمِصْرَ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمِصْرِيَّةِ، وَمُدَّعِي الْخِلَافَةِ مِنْ بَقَايَا الْمُؤَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَا بَلَّغَتْهُ مِنْ دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ، وَحُدُودِهَا، وَأَنْظِمَتِهَا، وَرُسُومُهَا، وَمَا أَشْمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ، وَالْخُلُوصِ وَالْعَجَائِبِ، وَمَا بَهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ، وَمَنْ وَلِيَهَا مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ - وَهُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِيُّ الصَّبِيحُ، الَّذِي أَقْلَعَتْهُ أَرْضُ مِصْرَ، وَأَقْلَعَتْهُ سَمَاوُهَا، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيلِهَا - الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، وَفَضَائِلِهَا وَمَحَاسِنِهَا، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ وَمَصْبِهِ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ، وَمُقَايَسَتِهِ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ فِي النَقْصَانِ، وَخُلُجَانِهِ الْمَنْقَرَعَةِ عَنْهُ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَا نُهُ . وَبَيْنَ بُحَيْرَاتِهَا، وَجِبَالِهَا، وَزُرُوعِهَا، وَرِيَاحَاتِهَا، وَقَوَاكِيهِهَا، وَمَوَاشِيهَا، وَوُحُوشِهَا، وَطُيُورِهَا . وَبَيْنَ حُدُودِهَا، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عَنا . وَبَيْنَ أَعْمَالِها وَقَوَاعِدِها القَدِيمَةِ ، وَمَبَانِيها العَظِيمَةِ الباقِيَةِ على مُرُورِ الأَزمانِ .
وَبَيْنَ قَوَاعِدِها الحَدِيثَةِ وما أَشْتَمَلَتْ عَليه من مَحاسِنِ الأَبْنِيَةِ . وَبَيْنَ من وَلَها من
المُلُوكِ والسُّلاطينِ قَبلَ الإِسلامِ وبعده . وَبَيْنَ تَرتِيبِ أَحوالِها ، وَمَعادِلِها ،
وَتَقوُّدِها ، وَتَرتِيبِ مَمْلَكَتِها ، وَوَظائِفِ دَوِلِها القَدِيمَةِ والحَدِيثَةِ .

كِتابٌ دُونَ فيه مؤلفه عَدَّةٌ كُتِبَ أَدَبِيَّةٌ نَفيَسَةٌ بِتمامِها ، وَجَمَعَ فيه كَثيراً مما تَهَوَّى
في غَيرِها مِنَ المَؤَلَّفَاتِ .

وَرَبَّهَ على مُقَدِّمَةِ وَعَشْرِ مَقالاتٍ وَخاتِمَةٍ ، بَناها بالإِجمالِ على التَّعريفِ بِمَحيقَةِ
دِيوانِ الإِنشاءِ وأَصِلَ وَضَعَهُ في الإِسلامِ ، وَتَفَرَّقَهُ بَعدَ ذلكِ في المَمالِكِ ، وَبَيَّانِ كِتابَةِ
الإِنشاءِ وَتَفْصِيلِها على سائِرِ أنواعِ الكِتابَةِ ، وَصِفاتِ الكُتَّابِ وآدابِهِم ، وَمَنَاجِ
فُضلائِهِم وَدَمَّ مَقامُهم .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ ما يَحتاجُ إِلَيهِ كاتِبُ الإِنشاءِ في الأُمُورِ العالِيَةِ والسَّعِيَةِ : كَمَعْرِفَةِ المَوادِّ
اللازِمَةِ لِلنَّشْئِ : مِنَ الخَطِّ وَتَوابعِهِ وَلَوَاجِبِهِ وَغَيرِ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ المَسالِكِ والمَمالِكِ (عِلْمُ تَقوِيمِ البُلدانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الأَرضِ وإِحااطَةِ
البَحْرِ بِها ، وَبَيانِ جِهاَتِها الأَرْبَعِ وما أَشْتَمَلَتْ عَليه مِنَ الأقاليمِ السَّبعةِ الطَّبيعيَةِ ،
وَبَيانِ مَوَاقِعِ الأقاليمِ العُرفِيَةِ مِنها ، وَذِكْرَ حُدُودِها الجامِعةِ لها ، وما فيها مِنَ الجِبالِ
والبحارِ والأنهارِ ، والأقاليمِ والمَمالِكِ والبُلدانِ ، ومُلوَّصَها في القَدِيمِ والحَدِيثِ
وما يَتَّبِعُ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ الأُمُورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فيها أنواعُ المَكتاباتِ والوِلايَاتِ وَغَيرِها : مِنَ ذِكْرِ
الأَسْماءِ والكُنى وَمَواضِعِ ذِكْرِها في المَكتاباتِ ، وَذِكْرِ الألقابِ وأَصْلِ وَضْعِها ،
وما كانَ يُلقَّبُ بِهِ أَهلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إلى زَمَنِه ، وَكَيْفَةِ تَوزِيعِ الأَعْمالِ على كُتَّابِ

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأعلام ، وغير ذلك من قَوَائِن
الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومُصْطَلَح
المكتبات الدائرة بين كُتَاب الإسلام ، وكُتُب النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى أَهْلِ
الإسلام وغيرهم ، والكُتُب الصَّادِرَة عن الصَّحَابَة والخلفاء والملوك ومَن في معانهم ،
وبيان مذاهب الكُتُب فيما تُفْتَح به المكتبات ، وما يُحَاطَبُ به أَهْل الإسلام
وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والمُهود ، ومعانها ، والولايات
الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السُّيُوف والأعلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يُكْتَب فيها في القديم والحديث ، والمساحات
والإطلاقات وما يكتب فيها ، والطُرُخانيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين
القمرية والشمسية ، وما يُكْتَب في التذكار التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ،
وأول من وَضَعَ دِيوَانَ الجَنَيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يَجْع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان
يُخَلِّف بها العرب في الجاهلية ، وما يُقَسِّم به أَهْل كُلِّ مِلَّةٍ ونَحْوُهُ .

ومعرفة عقود الأمانات والصُّلح ، والمُحَدِّد الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فُنُونًا كثيرةً بَدَاوُلُهَا الكُتُب والأدبَاءُ ويتنافسون في عملها ، لا تَعْلَقُ
لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزوَ

والصِّيد ، ورمائل المَذْح والذَّم ، ورسائل المُفَاتَرَاتِ بين الأشياء ، والرسائل المُشْتَمِلَة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المُكْتَتَبَة بالحوادثِ والمآثراتِ وغيرها ، وكَقِيَمَاتِ البُنْدُق ، والصدقاتِ المَلُوكِيَة وغيرها ، والعُمَرَاتِ الَّتِي تُكْتَب لِحَاجٍّ ، وَذِكْرُ نَسَبٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وما يُكْتَب عن العُلَمَاءِ وأهلِ الأدبِ : من الإجازَةِ بالفتوى والتَّدرِيسِ والمروياتِ ، وما يُكْتَبُ على الكُتُبِ المصنَّفة والقصائدِ من التَّقْرِظَاتِ ، وما يُكْتَب عن القضاةِ : من التَّقَالِيدِ الحُكْمِيَّةِ وإِصْبَالَاتِ العَدَالَةِ وغير ذلك .

وتكلم فيه على البريدِ وأولِ مَنْ وَضَعَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ والإسلامِ ، وبيانِ مَعَالِمِهِ وَمَرَآئِهِ ، ومطاراتِ الحَمَامِ الرِّسَالِيَةِ وأبراجِهِ بالذِّيارِ المِصْرِيَّةِ والبلادِ الشَّامِيَّةِ ، وَمَرَآئِ كِبِ التَّلُجِّ والمُجَنِّ المَعْدَةِ لِنَقْلِهِ ، والمُنَاوِرِ والمُحْرِقَاتِ .

وذكر فيه كثيراً من الآياتِ القرآنيةِ الشَّرِيفَةِ والأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ الكَرِيمَةِ ، والأمثالِ والحِكَمِ العَرَبِيَّةِ ، وأقوالِ الكَثِيرِينَ مِنْ أئِمَّةِ اللُّغَةِ والتَّفْسِيرِ والحَدِيثِ والفِقْهِ وعلومِ العَرَبِيَّةِ .

وأتى فيه على كَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ الكُتُبِ والفُنُونِ ، وكَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ مَشَاهِيرِ المُؤَلِّفِينَ والعُلَمَاءِ والأدبَاءِ والكُتَّابِ والشُّعْرَاءِ .

وأورد فيه مِنْ أَصُولِ الصَّنِيعَةِ فِي الكِتَابَةِ مَا يُفْنِي قَارِئَهُ عَنْ تَصَفُّحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الأدَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَصَمَّمَهُ صَمِّمًا كَثِيرًا يَفُوقُ الحَصْرَ مِنَ الرِّسَالِ الْبَليغَةِ لمَشَاهِيرِ الكُتَّابِ وَأَهْلِ الأدبِ فِي الشَّرْقِ والغَرْبِ والقَدِيمِ والحَدِيثِ .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُجَلِّسه من غُرَرِ مُنْشَأَتِهِ
لنَفْسِهِ بِالْمُحِبِّ وَالْمُطْرَبِ .

ولم يدع صغرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يُغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتِعٌ، وذاكرةٌ معارفٍ أدبيةٌ كبرى، يشهد لمؤلفه بالقطعة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفن الجليل فنَّ كتابة الإنسان، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجبايلها .

وإنَّ حُسْنَ نِيَّةِ مُؤَلِّفِهِ، وَاِعْتِمَادَهُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي النِّقَحِ بِهِ - سَاعَدَا عَلَى
حِفْظِهِ إِلَى هَذَا الزَّمَنِ مِنْ أَيْدِي الْعَوَادِي، وَأَنْتَشَارِهِ هَذَا الْإِنْتِشَارَ الْعَظِيمَ .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - مُحَدَّثاً بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ - بعد أن ذكر أن
المُصَنَّفَاتِ نَتَفَاوَتْ فِي الْخُطُوطِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً: فَنِ مَرَّغُوبٍ فِيهِ، وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ،
وَمُتَوَسِّطٍ بَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ قَلَّ أَنْ يَنْفَقَ تَأْلِيفٌ فِي حَيَاةِ مُؤَلِّفِهِ، أَوْ يَرُوجَ تَصْنِيفٌ عَلَى
الشُّرْبِ مِنْ زَمَانِ مُصَنَّفِهِ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ الْمَسْمُودِيُّ فِي كِتَابِهِ
”التنبيه والإشراف“ عن الجاحظ . قال :

لَكِنِّي أَحَدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَوَاجِ سَوِيِّ تَأْلِيفِي وَفَاقِ سِلْعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى
اسْتِغَاثِهِ قَبْلَ أَقْضَاءِ تَأْلِيفِهِ، حَتَّى إِنْ قَلْبِي التَّالِيفِ وَالنَّسْخِ يَتَسَابَقَانِ فِي مِيدَانِ
الطَّرْسِ إِلَى أَكْتِنَاتِهِ، وَمُرْتَجَبِ نَجَازِهِ لِلْإِسْتِنْسَاجِ يُسَاهِمُهُمَا فِي آيَتِقَابِهِ، فَضْلاً مِنْ
اللَّهِ وَنِعْمَةً : (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن جمال بن أبي أيمن القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيعة. وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في تظيمه.

وعمل "صحيح الأعشى" في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات، جمع فاعلى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وغير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والد عبد الله وهو وهم.



وترجمه صاحب "مئذرات الذهب" في أخبار من ذهب، فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الشافعي ، تزييل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتمامي الأدب ، وكتب في الإنشاء ، وناب في الحكم . وكان يستحضر
" الحاوي " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً بسماء
" صبح الأعشى " في معرفة الإنشاء ، وكان مستحضرًا لأكثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً في النولة إلى أن توفي ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
تسعين سنة ^(١) .



وقد وقفنا على شيء من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نوره
هنا ، إتماماً للفائدة ، فنقول :

ميلاده ونسبته

ولد المؤلف في سنة ست وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوي في " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قلقشنده " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصل عربي صميم ، من بني بدر بن قزارة من قبيل عيلان .
وكان بنو قزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامي ، وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة أحمد بن علي ، ومرة أنرى أحمد بن عبد الله ، وثالثة
أحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر في عنوان " نهاية الأرب " ، المؤلف ، المطبع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندي ، الشيربازي أفندي .

وروجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَلُوا بِالْعَلِيمِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَأَسْتَوَلَى بُنُو بَدْرٍ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ يَلَادُهُ . وَكَانَتْ لَهَا الرِّاسَةُ
وَالْعَلْبَةُ عَلَى جِيَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمَّهِمْ بَنِي مَازِنَ بْنِ قَزَّارَةَ . وَكَانَ بِقَلْعَشَنَةِ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ ^(١) .

نشأته وتربيته

وَنَشَأَ نَشْأَةً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى تَعْرِفِ الإسْكَندَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، وَطَلَّبَ الدِّلَامَةَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورَى الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَسْتَغْلَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطْلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إجازته بالفقهاء والتدريس

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعًا مِائَةً كَانَ مُقِيمًا بِشَفَرِ الإسْكَندَرِيَّةِ إِجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهِيدُ بَابِ الْمَلَقَيْنِ - بِالْفُقَيْيَا وَالتَّدْرِيسِ
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَلِكَ تَتَعَدَّى إِحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا إِجَازَهُ بِأَن يَرَوِيَ عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَن يَرَوِيَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ
السَّنَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُنِيَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحِطِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ تَاجِ غُزُونٍ مُوقِعِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ
بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" لؤلؤ (ص ١٥٠) .

تَصَدُّره للإفادة

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاقه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة اتفق بديوان الإنشاء بالأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامة في تقرير القاضي بدر الدين، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمها "الكواكب الدررية" في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالبي العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى ما سواها، وصنمها كثيراً من أصوب الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجمله كالشرح لها .

وفرح من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشائه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيل والترام
الخصائص البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو
ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين
ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبذلوا خف روعاً وأعظم
وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإن من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحافه بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان
عليه : من غزارة المادة ، وسلامة اللّوق ، وقوة الذاكرة .

مؤلفاته

وله تأليف كثيرة ، منها :

كتاب "صبح الأعشى" في كتابة الإنشاء وهو هذا الكتاب .

وكتاب "ضوء المصباح المُنير وجنى النّوع المُنير" وهو مختصر كتاب
"صبح الأعشى" . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة
في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب "النّبوت الموابيع ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع"
في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وكتاب "نهاية الأرب، في معرفة قبائل العرب" في الأنساب، ألفه لفتوا الجمالي
يوسف الأموي^(١)، وطبع في مطبعة الرياض بمدينة بغداد (دار السلام) .
وكتاب "قلائد الجمان، في قبائل العربان" في أنساب العرب أيضا^(٢) .
وله غير ذلك رسائل كثيرة تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشى" .



هذا : وقد أسند إلينا تصحيح كتابه "صبح الأعشى" المطبوع على نفقة
دار الكتب، بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية . فقمنا نحوه بما يجب بإزاء مؤلف
جليل مثله، وأجتهنا في تهذيبه وتنقيحه بقدر الطاقة .

وأستأنا على ما وجدناه بأصله من التحريف الكثير والتصحيح الغريب - زيادة
على ما فيه من الطمس والسقم في مواضع من بعض أجزائه - بمراجعة كثير من المؤلفات
في الفنون المختلفة، ونسخ شئ من رسائل الكتاب ودواوين الشعراء وأهل الأدب،
باحثين فيها عن كل موضوع تكلم عنه المؤلف أو أشار إليه في كتابه . ومتى توقفنا
في شيء من مسائله أثناء التصحيح : لعدم وضوحه، أو لأن يد النسخ مسخته،
أو لغير ذلك - رجعنا إلى تلك الكتب والرسائل فصحصحنها منها، مع المحافظة التامة
على عبارة الأصل مهما بلغت من السقم . وما لم تقف عليه فيها، أبقيناه على حاله،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبه، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود «هزبر بن راشد»
أمير العربان في البلاد الشرقية والفرسية .

(٢) نسب صاحب "كشف الظنون" لواله المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" .
[وقد تصفحناه فلم نثر على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَصَبْرِهِ ،
تَأْسِيبِ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدِّمْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَذَلْنَا الْجُحْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بَوْضُوحِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُزْأَيْهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَضَّعْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَحَاشِ شَرْحِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَيْرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَهَا هُوَ ذَا قَدِّمْتُمُوهَ لِحَضْرَاتِ قُرَّانِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْهِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاطِلَ وَيُسْرِحُ الْخَاطِلَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّ مُطَبِّعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَقَفَّعْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَبِرِضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَّبَنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحَسَنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ مَا

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم

دَارُ الْكِتَابِ السَّلْطَانِيَّةِ

كِتَابُ

صَنِيعُ الْأَمِيرِ

نَالِيَقُ

السَّيِّحِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدَبِ

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدنة الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفهما من الألفاظ)

أما رتبتهما فإنها متاخرة - عند قوة السلطان - عن عقد الجزية : لأن في الجزية ما يدل على ضعف المعقود له، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة، يقال : هادته يهادته مهادنة إذا صالحه والاسم الهدنة . وهي إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها^(١) هدوناً إذا سكن، ومنه قولهم : « هدنة على دخن » . أى سكون على غل^(٢)، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب تكل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في الناموس واللسان وكذا المحكم بالقلم فييد أنه من باب ضرب، ظلل فيه لفتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظ أخرى :

أحدها — المَوَادعة، ومعناها المصالحة أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالمودوع . يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أخذًا من توديع الثوب وتحوه : وهو جعله في صَوَان يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أخذًا من الدعة : وهي الخفض والهاء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثاني — المسألة ومعناها ظاهرٌ : لأن وقوعها يسلم كل من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقَاضاة، ومعناها [المُحَاكَمَةُ مُقَاعَلَةٌ من القَضَاءِ بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — المَوَاصِفَةُ ، سُمِّيَتْ بذلك لأن الكاتب يَصِفُ ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن الكتاب يَحْصُونَ لَفْظَ المَوَاصِفَةِ بما إذا كانت المهادنة من الجانبين ، ولا شك أن ذلك جارٍ في لَفْظِ المَوَادعةِ والمُسَالمةِ والمُقَاضاةِ أيضا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظ قليلة محفوفة، على ما هو مذكور في علم العربية .

أما لَفْظُ المُهدنةِ فإنه يصلح أن يكون من جانب واحد، بأن يَعتدَّ الأعلى المهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة، إذ لا تتصور إلا من اثنين .

وأما في الشرع فعبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة، على ما سيأتي بيانه فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر، أو بين اثنين، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب المهدنة في كتبهم . قال صاحب

«مواد البيان» . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التواضع والتسليم واعتقاد المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، والتعااضد والتأشير؛ ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليماً بعض ما في يده والتفادي عنه بمحافظته والاعتقاد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بيمين، أو أمثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يحصى .

قلت : وقد يكون المالكان متساويين في الرتبة أو متقاربين ، فيقع التعاقد بينهما على المسألة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إناوة يحملها إليه ، ولكل مقام مقال، والكاتب الماهر يوفق كل مقام حقه ، ويعطي كل فصل من الفصول مستحقه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ الآية، وقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه : « أَنْ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَّو بِالْحُدُوثِ حِينَ صَدَّه قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْكَاتِبَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

«الرحيم». فقال سُهَيْلٌ: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو؟ ولكن أكتب»
 «بأسمك اللهم كما كنت تكتب». فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا
 «بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أكتب:»
 «بأسمك اللهم». ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سُهَيْلٌ:
 «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدَدناك عن البيت ولا نأتلناك»
 «ولكن أكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله
 «إني لرسول الله وإن كذبتوني، أكتب محمد بن عبد الله، ثم قال النبي
 «صلى الله عليه وسلم: على أن تُخلُّوا بيننا وبين البيت فتطوف به. فقال
 «سُهَيْلٌ: والله لا نتحدث العرب أننا قد أخذنا ضُغطة، ولكن ذلك من
 «العام المقبل، فكتب - قال سُهَيْلٌ: وعلى أنه لا يأتيك من رجل»
 «وإن كان على دينك إلا ردَدته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله!»
 «كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فبينما هم كذلك، إذ جاء
 «أبو جندل يرسف في قيوده، وقد نرج من مكة حتى رمى بنفسه بين»
 «أظهَر المسلمين - فقال سُهَيْلٌ: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن
 «تردَّه إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد -»
 «قال: فوالله [إذا] لا أصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله
 «عليه وسلم: فأحره لي - قال: ما أنا بـمُجيزه لك - قال بلن فافعل -!

«قال : ما أنا بفاعِل . قال مِكَرَزُ بْنُ حَفِصٍ : بلى قد أجزأناه لك . قال :
 «أبو جندبٍ : أى معشرَ المسلمين : أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِماً؟
 «ألا ترونَ ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عَذَّبَ عَذَاباً شديداً فى الله تعالى .
 «قال عمرُ بن الخطَّابِ : فأتيتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت :
 «ألسْتُ نَبِيَّ اللهِ حقاً؟ قال بلى ! قلتُ : أَلَسْنَا على الحقِّ وعدُّونا على
 «الباطلِ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم تُعْطِ الدِّينِيَّةَ فى دِينِنَا إِذَا؟ قال : إني
 «رسولُ الله ولستُ أُعْصِيه وهو ناصِرِي» .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ فى حديث طَوِيلٍ^(١) . والذي أورده أصحابُ
 السِّيرِ أن الكاتبَ كان على بن أبى طالب ، وأن نُسخةَ الكتاب :

«هذا ما قاضى عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ مُهَيْلِ بنِ عمرو على وَضْعِ الحَرْبِ
 «عن الناسِ عَشْرَ سنينَ ، وأنه من أَحَبِّ أن يدخلَ فى عَقْدِ محمدٍ
 «وعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أَحَبِّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهِمْ
 «دخلَ فيه» .

وأشهد فى الكتابِ على الصَّالِحِ رجالاً من المسلمين والمُشْرِكين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من " إرشاد السارى " لقمصانلى ومنه كان

الطرف الثالث

(فما يجب على الكاتب من أتعائه في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكتبات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يحلّ له فكره، ويعمل فيه نظره، ويتوقر عليه توقراً يحكم بانيه، ويطلب معانيه .
والذي يلزم الكاتب في ذلك نوات :

النوع الأول

(ما يخص كتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان العقود عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما، أو مهادنة الكفار مطلقاً، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف، فلا حاجة للولاية المجاورين لم عقد الصلح معهم .
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقاتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أغلقت منهم، أو شرط لم على المسلمين

مأل من غير خوفٍ على المسلمين، أو شُرِطَ رَدُّ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ، فلا يَصِحُّ الْعَقْدُ مع شَيْءٍ من ذلك، بخلاف ما لو شُرِطَ رَدُّ الرِّجْلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ. قال الغزالي : وقد جرت العادة أن يقول : ^(١) على أن من جاءكم من المسلمين رَدَدْتُمُوهُ، ومن جاءنا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فإن كان في المسلمين ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جاز أَلْتَرَامُ الْمَسَائِلِ لَمْ دَقْعًا لِلشَّرِّ، كما يجوز فُكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ أَرْتَاعِهِ .

الرابع — أن لا تَزِيدَ مِدَّةُ الْمُحْدَنَةِ عن أربعة أشهر عند قُوَّةِ المسلمين وأَمْنِهِمْ، ولا يجوز أن تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ، وفيما دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحْمَهُمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ. أما إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا وَخَوْفٌ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَدَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح، وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك لِلصَّلَاحَةِ . فلو أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ ، وقيل : إن كانت في حال ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وإن كانت في حال الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلِ : وهو أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وقيل على الْأَكْثَرِ : وهو ما يَقَارِبُ السَّنَةَ . ولو صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَجُوزُ عَقْدُ الْمُحْدَنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حال الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حال الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُتَعَبَّرَةِ وَبَطَلَ فِي الزَّائِدِ . فإن أحتجَّ إلى الزيادة على الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرِ ثُمَّ عَشْرِ قَبْلَ تَقْضِيِ الْأَوَّلَى، قاله الْقَوَارِئِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذهب أصحاب مالك رحمهم الله إِلَى أَنَّ مُلْتَمَتَهَا غَيْرُ مُحْدَوْدَةٍ، بل يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى أَجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) يبايض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادكم على الخلع » .

النسوع الثاني

(ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يقصرها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوه مُعادياً، ومُسالمه مُسالمًا، ومحاربه مُحاربًا، ولا يُواطىء عليه عدوًا، ولا يوقع عليه صلحًا، ولا يُوافق على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سُؤال سائل، ولا يذلّ باذل، ولا رسالة مُراسل مما يخالف الاتفاق الجارى، والأخذ على يد من سعى في نقض الصلح ونكث العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى من أهل مملكتهم جاني كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالحناية .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومُتطرف نفوره، وشايع نواحيه — أيدي الداخلين في جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يهيجها جيشًا، ولا يحاول لها غزوًا، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مُقارعة، ولا يتناوهم بمكيئة ظاهرة ولا باطنة، ولا يُعاملهم بأذية جليّة ولا خفيفة، ولا يطلق لأحد من ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عناناً إلى شيء من ذلك يوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب، وأن لا يجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بجسك من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يخرج عن هوف جوازته من أحاطت به ربة الأثر، ويمكنهم من السير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعبادهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارية، دون كلفة ولا مشقة تلحقهم على إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه مالا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يسلم إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب أترابه أو استضافته من بلاد من يئادته من ملوك الكفر، وأن يبقى من بها من أهلها، ويخدم فيها بخدمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يبتس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلاً، وما يخطر في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، براً وبحراً بنوع من أنواع الأذى والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، والجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الجريئة التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المماقة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤخر شيئاً عن الوقت الذي ... (١)

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة المدة مدة قريبة منها يحتاج إلى التقي فيه، أن يعلمه بما يريد من مهذلة أو غيرها .

(١) يناض بالأصول وله « الذي اتفق عليه » .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا أفضى أمد الهدنة على أحد من الطاهتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط مالا يجعله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصونا، أو بلادا يسلمها من بلاده، أو مما يطلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاقي مما لا تحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكتاب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب قوانينها، وإحكام معاقبتها)

وذلك باعتاد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه . ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتي في أختائها براءة الاستهلاك : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن طاقته، أو بذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة، أو السلاطين المتهادنين، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح، وما يجري هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فَإِنْ كَانَتِ الْهُدْنَةُ مَعَ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَحْتَجُّ لِلْإِجَابَةِ إِلَيْهَا بِالْأَتْيَاءِ بِأَمْرِ الْقُرْآنِ وَالْإِجْتِهَادِ إِلَيْهِ، حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُطَاوَعَةِ عَلَى الصُّلْحِ وَالْإِجَابَةِ إِلَى السَّلَامِ بِقَوْلِهِ: «وَإِنْ جَعَلُوا السَّلَامَ فَأَجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». وما وردت به السُّنَّةُ مِنْ مَصَالِحِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرْبًا عَامَ الْحُدُودِ، وَذَكَرَ مَا سَمَحَ لَهُ مِنْ آيَاتِ الصُّلْحِ وَأَحَادِيثِهِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَفَّهِمْ عَنِ الْقِتَالِ وَفُوقًا عِنْدَ مَا حَذَّاهُمْ. وَأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَشَرَعُوا الْأَسِنَّةَ إِلَى خَالِفِهِمْ فِي الدِّينِ، وَرَكَّضُوا الْحِيَادَ إِلَى جِهَادٍ مِنْ يَدِهِمْ مِنَ الْمُلْحِدِينَ.

وَإِنْ كَانَ الصُّلْحُ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ أَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا». وَبِأَحَادِيثِ التَّحْذِيرِ مِنْ تَقَاتُلِ الْمُسْلِمِينَ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى.

وَمِنْهَا - أَنْ يَرَاعِيَ الْمَقَامَ فِي تَحْيِيلِ الْمَتَادِنِ أَوْ أَحَدَهُمَا بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ، وَوَصِفَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَلِيقُ بِهِ: مِنَ التَّعْظِيمِ، أَوِ التَّوَسُّطِ، أَوْ انْخِطَاطِ الرُّتَبَةِ بِحَسَبِ الْمَقَامِ، وَيَجْرِي عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فِي الشَّدَةِ وَاللَّيْنِ.

فَإِنْ كَانَتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ مُتَكَافَيْنِ سَوَى بَيْنَهُمَا فِي التَّعْظِيمِ، وَجَرَى بَيْنَهُمَا فِي الشَّدَةِ وَاللَّيْنِ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَسَنَ مِنَ الْآخَرِ، فَيَرَاعَى الْأَسَنُّ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَى الْحَدِيثِ مِنَ التَّأْدِيبِ مَعَهُ، وَيُرَاعَى لِلْحَدِيثِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَى الْكِبَرِ مِنَ الْحَنُونِ وَالشَّفَقَةِ.

وَإِنْ كَانَتِ الْهُدْنَةُ مِنْ قَوَى لَضَعِيفٍ، أَخَذَ فِي الْأَشْتِدَادِ، آتِيًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ الْكَلِمَةِ، وَأَنْيَاسِ الْقُدْرَةِ، وَحَصُولِ النُّصْرَةِ، وَاسْتِكْمَالِ الْمَدَدِ، وَظُهُورِ الْأَيْدِ،

ووفور الجُنْدِ، وقصور الملوك عن المطاوعة، وتعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يغلط في هذا السلك، لا سيما إذا كان القوى مُسَلِّماً والضعيف كافراً، فإنه يجب الأزدیاد من ذلك، وذكر ما للإسلام من الميزة، وما توالى له من النصرة؛ وذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضعیف لقوى، أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجلالة، ومساك القوة، خصوصاً إذا كان القوى المقود معه الهدنة كافراً . وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضى أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طبايع وضعف قوة، إذ الله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أن يحتفظ من سقط يدخل على الشريعة بقية، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يمر إلى سُلْطَانِهِ وَهِيصَةً، إن كانت بين مسلمين؛ ويحذر كل الحذر من خلل يتطرق إليه من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مُشْتَرَك أو معنى مُلْتَبِس يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السبيل إلى التأويل؛ وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، ولا تنترق إليه مناقضة، ولا يدخله تأويل .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استشارة الله تعالى وترويية النظر في ذلك وظهور الخيرية، ومشاورة قوى الرأي وأهل الجحى، وموافقتهم على ذلك .

ومنها - أن يبين مدة الهدنة . فقد تقدم أن الصحيح من منهج الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة .

قال في "التعريف" : وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحسب حسابها بالقمريّة . ويذكر كُريين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفى السنين الشمسية المهادئ عليها . أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك ، بل ربما قالوا : إن ذلك صار لازماً للأبد ، حتى في الولد وولد الولد .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين المملكين أنفسهم ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، ويستوفى ما يجب لكل قيم منها .

فإن كانت بين المملكين أنفسهم بغير واسطة بين ذلك ، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق ، والأيمان الصادرة من كل منهما ، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما ، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك .

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر ، بين ذلك ، وتعرض إلى المستند في ذلك : من حضور كتاب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبه ، وأنه وصل على يده أو يد غيره ، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه ، مختم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه . وتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بمجلس الحكم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانت بين نائبين ، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره . وتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه باختياره وطواعيته ، لا عن إكراه ولا إجبار ، ولا قهر ولا قلة ، بل لما رأى لنفسه ولتسنيته في ذلك من المصلحة والحفظ . وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً ، وترجم له بموثوق به ، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك .

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها : على الوفاء وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط ، أو الخروج عن شيء من الالتزامات ،

او مُحَاوَلَةِ التَّوْبِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ السَّغْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلِكَيْنِ، تَعَرَّضَ إِلَى تَحْلِيلِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيقِ بِذَلِكَ .

وَلِنْ كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ، حُلْفَ الْمَلِكِ كَمَا تَقْدَمُ، وَمُسْتَأْنَى صُورَةُ
الْحَلْفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمَدَنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ فِيمَا بَعْدُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَمِنْهَا - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرُ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَاذِنِ : مِنْ
السَّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي «التَّعْرِيفِ» : وَلَمْ يَحْدِثْ عَادَةً أَنْ يُحْسَبُوهَا مَدَّةَ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيُحَرَّرَ حِسَابُهَا بِالْقَمَرِيَّةِ، وَيَذْكُرَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَمَسَاعِلَ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةَ الْمُهَاذِنَ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَةِ التَّوَارِيخِ وَاسْتِخْرَاجِهَا .

وَمِنْهَا - أَنْ يَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ بِذَلِكَ، وَلَا بَأْسَ بِإثْبَاتِ ذَلِكَ .
وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّهُ يُشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُخَالَفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَاحَلَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرُبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسْخَةِ مُهَادَنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَنْبِهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ، مَشْهُوَلَةً بِخَطِّ الْكُتَّابِ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ،
أَوْ مُجْمَعًا إِلَيْهِ نُسْخَةُ يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَائِبُ
الْأَكْثَفَاءُ بِالرَّمْلِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثاني

في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات، ومذاهب
الكتاب في ذلك، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يستبدد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - ويُحَمَّدُ منه نُسخٌ بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نُسخٌ إلى ملوك الكُفَر)
ثم ما يكتب في ذلك على تَعمُّلين :

النمط الأول

(ما يكتب في طَرِفةِ الهُدْنَةِ من أعلى الدُرَج)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هنا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْنِيَ
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالَحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقدِ صُلْحٍ أنشأها يُنْسَجُ على مِنوَالِها ، وهى :

هذا عَقْدُ صُلْحٍ آتَتْظَمْتُ بِهِ عُقُودَ الْمَصَالِحِ ، وَأَتَسَقَّتْ بِوَاسِطَتِهِ سُبُلَ الْمَنَاجِحِ ؛
وَتَحَدَّثَ بِحُسْنِ مُقَدِّمَتِهِ الْغَادِي وَتَرَمَّ بِحُسْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّائِجُ . عَاقَدَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ فَلَانٌ
فَلَانًا الْقَائِمَ فِي عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ عَنْ مُرْسِلِهِ فَلَانٌ ، حَسَبَ مَا فَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الْوَاصِلِ عَلَى يَدِهِ ، الْمُؤَرَّخِ بِكَذَا وَكَذَا ، الْمُعْتَوَّنُ بِعُنْوَانِهِ ، الْمُخْتَوِّمُ بِطَابَعِهِ

المُتَعَارِفَ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصَ مَا يَقَعُ مِنَ الشَّرْطِ
الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَهْلَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : عَلَى مَا تُشْرَحُ فِيهِ .

النَّمَطُ الثَّانِي

(مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْمُهْدَنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(مَا تَكُونُ الْمُهْدَنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بِأَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ مَتَكَثِّبِينَ ، [فَيَتَعَاقَدَانِ إِمَّا عَلَى حِصْنٍ ^(١)] وَإِمَّا عَلَى مَالٍ يُعْطِيهِ
الْمَلِكُ الْمُعْقُودَةَ لَهُ الْمُهْدَنَةُ لِمَا قَدْ هَا ، كَمَا كَانَ يُكْتَبُ عَنْ صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ .
وَلِلْكَتَابِ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

المِزْهَبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ تُفْتَحَ الْمُهْدَنَةُ بِقِطْعَةٍ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أَوْ « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سَلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ
عَلَى نَحْوِ مَا تَقْدَمُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرِيقَةِ

وَعَلَى ذَلِكَ كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ
الْحُدَيْبِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقْدَمُ ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلِهِ مَشْرُوعِيَّتُهُ .

وَهَذِهِ نَسْخَةُ هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانِ قُرَيْشٍ ، الْمَلِكِ الْمُضْعُوفِ ، بِاشْتِرَاطِ مَالٍ
يَقُومُ بِهِ الْمُضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسْلَمُهَا لَهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فَلَانٌ - خَلَدَ اللَّهُ مُسْلِمَانَهُ
وَشَرَفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكُ فَلَانُ الْفُلَانِي . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدْتُ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ؛ وَأَمَلَهُ ، فَيُحْمَلُهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيَكُفَّ عَنْهُ أَسَلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْنَعَ ،
وَسَمَاءُ عَجَاجِهِ بِالْذَّمِّ إِلَّا أَنْ قَسَفَ ؛ فَرَأَى - مَسَدَ اللَّهِ أَرَأَهُ - أَنْ الصَّلَحُ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَزْجَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكَ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ
وَنَسْلَهُ ؛ وَبَجَمِيعِ بِلَادِهِ ، وَكُلِّ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ؛ وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ؛ وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَخُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي تَمَلُّكِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هَذِهِ مُلْكُهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوها ، مَدَّةُ
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى يَتِّ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِجَبَايَتِهِ مِنْ جَزِيَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَتَخْرِاجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَهْوَاسٍ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُجُوجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثِيفِ مُطَالَبَتِهِ ،
وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُعَالِيهِ .

عَلَى أَنْ يَكُفَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بَأْسًا ، وَخِيَلَهُ الْمُطْلَعُ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ؛ وَيَعُزُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤْمِنُهُ مِنْ بَطَائِنِهِمْ
وَسِرَاعِيهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَانِمَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِمَةِ لِدَوَائِقِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّضُهَا وَغَمَّنَ جَاوِرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدَى النَّهْبِ ،
وَيَكُفُّ الْغَسَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذَى ، وَيُرَدِّدُ مِنْ تَزَحٍّ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّرُ بِالْكَفَالَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ؛
وَيُؤَمِّنُ جَلَابَتَهُ هَذَا الْمَلِكُ وَجُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصِلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤْخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَطَبِيعُهُ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَمْنَعُ ذَلِكَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّم مُتَنَصِّر، ولا يَرْخِصَ لَذِي عَمَى مِنْهُمْ ولا مُتَنَصِّر.

وأنه كتب وردت إليه صكتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوابه، أو أحد [من المتعلقين^(١)] بأسبابه؛ يسارع إلى آتتاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله.

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت الدار، ولا يواطى على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولهم التتار^(٢)] وأن يلتزم ما يلزمه من المسكن بالمسكنه، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئسنة. وعليه أن ينهى ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل بيته، وينبه على سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه.

هذه هدية تم عليها الصنع إلى منتهى الأجل المعين فيه ما أستمك بشرطها، وقام بمقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به^(٣)]، وصرف إليها عتآن أجهتاده وبنى عليها قواعد وفائه، وصان من التكديف فيها مرائر صفايه؛ سأل هو في هذه الهدية المقررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحررة، وشهد به الحضور بالملكيتين وتضمنته هذه الهدية المسطرة؛ وباقة التوفيق.

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والملك الشامية، لمتلك سيس، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطى على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على المال

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨).

(٢) » » (ص ١٦٩) وما يأتي قريبا.

(٣) يعض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩).

أن ممتلك سيس كان يمالئ التآر ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضموف في مهادنة الملك القوى له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصائى، عن خصام الدولة، بن عضيد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديالى، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسى ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حبل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط أقرها، وحضون يسأها، على ما سأتى ذكره، وهى :

هذا كتاب من خصام الدولة، ونميس الملة، أبى كاليبجار، بن عضيد الدولة وتاج الملة أبى شجاع، بن ركن الدولة أبى على، مولى أمير المؤمنين، كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بشفارة أخينا وعنتنا، وصاحب جيشنا (أبى حرب ربار بن شهر اكونه) تأمل حالك فى تطاول حبسك، واعتياقك عن مراجعة بليك، وبذلت - متى أفرج عنك، وعلى طريقك، وأذن لك فى الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولئنا ولياً، ولعدونا عدواً، ولإسائنا سائماً، ولحربنا حرباً : من جميع الناس كلهم على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجاليهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا نضالج لنا صداً مبانياً، ولا نواطئ علينا عدواً مخالفاً، وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التى فى أيدينا وأيدي الداخلين فى طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشاً، ولا نحاول ما غزوا، ولا تبدأ أهلها بمنازعة، ولا نشرع لهم فى مقارعة، ولا نداولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا نقابلهم بأذى جلية ولا خفية؛ ولا نطابق لأحد من

ينوبُ علك في قيادة جيوشك، ومن يُنسبُ إلى جملتك، ويتصرف على إرادتك -
الاجترأ على شيء من ذلك على الوجوه والأسباب كلها؛ وأن تُفرجَ عن جميع
المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في مجازير الروم، ممن أحاطت بعتقه ربةُ الأسم،
واشتملت عليه قبضةُ الحصر والقصر، في قديم الأيام وحديثها، وبعيد الأوقات
وقريبها؛ المقيمين على أديانهم، والمختارين للعود إلى أوطانهم؛ وتبصيرهم بما
يُنهضُ به أمثالهم، وتمكّنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحريمهم وأولادهم وبياتلهم
وأنبايعهم، وأصناف أموالهم، مؤفوريين مضموين، متبدرين محروسين، غير
ممنوعين، ولا معوقين، ولا مطالبين بمثوبة ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة.

وأن تُسلمَ سبعة سبعة من الحصون، وهي: حصن أرحكاه المعروف بحصن
المندرس، وحصن السانسة، وحصن حبيب، وحصن اكل، وحصن انديب،
وحصن حالي، وحصن تل حرم، برساتيقها ومزارعها إلى من نُكاتيك بتسليمها إليه،
مع من بها من طبقات أهلها أجمعين، المختارين لسكناها والاستقرار فيها، بحريمهم
وأولادهم وأشباههم ومواشيهم وأصناف أموالهم وغلالتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم،
ليكونَ جميعها حاصلاً في أيدينا وأيدي المسلمين، على غابر الأيام والسنين، من غير
أن تلمسَ عنها أو عن شيء منها مالا، ولا بدلاً، ولا عوضاً من الأعواض كلها.

وعلى أنك تُمضي ما عقدته على نفسك من ذلك كله باباً باباً، وتفي به أولاً أولاً،
مُنذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك، وإلى غاية استيلائك عليها، وفنّادِ أمرك
فيها؛ ولا ترجعَ عن ذلك ولا عن بعضه، ولا تؤخر شيئاً منه عن الوقت الذي تقدر
فيه عليه، ولا تُرخصَ لنفسك في تجاوز له ولا عدول عنه. ومتى سعت طائفة من
الطوائف التي تُنسبُ إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمر يخالف شرائط هذا الكتاب،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم ومقاتلتهم إن كانوا من أهل العناد عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ، وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوفيقه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من قصصته بجلتك ، واشتملت عليه رقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع أعمالنا حتى تنفد عنها إلى ما ورامها ، غير معوق ، ولا معتقل ، ولا مؤذى ، ولا مريض ، ولا مطالب بثبوت ولا كلفة ، ولا تمنوع من أتياع زائد ولا آلة ، ولا تؤثر عليك أحدًا نأواك في أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه وناصبك العداوة فيه : ممن ينسب إلى الروم والأرمن والخرزيرة وسائر الأمم المضادة لك ، ولا نوقع معه صلحًا عليك ، ولا موافقة على ما يهود بتلك أو قدح في أمرك ، ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بقل باذل ، ولا رسالة مرسل فيما خالف شرائط هذا الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إعلال وثيقته من وثاقبه .

ومنى وقد إلينا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغبًا إلينا في شيء يخالف ما أنقده بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى مئتمسه ، ورددناه خائبًا خاليًا من طليته . وإذا سلمت الحصون المقام ذكرها إلى من نكثك بالتسليم إليه ، كان لك علينا أن نقرر من فيها وفي رسايقها على نعمهم ومنازليهم وضياعهم وملأكمهم ، وأن لا نزيهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا نحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع أموالهم ، وأن نجريهم في المعاملات والجبايات على رؤسومهم الجارية الماضية التي عوملوا عليها ، على مر السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير قسح ولا تشديد ولا نقض ولا تبديل .

فَأْتَيْنَا إِلَى مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ مَا سَأَلَتْ وَأَتَمَسَتْ، وَصَمَّيْنَتْ وَشَرَطَتْ
وَأَشْتَرَطَتْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَسْتَأْذَنَاهُ فِي قَبُولِهِ مِنْكَ، وَإِقَاعِ الْمُعَاهِدَةِ عَلَيْهِ مِنْكَ،
فَأَذِنَ - أَدَامَ اللَّهُ تَحِيَّكُمَا - لَنَا فِيهِ، وَآخَرَنَا بِأَنْ تُحْكِمَهُ وَتُخْضِعَهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ أَنْتِظَامِ
الْأُمُورِ، وَحَيَاةِ الثُّغُورِ، وَصَلَاحِ الْمَسَالِمِينَ، وَالتَّنْفِيسِ عَنِ الْمَأْسُورِينَ .

فَأَمَضَيْنَاهُ عَلَى شَرَائِطِهِ، وَتَرَاضَيْنَا جَمِيعًا بِهِ، وَعَاقَدْنَاكَ عَلَيْهِ، وَحَلَفْتَ لَنَا بِالْإِيمَانِ بِالْمُؤَكَّدَةِ
الَّتِي يَحْلِفُ أَهْلُ شِرْعَتِكَ بِهَا، وَتَعْرِجُونَ مِنَ الْحَنْثِ فِيهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ، وَأَشْهَدُنَا عَلَى
قُوسِنَا، وَأَشْهَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَمَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنْبِيََاءَهُ الْمُرْسَلِينَ،
وَأَخَانَا وَصَدَقَاتِنَا بِأَنْ حَرَبَ رَارَ بْنَ شَهْرٍ كَوَيْهَ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ
الَّذِي جَرَى فِيهِ ذَلِكَ، بِاسْتِقْرَارِ جَمِيعِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَلَزُومِهِ لَنَا وَلَكَ .

ثُمَّ حَضَرَ بَعْدَ تَمَامِ هَذِهِ الْمَوَاقِفَةِ وَاسْتِقْرَارِهَا، وَثُبُوتِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا، قُسْطَنْطِينُ
أَبْنُ بَيْنِيرٍ أَخُو وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ، وَأَرْمَانُوسُ بْنُ وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ، فَوَقَّعَا عَلَى هَذَا
الْكِتَابِ، وَأَحَاطَا بِهِ عِلْمًا، وَأَسْتَوْعَبَاهُ مَعْرِفَةً، وَشَهِدَا عَلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ مَلِكِ الرُّومِ
بِإِقْرَارِهِ بِهِ، وَالْإِتْرَامَةِ إِيَّاهُ . ثُمَّ تَبَرَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْ أُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ تُشَكَّ
بِهِ وَالْمَقَامَ عَلَيْهِ مَتَى قَامَ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ فِيهَا هُوَ مُوسَمٌ بِهِ مِنْ مَلِكِ الرُّومِ، وَجَمَلَ
بِجَمِيعِ الشَّرَاطِطِ النَّاتِيَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَعْقُودِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ أَمَانَةً فِي ذِمَّتِهِ، وَطَوَقًا
فِي عَقْدِهِ، وَعَهْدًا يُسْأَلُ عَنْهُ، وَحَقًّا يُطَالَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِهِ، وَصَارَ هَذَا السَّقْدُ
جَامِعًا لَهُمْ وَلَنَا، وَلِأَوْلَادِنَا وَأَوْلَادِهِمْ، وَعَقِيدًا وَحَقِيقَةً، مَا عَشْنَا وَطَاشْنَا، يَلْزَمُنَا
وَلِإِتْرَامِهِ الْوَفَاءُ بِمَا فِيهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَلَنَا وَلَهُمْ، عَلَى مُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَآخْتِلَافِ
الْأَفْوَارِ وَالْأَنْعَامِ .

أَمَضَى وَأَنْعَدَ تَحْمِصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِيَجَارِ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى شَرَائِطِهِ
وَحُدُودِهِ، وَالْإِتْرَامَةِ وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ الْمَعْرُوفِ بِسَفْلَارُوسَ مَلِكِ الرُّومِ، وَأَخُوهُ

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وَصَحْنُوا الْوَقَّاهَ به ، وأشهدوا كلَّ واحدٍ منهم على نَفْسِهِم بِالرَّضَا به ، طَائِعِينَ غَيْرِ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِلَّةَ بِهِمْ مِنْ مَرَضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بعد أن قرأه عليهم ، وفسره لهم وساطبهم باللغة الرومية من وَثَقَ به ، وَفَهَمُوا عَنْهُ ، وَفَقَهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وأحاطوا عِلْمًا وَهَرَفَةً به ، بعد أن ملكوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا على اختيارهم ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِيثارهم ، وَرَأَوْا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَقًّا لَهُمْ ، وَصَلَاحًا لِنَانِهِمْ ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين وثلثائة .

وقد كُتِبَ هذا الْكِتَابُ على ثلاث نُسَخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِدت اثنتان منها بدواوين مَدِينَةِ السَّلام ، وسَلِمَتِ الثَّالِثَةُ إِلَى وردس بن بينير مَلِكِ الرُّومِ وأخيه وأبنيه الْمَذْكُورِينَ معه فِيهِ .



وهذه نُسْخَةٌ هُنْدِيَّةٌ مِنْ مَلِكٍ مُضَعُوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كُتِبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ (١١) أَحَدِ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمُهَدِّيِّ بْنِ تُوْمَرْتَ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مع « دُونِ فِرَاندِه » صَاحِبِ قَسْتَالَةِ مِنْ مُلُوكِ الْقَرْنِجِ بِمَقْدِ الصُّلْعِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْتِشَادِهِ ، وَأَسْتَعَانَتِهِ وَأَسْتِجْنَاهُ ، نِيَابَةً عَنْ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادِنَا إِلَى أَوَامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَأَرْشَادِهَا الْمَسَادِيَةِ . عَقْدُنَا - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَسْتَالَةِ مَعَ فُلَانٍ ثَانِيٍّ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مَرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمَجْلِيِّ « دُونِ فِرَاندِه » مَلِكِ قَسْتَالَةِ ، وَطَلِيطَلَةَ ، وَفَرْطُبَةَ ، وَلِيُونِ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَحْتَوٍ بِطَائِفَةِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَقْوِيضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعَقَّدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَهَذَا عَقْدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورَ لِمَا بَيْنَ اثْنَيْنِ ، أَوَّلُهَا شَهْرُ الْحَرَمِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ سَنَةِ
تَارِيخِ هَذَا الْكِتَابِ ، الْمَوَافِقُ مِنَ الْأَشْهُرِ الْعَجَبِيَّةِ نَهْرُ كَذَا ، عَلَى جَمِيعِ مَا مَنَعَتْ نَظَرَنَا
الْآنَ مِنَ الْبِلَادِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الدَّعْوَةِ الْمُهْدِيَّةِ - أَسْمَاها اللهُ تَعَالَى - حَوَاضِرُهَا
وَتُفُورِهَا ، وَوَسِيطُهَا وَأَطْرَافُهَا ، مِنْ جَزِيرَةِ شَقَرٍ إِلَى بَيْتَةِ الْمَنْصُورَةِ وَمَا إِلَيْهَا
- حَرَسَ اللهُ جَمِيعَهَا - سَلَامًا عَاقِلًا عَلَيْهَا مِنَ الْجَهَنِّينِ ، عَفْوَطًا عَهْدُهَا عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةَيْنِ ،
لَا تَقْدِرُ فِيهَا ، هَمُولا إِخْلَافًا فِي مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا ، وَلَا تَنْشُرُ فِي مُنْتَهَا غَارِهِ ، وَلَا تُدْعَرُ
مَسِيرَهِ ، وَمَهْمَا وَقَعَ اغْوَارُ ، أَوْ حَدَثَ اقْدَارُ ، عَلَى جِهَةِ الْمَجَاهِرَةِ ، إِذَا أَتَصَلَّتْ
وَالْمُسَاتَرَةِ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ جِهَةِ النَّصَارَى ، فَعَلَى مَلِكِ قَسْطَلَةِ تَسْرِيعِ الْأُمَارَى ، وَرَدَّ
الْفَتَانِ وَالنَّهْبِ ، وَالْإِنْصَافُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ إِنْ عُدِمَتِ الْعَيْنُ ، وَأَعُوذُ الطَّلَبِ . وَعَلَيْنَا
مِثْلُ ذَلِكَ سُوءًا ، لِيَقَابِلَ بِالْوَقَاءِ ؛ هَذَا بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ الْأَمْرُ وَيُعْلَمَ مَنْ أَيْنَ كَانَ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ أَنْ لَا يُتَسَبَّبَ إِلَى الْمُحْصُونِ بِالْقَدْرِ وَلَا بِالنَّشْرِ ، وَلَا يَتَحَاوَزَ
النَّصَارَى حُدُودَ بِلَادِهِمْ وَأَرْضِهِمْ بِتَنِيٍّ مِنَ الْبِنَاءِ ، وَلَا يَصِلَ مِنْ بَلَدٍ قَسْطَلَةَ مَدَدٍ
لِخُفَايِنَا ، وَلَا مَعُونَةٍ لِمُفَاتِنَا . وَكُلُّ مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي الْعَامَّةِ
مِنْ الْبِلَادِ بَعْدَ هَذَا الْعَقْدِ فِدَايَ خُلٍّ فِي السَّلْمِ ، بِزِيَادَةِ نِسْبَتِهِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي دَوَّشَرُطُ
فِي صِحَّةِ هَذَا الْحُكْمِ . وَإِذَا بَقِيَ مِنْ مُدَّةِ هَذِهِ الْمَسَالَةِ شَهْرَانِ اثْنَيْنِ ، فَعَلَى مَلِكِ قَسْطَلَةِ
أَنْ يُعْلِنَ بِفَرَضِهِ فِي الْمَهَادَنَةِ أَوْ سِوَاهَا ، إِعْلَامًا مِنْ مَنَادِبِ الْوَقَاءِ أَوْ نَاهَا .

وَقَدْ أَتَرَمَ رَسُولُ الْمَذْكُورِ لِمَا هَذِهِ الشَّرُوطُ ، وَأَحْكَمَ مَعَنَا - نِيَابَةً عَنْهُ فَيَا -
الْعُقُودَ وَالرُّبُوطَ ، عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَأَلْتَرَمْنَا فِي هَذَا السَّلْمِ الْمَلِكِ قَسْطَلَةَ الْمَذْكُورَةِ
- مَكَافَأَةً عَنْ وِفَاءِ عَهْدِهِ ، وَصِحَّةِ عَقْدِهِ - مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ
فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ عَاتِقِ هَذَا الصُّلْحِ الْمَقْدَمِ الْوَصْفِ ، مَقْسَمًا ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْنَمِ

في العام، ليتقاضاها ببقائه، ويوفى عينا على التمام والكل، قبض منها كذا ليوصلها إلى مرسله، وألتم له تخليص باقي كذا عند آقضاء كذا على أوفى وجه وأمله؛ فإن وقي له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقتة، فالسلم باقية وحكمها ثابت، وإلا فالسلم مفسوخة ولا حكم لها إن عجز عن الوفاء له، بحصول ما أتى من الشروط في أيسر أصحاب الحكم وأتصل للعمل، إن شاء الله تعالى.

وَعَلَى مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْكِتَابُ أَصْحَىٰ فَلَانُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ ، عَنْ الْأَمْرِ
الْعَالِيِّ - أَسْمَاءُ اللَّهِ - هَذَا الْعَقْدُ الصُّلْحِيُّ ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَةِ الْمَعْلُومِ
طُورِ (؟) الْمَذْكُورِ ، فَنُجِزُ لَهُ الْكِتَابَ وَيُسَلِّتُ لَهُ مَعَانِيَهُ ، وَنُقَرِّرُ عَلَى مَضَامِينِهِ ، فَالْتَزِمَ
ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْ مُرْسِلِهِ مَلِكٍ قُتِلَ قِتْلَةً حَسَبَ مَا نَفُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ،
فِي صَحِيحِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْإِخْلَاقِ فِيمَا
قَضَاهُ ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامِ .

المذهب الثاني

(أَنْ تُنْشِئَ الْمُهَادَنَةَ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بِعَدِّيَّةٍ)

وهذه نسخة هدية بين ملكين متكافئين دون تفرق شيء من الجانبين، كتب بها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الأندلس، في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الأندلس، وهي :

وبعد، فهذا كتاب مُؤَدَّعة أُنْضِيَ عَقْدُهَا وَالْتَزَمَ، وَأُثِمَ عَهْدُهَا وَعَمَهُ، فَلَا تُلْغِي
لِلْمَلِكِ أَرْغُونْ، وَقَوْمُ بَرْجُلُونَةَ، وَرِئَسِبَ مَقْتِ بَشَلِي، حَافِظَةُ (٤) بِنْ يَهْطَرَةَ، بِنْ أَدْفُونَشْ،
أَبْنِ بِيْمُونْدَ، أَدَامَ اللّٰهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتَمًا وَعَتَوَانًا، الْمَعْهُودُ صِدْقُهُ فِي أَمْثَالِهَا
مِنَ الْمَرَاوِضِ الصَّالِحَةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه ، والتفويض في إبرام أسبابها واكترام قصورها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب تضييع النظر ، وصريح الرأي المعتبر ؛ مقاربة فيه ، ووافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويوفيهم ، جنوحاً منه إلى ما جئح إليه من ذلك متقاضيه ، وتحريراً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه ، بعد محاولات بلغ منها النظر غايته من الاجتهاد ، وإراغات قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم معهود التسديد والإيجاد ؛ فاجلئ ذلك عن امضاء عهد السلم للملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط ، وتوفوراً وبساط ، وكذلك شاطبة ودانيه ، وما ينظم معها من اغوازيها ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة الثانية والدانية ؛ لمدة عامين اثنين ، شمسين متصلين ، وأيام متصلة بهما كذلك . وهذا يحضر أمره ، ويحقق عده ؛ أن نفتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نور ، الموافق لعاشير ذي القعدة المورخ به هذا الكتاب ، الذى هو من عام أحد وعشرين وسمائة بتاريخ الهجرة - مسالمة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها ، وعهد للهدنة بين الطائفتين آثارها ، وترفع الابنة (؟) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها ؛ البر والبحر في ذلك بيان ، والمساترة فيها بالأذى والمجاهرة ممنودان ، وحققة اللازم من ذلك غنى ببيانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان ؛ لا كلباس ولا إشكال ، ولا غائلة ولا أحبال ؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تستعمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين ، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين . وكل متهم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الانقياء ، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء ؛ فهو في هذا الحكم داخل ، وتحت هذا الريط الصلحي واصل ؛ ولا محجة لمن كان له منهم حصن ينفرد به عن هذه المملكة ، على ما لم من ذلك من العوائد المتعارفة . فإن نقص بجزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما أختار، إذا تنكَّب الإضرار؛ فإن رام التطرُّق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون النظارُ على استنزائه، والتظاهرُ على قتاله، حتى يكفُّوا ضرره، ويعقُّوا أثره.

والحدودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، على ما عُرِف من مُتقدِّم المسالمات؛ ويدكُلُ فريقٍ منهم مُطلقةً فيما وراءَ حدِّه بما شاء، من إنشاءِ برسم الإصلاح والانشاء، وكلٌّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونيةَ بريئاً من تبعَةِ الفسادِ فقبُولُ قصيدهِ مُباح، وليس في استخدايمه والإحسانِ إليه جناح؛ والطريقُ للتجارِ المهودِ وُصولُهم من بلاد أرغون إلى بلنسية في البرِّ والبحرِ مُباحةُ الاقتباب، مخفوفةٌ بالأمنَةِ التامةِ في الجنيَّةِ والدَّهاب؛ وعلى تُجارِ البحرِ منهم أن يتجنَّبوا رُكوبَ الأجفانِ الحَرِيَّةِ التي يُمكنُ بها الإضرار، ويستغني عن^(١) التُّجارِ والاستيعابِ مرفوعٍ عن هؤلاءِ الواصلين برسمِ التجارةِ على اختلافهم، وتباينِ أصنافهم؛ فيما لم تجنِّه أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعدِّيهم؛ وكلُّ مُعتقلٍ من الطائفتين بأذى شيءٍ يطرَّق إلى حُكمِ هذه السُّلمِ خلافاً، أو يلحقُ بعهدها إخلافاً؛ فعلى أهلِ موضعه الإنصافُ من جنَّاه، وصرفُ ماسلَبته يَدَاهُ، وإحضاره مع ذلك ليعاقبَ بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ باسترسال، إلى الإنصافِ من جنابةِ حال؛ بل يقومُ بفتحِ ذلك حيثُ يحبُّ، ويطلبُه في الموضعِ الذي ينبغي فيه الطلبُ، حتى يخاطبَ الناظرُ على المملكة التي تُسبِتُ إليها هذه الإذابة، وصدرتُ عن أهلها [هلك] الحنايه؛ يطلبُ الإنصافُ من عدوانها، وتعادُ عليه الأعذارُ في شأنها؛ وعليه - ولا بُدَّ - التخليصُ منها عملاً بالوفاء الذي يَجِبُ العملُ به، وقياماً بحقِّ العهد الذي أُكِّدَ الاختلاقُ بسببه؛ ومتى غادر مفاديرُ من أحدِ المتينِ حصناً من حصون

(١) يباض بالأمول ولطه « عن رُكوبها ».

الأخرى فله الأمن على الكمال، والرعى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بأمنه، ويعود سائلاً إلى وطنه .

فعل هذه الشروط المحققه، والربوط الموثقه، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سُمي من أهل الملتين؛ وألزم كله عن ملك أرغون النائب عنه بتقويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعم بطره ابن مدافع بكدرش(?) على أم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوتى علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بُيئت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذى تولى النيابة عنه فى هذا العقد، مصرحاً بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذى أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً له، وتوثيقاً لميثابه، إن شاء الله تعالى .

النوع الثانى

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة من الجانبين جميعاً)

وفىها للكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتتح الهدنة بلفظ : «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال فى «التعريف» : وسيل الكتاب فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجل ينتهى إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحسبت به مواد

الآمال الطامع ، ناكثت بينهما أسبابها ، فوُضِعَتْ بهما أبوابها ، وعليهما عهدُ الله على الوفاء بشرطها ، والالتزام إلى أمدها ، ومدَّ حبلُ المودعة إلى آخر مُدِّدها ، ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدَّة ، وهي مدَّة كذا وكذا ، على أن كل واحد منهما يُنمِدُ بينه وبين صاحبه سيفَ الحرب ، ويَكُفُّ ما بينهما من السَّهام الراسقة ، وتُمَقِّلُ الرَّماحَ الخطَّارة ، وتَهْرُ على مرابطها الخليلُ المغيرة . وبلادُ السلطان فلان كذا وكذا ، وبلادُ السلطان فلان كذا وكذا ، وما في بلاد كلِّ منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرسانيق والجهات والأعمال : برًّا وبحرًا ، ومَهَلًا وجبَلًا ، ونائبًا ودانيًا ، ومن فيها : من مَلِكِها المسمَّى وبنيهِ وأهلِهِ وأموالِهِ ، وجُنْدِهِ وعساكرِهِ ، وخاصٍّ من يتعلَّقُ به وسائرِهِ ، ورداياهُ على اختلاف أنواعهِمْ ، وعلى أنفِرادِهِمْ وأجتماعِهِمْ ، البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتَّجَّار والسَّقَّارة ، وجميع المتردِّدين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا وعلى فلان ^(١) كذا [وبعين ما يعين] : من ما ، أو بلاد ، أو مساعدة في حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقِّه المقرر بواجبه ، وعليهما الوفاء المؤكَّد الموثيق ، والمحافظة على العهد والتَّمسُّك بسببِهِ الوثيق - هدنةً صحيحةً صريحةً ، نطقًا بها ، وتصادقًا عليها ، وعلى ما تَضَمَّنَتْهُ المواصفة [المستوعبة] بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بضمونها ، وتواتقا على ذبونها ، وتهد من حَضَرَ مقام كلِّ منهما على هذه الهدنة وما تَضَمَّنَتْهُ من المواصفة ^(١) ، وجرى بينهما على حُكْمِ المُناصفة ، رأيا فيها سُكُونُ الدِّمَاح ، وَدَحْصُ طَرْفِ الطَّلَاح .

وعلى أن على كلِّ منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرقبة ، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعيَّة ، ومن تزح من أخذى المملكتين إلى الأخرى أُعِيدَ ، وما أُخِذَ منها باليد الفاصبة أَسْتُعِيدَ ، وبهذا تمَّ الإشهاد ، وقُرى على المسمع على رؤوس الأئمة .

(١) الزيادة من "الترغيف" ص ١٧٠ .

المذهب الثاني

(أن تفتتح الهدنة : بلفظ : « استقرت الهدنة بين فلان وفلان »

ويقدم فيه ذكر الملك المسلم)

وعلى ذلك كانت الهدنة تكتب بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ، المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هدنة على هذا النمط : دون تحرير من الجانبين ، كتبت بين الملك الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاسبتار^(١) بمحضن الأكراد والمرقب ، في رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وستمائة ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح « بيبرس » الصالحى النجوى ، وبين المقدم الكبير الهام فلان مقدم بيت الاسبتار الفلانى بكًا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاسبتار ، لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وستمائة وتسعة وسبعين سنة

للاستكندر بن فيليس اليونانى - على أن جميع المملكة الخمسية والشيرزية والحموية وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ، وقراها وضياعها ، وسبلها وجبلها ، وعاصرها وغازمها ، ومنزوعها ومعطائها ، وطرقاتها ومياها ، وقلاعها

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) يخاض بالأصول .

وحُصُونُهَا - عَلَى مَا يُقْصَلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُتْرَحُ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّهْرِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقر بمملكة حصص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتقرَّب إلى الحد المعروف من القرب لبلد المناصقات : دأمرًا ودأثرًا، وبما فيها من الغلات صيفًا وشتوًا، والمداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح «بيبرس»، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن كلًّا من الجهتين يتعهد ويحرص في عمارة بلد المناصقات المذكورة بهذه وطاقتها، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو الفئدة - كان عليهم العدا بكارى العادة . ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن الملك الظاهر يفي بلد المناصقات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، ومن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاسيتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه المدينة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغربًا لرعي دوابه : سواء أقام أو لم يقيم، كان عليه العدا سوى قناة البند ودوابه، ومن يخرج من مدينة حصص ويعود إليها، ومن غرَّب منهم ومات كان عليه العدا .

وعلى أن يكون أمر فلاحين بلد المناصقات في الحبس والإطلاق والحماية راجعًا إلى نائب مولانا السلطان، باتفاق من نائب بيت الاسيتار، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلمًا، وإن كان نصرانيًا يحكم فيه بمقتضى دولة حصص الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونَ الساكنونَ في بلادِ المناصِفاتِ جميعها مُطْلَقِينَ من السُّخْرِ من
الجانين .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصِفاتِ المذكورةِ : من تُركانٍ ولا عَرَبٍ
ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوقِ بَلَدِ المناصِفاتِ ، إلا وَيَكُونُ النِّصْفُ
منه لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ ، والنِّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسْتِيارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يَتَقَسَّمُ بِنِعْ أَحَدٍ من الفَلّاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ
المناصِفاتِ من الرُّجُوعِ إليها ، والسُّكْنَى فيها إِذَا أَخْتَارُوا العَوْدَ . وكذلك يَبْتَ الأَسْتِيارِ
لا يَمْنَعُونَ أَحَدًا من الفَلّاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفاتِ من الرُّجُوعِ إليها
والسُّكْنَى فيها إِذَا أَخْتَارُوا العَوْدَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يَمْنَعُ أَحَدًا من المُرابِّينَ والتُّركانِ وغيرِهِمْ : مِمَّنْ يُؤَدِّي
العِدَادَ ، من الدُّخُولِ إلى بَلَدِ المناصِفاتِ ، إِلا أن يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَنَجِ الداخليينَ
في هذه المَدِينَةِ ، فله المَنعُ من ذلك . وأن تَكُونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَاهِرِ وَخُشَارَاتُ
عساکِرِهِ وَغُلَامَتُهُمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرَعَى في بلدِ المناصِفاتِ آمِنَةً من الفَرَنَجِ والنَّصَارَى
كَأَفَّةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْتِيارِ وَخُشَارَاتُ عَسْكَرِهِمْ وَغُلَامَتِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ
تَرَعَى آمِنَةً من المسلمينَ كَأَفَّةً في بَلَدِ المناصِفاتِ . وعند خروجِ الخُشَارَاتِ من المَرَاغَى
وَتَسْلِيْمِهَا لِمُصْحَبِهَا ، لا يُؤْخَذُ فيها حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ من الجهتين .

وعلى أن تَكُونَ مُضْبِدَةُ السَّمَكِ الرُّومِيَّةُ مِمَّا تَحْصَلُ مِنْهَا ، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ
لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتِيارِ . وكذلك المَصَايدُ الَّتِي في الشَّطِّ القَرْبَى من
العاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتِيارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ
الأَسْتِيارِ في كُلِّ سَنَةٍ نَحْمُسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عن القَشِّ ، وَيَكُونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ
الظَاهِرِ بِتَعَرُّفِ تَوَابِهِ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللَّيْثُوفَرُ مَنَاصِفَةً : النِّصْفُ

منه لَلِلك الظاهر والتَّصِفُ لَبَيْتِ الاسْتِيار . وتقرَّر أن الطاحونَ المستجِدَّ المعروف بإنشاء بَيْتِ الاسْتِيار، الذي كان حصل الحَرْب فيه، والبُستانَ الذي هناك المعروف بإنشاء بَيْتِ الاسْتِيار أيضا يكون مناصفة . وأن يكونَ متولَّى أمرِهما نائبٌ من جِهَةِ نوابِ السلطان ونائبٌ من جِهَةِ بَيْتِ الاسْتِيار ، يتوليان أمرَهما والتَّصَرُّفَ فيهما وقَبْضَ مُحصَلِهما . وتقرَّر أنَّ مَهما يمدُّهُ بَيْتُ الاسْتِيار على الماء الذي تُدَوِّره الطاحونُ ويسقى البُستانَ من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مُناصَفةً بين المَلِكِ الظاهر وبين بَيْتِ الاسْتِيار .

وأما المستقرُّ بِمَلَكَةِ شِيزَ المحروسة ، فهي شِيزُ ، وأبو قَيْس وأعماله ، وعِيَّابُ وأعمالُها ، ونِصْفُ زاوية بَراسِ المعروفة بِحماية بَيْتِ الاسْتِيار وأعمالُها ، وجميعُ أعمالِ المَلَكَةِ الكُسرِيَّةِ والبلادِ المذكورة بِجُدودِها المعروفةِ بها ، وقراها المُستقرَّةِ بها ، وسَبلِها وجبَلِها وطَمرِها وغَيرِها .

وما استقرَّ بِمَلَكَةِ المَلِكِ المَنصورِ ، ناصرِ الدِّين «محمد» بنِ المَلِكِ المظفَّرِ أبي الفتح «محمود» بنِ المَلِكِ المَنصورِ «محمد» بنِ عمر بنِ شاهنشاه بنِ أيوب فهي : حَمَّةُ المحروسةُ وفِلاعُها ومُدُنُها ، والمَعَرَّةُ وقراها وسَبلِها وجبَلِها وأنهارُها ، ومَنايِعُها وبُمارِها وعَاصِرُها وغَيرُها ، وبلادُ رُقيَّةِ وبلادُ بارِينَ بِجُدودِها وبُحُومِها وعَاصِرِها وذَائرِها وجميعِ من فيها وما فيها — على أن المَلِكِ المَنصورَ لا يرَخَّصُ للتركان ولا للربِّ أن ينزلوا بِلدَ رُقيَّةِ وبارِينَ سِوَى ثلاثين بَيتًا يحملون الفِلسَةَ لِقَلعةِ بارِينَ ، وإن أرادوا الزيادةَ يكونُ بِمراجعةِ الإخوةِ الاسْتِياريةِ والاتِّفاقِ معهم على ذلك .

وعلى أَنَّهُ إن تَمَدَّى أحدُ من أصحابه بِأَذِيَّةٍ ، أو تَمَدَّى أحدُ من الفَرَجَةِ في بِلادِهِ بِأَذِيَّةٍ ، كانت المُهلَةُ في ذلك تَمَسَّةَ عَشْرِ يَوماً ؛ فإنْ أنكَشَفَتِ الأَخِيضَةُ ،

أعبدت . وإلا تخلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ، كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصالحين : نجيم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نائبى الدعوة المباركة ، وولد الصاحب رضى الدين ، وهى : مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعورها ودامرها ودايرها ، ومدينها وبلادها ، وضياها وطرقاتها ، ومياها ومتابرها ، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبل بئرا واللكام ، وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة ونحوها - أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذى يمتد إلى نهاية الأراضى التى يحصونها الدعوة وبلادها . وحماية القرية المعروفة بمرطار (؟) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الاستبارة لأذية ، أعلموا بيت الاستبارة قبل أن تجرى أذية ، وما لم يعلموا به عليهم الإيمان أنهم ما علموا به ، وإن لم يحلفوا ردوا الأذية التى تجرى .

وتحذر أن يكون فلاحو بيت الاستبارة راضعين وغادين ومتصرفين فى بيعهم وشراهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاستبارة ، وإن تعدى أحد من الجهتين فى سوق أو طريق ، فى ليل أو نهار ، تكون المهلة خمسة عشر يوما ، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الأخير بينهم ، ومن توجهت عليه الإيمان حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبدالمسيح رئيس المرقب الاستبارة ، وهى المشقة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويحل الأمر فى الحقيق .

ويطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع مآلئ الاستبصار على حماية مضايقات والأصافه، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونحسون مئدا حنطة، ونحسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستبار ولا نوابهم ولا علمائهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالملكة الجنيصة، يستزق بها الصعاليك . وأن تواب الملك الظاهر يمحونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن تواب بيت الاستبار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصاري والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستبارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع القرى من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بمحذوها الجارية في يد نواب الاستبار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد من يجب عليه العداة وأمتنع من ذلك، وكان عداة إحدى الجهتين حاضرا : إما عداة ديوان الملك الظاهر، وإما عداة بيت الاستبار، فلنائب العداة الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداة أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداة، بحضور رئيس رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس ودية إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداة .

وإن خرج أحد من يجب عليه العداة، ونجى النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التواب لإصالح بيت الاستبار إلى حقه

مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستبارة، كان عليهم أن يوصلوا إلى ثواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمينين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميم السلطان وتوابعه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين . ويحميم بيت الاستبارة في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاھديه ، وبلاد المناصفت ، وخاص بيت الاستبارة والمناصفت ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمينين مطمئنين على النفوس والأموال ، يحميم كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارية . لا يكون عداً على ما لها في المناصفت : من الدواب والغنم والبقر والجبال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون بائناً من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارية . متى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَقَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ ائْتِمَنِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْشِفُوا عَنِ الْأَخِيذَةِ يَجْهَدُهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَإِنْ حَلَفُوا بِرَدِّهِ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ ائْتِمَنِ أُعِيدَتْ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ أَمْتَنَ الْمُدْعَى عَلَيْهِ مِنَ ائْتِمَنِ حَلَفَ الْمُدْعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ النَّسَاجِتِ نَسَاجِتٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا أَقْبَضَ الْأَرَبُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةَ لِكَشْفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَخْلَفِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ ائْتِمَنِ عَلَى الْمُدْعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَخْلَفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكْمُهَا، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ أَحَدَى الْجَاهِلَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ، وَمَعَهُ مَالٌ لِنَفْسِهِ أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ، وَكَانَ الْهَارِبُ خَيْرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَنَجَّى عَنْ دِينِهِ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ فِي بِلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرَكْمَانِ وَغَيْرِهِمْ، إِلَى بِلَادِ الْقَرْجِ وَالنَّصَارَى كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبِلَادِ مُعَاهِدِهِ ، [وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ بَيْتِ الْاِسْتِارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا ائْتِمَنِ .

وَعَلَى أَنَّ الدَّعَاوِيَّ الْمُتَقَدِّمَةَ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ يَجِبُ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُوَاصَفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْاِسْتِارِ .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ . وَلَعَلَّ الصَّوَابَ «وَيَسْتَحِقُّ» كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي : عشرين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاذيه لا يتركون أحدا من التركان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصقات بغير اتفاق من بيت الاستبار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعاملوا حاله، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصقات وبلد النصارى . ولتواب مولانا السلطان أن يتركهم على شرط أنهم يعلم بيت الاستبار في قدر زولم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان التواب يحاويون بيت الاستبار . وعلى أن المهادنة بمحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصقات، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدنة، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تحمل أمور المملكة الحنسية على ما كان مستقرا في الأيام الأشرفية، على ما قوره الأمير علم الدين « منجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري : حجة بمقتضاه، وتأكيده لما شرح أعلاه . كتب في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هديته من هذا النقط، حُققت بين السلطان الملك الظاهر « بيبرس » أيضا، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهر سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاتحة، فثلاثة أبنية فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشرين متواليه، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وسبعمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرّة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بهتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كُنْها المضافة إليها: من حدّ جبّيل إلى حدّ صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والصنفورية بحدودها، والراوق بحدودها، ومنّ القبل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والحلدية بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرّيايا والتّجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمتّردّين إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكلّ ما هو مخصّص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلّة والألاذقية وقلاعها وبلادها، ومخصّص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مخصّص بها، ومملكة حصن عكا وما هو مَسْئُوب إليه، والمملكة الحمويّة وقلاعها وبلادها وما هو مخصّص بها، والمملكة الرّحبيّة وما هو مخصّص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مخصّص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدّمشقيّة وما هو مخصّص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها

وَمَمَالِكُهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الشَّقِيقِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قَلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَعَايَاهَا، وَالْمَمْلَكَةُ
الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَلِيبِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْكَرْكِيَّةُ وَالشَّوْبِكِيَّةُ
وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّعَايَا، وَالْمَمْلَكَةُ النَّابُلُسِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الصَّرْحَدِيَّةُ،
وَالْمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةُ جَمِيعُهَا : بَشُورُهَا، وَحُصُونُهَا، وَمَمَالِكُهَا، وَبِلَادِهَا،
وَسَوَاحِلُهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرُهَا، وَرَعَايَاهَا، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّائِكِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْمَمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى يَدِهِ وَيَدِ تَوَائِهِ وَغُلَامَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُسْتَظِلًّا فِي جُمْلَةِ
شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا، وَجَمِيعُ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :
بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمَنْ مَرَاكِبِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رِعِيَّةُ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا
يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ تَوَائِهِ وَغُلَامَانِهِ
وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَالْأَذْيَقِيَّةِ،
وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمَنْ مَرَاكِبِهِ وَشَوَانِيهِ .

وَعَلَى أَنْ لَا يُحْدِثَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الْمُرْتَدِّينَ رَسْمٌ لَمْ يَجْرِبْهُ دَادَةً، بَلْ يُعْرَوْنَ
عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَالْقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
مَالٌ، أَوْ أَخِذَتْ أُخْبِيدَةٌ، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،
أَوْ قِيَمَتْهَا إِنْ كَانَتْ مَقْضُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلَفَ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمَدْعَى طَلِبُهُ، وَحَلَفَ
ثَلَاثَةَ نَفَرٍ يَمْنُ بِخَنَاتِهِمُ الْمَدْعَى، وَبَرَقَتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمَدْعَى
عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلَفَ الْوَالِي الْمَدْعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
خَطَأً كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْيَمِينُ عَنْهُ تَطْيِيرُهُ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ،

وَبَرِيكُلُ بَرِيكِل ، وَرَاجِلُ بَرَايِل ، وَقَلَّاحُ بَقَلَّاح . وإن هرب أحدٌ من الجلبانين إلى الجانب الآخر بحال لغيره ، ردّ من الجلبتين هو والمال ، ولا يُستدّر بِمُدْرٍ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن المملّكة فلانة لا تُمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصيد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كلّ متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجلبتين محفوفة من المتجرمين المُفسدين .

وبذلك أتعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر ممتتها من الجلبتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يُغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد من الجلبانين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجلبتين مدة أربعين يوما ، ولا يمنع أحدٌ منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريّف محبةً فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان المليك الظاهر «بيبرس» وولده المليك السعيد ، وبين الفرنج الاسبتارية ، على قلعة لُد بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي : استقرت الهدنة المباركة بين السلطان المليك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده المليك السعيد ناصر الدين «محمد برّكه خاقان» خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشرين المقدم الخليل أفرز أولد كال مقدم جميع بيت استجار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشرين

وكذلك مهما كان مُناصِّفًا، كقَلْبَةِ العليقة في بلادها لَيْتَ الاسْتِئْزَارَ، يكون ذلك جَمِيعُهُ لِلدُّيَّانِ الْمُتَمَوِّرِ وَالْخَاصِّ الشَّرِيفِ، ولا يكون للَرَقَبِ فِيهَا شَيْءٌ، ولا لَيْتَ لِلْاسْتِئْزَارِ.

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من الثرى - لا تكون فيها مُصافاةً لبُيت الاستار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدعوة : مضيايف المحروسة ، والكهف ، والمنيقية ، والقندوس ،
والخوابي ، والرصاصية ، والعلقية . وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة ،
يكون ذلك خاصا لملك الظاهر ، وليس لبيت الاستار ولا الفرنجة فيه حديث
ولا طلب .

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لُد ومقبلا ومغربا إلى حدود بلاد
مرقبة المعروفة بها ، الداخل جميعها في الفتوح الشريف ، وأستقرارها بحكم ذلك
في الخالص المبارك الشريف ، وحد البيوت المحاذية لسور الرّيض ، تستقر جميعها
مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستار نصفين بالسوية ، وما في جميع هذه البلاد :
من بساتين ، وطواحين ، وعمار ، ومصايد ، وملاحات ، ووجوه العين ، والمستغلات
الصيفية والشتوية ، والقطاني ، والحقوق المستخرجة ، وما هو مزروع من القطن
لأهل الرّيض وبإدارها : يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستار
سرجوان بالسوية نصفين .

وما هو داخل الرّيض وداخل المرقب ، فإنه مطلق من الملك الظاهر للقدم
الكبير افرز أولد كال مقدم بيت الاستار سرجوان وخيائته ، ورجاله وحمائته
ورجاله ورعيته ، برسم إقامتهم وسكّهم من داخل الأسوار ، وعن سور الرّيض
المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها ، بما فيه من حقوق طرقات وأحكار ،
ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها ، وجميع السخريات ، وكل أرض
مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عداي يكون مناصفة .

وكل ما هو من المواني والمرايى البحرية المعروفة جميعها بيمين المرقب : من
ميناء بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقبة - تكون هي وما تحصل منها من

الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما يتعقد عليه أرفعها،
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة - وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الاستتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة
الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر
كأنا من كان .

بعمد ذلك في كل ما يصل للترديد والمقيمين بالقلة والريض : من عامة وغير
عامة، وخيالة وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الاستتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والتحليل التي هي برسم
رؤوسهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرعناه .

وعلى أنه لا يمتي أحد من الإخوة النخيلة، والوزراء، والكُتّاب، والنواب،
والمستخدمين شيئا على اسم بيت الاستتار، ليستطلق الحق ويمنع من استبدائه، ولو
أنه أقرب أجد إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط،
أخذ جميع ماله مستهلكا ليهمتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الاستتار،
إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادرا وواردا، وكذلك في البر صادرا
واردا بعد الحاققة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المبشرين المقدم الكبير ليت الاستتار، وولاته وكُتّابه ومُستخدميه
وعلمائه، يكونون آيين مملكتين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك علمائنا وولاتنا وثوابنا ومُستخدمونا وكُتّابنا ورعايا بلادنا يكونون آيين

مُعْطَيْنَ عَلَى نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَقِينَ عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخِذَ الْحُقُوقَ ، وَسَارَ الْمُفَاسِمَاتِ وَالطَّرَاقَاتِ وَالْبَسَائِينَ وَالطَّوَّاحِينَ ، وَالْحُقُوقَ الْمَقْرَّرةَ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةَ وَاسْتِخْرَاجَ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرةَ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وَعَلَى أَنْ جَمِيعَ الضَّمَانَاتِ يَكُونُ تَوَابُ السُّلْطَانِ وَتَوَابُ بَيْتِ الْأَسْتَارِ مُتَقِينَ جُمْلَةً عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَتَرِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْتَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ الْآخَرِ .

وَعَلَى أَنْ أَى مُسْلِمٍ تَصَدَّرُ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْدِيبِهِ ، يَسْتَمُدُّ ذَلِكَ فِيهِ تَأْيِيدًا : مِنْ شَيْئٍ يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعٍ . أَوْ أَدَبٍ يَحْكُمُ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ : مِنْ شَيْئٍ ، وَقَطْعٍ ، وَكُلٍّ أَعْيُنَ ، بِمَحِثٍ لَا يَعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَحْضُورٍ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْتَارِ ، حَاضِرٍ يُمَارِنُ ذَلِكَ بَعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَاحَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمَ أَوْ ذَعَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَادَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قَسَاسٌ وَبَضَائِعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِي ، تُوْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنْ جِهَتَيْنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

تَبَيَّنَتْ تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْتَارِ ، خَلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْتَارِ عَلَيْهِمْ اعْتِرَاضٌ ، وَيَعْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَاعِ اللَّذِيَّانِ الْمُتَعَمُّورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِ بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَبْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُنْبَغُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَاعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاولُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنُسوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَرِّهَهُمْ وَيُخْرِجَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظَ لِلطَّرَفَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ لَمَسَ يَحْضُرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِ بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَبِيعَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمُقَدَّمِ لَبَيْتِ الْأَسْتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْخِيَالَةَ وَالرَّجِيَّةَ الْمُقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرِّبَاضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِهَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مِنَّا وَمِنْ قُوَّائِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمِنْ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَمِنْ أَمْرَانِنَا وَعَسَا كَرْنَا الْمَنْصُورَةِ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المَرْقَب ، فَيَقْعُ الْكَشْفُ عَنْ ذَلِكَ عِشْرِينَ يَوْمًا : فَإِنَّ وَجِدَ فَاعِلُ ذَلِكَ ، يُؤْخَذُ الْفَاعِلُ بِذَنْبِهِ . وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ فَاعِلُ ذَلِكَ مَدَّةَ عِشْرِينَ يَوْمًا فَيُمْسِكُ رُؤْسَاءُ مَكَانٍ قَطَعَ الطَّرِيقَ وَأَخَذَ الْأَخِيذَةَ ، وَقَتَلَ الْقَتِيلَ ، إِنْ كَانَ أَخَذَ وَقَتَلَ - مَكَانَ مَنْ قَتَلَ الْقَتِيلَ أَوْ أَخَذَ الْأَخِيذَةَ - أَقْرَبَ الْقُرْبَاءِ إِلَى الَّذِي قَطَعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ أَوْ قَتَلَ قَتِيلًا . فَإِنْ خَفِيَ الْفَاعِلُ لَئِكَ ، وَغُجِرَ عَنْ إِحْضَارِهِ بَعْدَ عِشْرِينَ يَوْمًا ، يُلْزِمُ أَهْلُ نَوَابِ الْجِهَتَيْنِ مِنَ الْقُرْبَاءِ الْأَقْرَبِ لَذَلِكَ الْمَكَانِ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيَّانِ السُّلْطَانِيِّ النَّصْفُ ، وَلِغَيْبِ الْأَسْبَارِ النَّصْفُ ، وَلَا تُتْكَاسَلُ الْوَلَاةُ فِي طَلَبِ ذَلِكَ ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا وَاحِدَةً ، وَلَا يَخْتَصُ الْوَاحِدُ دُونَ الْآخَرِ . وَلَا يَحَابِي أَحَدُ مِنْهُمْ لِأَخْذِ الْقَلَّاحِ فِي هَذَا أَوْ غَيْرِهِ فِي مَصْلَحَةِ عِمَارَةِ الْبِلَادِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ ، وَمُقَاسِمَةِ الدِّالِ ، وَطَلَبِ الْمُفْسِدِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا .

وعلى أن لا تغيّر الهدنة المباركة بأمر من الأمور، لأن جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد، إلى أنقضاء ملتتها المعينة أعلاه وفروعها . ولا تتغير بتغير المقدم المباشير ليئت الأسبار الحاكم على المرقب وغيره . وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا ، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يومًا ؛ فمن يكون للبداية يخرج منها على من سب (?) ويكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحد . وإذا تغير التواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يتمد ما تضمنته هذه الهدنة ، ولا يخرج عن هذه الموصفة . وإذا انسحب من المسلمين أحد على اختلاف أجناسه ، إن كان مملوكًا أو غير مملوك ، أو معتوقًا أو غير معتوق ، أو كائنا من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم ، وإن كان غلامًا أو غير غلام - ردّه جميع ما يوجد معه ، إن كان قليلًا أو كثيرًا ردّه . ولو أن المتسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا جميع ما معه ، وإن كان حيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً

وما يتعامل الناس به ، يَسْلَمُ بما معه إلى نوابنا على ما شرعناه . وكذلك إذا تَسَحَّبَ أحدٌ من جهتهم من الفَرَجِ أو النَّصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وَصَلَ إلى جهة نوابنا يُسَكُّ ويسلم بما يحضر معه : من الخليل والأفشية والعلة وجميع ما يصلُ إن كان قليلاً أو كثيراً ، يُسَكُّ نوابنا ويُسلمون ذلك بما معه لنايب المقدم الماستر المقيم بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطلع أحدٌ من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكن أحدٌ من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تُسير إليهم مشؤنة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحدٌ من جهة قلعة العليقة إليهم يُسَكُّون ويُسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يعمدون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ، ولا [يعتمدون] إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يعمدون عمارة في رقبها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يعمدون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو يُجندُ بناية خندق أو قطع جبل ، أو تُحصنُ عمارة ، أو تُحصنُ بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر محبة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الرّض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ورومه (?) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وعيثوب وأعمالها ، الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يمجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا في المُهادَنَةِ، بِحُكْم أَنْ بلادَه المذكورة جارية في ممالك الشَّرِيفَة .

وعلى أنه لا يُمْكِنُ بَيْتُ الأَسْبار من دُخُول رِجُلٍ غَرِيبَةٍ في البرِّ ولا في البَحْرِ إلى بلادنا، بِأَذِيَةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّولَة ، وعلى بِلادِنَا وحُصُونِنا ورِعِيتِنَا ، إلا أن يكونوا يَدًا غَالِيَةً ، مُحِبَّةً مَلِكٍ مُتَوَجِّجٍ .

- وعلى أَنْ البُرْجَ الدَّاخِلَ في المُناصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المُحاصِصَةِ الدَّاخِلَةِ في مُناصِيفِ المَرْقَبِ الآنَ ، يُحْرَبُ ما يُحْصَنُ منه ، وهو النِّصْفُ من البُرْجِ المذكورِ أعلاه . وأن الجِسْرَ المعروفَ بِجِسْرِ بِلْدَةِ لَمْ يَكُنْ لِيَبْتَ الأَسْبار فيه شيءٌ من البرِّينَ ، وأنه خالِصٌ للديوانِ المعمورِ دُونَ بَيْتِ الأَسْبار . وأن الدَّارَ المُستَجِدَّةَ عِمَارَتُها بِقَلْعَةِ المَرْقَبِ بِرِسمِ الماسِترِ المُقَدِّمِ الكَبِيرِ ، الذي هو عايزُ تَكْيِيلِ عِمارةِ سَقْفِ القُبُورِ بِالمُجاراةِ والكُنُسِ ، لا تَكُلُّ عِمَارَتُها ، وَيَبْقَى على حاله ، وهو في وَسْطِ القَلْعَةِ الظَّاهِرِ منه قَلِيلٌ إلى البرِّ الشَّرْقِ وهو المذكورُ أعلاه .

وعلى أَنْ نُؤَابَ الأَسْبارِ بِالمَرْقَبِ لا يُخْفَوْنَ شَيْئًا من مُقاسِماتِ البلادِ ولا شَيْئًا من حُقوقِها الجاريةِ بها العادةُ أَنْ يَبْتَ الأَسْبارَ يَسْتَخْرِجُونَهُ ولا يُخْفَوْنَ منه شَيْئًا ، وكلُّ ما كانَ يَسْتَأْذِي من البلادِ في أَيَدِي الأَسْبارِ قَبْلَ هذه المُهْدَنَةِ يُطْلَعُونَ تَوَابِتًا عَلَيْهِ ولا يُخْفَوْنَ منه شَيْئًا قَلِيلًا ولا كَثِيرًا من ذلك .

وعلى أَنْ السُّلْطانَ يَأْمُرُ نُؤَابَهُ بِحِفْظِ مُناصِفاتِ بلادِ المَرْقَبِ الدَّاخِلَةِ في هذه المُهْدَنَةِ ، من المُفْسِدِينَ والمُتَلَصِّصِينَ والحَرَامِيَّةِ مِن هُو في حُكْمِهِ وطاعَتِهِ . وكذلك الماسِترُ المُقَدِّمُ افريرِزْ أو لَدَكَالْ يَلْزِمُ ذلكَ من الجِهَةِ الأُخْرَى . ومتى وَقَعَ – والعياذُ بِاللَّهِ – فَسَخٌ بِسَبَبِ من الأَنْسابِ ، كانَ التَّجَارُ والسُّقَّارُ آمِنِينَ من الجُهَنِينَ إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يُمنعون من السفر إلى أُمّاكنهم من الجهتين ، وتكون النهاية لم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مُستقرة بقواصدها المسطورة للذة المعينة ، وهى : عشرين وعشرة أشهر كوامل ، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين وثمانئة إلى آخرها ، متتابعة متوالية ، لا تنسخ بموت أحد من الجهتين ، ولا يعزل وإلّ وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجل غريبية ، ولا حضور يد غالية ، بل يلزم كلا من الجهتين حفظها إلى آخرها ، ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها ، بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرها . وانخطأ أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدنة عُدّت بين السلطان المَلِك المنصور « قلاوون » الصالحى صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده المَلِك الصالح « على » ولىّ عهده ، وبين حُكّام الفرنج بمُكا وما معها من بلاد سواحِل الشام ، فى شهر مسنة اثنتين وثمانين وثمانئة ، وهى يومئذ بأيدىهم . وصورتها :

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان المَلِك المنصور سيف الدين أبى الفتح « قلاوون » المَلِكى الصالحى وولده السلطان المَلِك الصالح علاء الدين « على » - خلد الله تعالى سلطنتهما - وبين الحُكّام بمملكة عكا ، وصيدا ، وعثيث ، وبلادها التى أعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم : الشيخان أودهيل المملكة بمُكا ، وحضره المقدم الجليل افرىزكاسام دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ، وحضره المقدم الجليل افرىز سكفل لاورن (؟) مقدم بيت الاستارية ، والمرشان الأجل افرىز كورات نائب مقدم بيت الاستار الآمن - لمدة عشرين سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ،

وعشر ساعات : أولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وسثمائة للهجرة النبوية ، صلوات الله على صاحبها وسلامه ، الموافق للثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربع وتسعين لغلبة الإسكندر بن فيلبس اليوناني - على جميع بلاد السلطان وولده ، وهي التي في مملكتها وتحت حكمها وطاغيتها وما تحويه أيديها يومئذ : من جميع الأقاليم والممالك ، والقلاع ، والحصون الإسلامية ، وتفر دباط ، وتفر الإسكندرية المحروستين ، وتستر ، وتسترية وما ينسب إليها من الموانئ والسواحل ، وتفر قوة ، وتفر رشيد ، والبلاد المحجازية ، وتفر غرة المحروس ، وما معها من الموانئ والبلاد ، والمملكة الكركية ، والشوبكية وأعمالها ، والصلت وأعمالها ، وبصري وأعمالها ، ومملكة بلاد الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، ومملكة القدس الشريف وأعمالها ، وبيت لحم وأعماله وبلاده ، وجميع ما هو داخل فيها وتحتوب منها ، وبيت جبريل ، ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة الأطرون وأعمالها ، وصقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها ، ومملكة يافا والزملة ومينائها ، وقيسارية ومينائها وسواحلها وأعمالها ، وأرسوف وأعمالها ، وقلمة قاقون وأعمالها وبلادها ، وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة ، والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها ، وبيتان وأعمالها وبلادها ، والطور وأعماله ، والحيون وأعماله ، وجنين وأعمالها ، وعبر جالوت وأعمالها ، والقيمون وأعماله وما ينسب إليه ، وطبرية ومجرتها وأعمالها وما معها ، والمملكة الصفدية وما ينسب إليها ، وتينين وهونين وما معهما من البلاد والأعمال ، والشقيف المحروس المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه ، وبلاد القرن وما معه خارجا عما عيّن في هذه الهدية المباركة ، ونصف مدينة إسكندرونة ، ونصف ضيعة مارب بضدنها وكرومها وبساتينها وحقوقها ؛ وما عدا ذلك من حقوق إسكندرونة

المذكورة ، يكون جميعه بحدوده وبلاده للسلطان المليك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لملكة عكا . والقلاع العزيزى وأعماله ، وشقرا وأعمالها ، وشقيف
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا ما غيرها (١) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرسها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حصص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحُدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وفُوحات حصن
الأشتراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢) أعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقديا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاده ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأقامية وأعمالها ، وجبلة وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدربسك وأعمالها ، والرأوندان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشفر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وزرا
وأعمالها ، وألبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسلمية وأعمالها ، وشميمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عيّنت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تُعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزيه كما هنا .

(٢) يابض بالأصل .

وعلى جميع العساكر ، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ، وتغير ألقابهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمتقربين في البر والبحر ، والسبل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحريمهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ، وأتباعهم ، ومواسيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكماء بمملكة عكا : وهم كفيل المملكة بها ، والمقدم أفرز كليم دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ، والمقدم أفرز بيكوك للورن (؟) ، وأفرز اهداب نائب مقدم بيت الاستار الآمين ، ومن جميع القرنج والأخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحتوي مملكتهم الساحلية ، ومن جميع القرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل وإصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وألقابهم ، لا ينال بلاد السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ، ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عربتهما ، ولا تركبتهما ، ولا أكرادهما ، ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والألقاب ، ولا ما تحوي أيديهم من المواشي والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يحشون من جميعهم أمرا مكروها ولا إفارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على يديهما ، وعلى يد توابهما وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومليك ، وأعمال ، وولايات ، برأ وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد القرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ، وما يختص بها من كرومها ، وما لها من

حُقُوقِ حَوْفَهَا ، وما تَحْتَزِلُهَا من بلادٍ في هذه المَدِينَةِ وهى : البَصَّةُ وَمَزْرَعَتُهَا ،
 مجدل ، حصين ، رأس عيده ، المَنَوَاتُ وَمَزْرَعَتُهَا ، الكَابِرَةُ وَمَزْرَعَتُهَا ، نصف ووه
 جعون ، كَفَرُ بَرْدَى وَمَزْرَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَزْرَعَتُهَا ، المُونِيه ، كَفَرِ يَاسِيف
 وَمَزْرَعَتُهَا ، تُوسِيَان ، مَكْر حَرَسِين وَمَزْرَعَتُهَا ، الحَدِيدَةُ ، الفَيَاضَةُ ، العَطْوَانِيَّةُ ، مَرْتَوْقَا
 الحَارِثِيَّةُ ، ثَمَرَا الطَّرَه ، الرِّب ، البَاوُحِه وَمَزْرَعَتُهَا ، العَرَج وَمَزْرَعَتُهَا ، المَزْرَعَةُ
 السَّمِيرِيَّةُ الْبَيْضَاء ، دَعُوقِ وَالطَّاحُون ، كَرْدَاهِ وَالطَّاحُون ، حَدْرُول ، تَلِ النَحْل ،
 الغَارِ ، الرِّخ والمَجْدَل ، تَلُ كَيْسَان ، البروه ، الرَامُون ، سَاسَا السِّيَاسِيَّةُ ، الشَّيْكِه ،
 المَشِيرِقَه ، المَطْرَانِيَّةُ ، المُنِير ، أَكْلِيل ، هَرِيَا سَيْفِ الْعَرَبِيَّةُ ، هَوْشَه ، الزَّرَاعَةُ
 الْجَدِيدَةُ الشَّيَالِيَّةُ ، الرَّاحِيه ، قَسَطَه ، كَفَرِ نَبْل ، البَوِيرَات ، مَاصُوب ، مَمَّاس
 الْعَبَاسِيَّةُ ، سِيْعَاه ، عَيْنِ الْمَلِك ، الْمَنْصُورَةُ ، الرَصِيفَةُ ، حَايَا ، سَرَطَا ، كَفَرَتَا ،
 أَرْضُ الزَّرَاعَةِ ، رُولَس ، صَعْدَ عَدَى ، سَفَرَعِم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون]
 خَاصَا لِلْفَرَجِج . جَيْفَا وَالْكُرُومُ وَالْبَسَاتِينُ الَّتِي لَهَا جَمِيعُهَا ، وَالْقَصْرُ وَهُوَ الْحَوْشُ
 وَكَفَرُ تُوْتَا ، وهى : الْكَنْتِسَةُ ، وَالطَّيْرَةُ ، وَالسَّعْبَةُ ، وَالسَّعَادَةُ ، وَالْمَعْرُ ، وَالْجَاجُورُ ،
 وَسُومَرَا . تكونُ جَيْفَا وَهَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ بِمَحْدُودِهَا وَأَرَاضِيهَا خَاصَةً لِلْفَرَجِج .
 وَكَذَلِكَ قَرْيَةُ مَارَسَا بَارَه بِهَا ، الْمَعْرُوفَةُ بِهَا وَكَرُومُهَا وَغُرُوبُهَا يَكُونُ خَاصَا لِلْفَرَجِج .
 وَدَيْرُ السِّيَاح ، وَدَيْرُ مَارِلَاس بَارَاضِيهِمَا الْمَعْرُوفَةُ بِمَا وَكُرُومُهُمَا وَبَسَاتِينُهُمَا يَكُونُ
 خَاصَا لِلْفَرَجِج .

وعلى أن يكونَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُنْتَصُورِ وَلَوْلَدِهِ الصَّالِحِ : من بلادِ الْكِرْمِلِ ، وهى :
 الدَّالِيَّةُ ، وَدُونَه ، وَضَرْبَةُ الرِّيحِ ، وَالْكَرْكُ ، وَمَعْلِيَا ، وَالرَّامُون ، وَلُوسَه ، وَسُور ،

(١) لم تقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في سجع ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبنا الأصول في الإهمال والتقص .

وخربة يونس، وخربة نعيمس، ورشما، ودواه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكلمها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد السَّكَّاءِ وما عِينَ في هذه المُدُنِ المباركة من البلاد السَّاحِلِيَّةِ آمِنَةٌ من السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَأَمَنَةٌ مِنْ عَسَاكِرِهِمَا وَجُنُودِهِمَا وَمِنْ خَدَمِهِمَا ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْبِلَادُ الْمَشْرُوعَةُ أَعْلَاهُ ، الدَّاخِلَةُ فِي هَذِهِ الْمُدُنِ الْمُبَارَكَةِ : انْخَاصٌ بِهَا ، وَمَا هُوَ مُنَاصَفٌ - مُطْمَئِنَّةٌ هِيَ وَرَعَايَاهَا ، وَسَائِرُ أَجْنَاسِ النَّاسِ فِيهَا ، وَالْقَاطِنِينَ بِهَا ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ إِلَيْهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ بِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ وَالسُّقَارِ ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، سَهْلٍ وَجَبَلٍ ، آمِنِينَ عَلَى الثَّقُوسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَالْمَرَائِبِ وَالذُّوَابِ ، وَجَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ ، وَكُلُّ مَا تَحْتَوِيهِ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، مِنَ السُّلْطَانِ وَلَدِهِ ، وَجَمِيعٍ مِنْ هُوَ تَحْتَ طَاعَتِهِمَا : لَا يَنَالُهُمْ وَلَا يَنَالُ هَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ الَّتِي أَمْنَقَدْتُ عَلَيْهَا الْمُدُنُ سُوءٌ وَلَا ضَرَرٌ وَلَا إِغَارَةٌ ، وَلَا يَنَالُ إِحْدَى الْجَبَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ : الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْفَرَنْجِيَّةِ مِنَ الْآخَرَى ضَرَرٌ وَلَا أَذِيَةٌ ، وَيَكُونُ مَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ يَكُونُ خَاصًّا لِلْفَرَنْجِ حَسَبَ مَا يُنَّ أَعْلَاهُ لَهُمْ ، وَمَا تَقَرَّرَ أَنْ يَكُونَ لِلْسُّلْطَانِ وَلَوْلَدِهِ خَاصًّا لَهَا ، وَالْمُنَاصَفَاتُ تَكُونُ كَمَا شَرَحَ . وَلَا يَكُونُ لِلْفَرَنْجِ مِنَ الْبِلَادِ وَالْمُنَاصَفَاتِ إِلَّا مَا شَرَحَ فِي هَذِهِ الْمُدُنِ وَعِينَ فِيهَا مِنَ الْبِلَادِ .

وعلى أن الفرج لا يُعِدُّونَ في غير عكا وعثليت وصيدا : مما هو خارجٌ عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا بُرْجًا ، ولا حصنًا ، ولا مُسْتَجِدًّا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنًا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد السَّاحِلِيَّةِ الْمُعِينَةِ فِي هَذِهِ الْمُدُنِ ، وَقَصِدَ الدُّخُولَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَتَصَرَّ

بإرادته، يُردُّ جميع ما يروحُّ معه ويتبقى عُربانا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولُ في دين النصرانية ولا يتنصر، ردُّ إلى أبوابها العالية بجميع ما يروحُّ معه، بشفاعة نبيِّه بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حضر أحدٌ من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، وقصد الدُخُولُ في دين الإسلام وأسلم بإرادته، ردُّ جميع ما معه ويتبقى عُربانا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولُ في دين الإسلام ولا يُسلم، ردُّ إلى الحُكَّام بمِكا، والمقدِّمين بجميع ما يروحُّ معه بشفاعة بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أن المنوعات المعروفة منها قديما تستقرُّ على قاعدة المتع من الجهتين . ومتى وُجدَ مع أحد من تجار بلاد السلطان ولده من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شيء من المنوعات بمِكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، مثل عدَّة السلاج وغيره، يُعاد على صاحبه الذي اشتراه منه، ويعاد إليه ثمنه، ويردُّ ولا يُؤخذُ ماله استهلاكًا، ولا يؤذَى . وللسلطان ولولده أن يفتصلا في من يخرج من بلادهما من رعيتهما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بشيء من المنوعات . وكذلك كيفلُ الملكة بمِكا والمقتسمون لهم أن يفتصلوا في رعيتهما الذين يخرجون بالمنوعات من بلادهم الداخلة في هذه الهدنة .

ومتى أخذت أختة من الجانيين، أو قتل قتيل من الجانيين، على أي وجه كان - والعياذ بالله - رُدَّت الأختة بعينها إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة . والقتيل يكون الموض عنه بتظيره من جنسه : فارس فباريس، وبريكل بريكل، وتاجر بتاجر، وراجل براجل، وفلاح بفلاح . فإن خفي أمر القاتل والأختة، كانت المهلة في الكشف أربعين يوما، فإن ظهرت الأختة أو تعين أمر المقتول، رُدَّت الأختة بعينها ويكون الموض عن القاتل بتظيره، وإن لم تظهر

كَانَتِ الْيَمِينَ عَلَى الْوَالِي الْمَكَانِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَثَلَاثَةَ نَفَرٍ يَمُوقُ اخْتِيَارَ الْمَدْعَى عَلَيْهِمْ،
 مِنْ تِلْكَ الْوَلَايَةِ . وَإِنْ أَشْنَعَ الْوَالِي عَنْ الْيَمِينَ حُلْفَ مِنْ الْجَهَةِ الْمَدْعَى ثَلَاثَةً نَفَرٍ
 تَخْتَارُهُمُ الْجَهَةُ الْأُخْرَى وَأَخَذَ قِيمَتَهَا . وَإِنْ لَمْ يُنْصَفِ الْوَالِي وَلَا رَدَّ الْمَالَ، أَنْتَهَى
 الْمَدْعَى أَمْرَهُ إِلَى الْحُكَّامِ مِنَ الْجَهَتَيْنِ ، وَتَكُونُ الْمَهْلَةُ بَعْدَ الْإِنْهَاءِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ،
 وَيُلْزَمُ الْوَلَاةُ مِنَ الْجَهَتَيْنِ بِالْوَقَاءِ بِهَذَا الشَّرْطِ .

وَمَنْ أَخْفَا قَتِيلًا أَوْ أَخِيذَةً ، أَوْ قَدَّرُوا عَلَى اخْتِذَ حَقٍّ وَلَمْ يَأْخُذْهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 فِي وِلَايَتِهِ ، يَتَعَيَّنُ عَلَى الَّذِي يُولِيهِ مِنْ مُلُوكِ الْجَهَتَيْنِ إِقَامَةُ السِّيَاسَةِ فِيهِ : مَنْ أَخَذَ
 الرُّوجَ وَالْمَسَالِ وَالشُّنْقَ ، وَالْإِنْكَارَ التَّامَّ عَلَى مَنْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِنْكَارُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ
 فِي وِلَايَتِهِ وَأَرْضِهِ .

وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ بِمَالٍ وَأَعْتَرَفَ بِنَعْضِهِ وَأَنْكَرَ بِنَعْضٍ مَا يُدْعَى بِهِ عَلَيْهِ ، لَزِمَهُ أَنْ
 يَحْلِفَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ سِوَى مَارَدِهِ . فَإِنْ لَمْ يَقْنَعِ الْمَدْعَى بِبَيِّنِ الْهَارِبِ ، حَلَفَ الْوَالِي تِلْكَ
 الْوَلَايَةِ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى أَنَّهُ وَصَلَ مَعَهُ غَيْرُ مَارَدِهِ . وَإِنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ شَيْءٌ
 أَصْلًا ، اسْتَحْلَفَ الْهَارِبُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ لِلْمَدْعَى شَيْءٌ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِذَا أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ مِنْ مَرَآكِبِ تُجَّارِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ الَّتِي أَنْعَقَدَتْ
 عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ ، وَرَعِيَّتُهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ : عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاتِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ،
 فِي مِينَاءَ عَكَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أَنْعَقَدَتْ عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ ، كَانَ كُلُّ مَنْ
 فِيهَا آيَةً عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْإِتْبَاعِ وَالْمَتَابِرِ . فَإِنْ وَجَدَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَرَآكِبِ
 الَّتِي تَسْكُرُ سُلْمَ مَرَآكِبِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ [الْيَمِينَ] . وَإِنْ حُدِمُوا بِمَوْتٍ أَوْ غَرِقُوا أَوْ غَنِيَةً ،
 فَيُحْفَظُ بِمَوْجُودِهِمْ وَيُسَلَّمُ لِنَوَازِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ . وَكَذَلِكَ الْمَرَآكِبُ الْمُتَوَجَّهَةُ
 مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ لِلْفَرَجِ ، يَجْرِي لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِي بِلَادِ

السُّلْطَانُ وَوَلَدَهُ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكَفِيلِ
الْمُلْكَةِ بَعْكَ أَوْ الْمَقْدَمِ .

وَمَتَى تُوقِّ أَحَدٌ مِنَ التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ،
مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، فِي عَكَا وَصِيدَا وَعَثَلَيْتَ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ
الْمُذْنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ [فَيَحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يَسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ
وَوَلَدِهِ] ، وَإِذَا تَوَقَّ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُذْنَةِ، يَحْتَفِظُ عَلَى
مَالِهِ إِلَى حِينَ يَسَلَّمَ إِلَى كَفِيلِ الْمُلْكَةِ بَعْكَ وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنَّ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَتَرَحَّتْ لَا تَتَمَرَّضُ بِأَذْيَةٍ إِلَى الْبِلَادِ
السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُذْنَةُ . وَمَتَى قَصِدَتْ الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةُ جِهَةً
غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةٍ عَكَا، فَلَا تَدْخُلُ
إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُذْنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ
تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةٍ عَكَا وَالْبِلَادِ الَّتِي
أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُذْنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ مِنْ
هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُذْنَةُ
وَسَوَاحِلِهَا : فَانْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعْ مَمْلَكَةٍ عَكَا وَمُقَدِّمِي بَيُوتِهَا عَهْدٌ، فَيَلْزَمُ
كَفِيلَ الْمَمْلَكَةِ بَعْكَ وَمُقَدِّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا، وَتَمَكِينِ رِجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَأَصْلَاحِ
مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَتَكَّرُّ مِنْهَا
- وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرِمُهُ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعْ مَمْلَكَةٍ عَكَا
وَمُقَدِّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصِدَتْ مَنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُقَعَّرَ
رِجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُنْعَقِدَةِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُذْنَةُ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا،
وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور
لمضرة السلطان وولده في بلادها المتبقية عليها هذه الهدنة ، فليزِم نائب المملكة
والمقدمين بَعْكَ ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركاتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية
الداخلية في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ،
فيكون كفيل المملكة بَعْكَ ، والمقدمون برئين من عهدة اليمين في هذا الفصل .
ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين
يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والبياد بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ،
وأنحازت المراكز الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد
الساحلية الداخلية في هذه الهدنة وقصدها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة
بَعْكَ ، والمقدمين بها أن يدرؤا عن بيوتهم وريعتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه .
وإن حصل - والبياد بالله - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلية
في هذه الهدنة ، فليزِم كفيل المملكة بَعْكَ ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع
من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة بَعْكَ ، والمقدمين بها يؤصون في سائر البلاد الساحلية التي
وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من
حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع
فيمسكها كفيل المملكة بَعْكَ ، والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك
يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بَعْكَ والبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم
مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكتيب

فِي وَقْتِ اخْتِذَ هَذَا الشَّخْصَ رَهِينَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمٍ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقَرٍ
أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِيُّ وَالْمُبَاشِرُ وَالْكَاتِبُ قَدَّمَ نَائِبَ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ
يَقُومُ أَهْلُ الرَّهْنَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرَجِ عَلَيْهِ وَيُطْلِقُونَهُ . وَأَمَّا الرَّهَائِنُ الَّذِينَ اخْتُذُوا
مَنْسُوبِينَ إِلَى الْجُفْلِ وَالْإِخْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَمْتَنِعُ الْوَلَاةُ
وَالْمُبَاشِرُونَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يَطْلُقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَ عَلَى التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ
لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً ، وَيُخْرِجُوا عَلَى عَوَائِدِهِمُ الْمُسْتَمَرَّةِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَتُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ
عَلَى الْعَادَةِ الْمُسْتَمَرَّةِ ، وَلَا يَجِدُ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً . وَكُلُّ مَكَانٍ
عُرِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ،
فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ؛ وَيَكُونُ التُّجَّارُ وَالسُّفَّارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ
مُخَفَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا مُخَفَّفَتْهُمْ
مِنْ الْأَصْنَافِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّخَالََةَ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ :
أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَمُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا .
وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًا مِنْ
الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَمُدَّ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ
مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ
فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أُنْقَضَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى
الْجِهَةِ الْآخَرَى بِأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بُيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبُيُوتِ إِلَيْهَا لِرِيَازَةِ
الْجُمَّاعِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلَيبِ : كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَرِهِمْ :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة ، ويُصَلَّى بالكنيسة الإقسائية^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوّار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجيههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلية في هذه الهدنة . وإذا نُقِبَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة تُرى برا ، ولا يُحطَّ بحجر منها على حجر لأجل بنيائيه ، ولا يتمزق إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوّار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي أتعقدت عليها الهدنة من نفسيهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بمكافأة المقتدين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي أتعقدت عليها الهدنة ، من نفسيهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلية في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بمكافأة ومقدي البيوت بها الحكم بالبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة . القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . وبقي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه يبقى بجميع ما في هذه الهدنة على ما سلقوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكم بمملكة عكا ، وصينا ، وعثليت ، وهم الشخان أودرا^(٢) المقتنون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملوك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشروطها المحددة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومضى آقضت هذه الهدنة المباركة ، أو وقع
- والعياذ بالله - فسخ ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . وينادي
برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإشهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،
ولا يمتعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بزل أحد من الجهتين ، وتُسَيِّدُ
أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى آقضاها ، ويلزم المتولى
حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ، ويحرم الحال فيها على
أجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والأمان ، وحلف
عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدية ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ،
وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ، على يد رُسُلِهِ :
أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة اثنين وتسعين وستمائة ، وهي :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم
الريد أرغون ، وأخويه دون ولديك ، ودون بيدرو ، وبين صهره الدين طلب
الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
نفسه ، ويتذكر أمرهما . وهما الملك الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
الضرام ، دون شابعه ، ملك قشتالة ، وطليلة ، وليون ، وبنسية ، وأشبيلية ،
وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرغال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برثقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة
 اثنتين وتسعين وسمائة، الموافق لثلاث بقين من جنبر سنة ألف ومائتين وأثنتين
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام . وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،
 وهما : المختتم الكبير روصوديمار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بالسية،
 ورفيقه المختتم العمة ديمون المان قراري برسلونة، الواصلين بكتاب الملك دون
 حاكم، المختوم بتم الملك المذكور، المفتى منه أنه تحملها جميعاً أحوالهم
 ومطلوبهم، وسأل أن يقوم فيها بقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالها تقرير
 قواعد الصلح والمودة والصداقة . والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويخاف الملك المذكور
 عليها هو وأخوه وصهره المذكورون. ووضع الرسول المذكوران خطوطهما بجميع
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه . وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره
 يلتزمون بها، وهي : استمراؤ المودة والمصداقة من التاريخ المقدم ذكره، على ممر
 السنين والأعوام، وتعاقب الأيام: براً وبحراً، سهلاً وصحراً، قريباً وبعداً .

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعه، وحصونه، وثغوره،
 وممالكه، ومواني بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومُدنها، وكل ما هو
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها : من سائر الأقاليم الرومسية،
 والبراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراية، والحمية، والحجازية، والديار
 المصرية، والقرب .

وحذ هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية
 والبلاد الرومية الساجية، وهي : من طرابلس الغرب، وسواحل برقة،
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، وإفا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَثْلِيثَ ، وَحِفَّا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْلَا ، وَيَرْبُوتَ ،
وَجُبَيْلَ ، وَالتَّيْرُونِ ، وَأَنْقَسَةَ طَرَابُلسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرَسُوسَ ، وَمَرْقِيَّةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبِ : بَأْنِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى قَرْيَمَاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْبَسَ .

وَحَدَّثَهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ : مِنْ ثُوَيْسَ وَإِفْلِيمَ إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُلسَ
الْفَرْبِ وَتُفُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتُفُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَقْسِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْبَسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالطَّرِقاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكَرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكَّانَ ، وَأَكْزَادَ ، وَعُزْبَانِ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَذْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْبَضَائِعِ وَالْمَتَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا — أَمْنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ مِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَائِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَمَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنْ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقَالِمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَبَجْرِيَّتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برؤيوية وأعمالها وبلادها، جزيرة مائقة، وقوصرة وبلادها وأعمالها، ميورقة وباسبسة وبلادها، وأرسويار (٩) وأعمالها، وما سيفتعه الملك دون حاكم من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم - آمينين من الملك الأشرف وأولاده، وعساكره وجيوشه، وشوانيه وعمائره، هي ومن فيها من قرسان وخيالة ورعايا. وأهل بلاده آمينين مطمئنين على الأئس والأموال، والحرير والأولاد، في البر والبحر، والصدور والورود.

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخوه وصهره أصدقاء من يصادق الملك الأشرف وأولاده، وأعداء من يباينهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية. وإن قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك الفرنج: متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة، أو من سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والرؤم، والبيوت: بيت الإخوة الديوية، والاسبانية، والرؤم، وسائر أجناس النصارى - مضرة بلاد الملك الأشرف، بمحاربة أو أذية، يمتنعهم الملك دون حاكم هو وأخوه وصهره ويرثونهم، ويمشرون شوانيههم ومراكبهم، ويقصدون بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله ونفوره المذكورة، وغير المذكورة، ويقايلونهم في البر والبحر بشوانيههم وعمائرههم، وقرسانهم وخيالاتهم ورجاليتهم.

وعلى أنه متى خرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يبيحهم الملك دون حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا قرسانهم، ولا أهل بلادهم، بمقتل ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدية، ولا ميرة، ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك.

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونة : بجالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يؤاقيهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهراً، ولا يبين أحداً منهم ولا يؤاقيهم على ذلك . ومتى أطلعو على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمخاربه أو لمضرته بشيء، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصديها في أقرب وقت، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يتخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى أنكر مراكب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره، [فعلهم] أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدهم على عمارة مراكبهم، ويجهزهم وأموالهم وبضائهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا أنكرت مراكب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهره، ومعايديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعايديه، لا يعارضهم في أموالهم ولا في بضائهم، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : يفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعايديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معايديه رُسُل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة ،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُعْجِزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ هِيَ جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تَوْجِبُ فُسْخَ الْمَهَادَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسَحُ كُلُّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْيَاقُوتَ وَالنَّحْشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوِ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمَهَادَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا ، أَقْصَاهَا وَأَذْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمٍ وَبِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسِيرِهِ وَحَمَلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعِدَمَتِ الْبِضَاعَةَ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ رُكْنًا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمَهَادَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على المليك دون حاكم وعلى أخويه وصهره ردّ الهارب أو المقيم ببضاعة غيره ،
والمال معه إلى بلاد الملك الأشرف مادام مسلماً . وإن شَرَّ ، يرُدُّ المسأل الذي
معه خاصّة . ولملكة الملك دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعهديه
من القريج من يقصد زيارة القدس الشريف ، وعلى يده يكتب المليك دون حاكم
وختمه إلى نايب الملك الأشرف بالقدس الشريف ، يُفَسِّحُ له في الزيارة مسموحاً
بالحق يقضى زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله ، رجلاً كان
أو امرأة ، بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء
الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء .

وعلى أن الملك دون حاكم يحرس جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهره
من كل مَضَرَّة ، ويمتدُّ كلُّ منهم في أن أحداً من أعداء الملك الأشرف لا يصل
إلى بلاد الملك الأشرف ، ولا يُجْبِئُهم على مَضَرَّة بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه ،
وأنه يساعد الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهي ويختاره .

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصنُّ ويردُّ وتردُّ من بلاد الملك دون حاكم
وأخويه وصهره ، إلى قنري الإسكندرية ودمياط ، والثغور الإسلامية ، والممالك
السلطانية ، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها ، تستمر على حكم الضرائب
المستقرة في الديوان المعمور إلى آخر وقت ، ولا يُجَدِّدُ عليهم فيها حادثة . وكذلك
يتجرى الحكم على من يرتدُّ من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه
وصهره .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرُوطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى السَّوَاءِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَتَجْرِي أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجَلِ الْاسْتِمْرَارِ،
فَإِنْ الْمَمْلُوكُ بَهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا، لَا تَنْقُضُ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ
الْبُلَانِيَيْنِ، وَلَا بِعَزْلِ وَالٍ وَتَوَلِيَةِ غَيْرِهِ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا، وَتُدَوِّمُ أَيَّامُهَا، وَشُهْرُهَا
وَأَعْوَامُهَا. وَعَلَى ذَلِكَ آتَنَظَمْتُ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ، وَهِيَ كَذَا
وَكَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ: وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرِ قُلْتُهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَرَّمِ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْأَمَلِ الْمَنْصُورِيَةِ «قَلَاوُونِ» الْمُسَمَّاةِ: «تَذَكُّرَةُ اللَّيْلِ»، وَتُزَمُّهُ
الْأَدِيبُ «مِنْ نُسخَةٍ بِحَطِّهِ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحَطِّهِ عَلَى مَدِينَةِ
صَفَدٍ. وَلَيْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ، بَهِجُ الْمَعَانِي، بَلِغُ الْمَقاصِدِ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْأُخْرَى الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمِهِ. أَمَّا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَلَهَا مُبْتَدَلَةُ الْأَلْفَاظِ، غَيْرُ رَائِقَةِ التَّرْتِيبِ، لَا يَصْدُرُ مِنْهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أُذُنٌ مُسَارِمَةٍ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ. وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
يُوسُفَ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونِ» وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عَظَمَاءِ الْمُلُوكِ!! وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ بَيْتُ الْفَصَاحَةِ وَرُؤُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ!!! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ، لِأَنَّ الْقَرَنَ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلسَّامِرِينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ، فَيَقَعُ الْأَلْفَاظُ
وَالْتِزَامُ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَصْلِ فَصْلٍ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمُسْلِمِينَ وَالْقَرَنَ بِالْأَلْفَاظِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْأَلْفَاظِ وَالْتِزَامِ، إِلَى آخِرِ فُصُولِ الْمُدَّةِ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ، لِيُطَابِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْقَرَنِ. إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الإلفاظ وبلاغة التركيب ، لأخّل الحال فيها عما وافق عليه كاتبُ الفرعِ أولاً ، فينكرونه حينئذٍ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة . وبالجملة فإعما ذكرتُ النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وندم أنسجام ترتيبها - لا شتمها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتبُ ما لعله لا يحضّر بياله من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قرينها يمينٌ يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التولية بقصوبها وشروطها ، ويمينٌ يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عقدها عنه ، بكاتب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتح المهادنة بمطية مبتدأة به الحمد لله)

وعلى هذا يخفى صاحبُ "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذن كل دين وأعزّه ، وغدّل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ، والتوغل في توحيدِهِ ، وتقديسِهِ وتمجيدِهِ ، والثناء عليه بالآله ، والصلاة على خير أنبيائه ، بحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنية مُنظمة على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها ، ثم قال : والْبَيْغُ يَكْتَنِي بِقَرِيْبِهِ في ترتيب هذه المعاني إذا دُفِعَ إلى الانشاء فيها ، إن شاء الله تعالى . ولم أَقِفْ لغيره على صورة هُدنية مفتحة بالحميد ، ولا يَخْفَى أن الابتداء به في كُلِّ مُهِمٍّ من المُهودِ وجلائل الولايات ونحو ذلك هو المعمول عليه في زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فيما يُشارِكُ فيه مُلوكُ الكُفْرِ مُلوكَ الإسلام في كتابة نُسخٍ من دواوينهم)

اعلم أن الغالب في الهدن الواقعة بين مُلوك الديار المصرية وبين مُلوك الكُفْرِ أن تُكْتَبَ نسخةٌ تُخلَّدُ بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ونُسخةٌ تُجهَّزُ إلى الملك المُهادِن ، وربما كُتِبَتْ نسخةٌ من ديوانه مُفتحةٌ بِمَينٍ .

وهذه نسخة هُدنية وَرَدَتْ من جهة الأُسْكُرى ، صاحبِ القُسطنطينية في شهر رمضان سنة ثمانين وسبعمائة ، مؤرَّخة بتاريخ موافقٍ لأواخر المحرم من السنة المذكورة ، فُرِبت فكانت نُسخَتُها على ما ذكره ابن مُكْرَمٍ في "تذْكِرته" :

إذ قد أراد السلطان العَظِيمُ ، النسيبُ ، العَالِي ، العَزِيْزُ ، الكَبِيرُ الجَنَسُ ، المَلِكُ ، المنصورُ ، سَيِّفُ الدِّينِ « قلاوون » صاحبُ الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكونَ بينه وبين تَمَلُّكِتي حَبَّةٍ - فَمَلَكْتِي تُؤَثِّرُ ذلك ، ونَحْتَارُ أن يكونَ بينها وبين عِزِّ سُلْطَانِهِ حَبَّةً . ولهذا وجب أن يَتَوَسَّطَ هذا الأمرَ مَينٌ وَأَعْمَاقُ : لِتَدُومَ الحَبَّةُ التي بهذه الصُّورة فيما بين تَمَلُّكِتي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً بِلَا تَشْوِيشٍ . فَمَلَكْتِي هذا اليوم ، وهو يَوْمُ الخَمِيسِ الثَّامِنُ من شهر إيار من التاريخ [الروم] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المقدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجليس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانه : محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نية، ولا يحرك ملكي أبدا على
عز سلطانه حربا، ولا على بلاده ولا على قلايعها، ولا على عساكره، ولا يحرك
ملكى أبدا على حرب، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز،
الكبير الجليس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلك، ولا يحرك عز سلطانه على
مملكيتنا حربا قط، ولا على بلادنا، ولا على قلايعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
أحدنا آخر أيضا على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانه أيضا
مطلقا [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسبرون من عز سلطانه، وكذلك يعودون إلى عز سلطانه. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانه [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جورا
ولا ظلما، بل يكون لهم مباحا أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانه من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه، فلا ينال
هؤلاء تمويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانه والذين من أهل
سوداق إن حضر معهم ممالكهم وتجارتهم، فليؤدوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق

ولا مانع ، ما خلا إن كانوا نصاري ، لأنَّ شَرْعنا وتَرْيِبَ مَلْهِنّا لا يَسْمَحُ لنا في أمر النصاري بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِرِّ سلطانه ممالك نصاري : رُومٌ وغيرهم من أجناس النصاري ، ممتسكون بدين النصاري ، ويحصل لقوم منهم المَنَقى ، فيكُن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عِرِّ سلطانه ، أن يَفْدُوا في البَحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عِرِّ سُلْطانه أن يبيعَ مملوكًا نصرانيًا هذه صورته لأحد من رُسل مملكتي ، أو تُجَار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يَمِدَّ في هذا تَقْويًا ، بل يَسْتَرُوا المذكورَ وَيَقْدُوا به في البَحر إلى بلاد مملكتي بلا عَائِقِي . وأيضًا إن أراد هذا السلطان العَظيم النَّسِيبُ ، أن يُرْسَلَ إلى بلاد مُلكي بضائع متَجَرًا ، وأرادت مملكتي أن تُرْسَلَ إلى بلاد عِرِّ سلطانه بضائع متَجَرًا ، فيكُن هكذا : وهو إن أراد عِرِّ سلطانه أن تَكُونَ بضائع متاجره في بلاد مُلكي مُنْجاة من القيام بكلِّ الحقوق ، فتكُن أيضًا بِضَائِعُ متاجر مملكتي في بلاد عِرِّ سلطانه مُنْجاة مثل ذلك من كلِّ الحقوق ، وإن أراد أن تُقَوِّمَ متاجر مُلكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يَقُومُ] بمثل ذلك . وأيضًا أن يُطْلَقَ عِرِّ سلطانه لِمُلكي أن يُرْسَلَ أناسًا من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرِّ سلطانه ، فيشترون لى حَبَلًا جَيَادًا وَيَعْمَلُونَهَا إلى بلاد مُلكي . وكذلك إن أراد عِرِّ سُلْطانه شَيْئًا من خيرات بلاد مُلكي ، فَمِلْكَتِي أيضًا تُطْلَقُ لِعِرِّ سُلْطانه أن يُرْسَلَ أَناسُهُ لِيَشْتَرَوْهُ وَيَعْمَلُوهُ إلى عِرِّ سُلْطانه .

ولما كان في البَحرِ كرساليه من بلاد غَرِيبِيَّة ، وقد يَتَّفِقُ في بَعْضِ الأوقات أن يَسْمَلُوا خسارةً في بلاد مُلكي ، وكذلك يَصْدُونَ هؤلاء الكرسالية قَوْمًا من بلاد عِرِّ سلطانه فيعملون لهم خسارة ، ثم إنَّ هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الاتفاق في مُقْصِدٍ من مُقْصِدِ بلاد مُلكي . لأجلِ هذا صار : إذا حَضَرَ قَوْمٌ من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرِّ

سُلْطَانِهِ بِمَتَجَرِّ يُمَسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَقْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصْرُفْ رُسُومُ
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَقْرَمَ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُمَسْكُ ، وَإِنْ عَرَضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غَرِمَ أَوْ ظَلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَلْيَكِ بِأَمْرٍ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْحَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غَرِمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 بِأَمْرٍ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أُرْضِعَتِ الْمَحَبَّةُ أَنْ
 تَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنْ
 أُرْسِلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجِدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْمَدُونِ الْمَشْرُوكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوْضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبَ فِي نَسْخَةِ الْإِيمَانِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعِيَّةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعَيَّنَ وَتَجِدَ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجِدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضْعُهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نُسْخَةِ إِيْمَانِهِ ، وَهَذِهِ الْإِيمَانُ مَا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مُتَعَرِّضَةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلُفُ لِي يَمِينًا يَمْتَلِئُهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْمَحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ
 مُتَعَرِّضَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نُسخَةُ أَتَمِّاقٍ ، كَتَبْتُ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ «فَلَاوُون»
 عَنْ نَظَرِ الْمُهَنْدَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، الْوَارِدَةِ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مُفْتَتِحَةً بَيِّنَ
 مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فَلَانُ : إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرِيمْخَانِيلِ ، الدُّوْقُسُ ،
 الْأَمْجَالُوسُ ، الْكِيْپِيُوسُ ، الْبَالَاوُلُغُسُ ، ضَاطِحُ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى ،

أكبر مُلوك المِسيحية ، أبقاء الله - أن يكون بين مملكته وبين عِزِّ سُلطاني ، حبةً وصداقةً ومودةً لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ، وأكّد ذلك بِمِمينٍ حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عِزِّ سُلطاني ، الأمير ناصر الدين ابن الجُرْزِي ، والبَطْرِك الجليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عِزِّ سُلطاني بِنسخة المِمين ، مُتَمِمينَ أن يتوسّط هذا الأمر أيضاً بِمِمينٍ وأنفق من عِزِّ سُلطاني ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعِزِّ سُلطاني ، وتكون نابتة مستمرة على الدوام والاكتمار .

فِيزْ سُلطاني من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مُستَهَلَّ رمضان المعظم ، سنة ثمانين وِسْمِئَةً لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام ، يحايثُ بالله العَظِيم ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسّرّ والعَلَانِيَةِ وما تُخْفِي الصُّدُور ، وبالقُرْآن العَظِيم ، وبِمَن أنزله ، وبِمَن أنزل عليه ، وهو النَّبِيُّ الْكَرِيم ، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على استمرار الصداقة ، واستمرار المودة النقيّة ، لِلْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَرِمِخَائِيل ، ضابط مملكة الروم والقُسطنطينيّة العظمى ، ولولّد مملكته الحبيب الكينيوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوس ، الملك إيراندروبونوس ، ولوارثي مملكة مُلكه . ولا يحرك عِزِّ سُلطاني أبداً على مملكته حرباً ، ولا على بلاده ، ولا على قِلاعه ، ولا على عساكره : في برٍّ ولا بحر . ولا يحرك عِزِّ سُلطاني أحداً آخر على حربهِ ، بحيثُ إن المَلِكِ الْجَلِيلِ كَرِمِخَائِيل يحفظ مثل ذلك لِعِزِّ سُلطاني ، وَلِملِكِي ، وَلِبلادي ، وَلِقِلاعي ، وَلِمساكِي ، وَلِولدي السُلطان المَلِكِ الصالح علاء الدين «عليّ» ولوارثي مُلكي من أولادي ، ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقيّة ، ولا يُحرك مُلكه على عِزِّ سُلطاني حرباً قط ، ولا على

بلادي ، ولا على قلاعي ، ولا على عساكري ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحدنا
آخر على حرب مملكة عز سلطان في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحدنا من أصدقاء
عز سلطان ، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافق على ذلك ،
ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطان لمضرة شيء فيها بجهده وطاقته .

وإن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطان إلى بر بركة وأولاده وإلاهم
وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون أميين مطمئين مطلقاً : لهم أن يعبروا
في بلاد مملكة الملك الجليل ، كريمخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق :
أرسلوا في بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطان ، أميين
مطمئين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل
من معهم من مماليك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة
الملك الجليل كريمخايل إلى بلاد عز سلطان جور ولا ظلم ، ويتدردون أميين
مطمئين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر :
بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطان في بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل مثل
ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يحدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل
جوراً ولا ظلماً ، ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به
من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار ثمكهم
مملكة الملك الجليل كريمخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطان ولا تمنعهم .
وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، وشيئت
الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كريمخايل ، يسير عز سلطان إلى طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عزَّ سلطانى إلى هذا الجنس بسببهم، إلا أن يتحقق أنهم آخذون، أو تظهر عين المال معهم، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخايل، وبملكة الملك الجليل كرميخايل من بلاد عزَّ سلطانى مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عزَّ سلطانى ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخايل، يكونون أمينين مطمئنين فى سفرهم ومقايهم : براً وبحراً، وتكون رعية بلاد عزَّ سلطانى ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخايل، فى الجهتين من المسلمين وغيرهم أمينين مطمئنين ، صادرين وإردين، محترمين مرعيين . وهذه اليمن لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة، على الدوام والاستمرار .

قلتُ : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها، وإن عبر عنها فى خلالها بلفظ اليمن ، فإنهما بعقد الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك، ولذلك أوردتها فى عقود الصلح دون الأيمان .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملِكَيْن مُسلمَيْن ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السَّيَرِ وأهلُ التَّارِيخِ ، أَنَّهُ لما وقع الحَرْبُ بين أمير المؤمنين عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وبين مُعاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، في صِفَيْنَ ، في سنة سبعٍ وثلاثينَ من الهجرة - تَوَافَقَا على أَن يُقِيمَا حَكَمَيْنِ بينهما ، وَيَعْمَلَا بما يَتَّفِقَانِ عليه . فأقام أمير المؤمنين عَلِيٌّ أبا مُوسَى الأشْعَرِيَّ حَكَمًا عَنْهُ ، وأقام مُعاوِيَةُ عمرو بنَ العاصِ حَكَمًا عَنْهُ . فَاتَّفَقَ الحَكَمَانِ على أَن يُكْتَبَ بينهما كِتَابٌ بِعَقْدِ الصُّلْحِ ، وأجتمعا عندَ عَلِيٍّ رضى الله عنه ، وَكُتِبَ كِتَابُ الْقِضِيَّةِ بينهما بِحَضْرَتِهِ ، فَكُتِبَ فيه بعدُ الْبَسْمَلَةُ :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عَلِيٌّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تُنَحَّ أَسْمُ أمير المؤمنين فَإِنِ أَخَافُ أَنْ لَا تَرْجِعَ إِلَيْكَ أَمْدًا . لَا تَحْمُهَا وَإِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَإِنِ ذَلِكَ عَلَى مِلِّيٍّ مِنَ النَّهَارِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَشْعَثَ ^(١)] أَبْنِ قَيْسٍ قَالَ : أُنَحَّ أَسْمَ أمير المؤمنين ؛ فَأَجَابَ عَلِيٌّ وَعِمَاهُ . ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ : اللهُ أَكْبَرُ ! سَنَةُ بَسْمَةٍ . وَاللهُ إِنِّي لَكَاتِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَكُتِبَتْ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالُوا : لَسْتَ بِرَسُولِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ أَسْمَكَ وَأَسْمَ أَبِيكَ .

(١) يبايض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجْوَةٍ ، قُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذْنًا أَرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَعَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتَدْعُنِي إِلَى مِثْلِهَا فَتُجِيبُ » .



وهذه نسخةُ كِتَابِ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيهَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَاهِمٍ الْمِثْقَرِيُّ ، فِي " كِتَابِ صَفِينِ وَالْحَكَمِينَ "
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِي تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقَضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ قَاتِلَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضِينَا . وَأَنْ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لَيْتَخَذَانَ الْكِتَابِ إِمَامًا فِيمَا يُبْتَغَى لَهُ ، لَا يَبْغِدُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَمَدَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَقْبَعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبُهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غيره ، وأنهما آمنتان في حكومتيهما على ديمانيهما وأمواليهما وأهليهما ، ما لم يبدؤا الحق ، رضى بذلك راضٍ أو أنكركم نكر . وأن الأمة أنصار لها على ما قضى به من العدل .

فإن توفى أحد الحكيمين قبل آقضاء الحكومة ، فامير شيعته وأصحابه يختارون رجلاً ، لا يألوان عن أهل المدة والإفساط ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مثل شرط صاحبه .

وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء ، فليشيعته أن يؤلوا مكانه رجلاً يرضون عدله .

وقد وقعت القضية بيننا والأمن والتفاوض ، ووضع السلاح . وعلى الحكيم عهد الله وميثاقه : ليحكما بكتاب الله وسنة نبيه ، لا يتخلان في شبة ولا يألوان أجتادا ، ولا يتعمدان جوراً ، ولا يتيمان هوى ، ولا يعثنوان ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فإن لم فعلا برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لها ولا ذمة . وقد وجبت القضية على ما تميينا في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكيم والفرقيين ، والله أقرب شهيذا وأدنى حفيظا ، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى آقضاء مدة الأجل ؛ والسلاح موضوع ، والسبيل محلى ، والشاهد والغائب من الفرقيين سواء في الأمر . ولحكيم أن يترلا مترلا عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلا من أحببنا عن ملائمتها وتراض . وأجل الفاضلين المسلمين إلى رمضان : فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجبها له ، عجل . وإن أراد تأخيرها بعد رمضان إلى آقضاء الموسم ، فإن ذلك إليهما . فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى آقضاء الموسم ، فالمسلمون على

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يدعى على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو علماً ، أو أراد له نقضاً .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليّ : الأشعث بن قيس ، وعبد الله ابن عباس ، والأشعث بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيل ابنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورقاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقيق الخزاعي ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عبد الكندي ، وورقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكري^(١) ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسامة الفهلي^(٢) ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرتاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والنفاري بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السككي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد الخزاعي ، ومرة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري^(٣) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : القهري .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، ومثد بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوكيد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القيني، وطاصم بن المستنير الجذامي،
وعبد الرحمن بن ذى كلاج الحميري، والصباح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإن يئنا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء
ثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقد الصلح كان عند سعيد
ابن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي «عهد رسول الله» وفي خاتم معاوية «عهد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيما ذكرنا مفتح على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرقات يسيراً .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول ،

فما يكتب في الطرة والمثنى)

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .
وأما المثنى فعل توصيف :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أرفه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب القضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون :
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لأبنيه الأمين ، وولي نراسان أبنته المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعت بهما إلى مكة فعلقا
في بطني الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السائقة :
من تعلقي القصائد ونحوها . وبذلك سُميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأيمن، فنسخته بعد البسلة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مكة -
ما صورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد بن أمير المؤمنين في حجة
من بدنه وعقله، وجواز من أمره، طائما غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولاني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب
المسلمين جميعا، وولي أئني عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع
أمور المسلمين من بعدى، يرضا مني وتسليم، طائما غير مكره . ولأه نراسان
بشغورها، وكورها، وجنودها، ونراجها، وطرازها، وبريدها، وببوت أمواليها،
وصدقاتها، وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت
لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة
والعهد، وإلأية الخلافة وأمور المسلمين بعدى، وتسليم ذلك له ، وما جعل له
من ولاية نراسان وأعمالها، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطعة، وجعل له
من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه
في حياته ومحمته : من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق،
أو منزل، أو دواب ، قليلا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين مؤقرا عليه،
مسما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا فشيئا بأسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله
ابن هرون أمير المؤمنين . فإن أخططنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هرون
أمير المؤمنين ، لا أتبعه بشيء من ذلك ، ولا أخذه منه ، ولا أتقصمه، صغيرا
ولا كبيرا [من ماله] ولا من ولاية نراسان ولا غيرها مما ولأه أمير المؤمنين من
الأعمال، ولا أعز له عن شيء منها، ولا أخلعه، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهد وإن خلافة أحدًا من الناس جميعًا، ولا أُذخِل عليه مَكْرُوهًا في نفسه ولا دمه، ولا شَعْرِهِ ولا بَشْرِهِ، ولا خَاصَّ ولا عامٍّ من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قِطَاعَهُ، ولا عَقْدَهُ، ولا أُفْعِرَ عليه شيئًا لسبب من الأسباب، ولا أَخَذَهُ ولا أَحَدًا من عَمَالِهِ وَكُتَابِهِ وولاءِ أمره - ممن صحَّبه وأقام معه - بِمُحَاسَبَةٍ، ولا اتَّبَعَ شيئًا جرى على يديه وأيديهم في ولاية نَرَسَانَ وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحَّته : من الجباية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والعشور، وغير ذلك؛ ولا أمرٌ بذلك أحدًا من الناس، ولا أَرْخَصُ فيه لغيري، ولا أَحَدْتُ نفسي فيه بشيء أمضيه عليه، ولا أَلْجِسُ قِطْعَةً له، ولا أَقْصُ شيئًا مما جعله له هَرُونَ أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وخِلافته وسلطانِه من جميع ما سَمَّيْتُ في كِتَابِي هذا، وأَخَذَ له عَلَى وَعْليَ جميع الناس البيعة، ولا أَرْخَصُ لأحد - من جميع الناس كُلِّهم في جميع ما ولَّاه - في خَلْعِهِ ولا عَقْلِيَّتِهِ، ولا أَسْمَعُ من أحد من البرية في ذلك قولًا، ولا أَرْضَى بذلك في سرٍّ ولا علانية، ولا أَعْصِ عليه، ولا أَتَفَافُلُ عنه، ولا أَقْبِلُ من بَرٍّ من العباد ولا فَاجِرٍ، ولا صَادِقٍ ولا كَاذِبٍ، ولا ناصح ولا غاشٍّ، ولا قَرِيبٍ ولا بَعِيدٍ، ولا أحد من وَلَدِ آدَمَ عليه السلام : من ذَكَرَ ولا أَتَى - مَشُورَةً، ولا حِيلَةً، ولا مَكِيدَةً في شيء من الأمور : سرًّا وعلانية، وَحَقًّا وباطلًا، وظاهرًا وباطنًا، ولا سَبَبٍ من الأسباب، أَرِيدُ بذلك إفسادَ شيء مما أُعْطِيتُ عبد الله بن هَرُونَ أمير المؤمنين من نفسي، وأَوْجِبْتُ له عَلَى، وشرطتُ وَسَمَّيْتُ في كِتَابِي هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءًا أو مَكْرُوهًا، أو أراد خَلْعَهُ أو مُحَارَبَتَهُ، أو الوُصُولَ إلى نفسه ودمه، أو حَرَمِهِ، أو مَالِهِ، أو سُلْطَانِهِ أو وِلَايَتِهِ : جميعًا أو فرادى، مُسَرِّينَ أو مُظْهِرِينَ له - فَإِنِّي أَنُصِّرُهُ وَأُحِيطُهُ، وَأَدْفَعُ عنه، كما أَدْفَعُ عن نفسي، ومُهَجَّتِي، وِدَمِي، وشَعْرِي، وبَشْرِي، وَحَرَمِي، وسُلْطَانِي، وأَجْهَزُ الْجُنُودَ

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسليه [ولا أخذه] ولا اتقى عنه ، ويكون أمرى وأمره في ذلك واحداً [أبداً] ما كنت حياً .

وإن حدث بأمر المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كلاً فأتين عنه جميعاً : مجتمعين كلاً أو متفرقين ، وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلى لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا أعوقه عنها ، ولا أحبس قبي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأعجل إخصاصه إلى خراسان وإلياً عليها مفرداً بها ، موصواً إليه بجميع أعمالها كلها ، وأنتخص معه من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكناجه ، وعماله ، ومواليه ، وخدمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ، ولا أحبس عنه أحداً ، ولا أشرك معه في شيء منها أحداً ، ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بنداراً ، ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لها على نفسي ، من جميع ما سئمت وكتبته في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتي ، وذمة آبائي وذمت المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين وخلفه أجمعين : من عهوده وموآثيقه ، والائمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون أمير المؤمنين وسئمت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أقض شيئاً مما أنا عليه ،

أَوْ غَيْرَتْ أَوْ بَدَّلَتْ، أَوْ حُلَّتْ أَوْ عَدَّرْتُ، أَوْ قِيلَتْ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ : صَبِيرًا أَوْ كَبِيرًا، بَرًّا أَوْ فَاحِرًا، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، وَجَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى - فَبُرْتُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ وَلَايَتِهِ، وَمِنْ دِينِهِ، وَمَنْ مَحَدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقِيتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَاءٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَرْوَجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِيًّا ثَلَاثًا، الْبَثَّةَ، طَلَاقَ الْحَرَجِ، وَعَلَى الْمَثْنَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي، حَافِيًا رَاجِلًا، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَقَاءَ بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ الْحَرَامِ . وَكُلُّ تَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَعْرَارُ لَوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكُلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُتِبَتْهُ وَشَرْطَتْهُ لَهَا، وَحَقَّقْتُ عَلَيْهِ، وَتَمَيَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزِمُّ لِي الْوَقَاءَ بِهِ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ، وَلَا أَتَوَى إِلَّا إِلَاهَهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَائِقُ وَالْأَيْمَانُ كُلُّهَا لِأَزِمَّةً لِي، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَفُؤَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُودُهُ وَأَهْلُ الْأَفَاقِ وَالْأَمْصَارِ فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِنْجَارِي مِنْ وَلَايَتِي عَلَيْهِمْ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ، وَكَرَجُلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ، لَا حَقَّ لِي عَلَيْهِمْ، وَلَا وَلَايَةً، وَلَا تَبِعَةً لِي قَبْلَهُمْ، وَلَا بَيْعَةً لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْأَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي، بَرَاءً مِنْ تَبِعِيهَا وَوَزَرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِرِ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُهْدِيِّ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ، وَاحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سُلَيْمَانَ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحٍ بْنِ عَلِيٍّ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى، وَيَحْيَى
 أَبُو عِيسَى بْنِ مُوسَى، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ، وَثَرَمَةُ بْنُ حَازِمٍ، وَهَرَمَةُ بْنُ
 أَكْبَنَ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
 مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَدُمَانَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 النَّهْشِيِّ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
 أَبُو الشَّعْبِ النَّسَائِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبٍ
 الْحَجَبِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَبِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الْحَجَبِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 أَبُو عَثَانَ الْحَجَبِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَدِيهِ الْحَجَبِيُّ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَجَبِيُّ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَدِيهِ الْحَجَبِيُّ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُحَمَّدُ
 أَبُو مَنْصُورٍ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِغٍ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَالِدُ مَوْلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمَأْمُونُ، فَنَصَّهُ بِدِ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
 فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصَدَقَ نِيَّةً فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةً
 مَا فِيهِ مِنَ الْقَضِيلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُورَ وَلَاحِظَ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أَهْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
 بَعْدَ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَاحِظَ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نُرْسَانَ وَكُورَهَا ،
 وَجَمِيعَ أَعْمَالِهِا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعَشِيرِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَاشْتَطَرْتُ لِي عَلَى

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للبلاد بعده ،
 وولايي ثمراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أظنني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والقصد والدور والرّباع ، أو أبتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
 في سبب محاسنّه [لأصحابي] ، ولا يتلج لي في ذلك ولا لأحد منهم أثرا ، ولا يدخل
 عليّ ولا على أحد ممن كان معي ومعي ، ولا عمالي ولا كفاي ، ومن استعت به من جميع
 الناس - مكرها : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مالي ، ولا صغير ،
 ولا صغير .

فاجابه إلى ذلك وأقرّ به ، وكتب له به كتابا كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقيله وعرف صدق نيته . فشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن اسمع لحمد ابن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
 ولا أعشّه ، وأوفى بيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأمواره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وقي لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئا من ذلك ، ولم ينقص أمرا من الأمور التي
 اشترطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جنيد وكتب لي يأمرني
 بأشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقص شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولّاه -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إليّ .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يؤثّر رجلاً من ولّيه العهد والخلافة من بعده، فذلك له ما وثّق لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون، واشترط لي عليه، وشروطه على نفسه في أمري، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك، ولا أنقض ذلك ولا أغيّره، ولا أبذله، ولا أقدم [قبله] أحداً من ولّدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلا أن يؤثّر هرون أمير المؤمنين أحداً من ولّيه العهد من بعده، فيلزمني الوفاء بذلك.

وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا، ما وثّق لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له. [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمّي، وذمة آبائي، وذم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهدته ومواريقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها.

فإن أنا نقضت شيئاً مما اشترطت وسميت في كتابي هذا له، أو غيّرت، أو بدلت، أو نكثت، أو غدرت - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة [حلاق] الحرج. وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحراراً لوجه الله تعالى. وعلى انشيء إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً وإجاباً على وفّي عني،

حَاقِبًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مَنِّي إِلَّا الْوَقَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لَوْ هُوَ الْيَوْمَ أَوْ أَمَلِكُمْ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ . وَكُلَّ مَا جِئْتُ لَعَدَ اللَّهُ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرِطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي ، لَا أَضْمِرُ ضِرَّهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهِدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونُ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحُجْبِيَّ فِي إِثْبَاتِهِ بَهْمَا ، فَفَرَعَهُمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَاخْذَهُمَا الْفَضْلُ نَحْرَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى تَحْوِينَ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِي مُوَاصَفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَيْ الْفَوَارِسِ ، وَصَمَامِ الدَّوْلَةِ وَتَمَسِّسِ الْمِلَّةِ أَيْ كَالِجَارِ ،
أَبْنَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ بِنَ رُكْنِي الدَّوْلَةِ بِنَ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وَالثَّلَاثَةِ .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا أَتَمَّقُ وَأَصْطَلِحُ وَتَعَاهَدُ وَتَعَاهِدُ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَمَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِجَارِ أَبْنَا عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَيْ مُتَحَاجِّ بِنَ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَّلَعَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأَيَّدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَطَوَّهُ وَإِذَّنَهُ .

إِتْمَقًا وَتَعَالُحًا ، وَتَعَاهِدًا وَتَعَاهِدًا ، عَلَى تَحْوِيٍّ اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتِمَادِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِكْتِبَاءِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِفْرَارِ بِأَخْرَاجِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا يَدَّ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلم تسلياً؛ والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والاكترام بوثائق بيعة، وعلائي
دفعونه؛ والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يُمسكا [ذات] بينهما
بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنها لها السلف الصالح من آباؤهما وأجدادهما
في التألف والتوازر، والتعااضد والتطافر؛ وتُعظم الأصغر للأكبر، وإشبال الأَكْبَر^(١)
على الأصغر؛ والاشتراك في النعم، والتفاوض في المخطوط والقيم؛ والاتحاد بخُلوص
الطوايا، والحقايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من
أسباب المناقصة، وجرائر المضاعفة؛ وجوالب النبوّه، ودوايى الفرقة؛ والإفراق
لأعداء الدولة، والإزصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناسم، وقبح كل مُقاوم،
ورغام أنف كل ضار متعبر، وإضرار خد كل مُتطاول مُستكبر؛ حتى يكون
الموالي لأحدهم منصوباً من جماعتهم، والمعادى له مقصوداً من سائر جوانبهم؛
فلا يبعد المتأيد على أحدهم مفزعة عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به، ولا أليقاء
إليه؛ لكن يكون مرمياً بجميع سهامهم، ومضروباً بأسيايف قِصمهم، ومأخوذاً بكُلِّية
بأسهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب تجلّبتهم وشلتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة،
والطرائق السليمة؛ جارية للذول يجرى الحُسن الدافعة عنها، والمعاقل المانعة لها،
ويُعثلها تطمين النعم وتُسكن، كما أن بأضدادها تسمت وتُفتر.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا الفوارس، وضمّصام الدولة
وتمس الملة أبا كاليبجار اعتقاد هذه الفضائل وإيتارها، والتظاهر بها واستشعارها؛
ودعاهما مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى ما دعاهما إليه من الصالحات والتألف،
والتصافي والتخالص؛ وأمر ضمّصام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

أبي الفوارس في إحكام معاهد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة - أمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس : أصغى إليه شرف الدولة إصفاء المستورتي المستصحب، وتقبله تقبل العالم الليب، وأخذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة المعروف من كفايته، والمشهور من أصطناع الملك السعيد عضيد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإبداعه إياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوى في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

بقرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبي كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور آتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه الموصفة ما احتيج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

نأما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما ثبوتهما، فهو : أن يتقاعص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزء طليهما سقهاء الأتباع : من ترك التواصل، واستعمال التقاطع، ويرجعاً عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن متغصبة التنافر والتهاجر، إلى منقية التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريداً لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقداً في الذنب عن بلاده وحديثه مثل الذي يعتقده في الذنب عما يختص به؛ ومُسيراً مثل ما يظهر : من موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ والمراعاة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما تأييم، أو راعمه مُراييم، أو هم به حاسد، أو دلف إليه مُعاند، أو نقفا جميعاً على مُقارعتيه: قريباً كان أو بعيداً، وترافدا على مُدافعتيه: دانياً كان أو قاصياً، وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى الموائمة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّبِعُ وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّةٍ ، وَوَجَالٍ وَتَجَدُّه ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَفْعُلُ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَنْ أُخِيهِ ، وَلَا يَحْتَلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَاوَزَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ أَرْغَابٍ مُرْغَبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْنَأً إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَقْصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَحْقِيقُهُ حَقًّا ، وَلَا يَتَيْتَكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُحْيِي لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَنْسَبُّ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْيَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَاقِفَتَهُ ، وَمُلَامَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَاهَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ أَلْتَرَامًا عَلَى التَّمَاثِيلِ وَالتَّعَاكُلِ ، وَالتَّوَاوِيِ وَالْتَقَابِلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِتِّهِ ، وَيُعْطِيَهُ فِي كُلِّ مَا أَقَادَ الدَّوْلَةَ الْجُلَامَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ حُدُودِهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهِمَا بَيْزًا ، وَعَلَى عَدُوِّهَا يَنْقَلَبَ ؛ وَأَنْ يُقِيمَ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِيَّتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي تَقْيِينِ سَبَكِكِ دَوْرِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْعِمُ بِهَا الْبَنَارَ وَالْدَّرْهَمَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ فِي الْمَكْتَبَاتِ

الْأَمْنَةُ تُقَبُّبُ الْخَلِيفَةَ، وَالْأَنْسَاءَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطْلَاقِهِ إِهْلَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيتِ وُطْأَتِهِ - رَافِعِينَ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ غُلْصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ، وَالصُّلْحُ خَبْرًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْظُمُ بِهِ : مِنْ حَقِّ الدَّمَاءِ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنَ الْخِلَالِ الْقُحُومَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمُنْدُودَةِ، الْمُقَدِّمَ ذِكْرُهَا - مَاحِدًا عَلَيْهِ، وَمَثَلَ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْأَرْوَاحِ الصَّحِيحَةِ مُؤْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ، وَحُسْنَ الْعَانِدَةِ عَلَى الْخِلَاصِ
 وَالْعَامِّ بِهِ؛ فِيمَا يَجِبُ لِلْعِيُونِ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّلُومِ، إِذَا الدِّينُ وَاقِعٌ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطِلِ، وَالْجَائِرِ وَالْمُقْسَطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ نِسَاءً مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوهُمْ فَيَنصِبِيكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَاطِرًا
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعْرَةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بَعْضُهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيرُهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدُونِ، مَعَ رَفِيقِهِ عَنْهُمْ فَرَطَاتِ النَّسْيَانِ، وَكَأَنَّا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ تَحْتِثًا عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَإِهْلَاءًا عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْبِقَاءُ الَّذِي أَذْنَاهُ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْرُهُ، وَمَوْفِيقُ الْحَمْدِ فِي طَاقِبَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَنَّهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدُهَا، وَمِنْ مَرَاغِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدُهَا، مَقْصُورَةٌ
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا خَوَّلَهُ، وَمَعْصُومَةٌ أَصْنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا تَوَلَّاهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مُجَادٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَنْهُدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ « قَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ « بَرْقُوق »، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 الْأَنْطَلْقِيِّ يَمُورُ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّوْرِ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامِ وَقَتِّهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيرِهَا، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَعْلَمُشَ
 لَزَمَهُ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بَرْقُوق » مَحْبِبةِ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكُجْجَانِي . جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ مُحِبَّةِ الْخَوَاجَا

النوع الثاني

(مما يجرى عقد الصلح فيه بين مَلِكَيْن مُسْلِمَيْن -

ما يكونُ العقدُ فيه من جانب واحد)

والكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عَقْدِ صُلْحٍ من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصَّاهِي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير ، والشرقيين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسين محمد ابنه الرضى ، بما انعقد من الصُّلْحِ والصَّهْرِ بين الوزير المذكور ، وبين النقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على مُسَخَّتين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماصورة :

هذا كتاب لسابور بن أزدشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوى ، وولده محمد بن الحسين الموسوى .

إنا وإناؤه - عند ما وصله الله بيننا من الصَّهْرِ والخُلطة ، ونَجَّه من الحال والمودة - آثرنا أن ينقِذَ بيننا وبينك ميثاق مؤكَّد ، وعَهْدٌ مُجَدَّد ، تَسْكُنُ النُّفُوسُ إليهما ، وتطمئنُّ القلوبُ معهما ، وتزدادُ الألفةُ بهما على مرِّ الأيام ، وتماقِبُ الأعوام ؛ ويكونُ ذلك أصلاً مُستقراً نرجع جميعاً إليه ، ونُؤوِّلُ ونُعتمدُ عليه ، وتوارثه أَعقابُنا ، وتلبُّنا فيه أخلاقنا .

فاعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذَهُ على أنبيائه المرسلين ، ومَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن مُسَدِّورِ مُفْشِرِهِ ، وآمالٍ في الصِّلَاحِ مُنْقِصِهِ - أنا

نُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا مَحْبِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَبِوَاقٍ خَافِيهِ عَالِنَهُ ؛ وَأَنَا نَوَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصَمْنَا لَكَ صَمْنًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرَمَةَ عَلَيْنَا ، الْأَثِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بَنَتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُتَقَلِّةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعِيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِشِعَافِهَا ؛ وَتُجْرِيهَا بِجُرَى كَرَامَتِ حُرْمَتِنَا ، وَتَفَافِسُ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّهِ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانِنَا ؛ وَتَنَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ حَيْثُهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرُ مَوْنِهَا وَمَوْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهَوُّضِ وَالْوَقَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَكَانَ فِيهَا ؛ فَلَا تُعْلِمُ شَيْئًا الْفِتْنَةُ : مِنْ إِشْبَالٍ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانٍ إِلَيْهَا ، وَدَبِّ عَنْهَا ، وَمُعَامَاةٍ دُونَهَا ، وَتَهْمِيدٍ لِمَسَارِّهَا ، وَتَوْخُّعٍ لَهَايَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكَلْبُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّ مَتْنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، خَيْرُ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهِلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الصُّمُوتِ ، الَّذِي يَعْلَمُ حَاقِنَةَ الْأَخْيَرِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقُّ عَهْدِ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرَّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَفَ ذِكْرُهُمَا ، وَسَادَتَا الْأُمَمِ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا أَجْمَعِينَ . وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ ؛ لَتَقِينَ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةِ الْأَثِيرَةِ أَبَتِكَ فُلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَنَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكَلْبُ ، وَفَاءً مَحْبِيحًا ، وَلَنَلْتَرَمَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِعُهُ وَوَدَائِقُهُ ، فَلَا تَقْصُحْهَا ، وَلَا تَقْصُضْهَا ،

ولا تَتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّوَلَّ فِيهَا ، وَلَا تَزُولُ عَنْهَا ، وَلَا تَلْمِمْ مَحْرَجًا وَلَا مَخْلَصًا
 مِنْهَا ، حَتَّى يَجْعَلَ الْمَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَالْمَقْدَمُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ نَابِتَانِ
 عَلَيْهَا ، وَمُؤَدِّيَانِ لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ، أَدَاءً يَشْهَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَمَلَايِكَتُهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ،
 وَيُجَاسَبُ الْعِبَادُ . فَإِنْ نَحْنُ أَخْلَيْنَا بِذَلِكَ أَوْ يَتَّبِعْ مِنْهُ ، أَوْ تَأْوَلْنَا فِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
 أَوْ أَصْغَرْنَا خِلَافَ مَا نَظْهَرُ ، أَوْ أَسْرَرْنَا ضِدَّ مَا نَعْلِنُ ، أَوْ أَتَمَسْنَا طَرِيقًا إِلَى تَقْضِيهِ ،
 أَوْ سَبَّلْنَا إِلَى قَسْفِهِ ، أَوْ أَلْمَنَّا بِإِخْفَارِ ذِمَّةٍ مِنْ ذِمَّتِهِ ، أَوْ أَتَهَكَّ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ ،
 أَوْ حَلَّ عِصْمَةٍ مِنْ عِصْمِهِ ، أَوْ أَطْلَلْنَا شَرْطَ مَنْ شُرُوطُهُ ، أَوْ تَجَاوَزْنَا حَدَّ مَنْ
 حُدُودُهُ . فَالَّذِي يَقْعَلُ ذَلِكَ مِنَّا يَوْمَ يَقْعَلُهُ أَوْ يَعْتَقِدُهُ ، وَحِينَ يَدْخُلُ فِيهِ وَيُسْتَجِيرُهُ -
 بَرَىءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ ، وَدَنَ نُبُوءَةِ رَسُولِهِ عَمْدٍ ، وَمَنْ وَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ
 أَبِي طَالِبٍ صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمْ ، وَمَنْ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ الْعَظِيمَ ، وَمَنْ دِينَ اللَّهِ الصَّحِيحَ
 الْقَرِيمَ ؛ وَلَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْغَرَضِ عَلَيْهِ ، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ بِهِ - سَبْحَانَهُ -
 مُشْرِكٌ ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُتْلَافٌ ، وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ مُعَادٍ ، وَلِأَعْدَائِهِمْ مُوَالٍ ؛
 وَعَلَيْهِ الْحَجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْعَتِيقِ الَّذِي بِمَكَّةَ : رَاجِلًا ، حَافِيًا ، حَاسِرًا ، وَإِمَاؤُهُ
 حَوَاتِقٌ ، وَنِسَائُهُ طَوَالِقٌ ، طَلَاقُ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ ، لَا رَجْعَةَ فِيهِ وَلَا مَتْنُوِيَّةً ، وَأَمْوَالُهُ
 - عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا - مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ ، وَخَارِجَةٌ عَنْ يَدَيْهِ ، وَحَيْسَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَبَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَجْلَاهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ،
 والثبوت في جميعها نيابة فلان بـ فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،
 والثبات عليها ، والالتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شيئا ،
 وجازيا لبيادته وميثابه . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ
(١) لَمَّا كَانَ

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي "كَلَامِ الْبَلَاغَةِ" فِي التَّرْصُلِ ، بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيَ ، وَلَا أَمْتَنَ عَنْهُ قَوِي ، أَسْتَدْعِ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِعْلِهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْذَاهُ ، وَلَا رَيْبٍ أَقْضَاهُ ، وَأَيْلُمُ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدَوَاتِ الْعَالَةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاظِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَاسْتَكْفَا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِجَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَنْفِهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لَهُمْ فِي التَّبْيِيرِ ، وَغَلِبِهِمْ
فِي الْمُجْهَمِ ، بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَآيَاتٍ بَيَّنَّهَا ، وَمَعَالِمٍ أَوْحَتْهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ، وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْضَاهُ وَأَصْطَفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَجْتَنَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ، وَجَعَلَهُ مُهَيِّجًا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْبِرَّ لِحُزْنِهِ وَأَهْلِهِ ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاظِحِينَ لَطَرَفِهِ ، وَالْمَسَادِينَ لِقَرَانِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَهْرَةٍ بَعْدَ قَهْرَةٍ ، وَبَيِّنَةٍ بَعْدَ بَيِّنَةٍ ، حَتَّى
أَتَتْهُ تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ يَبْتَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ ، الْفَاضِلُ الرَّكِّيُّ ، الَّذِي قَفِيَ بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْبَانَ الْأُمَمِ ، عَلَى حِينِ تَرَانِي

قَرَّه، وَتَرَاهِي حَيْرَةً، فَأَبَاحَ بِهِ نِيرَانِ الْفِتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا، وَأَضَاءَ بِهِ سُبُلَ الرِّشَادِ بَعْدَ إِظْلَامِهَا، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ التَّهْوِضِ بِأَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ، وَالْقِيَامِ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَازْأَحَ بِذَلِكَ الْعِلَّةَ، وَقَطَعَ الْمَعْذِرَةَ، وَلَمْ يُبْقِ لِلشَّاكِّ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ، وَلَا لِلْعَائِدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ؛ حَتَّى مَضَى حَيِّدًا تَشْهَدُ لَهُ آثَارُهُ، وَتَقُومُ بِتَأْيِيدِ سُلَّتَنِه أَخْبَارُهُ، قَدْ خَلَّفَ فِي أَمْتِهِ، مَا أَصَارَهُمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَمُخْطَلِهِ، إِلَّا مَنْ شَقِيَ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ، وَحُرِمَ الرِّشَادَ بِخِذْلَانِهِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَتَمَّتْهَا، وَأَوْفَاهَا وَأَعَمَّتْهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالتَّوْفِيقِ وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّسْيِيدِ؛ فِي جَمِيعِ أَمْنَانِهِ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ، وَجَعَلَ هِمَّتَهُ (إِذْ كَانَتْ أَلْهَمُ مَنْصُورَةً إِلَى هَشِيمِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا، الَّتِي يَقْتُلُ بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوهَا إِلَى نَفْسِهَا)، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجْمَعُ لَهُ رِضَا رَبِّهِ، وَسَلَامَةُ دِينِهِ، وَأَسْتِقَامَةُ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ، وَصَلَاحُ أحوَالِ رِعِيَّتِهِ، وَأَيْدِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْمَارِضَةِ، وَالشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ، الَّتِي تَحَارُّ فِي مِثْلِهَا الْآرَاءُ، وَتَضْطَرِبُ الْأَهْوَاءُ، وَتَنْتَازِعُ خَوَاطِرُ النُّفُوسِ، وَتَفْتَلِحُ وَسَاوِسُ السُّدُورِ؛ وَيَتَخَيَّرُ مَوْضِعُ الصُّوَابِ، وَيُشْكَلُ مَنَهِجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّلَامِ وَالْمَوَادِّعِ، وَالصُّلُحِ وَالْمُؤَاقَفَةِ؛ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى قَبْلِهِ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي حِمْمَتِهِ، بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَقْمُودًا، وَرِوَاقُ الْأَمْنِ مَمْدُودًا، وَالْأَهْوَاءُ مُنْفَقَةً، وَالْقُلُوبُ مُؤَيَّدَةً، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمَعَةً؛ وَفِرَاتُ الْفِتَنِ وَالضَّلَالَةِ خَامِدَةً، وَظُلُومُ بَنَاتِهَا وَالسَّاعِينَ لَهَا كَاذِبَةً، وَطَبَقَاتُ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ لَهُمْ مِنْ

الْأَمْنَةُ تُعْقِبُ الْخِيفَةَ، وَالْأَنْسَاءَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَنْشَرَةٌ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيتِ وُطْأَتِهِ - رَاغِبِينَ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ، وَالصُّلْحُ مَحْبُورًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظَمُ بِهِ: مِنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ، وَسُكُونِ الدِّمَاءِ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنَ الْإِلْهَالِ الْمُحْمَدَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمُنْدُودَةِ، الْمُقَدِّمَ ذِكْرُهَا - مَحْدًا عَلَيْهِ، وَمِثْلَ
 لِلْمَقُولِ السَّليمةِ وَالْأَرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ، وَحُسْنَ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخَاصِّ
 وَالْعَامِّ بِهِ؛ فِيمَا يَقْبَلُ لِلْمُيُونِ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ، إِذَ الدِّينُ وَاقِعٌ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ، وَالْخَيْرِ وَالْمُقْسِطِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ تَعَالَاهُ: ﴿وَتَوَلَّوْا رِجَالَكُمْ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْلُوعُهُمْ فَتَصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَاطِرًا
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَرَّةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بِبَعْضِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيهِمْ مِنْ ظُلْمِ
 الْعَدُوِّانِ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَّطَاتِ النَّسِيَانِ، وَكَأَفَا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَإِقْبَاءً عَلَى أَهْلِ مَصِيبَتِهِ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَذْنَاهُ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمَّضَاهُ، وَمَوْقِعُ الْحُدُودِ فِي عَاقِبَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتَمَتِهِ. وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا، وَمِنْ مَرَافِقِ الْمَيْشِ أَرْغَدَهَا، مَفْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا خَوْلَهُ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ.

قُلْتُ: وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَقْدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «قَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق»، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 الْأَنْطَلِجِيِّ تَيْمُورُ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيقِهَا، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَشِ
 لَزِمِهِ، الْمَاسُورِ فِي النُّوَلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» مُحِبِّهِ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودَ
 الْكَجَجَانِي. جُهِزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرِينَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ مُحِبِّهِ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقر الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدسيت الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع^(١) ... بقلم^(١) ... وفى طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مجلّ معكرم جميل نظم؛ مشتمل على عقد ضلع آتتعه المقام الشريف، العالى، القطبي، نصرة الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبى السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبى سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . آتقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ووكيله فى ذلك، انلوجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر محبته من المثلول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسليه إليه ومضمون مكاتبتيه، وقصده تجهيز الأمير أطلمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافقة والمصافاة، واتحاد الملكتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال يوصل الطرة، والبسلة فى أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسلة سطر، ثم يت العلامة، والسطر الثانى بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل التلث بالنهب ما صورته : « الله أَمَلِي » .

وَنُسخَةُ الْمَكْتُوبِ بَعْدَ الْإِسْمَةِ مَا صُورَتْهُ :

الحمد لله الذي جعل الصلح خير ما اتفقت عليه المصالح ، والإصلاح بين الناس
أولى ما اتصلت به أسباب المنافع ، وأحق ما نطق به اللسان المحامد وأثنت عليه
أفواه المدائح .

تَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْنَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِفِ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَى بِهَا كُلُّ غَادٍ وَرَائِحٍ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْنَ الْمَنَاجِحِ، وَتَنْتَقِرُ بِجَالِسِ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رَوَائِحِهَا الرِّوَائِحِ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ عِمَادَ عِبَادِهِ وَرَسُولَهُ أَفْضَلُ مِنْ آخَى بَيْنَ الْمُتَعَاكِمِينَ فَنُصَبِّحُ اللَّهَ وَرَأَى الصُّلَحِ مِنْ أَعْظَمِ النَّصَائِحِ، وَأَكُلُ رَسُولِهِ أَهَادُثَ لَأَخْلَاقِهِ الرِّضْيَةِ، وَصِفَاتِهِ الْمُرِضِيَةِ، جَوَانِحِ النَّفُوسِ الْجَوَانِحِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فإنَّ أَوْلَى ما أَجْتَمَعَتْ طِيةَ أَرَأَى أَوْلَى الأَلْبَابِ، وَرَكَنْتَ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوْدَةِ وَالْأَحْبَابِ - ائْتِلَافُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا، وَاتِّصَافُهَا
بِاتِّلَافٍ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا، وَالْعَمَلُ عَلَى الصَّلَاحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ، وَأَزْيَجُ
مَتَاحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَذْفَعُ لِلْبَاسِ وَالْبَاسِ، إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ،
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِجِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ، وَالِدَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءٌ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجْمَةٌ مِنْ دِيَارِ الْغَلِيلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْكَبِيرُ ، الْعَالِي ، الْعَامِلُ ، الْمُؤَيَّدُ ،
الْمُظَفَّرُ ، الْمُنَجَّى ، الْمَلَاذِي ، الْوَالِدِي ، الْقُطْبِي ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْفَاصِدِينَ ،
مَوْلَا الْعَالِدِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، تَجْمُودُ كَوْنٍ ، زِيْنَةُ عِظَمِهِ -
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمُقَازَاةِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَمَمَّة ، الْوَارِدَة إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَلِكِ ،
الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدِّينِ وَالْزَيْنِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدٍ « بَرْقُوق » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَائِي ، مَسْعُودِ
الْكُجْبَانِي ، الْمَوْخَرَّةِ بِمُسْتَهْلِ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تَارِيخِهِ .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسُرْمُكُنُونُهَا - قَصْدُ إِهْلَاجِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ
إِلَيْهَا ، وَتَسْجِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالُ رِذَاءِ تَحَامِينِهَا عَلَيْهِمَا ،
بِمَقْتَضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطُوبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى
الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوَكُّلِهِ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ،
وَجَلِّ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ،
وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطْلَهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمُجَهِّزِينَ مُحِبَّةِ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
الْمَذْكُورِ ، وَهِيَ : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ
الْجَزَيْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُّ كَيْلُ الدِّينِ كَيْلُ آغا ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ
الشَّرِيفِ الْقُطُوبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، لِمُؤَاقَفَتِهِ عَلَى الصُّبْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ
بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشْ لَزِمَ الْمَقَامِ الْقُطُوبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجَهُّزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ،
وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحْضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَارِيهَا ، وَمَنْ حَضَرَ
مَجْلِسَهُ ، بِالْبَيْتِ الشَّرْعِيَةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْنَاتِ الْحَلْفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
وَبَارِئُ النَّفْسِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الْدَاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ
مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا طَاهَدَ وَصَالَحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ
نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَيْكَلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطُوبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ
وَيَرْفُضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فند ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وتهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبركا بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استنار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايع العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يصح خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها، وما قامت به البينة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين محبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروع فيه . فكان صلحا صحيحا شرعيا، تاما كاملا معتبرا مرضيا، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر، لما في ذلك من حفظ دعام المهود الشريفه، وإقامة منار الشرع الشريف وأمنه .

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرَيْفَةِ ؛ وَإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّنِيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
عَلَى مَدَى اللَّيَالِ وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَحْتَلُّ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السَّنِينَ
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرِهَا وَجُنْدِهَا وَمَا إِلَيْكُمَا إِلَى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكٍ وَقِلَاعٍ ، وَحُصُونِ
وَسَوَاحِلَ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرِعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطَوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِبِلَادٍ كُلِّ مِنْهَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرُهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِبِيهَا وَدَانِيهَا ، وَطَاعِمِيهَا وَغَايِمِيهَا ، وَبَاطِنِيهَا وَظَاهِرِيهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْفَائِدِينَ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :
مَتَّفِقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى اكْتِمَالِ
مَا يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمَوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِمْتِرَاجِ وَالْإِخْلَاطِ كُرُوحِينَ فِي جَسَدٍ ؛
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْخَوَارِجِ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْشِرُ الْأَنْفُسُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الفسخُ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف" : وَقُلْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى الْبَيْتَةِ الرَّسُلُ .
قال : وقد كتب عَمِّي المصاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ [أبو محمد^(١)] عَبْدُ الوَهَّابِ رحمه الله ،
سنة دخول العساكر الإسلامية مَلَطِيَّةَ ، سنة أربع عشرة وسبعمائة فَسَخَا على التكفور
مُتَمَلِّكٍ سَيِّسٍ ، كان سببا لأن زاد قَلْبِيئَتَهُ . ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
مُوجِبَ الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظُهور ما يوجب نقض العهد ،
ونكث العقد ، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف" : والذي أقولُ فيه : إنه إن كُتِبَ فيه ، كُتِبَ بعد البسملة :

هذا ما استخار الله تعالى فيه فلانُ ، استخارةً تَبَيَّنَ له فيها غَدْرُ الغادر ، وأظهر له بها
سِرُّ الباطن ما حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ؛ فَسَخَ فيها على فلانٍ ما كان بينه وبينه من المُهادنةِ
التي كان آخِرُ الوَقْتِ الفلاني آخِرَ مُتَمَتِّها ، وطهر السيف الذُّكُور فيها من الدِّماء إلى
أنقضاء مَلَّتِيها ؛ وذلك حين بدا منه من مُوجِبَاتِ النِّقْضِ ، وَحَلَّ المُعَادَةِ التي كانت
يُسَدُّ بِمَعْضَاهَا بعض (وهي كذا وكذا ، وتذكر وتعد) مما يوجبُ كُلَّ ذلك إِنْخِفَارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذمة ، وتقضى المهود المترعة الحرمه ، وهذه قواعد الهدنه ، وتحليلة ما كان قد أمسك من الأعينه ، كتب إنذارا ، وقدم حذارا ، ومن يشهد بوجود هذا الفسخ ، ودخول ملة تلك الهدنة في حكم هذا الفسخ ، ما تشهد به الأيام ، ويعكم به عليه النصر المكتتب للإسلام ، وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهده ، وأنجز وعده ، وأخذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على مملاته ، وأقام مدة يدارى مراض وقاله ولا يضح فيه شيء من مداواته ، ولينصرن الله من ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذر ، وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ، لينقل مضمونه إلى البلاد ، أئمة من أمر لا يتأذى به الإعلان ، وينصب به لهذا الغدير لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لقدرة فلان بن فلان .

الفصل الثاني

المُفاسخة وهي ما يكون من الخائنين جميعا

قال في "التعريف" : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما اختاره فلان وفلان من فسخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . اختارا فسخ بناها ، ونسخ أنبأها ، وتقضى ما أبرم من عقودها ، وأكّد من عهودها ، جرت بينهما على رضا من كل منهما بإيقاد نار الحرب التي كانت أطفئت ، وإثارة تلك التوارث التي كانت كفيّت ، نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كل منهما ، أن المصلحة في هذا يلحظه ، وأسقط ما كان يحمله للاستحار من ربقته ، ورضى فيه بقضاء السيف ، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مساقيات الخوف ، وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر ، ومن سمع ونظر ، وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

في فتون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها، ليس لها
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الحدييات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامية بفتح الميم، وهي في أصل اللغة أسم للجلس والجماعة من الناس .
وسميت الأخذونة من الكلام مقامية، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم، فيمعي الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة : (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ) .

وأعلم أن أوّل من فتح باب عميل المقامات، علامة النهر، وإمام الأدب،
البيديع الحمّداني : فعيل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة،
وطول الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القايم الحريري، فعمل مقاماته
الخمس المشهورة، بغضامت نهاية في الحسن، وأنت على الجزء الوافر من الخط،
وأقبل عليها الخصاص والعام، حتى أنست مقامات البيديع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" لم يوفّه حقّه، ولا طامله
بالإنصاف، ولا أجمل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات،

حتى ذكر عن الشيخ أبي محمد أحمد بن الخشاب أنه كان يقول : إن الحريري رجل مقامات . أي أنه لم يحسن من الكلام المثنوي سواها ، فإن أي بغيرها فلا يقول شيئاً . وذكر أنه لما حضر بغداد ، ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويحسن أثره فيه ، فأحضر وطف كتاب كتاب فأفحم ، ولم يجر لسانه في طوله ولا قصيره ، حتى قال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة القرس * يتف حنونه من الهوس ،

أنطقه الله بالشان وفي * بغداد أمحى المنجوم بالخرس !

وأعذر عنه بأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى غلص ، بخلاف المكاتبات فانها يجر لا ساحل له : من حيث إن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عدد الأفاس .

وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب ، إلى أي كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، عند استقرارى في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها أشتملت - مع الاختصار - على جملة حجة من صناعة الإنشاء ، وسمتها بـ "الكواكب الدرية" ، في المناقب البدرية " ووجه القول فيها لتقرظ المقر البدرى ، بن المقر العلاني ، بن المقر الحميري ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ . جعلت مبنها على أنه لأبد للإنسان من حرفة تتعلق بها ، ومعيشة يتسك بسبها ، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ، ولا يجوز له الملول عنها إلى ما عداها ، مع الجئوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتهديمها على كتابة الديونة وترشيحها .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواهر ، مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ، ومهدت قواعده ، على ما ستقف عليه في خلال مطالعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناظر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمري مرر الكيف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأتزه توحيد الاستفصال عن إشراك التعطيل ، مشمرا عن ساق الحد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملزمة الأفراد ، أتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغنم حالة الصحة قبل نجاها ، قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ، أهرن النفس على الاستفصال كي لا تمهل فتفرعن الطلب وتجع ، ميملا جانب قصديها عن رگوب الأهواء والميل إليها ، صارقا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والرگون إليها ، متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قاننا بأذى العيش راضيا بأبصر الأوقات ، أونس من شوارد المقول وحشيشا ، وأشرد عن روايض المقول حوشيا ، وألقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ، مقيما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألقفها ، معتمدا من ذلك ما تآلفه النفس ويقبله الطبع ، مقيلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستجلي ذكره السمع ، متفيا من الكتب أمتها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ، متخبا من أشيخ الإفادة أوسمهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أفران المذاكرة أروضهم بحثا وألطفهم تدقيقا ، عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل عليم مستحقه ، قد استغنيت بنگاي عن غل ورفيقي ، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشفيقي ، أجوب قيساني الفنون لتظهرى طلابي الفوائد فاشهدا عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنبي عنها عيانا ، وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالتَّيْمَةِ ، وَأَهْمُّ عَلَى حُصُونِ الدَّفَائِرِ نَحْمُ لَا أَوْلَى عَنْ هَزِيمَةٍ ؛ بَلْ كُنَّا لَاحَتْ لِي فَنَلَّهِ
 مِنَ الْبَحْثِ تَحَيَّرْتُ إِلَيْهَا ، أَوْ ظَهَرْتُ لِي كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَعَانِي حَمَلْتُ عَلَيْهَا ؛ إِلَى أَنْ أُتِيحَ
 لِي مِنَ الْفَتْحِ مَا أَفَاضَتْهُ النِّعْمَةُ ، وَحَصَلْتُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَى مَا أَقْتَضَتْهُ النِّسْبَةُ .

فَبَيْنَا أَنَا أَرْتَعُ فِي رِيَاضِ مَا نُقِلْتُ ، وَأَجْتَنِي بِمَارَ مَا خُوِّلْتُ ، إِذْ طَلَعَ عَلَى جَهَنُّشِ
 التَّكْلِيفِ قَهْصَرُنِي ، وَخَرَجَ عَلَى كَيْبِنِ التَّكْلِيفِ فَاسْرَنِي ؛ فَانْسَيْتُ فِي أَضْيَاقِ خِنَاقِ ،
 وَأَشَدَّ وَثَاقِ ؛ قَدْ عَاقَبَنِي قَيْدُ الْاِكْتِسَابِ عَنِ الْاِشْتِغَالِ ، وَصَدَّنِي كُلُّ الْكَدِّ عَنِ
 الْاِهْتِمَامِ بِالطَّلَبِ وَالْاِحْتِفَالِ ؛ فَنَعِشْنِي مِنَ الْقَبِيضِ مَا عَشِشْنِي ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْوَحْشَةِ
 مَا أَخَذَنِي ؛ وَتَمَارَضَ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ بَيْنَ الْكَسْبِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَتَسَاوَايَا فِي التَّرْجِيحِ
 فَلَمْ يَجْعَ وَاحِدَةً مِنْهُمَا إِلَى السَّلَمِ ؛ فَصَرْتُ مَذْهُوشًا لَا أَحْسَنُ صُنْعًا ، وَقَبِيتُ مُتَحَيِّرًا
 لَا أَذْرِي أَى الْأَمْرَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى نَفْعَا ؛ : إِنْ طَلَبْتُ الْعِلْمَ لِلْكَسْبِ فَقَدْ أَفْخَنْتُ
 رُجُوعًا ، وَإِنْ تَرَكْتُ الْكَسْبَ لِلْعِلْمِ هَلَكْتُ ضَيَعَةً وَمُتَّ جُوعًا .

فَلَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا لَا يَقُومُ إِلَّا بِصَاحِبِهِ ، وَلَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ فِي أَحَدِهِمَا
 مَا لَمْ يَتِمَّ فِي الْآخَرِ بِوَاجِبِهِ ؛ أَتَمَسْتُ كَسْبًا يَكُونُ لِلْعِلْمِ مُوَافِقًا ، وَبَعْدَتْهُ لَا تَقَا ؛ لِيَكُونَ
 ذَلِكَ الْكَسْبُ لِلْعِلْمِ مَوْضُوعًا وَالْعِلْمُ عَلَيْهِ تَحْمُولًا ، وَاجْتَمَعَ وَلَوْ بَوَاحٍ أَوَّلِي ؛ فَخَلَعْتُ
 أَسْبِرُ الْمَعَاشِ سَبْرَ مُتَقَصِّدٍ ، وَأَسِيرُ فِي قُلُوبِ الصَّنَائِعِ سَبْرَ مُتَمَعِّدٍ ؛ لَكِنِّي أَجِدُ
 حِرْفَةَ تَطْلَاقِي أَرَبِي ، أَوْ صِنْعَةَ تَجَانِسِ طَلَبِي .

فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي مَتَاهِدِهَا ، وَارْتَدَّدْتُ طَرَفِي فِي مَشَاهِدِهَا ؛ إِذْ رُبِعَ لِي صَوْتُ قَرَعَ
 سَمِعِي بِرَبَّتِهِ ، وَأَخَذَ قَلْبِي بِحَبَّتِهِ ؛ فَفَقَوْتُ أَثَرَهُ مُتَبِّعًا ، وَمِلْتُ إِلَيْهِ مُسْتَعِمًّا ؛ فَإِذَا رَجُلٌ
 مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شَكَلًا ، وَأَرْجَحِهِمْ عَقْلًا ؛ وَهُوَ يَتَرَّمُّ وَيُنْشُدُ :

إِنْ كُنْتُ تَقْصِدُنِي بَطْلًا لِكَامِدًا ، * فَحَرِمْتَ نَفْعَ صِدَاقَةِ الْكُتَّابِ ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ تَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِسِينَ لَسْتَرَةِ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْمِلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خَطَابٍ ،
وَالْعَاطِقِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْنَ بِمَحَنَتِهِمُ النَّشَاءَ فَطَالَمَا * بِحَمْدِ الْعَبِيدِ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابُ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصف ما هنالك ؛ دنوتُ منه دُتُوَ الْوَاجِلِ ،
وجلسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صفاتُ الملوكِ بل ملوكِ
الصفاتِ ، وأكرمُ الفضائلِ بل أفضَلُ المكرماتِ ؛ ولم أكنْ أظنُّ أَنَّ للكاتبِ هذا
الخطرَ الجسيمَ ، وللكتابِ هذا الخطَّ العظيمَ ؛ فأعرضُ مُنْضِباً ، ثم فَوَّقَ بَصَرَهُ إِلَى
مُعْجَبٍ ؛ وقال : هَيَّاتِ فَاتَّكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إنها لمنْ أعظمِ الصَّنَائِعِ قدراً ،
وأرفعها ذِكْراً ؛ نَلَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَامَتِ السُّنَّةُ الْغَزَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فقال تعالى جَلَّ شَأْؤُهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فأخبر تعالى أنه عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حيثُ وصف نفسه بِالْكَرَمِ ؛ إشارةً
إلى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نَعَمِهِ ، وَإِذْأَنَا بَانَ مَنْحَهَا مِنْ فَائِضِ دَيْمِهِ ؛ وقال جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بِالْقَلَمِ
وما سَطَّرَتْهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فكان منْ أعظمِ الْأَقْسَامِ . وقال
تَعَدَّيْتُ عَظَمَتَهُ : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ فجعلَ الكتابةَ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كما قد جاءَ فُتْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مِنْهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةٌ قَدِ بَيَّنَّ تَعَالَى سَبَبَهَا ، حيثُ ذَكَرَ الْحَادِثُ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَأُطِيعُوا الْأَوَّلِينَ أَوْكُنْهَآ ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَابِ رَاجِعًا ، فقد رُوي أنه كان له عليه أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كِتَابًا ؛ هم نُجْمَةُ أَهْلِيهِ ، وَخُلَاصَةُ أَثَرِيهِ ؛ مَنْ أَتَمَّنْتَهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالنِّسْبَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكُ الْأَرْضِ فَاجَابُوا بِالْإِذْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ أَسْئَلًا وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَهْلِيَهُ وَكَاتَبُوهُ فَاحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَحْسَنَ خُطَابًا ؛ وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَاَهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَتَابَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُبَّتْهَا قَايَةُ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ ؛ عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِقَافَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ؛ وَالْكَتَابُ عَيْنُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُم الْوَاعِيهِ ، وَالسِّيَاسَةُ الْبَاطِنَةُ وَعُقُومُ الْحَاوِيَةِ ؛ بَلْ حَصْنُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنَّ الْمُلُوكَ إِلَى الْكَتَابِ أَحْوَجُ مِنَ الْكَتَابِ إِلَى الْمُلُوكِ ؛ وَنَاهِيكَ بِالْكَتَابَةِ شَرَفًا ، وَأَقِيلَ بِذَلِكَ رُبَّةً وَكَفَى ؛ أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَايِهِ .

وعلى الجملة فهم الحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَائِنِ نَيْلٍ ؛ الْكَرَمُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِئَارُهُمْ ؛ وَالْجُودُ جَادَتُهُمْ ، وَالْحَيَرُ قَادَتُهُمْ ؛ وَالْأَدَبُ مَرْكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَنَاجِيَهُمْ ؛ وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَيُثْمَلُ كَأَنَّمَا ائْتَصَرُواهَا * مِنْ مَعَارِي شَمَائِلِ الْكَتَابِ !

فَلَبَّ ائْتَفَقَ قِيلُهُ ، وَبَانَ سَبِيلُهُ ؛ قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفْتُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ؛ وَدَعَايَ طِيبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعُوتِهِمْ ؛ إِلَى أَنْ أَهْلُ بَنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بَوَادِيهِمْ ؛ فَاجْعَلْ حَرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِي ؛ لِيَجْتَمَعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْاِسْتِفْهَالِ حَبْلِي ؛ فَكُونَ قَدْ طَفِرْتُ بِمُنْتَقِي ، وَفُزْتُ بِبَغْيِي .

فأَيُّ قَيْسِلٍ مِنَ الْكُتُبِ أَرَدْتَ ؟ وَلِأَيِّ تَوْجَعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشْرْتَ ؟ أَلِكِتَابَةِ
الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَالْخُطَابَةِ ؟ ، أَمْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ؛ فَنَظَرْتُ إِلَى
مُتَبَسِّمًا ، وَأَنْشَدَ مُرْتَمِّيًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ * ثُمَّ اسْتَحْدَوْا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَسَدِ الْمُشْرِفَاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصَرُّجِ وَتُشِيرُ إِلَيْهَا بِالْكِتَابَاتِ ، فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ تَوْجَعُ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صِنْعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ؛ إِنَّ لَهَا لَفَيْدَحَ الْمُحَلَّى ، وَالْجَيْدَ
الْمُحَلَّى ، وَالدَّرَوَةَ الْمُنِيْفَةَ ، وَالزُّبَّةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كُتُبُهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ
وَأَطْوَادُهُ ، وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمَوْقُوفُ الرَّاشِقُ ؛ وَهُوَ حَبِيبُ بْنُ أُوَيْسَ
الطَّائِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَصَّرَبُهُ مِنْ كِتَابٍ بَنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامٍ !

قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

فَلَمَّا بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَيُنِيْ عَنْ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ؛ بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتُحْرَقُ
الْجَحَافِلُ :

فَلَمْ يَهْلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَغْمَادِ !

فَقُلْتُ : إِنْ كُتُبُ الْأَمْوَالِ يَزْعُمُونَ أَنْ لَمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنَى ؛ وَيَسْتَشْبِهُونَ لَفْظُهَا ، وَتَقْدِمُ أَهْلِهَا ؛ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ،
وَقَلَمُ الْحِسَابِ ضَايِعٌ ، وَقَلَمُ الْإِنْشَاءِ خَائِطٌ ، وَبَيْنَ إِتَادَةِ تَوْطِيفِ الْمُعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ وَبُنْ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَتَوَرَّهُ أَلْبَاسٌ ؛ إِذِ الْإِتْمَانَةُ تَمَلَّأَتْ
الْأَنْكَاسَ ، وَالسَّلَاوَةُ تَفْرُغُ الرُّأْسَ ؛ وَخَرَّاجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاطِرَ ، وَأَسْمِغْرَاجُ
الْمَدَارِجِ ، يُغْنِي الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأُمُوالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَهْمالِ ؛ وَالنَّقْلَةُ
الْأَثْبَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ النَّفَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِنْصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
فِي الْاِخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَالِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَكْبُ فِي السُّلْمِ وَالْمَرْجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَذَارِ
فِي الدَّخْلِ وَالْمَرْجِ ؛ وَبِهِ مَتَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَتْنِ ؛ وَلَوْلا
قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوْدَتَ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلُ التَّفَانُّ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنْ
نِظَامُ الْمَعَامِلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا] ،
وَسَيْفُ الظُّلَامِ مَسْلُولًا ؛ عَلَى أَنَّ بَرَّاعَ الْإِنْشَاءِ مُتَقَوِّلٌ ، وَبَرَّاعُ الْحِسَابِ مُتَأَوِّلٌ ؛
وَالْحَاسِبُ مُتَافِشٌ ، وَالْمُنِشِيُّ أَبُو بَرَّاقِشَ .

فوصفَ بكتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشياتهم على أكرم
الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الجملة معارضةٌ بمنها ، بل باطلةٌ من أصلها ؛ وأين ذلك من قوله
في صدر كلامه ؟ :

«اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أرفع ؛ وقلم المكتبة خاطب ،
وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخُ تُدرَسُ ، وديواتير الحسابات تُنسخُ
وتُدرَسُ ؛ والمنشئُ جبهة الأخبار ، وحقبة الأسرار ؛ ونجى الظَّاهِرِ ، وكبير النُّسَاءِ ؛
وقلمه لسان أسرار الدوله ، وقارسُ الجواهر ؛ ولقن الحِكْمَةِ ، وترجمانُ الحِمْمَةِ ؛ وهو

النَّسِيرِ وَالنَّذِيرِ، وَالشَّيْخِ وَالسَّيْرِ؛ بِهِ تُسْتَخْلَصُ الصَّيَاصِي، وَتَمْلِكُ النَّوَاصِي؛ وَيُقْتَادُ
الْعَاصِي، وَيُسْتَدْنَى الْقَاصِي؛ وَصَاحِبُهُ يَرَى مِنْ التَّيْعَاتِ، آمِنٌ كَيْدَ السُّعَاتِ؛
مُقَرَّرٌ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ، غَيْرُ مُعَرِّضٍ لِنَظِمِ الْجَمَاعَاتِ» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب، التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها مین،
وصدُر الكلام يقتضي الترجيح، ويُؤذِنُ بالترشيح، والرفع، أبلغ في الوصف
من النفع؛ فقد يُنْفَعُ بالقرر اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر
نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكأب الأموال،
من التأثير في قل الجبوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير زلزال؛ فهذه هي
الحصبي التي لا تساوى، والمتبئة التي لا تساوى :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَبَانَ مِنْ لَبَنِ • شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا !

قلت: الآن قد انقطعت المجه، وبانت المحجّه، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى
ممارسته؟ فقال: إذا قد تملقت من الصنعة بأسبابها، وأتمت البيوت من أبوابها .
إعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته، وتقوى راعته، وتجل
براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الأصطلاح والإحاطة بالرسوم؛
ثم أهم ما يسدأ بتفصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله
العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة، وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع
العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضرًا في ذكره، ولا يبرح
معناه مُتَمَلِّلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج
إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله المجته البالغه،
ولآياته الأجوبة الدائمة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الدين وقواعد الإسلام؛ وما اشتمل عليه كلام النبوة من الألفاظ البديعة التي أبجبت
 الفصحاء، والمعاني الدقيقة التي أعميت البُلغاء؛ مع النظر في معانيها ومعرفته غريبها،
 والأطلاع على ما للملءاء في ذلك من الأقوال بعيدها وقريبها؛ لتكون أبداً محجته
 ظاهره، وأدلتها قوية متظاهره؛ فإن الدليل إذا استند إلى النص أفلح النزاع
 وسلم المدعى ولزم، والفصاحة والبلاغة غايتهما - بعد كتاب الله تعالى - في كلام
 من أوقى جوامع الكلم؛ والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشيوعها؛
 والتوغل في أشعار العرب والمولدين، وأهل الصناعة من المحدثين؛ وما ورد عن كل
 فريق منهم من الأمثال تراثاً ونظماً، وما جرى بينهم من المحاورات والمنافسات حرباً
 وسلماً؛ والتعمُّل من ذلك على الأشعار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا
 بأوتادها وتعلقوا بسببها؛ والأمثال الغريبة التي انتقوها، ودونوها ورووها؛ وأستبضع
 القسمين وأستكشاف غوامضهما، وأستظهر التوفيق واستطاع عوارضهما؛
 والأطلاع على خطب البُلغاء، ورسائل الفصحاء؛ وما وقع لهم في مخاطبتهم،
 ومكاتبتهم؛ والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم؛
 والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية؛ وسير الملوك وأحوال
 أمثالك، ومعرفة مكائدهم في الحرب المتقدمة من المهاوى والمنجية من المهالك .

مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأُس مقاليه؛ وكتفه الممدد للإفناق،
 ومُعينه بل مُعينه وقت الضرورة على الإطلاق؛ والنحو الذي هو ملح كلامه، ومُسك
 ختامه؛ والتصريف الذي تُعرف به أصول أئمة الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف
 في أسمائها وأفعالها؛ وعلوم المعاني والبيان والبديع التي هي حلية لسانه، وآية بيانه؛
 ومعرفة أبوابها وفصولها، وتحقيق فروعها وأصولها؛ من الفصاحة وطرائقها،
 والبلاغة ودقائقها؛ واختيار المعاني وترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها؛ والفصل

والوصيل ومواضعهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما، ومواطن الحذف والإحمرار، وحكم الروابط والأخبار؛ وغير ذلك من الحقيقة والمجاز، والبسط والإيجاز، والحل والنقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد؛ مع معرفة أنواع البديع وطرائقها، والإطلاع على غوامض أسرارها وقرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى معرفته المفسؤول من الكتاب والفاضل، العلم بالخط وقوانينه : من المجهل والنقطة والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل، مع المعرفة بالآلات الكتابية وصفاتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وقواعده التي يرجع إليها، فإذا أحاط بهذه الفنون كلها، وأقننها فهمًا، وعزرت عنده المواد، وأنضحت له الجواهر؛ فأخذ في الاستعداد، وسهل عليه الاستشهاد، فقال عن علم وتصرف عن معرفة واستحسن بمرهان، وأنشد بحجة وتخير بدليل وصاغ بترتيب وجأ على أركان؛ وأوسع في العبارة مجالًا، وفتح له من باب الأوصاف أفعالًا؛ وتلقى كل واقعة بما يماثلها، وقابل كل قضية بما يشاكلها؛ وعلم الحيد فسج على منواله، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض، على طبق المقاصد والأعراض؛ ومضى أدخل بشيء من ذلك فاتته الفضائل، وعلقت به الرذائل؛ وقلت بصاعته، وقصص صناعته؛ وسامت آثاره، وقبحت أخباره؛ وغلط القرد بالمرء، ولم يميز بين الصلief والدور؛ فأخرج الصنعة عن أماكنها، ولمس من الكتابة وجوه محاسنها؛ بحر اللوم إلى نفسه، وأمسى مهزاة لأبناء جنسه .

وَرَأَى ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالنَّافِلَةِ لِلْكَتَابِ ، وَالزَّيَادَةِ لِلرَّغَابِ :

مِنْهَا مَا تَكُنُّ بِهِ صِنَاعَتُهُ ، وَتَعْلَمُ بِهِ مَكَاتُهُ : كَيْلُ الْكَلَامِ ، وَأَصُولُ الْفَقْهِ
وَسَائِرُ الْأَحْكَامِ ، وَالْمَنْطِقُ وَالْجَدَلُ ، وَأَحْوَالُ الْفَرِيقِ وَالنَّحْلِ وَالْمَلِكِ ، وَيَعْلَمُ الْعُرُوضَ
وَالْمِيزَانَ الْمُحْكَمَ ، وَيَعْلَمُ الْقَوَافِي وَسَلَّ الْمُتَرَجِّمِ ، وَالْحِسَابَ الْمَفْتُوحَ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ
الْمُعَامَلَةِ ، وَمَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْمَجْهُولَاتُ : مِنْ حَسَابِ الْخَطَّائِنِ وَالذَّرْهَمِ وَالدينَارِ وَالْجَبْرِ
وَالْمُقَابَلَةِ ، وَحِسَابِ الدُّورِ وَالْوَصَايَا ، وَالتَّخْتِ وَالْمِثِيلِ وَمَا لِأَعْمَالِهِ عَلَى غَيْرِهِا مِنْ
الْمَزَايَا ، وَالْعِلْمُ بِالْفَلَاحِ ، وَأَحْوَالِ الْمِسَاحَةِ ، وَعِلْمُ عُقُودِ الْأَيْدِيَةِ وَالْمَنْظَرِ الْحَقِيقَةِ ،
وَمَسَازِيرِ الْأَثْقَالِ وَالْمَرَايَا الْمُخْرِقَةِ ، وَيَعْلَمُ جَرَّ الْأَنْفَالِ الْأَيْبَةِ ، وَالْعِلْمُ بِالْآلَاتِ الْحَرَبِيَّةِ ،
وَعِلْمُ الْمَوَاقِيتِ وَالْيَنَكَمَاتِ ، وَالتَّقَاوِيمِ وَالزَّيْجَاتِ ، وَعِلْمُ تَسْطِيجِ الْكُرَّةِ وَالتَّوَصُّلِ بِهَا
إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَائِكِيَّةِ ، وَكَيْفِيَةِ الْأَرْصَادِ وَأَحْكَامِ النُّجُومِ وَالْآلَاتِ الظُّلُمِيَّةِ ،
وَعِلْمُ الطَّبِّ وَالْيَبْطَرَةِ ، وَأَحْوَالُ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَعِلْمُ الْبَيْزَرَةِ .

وَمِنْهَا مَا تَكُنُّ بِهِ ذَاتُهُ ، وَتَبَيَّنُ بِهِ أَدْوَاتُهُ ، كَيْلُ التَّعْمِيرِ وَعِلْمُ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمُ السِّيَاسَةِ ،
وَعِلْمُ تَدْبِيرِ الْمَمْتَلِزِ وَعِلْمُ الْفِرَاسَةِ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَشْيَةَ
الِإِمْلَاحِ ، وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِبْرَادِهَا خَوْفَ الْمَلَالَةِ ، فَهَذِهِ عُلُومٌ فَضَّلْتُ بِعَظْمِ سَائِمِهَا
أَمْرَهُ ، وَفَضَّلْتُ يَرْتَفِعُ بِتَحْصِيلِهَا ذِكْرُهُ ، بَلْ لَا يَسْتَفْنِي عَنْ الْعِلْمِ بَرُوسُ مَسَائِلِهَا ،
وِإِشَارَاتُ أَرْبَابِهَا الْآخِذَةِ مِنْ بَحَارِهَا بِأَطْرَافِ سَوَاحِلِهَا ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ
أَوَقَاتٌ لَا يَسْمَعُ جَهْلُ ذَلِكَ فِيهَا ، وَتَمَرُّ عَلَيْهِ أَزْمَانٌ يَوْدُ لَوْ تُسْتَرَى فِهَشْتَرِيهَا .

قُلْتُ : قَدْ بَانَ لِي عُلُومُهَا ، فَمَا رُسُومُهَا ؟ . قَالَ : إِنْ أَعْبَاهَا بِبَاطِلَةِ حَمَلَا ،
وَإِنَّمَا لَكِيَّةٌ إِلَّا ؛ وَلَكِنْ سَأَحْدِثُ لَكَ مِمَّا سَأَلْتَ ذِكْرًا ، وَأَبْنَتُكَ بِمَا لَمْ يَحِطْ
بِهِ خُبْرًا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛
من البيئات وأحكامها ، والمهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتفاوت
ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمشايير ومراتبها ، والمرعات الجنيشة ومعانيها ؛
ومعرفة رتب المكتبات وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الحقيقية ،
والمكتبات الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعشيرة النبوية ؛
وملوك المسلمين والقائات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من
الثواب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حملة
الأعلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوعدات ، ومكتبات
التجار وما عساه يطرأ من المكتبات المستعجمات ؛ وكُتُب البشرى بالجلوس على
التخت والفتيح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ، وأستراحات
العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ، والملطفات التي يضطر إليها ، ويُمَوَّل
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسيير
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكتبات تكرارها ، ويتساقط
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
الغريبة المراتب ؛ والآلات الملوكية الجلييلة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛
والخيال المسمومة ، والجوارح المملوءة ، وجليل الوحش وسبابه ، وطير الواجب
وأنبابه ؛ والأمكنة والرياح ، والمياه والنباض ؛ وغير ذلك مما يعزّو ويقلّو ، ويرفع
ويقلّو ؛ وإخوانيات المكتبات وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والتشويق والعتاب ؛ والترقي والاعتذار ،

والشفاعة وطلب الصنيع والقوة عند الاقتدار؛ والثاني والتعازي، وما يكتب مع الهدية ويحب منها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعمد حصرها، ويمنع على المستقصي ذكرها؛ ومعرفة الطفرة والطرة والعنوان والتعريف، والعلامة في الكتب على ما فيها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف؛ وتزيين الكتاب وطيه وختمه، وتسمية ما في الكتب بضرب من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ ونسخ الأيمان التي يستعمل بها، وتمسك للوفاء بسببها؛ كيمين البيعة العامة للوفاق والمخالف، وما يخص من ذلك بالتواب وأرباب الوظائف؛ وأيمان أصحاب البدع والأقواء، وأهل المال والحكماء؛ وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاحصات؛ ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكتاب؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكا، وما يفتح به في الكتابة تيمنا ويمنع به تبركا؛ ومعرفة قطع الورق: من كامل البغدادى والشامى والثلاثين والنصف والثلث والمنصوري والعاده، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلث ومختصر الطومار؛ والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب؛ ومعرفة الرزايق وقطانها، والتواحي والبذات وسكانها، والأتم ومساكنها، وطرق الأقاليم ومسالكها؛ وسراير البريد ومسافاتها، وأبراج الحمام ومطاراتها؛ ونجى النفع والسفن الحسنة لنقله، والمحرقات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله؛ والمناور وأماكنها، والقصاد ومكانها .

هذه رؤسوما على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وأعلم أن حسن الخط من الكتابة واسطة عقيدتها، وقوة الملكة على السجع والأزدواج ملاء حليها وعقيدتها، على أن خير الخط ما قرى، وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبرى، وللكتاب في بحر الكتابة سبع طویل، وتفنن يسفر عن كل وجه جميل .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفس، سمط يلها، أو سلك يضمها؟ فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعين من شاحات جبال النبك، أعنف من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؟ إن ذلك لقاصر على «آل فضل الله» حقا، ومحصر في المقر البدرى صدقا؛ فهو قطب الذي تدور دايه، وأرباب تجديتها التي ترجع في علومها ورؤسوما وسائر أمورها إليه؛ فلوراه «الفاضل عبد الرحيم» لم يرتقي فضلا ولا رضى لفيه مقالا، أو عاينه «عبد الحميد الكاتب» فقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامه، أو أدركه «أبن قتيبة» لا تحذه في «آدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصربه «الصائبي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه لأقام ببايه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناوآته لأدركه العلم، أو جرى «الصاحب بن عباد» في مضمار فضليه لكبا وزلت به القدم، أو أطلع «أبن مقلة» على حسن خطه فقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة روقه فقال: إن هذا هو الفضل المبين؛ إن تكلم نفت سحرا، أو كتب خلت زهرا أو تحملت دزا :

يُوقَّفُ السُّؤْلُ الْمَشْهُورَ مَنْطِقُهُ ، * وَيَنْظُمُ الدَّرُّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

قد مَلَأَ نَسَبًا ، وفاقَ حَسَبًا ؛ وَوَرِثَ الْفَضْلَ لَا عَنْ كَلَالَةٍ ، وَأَسْتَحَقَّ الرَّثْبَةَ بِنَفْسِهِ
وإن كانت له بالأصله :

فَقَبِيلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْعُلَى ، * وَجِهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُخِضِ !
فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ زَالَ عَنِّي الْإِلْبَاسُ ، وَقُلْتُ : ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ . ثُمَّ قُلْتُ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِالَّذِي تُسِيرُ إِلَيْهِ ، إِلَّا تَدُلَّنِي عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ : إِنَّهُ
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيهٌ ؛ وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيُّهُ ؛ وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعَثُوا ، وَالْخَصُوصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ؛ وَالْمَوْجِعُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ؛
وَالْمُتَكَلِّمُ لِبَلَسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا جَهِتُوا ؛ وَالصَّائِلُ
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي أَمَّا لِكَ يُجِيشُ سُلُورَهُ وَجُنْدَ كَلِمَةٍ ؛ وَالْمُشَقُّ
تَمَثَّلَ الْعَمَلُ بِدِيحِ الْفَاظِلَةِ وَدَقِيقِ حِكْمَةٍ ؛ وَالْحَائِزُ قَصَبَ السَّبْقِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَقَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظِلْمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِ
الظُّلَمِ بِنَبْرِ بَذَرِهِ وَمُضِيِّ الْحُجَّةِ :

فَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سِبَادَةٍ * يُسَارُّ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :
بَسِيطَ مَسَاحِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَلِّ الْقَوَاضِلِ ؛
إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَسْتَرْكُ مَقَالًا لِقَائِلِ !
قُلْتُ : حَسْبُكَ ! قَدْ دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ، وَبَانَ لِي مَحْنِدُهُ
الْقَائِرُ وَحَسْبُهُ الصَّبِيحُ ، وَصَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِي وَقَرَعَهُ الْكَرِيمُ ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ثُمَّ عَرَجْتُ إِلَى جِهَامٍ ، وَمُلْتُ إِلَى حَيِّ كَيْ أَرَاهُ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَالُفًا أَنْوَارُهُ ،
وَأُشْرِقَ بِالْجَلَالَةِ أَفْسَارُهُ ؛ قَدْ عَاتَتْهُ الْحَيَاةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَفَّتْهُ الرِّيَاءُ - وَجَلَّتْ لَهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَّتْ بِعِزِّ مَنَالِ قَدْرِهِ الْإِقْدَارُ كَمَا أَقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيته استصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبيه ، وعلمت أن ما تهتم من المدح لم يؤف حقه ولم يقم ببعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقداي ، وحالت حُرمتي بيني ومرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فانتني ماري ، ورجعت من قوري إلى صاحبي ؛ فظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنما مذبةٌ عُمرية ، وأثرةٌ عذوية ؛ فالقاروئ جده ، وبنو عدي قيسله وجنده .

هذا وإنه لأطلف وأرق من النسيم الساري ، والماء الجاري ؛ وأحلى من العذراء في خندرها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائدة » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعدة » :

يُبْغِي حَيَاءً وَيُغْفِي مِنْ مَهَابَتِهِ « فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَنَسَّمُ !

بالزائم الفاروقية فتحت الأمصار ، وبالقيية المعرية أقر المدهارون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في التول وسكوته في خلافة عمر وصمته ، وجوابه بعد ذلك للقاتل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهبته ؛ كيف ؟ وما سلك جفاً إلا وسلك الشيطان جفاً غير جفه وضاق عليه الفجاج ، ولم يُماثل هيئته بيبية غيره وإن عظمت سلوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف الجحاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأراذل والمساكين ، ويسين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد آنصحت لك القضيصة ، وتحققت أنها سلمات لإزيته .

فعند ذلك ذق روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له اتباعٌ من الكُلاب فاتلق بيجاليم ، وأنامي بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكن أنسم بسمة الكُلاب ، وأثبت في جُملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس التمس الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسيه الصميم ؛ به شد عضبته ، وقوى ككته ؛ فأجمع الفضل له

ولأخيه، وورثا سِرَّ أبيهما « والولد سِرُّ أبيه » ؛ ثم كُتِبَ ديوان الإنشاء جُنْدُهُ
وَأَتْبَاعُهُ، وأولياؤه وأشباهه، وكُتِبَ الدُّسْتُ منهم أَرْبَعُ فِي الْمَقَامِ، وكُتِبَ الدَّرَجُ
أَجْدَرُ بِالْكَاتِبَةِ وَصَنَعَةِ الْكَلَامِ .

قُلْتُ : الْقِسْمُ الثَّانِي أَلَيْقُ بِمَقْدَارِي، وَأَقْرَبُ إِلَيَّ أَوْ طَارِي ؛ ثُمَّ وَدَعْتُ صَاحِبِي
شَاكِرًا لَهُ عَلَى صَنِيعِهِ وَحَامِدًا لَهُ عَلَى أَدَبِهِ، وَتَرَكْتُهُ وَمَضَيْتُ وَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ الْعَهْدِ
بِهِ ؛ ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ هُوَ فَرَفَعْتُ إِلَيْهِ قِصَّتِي، وَسَأَلْتُهُ الْإِسْعَافَ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِي ؛
فَقَابَلَنِي بِالْقَبُولِ، وَأَنْتَمَ بِالْمُسْتَوْثُلِ ؛ وَقَرَّرَنِي فِي كِتَابَةِ الدَّرَجِ الشَّرِيفِ، وَأَكْتَفَى
بِالْعَرَفِ عَنِ التَّعْرِيفِ ؛ وَطَاقَى الْخُبْرَ الْخَبَرَ، وَأَسْتَفْنَيْتُ بِالْعِيَانِ عَنِ الْأَثَرِ ؛ ثُمَّ قُمْتُ
بِغَيْلًا، وَأَنْشَدْتُ مُرْتَجِلًا :

إِذَا مَا بَنُو الْفَارُوقِ فِي الْهَيْدِ أَعْرَفُوا، * وَنَالُوا بِفَضْلِ اللَّهِ مَا لَا كَيْشِلِهِ،
وَجَلَّتْ دُبُيُ الظُّلَمَاءِ أَنْوَارُ بَدْرِهِمْ، * وَعَمَّتْ بِقَاعُ الْأَرْضِ أَنْوَاءُ فَضْلِهِ،
تَعَالَتْ دُرَى الْعِلْيَاءِ فِيهِمْ وَأَنْشَدْتُ : * أَبِي الْفَضْلُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِنَهْلِهِ !

ثُمَّ تَشَرَّفْتُ بِتَقْيِيلِ يَدِهِ، وَمَضَيْتُ إِلَى مَا أَنَا بِصَدَدِهِ ؛ قَدْ مَنَعْنِي هَيْبَتِي مِنَ الْإِيَادِ
بِهِ وَالْقَرِيبِ إِلَيْهِ، وَصَبِرْتُ عَاطِرَ مَدَنِي وَخَالِصَ أَدْعِيَتِي وَقَفًّا عَلَيْهِ ؛ وَصِرْتُ إِلَى
الدِّيَوَانِ، فَوَجَدْتُ قَوْمًا قَدْ حَفَّهِمُ الْحُسْنُ وَزَانَهُمُ الْإِحْسَانُ ؛ فَقُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ !
هَؤُلَاءِ فِتْيَةُ ذَاكَ الْكَهْفِ بِلَا أَمْتِرَاءٍ، وَأَشْبَالُ ذَاكَ الْأَسَدِ مِنْ غَيْرِ أَقْتِرَاءٍ ؛ بَغِلَسْتُ
جُلُوسَ الْغَرِيبِ، وَأَطْرَقْتُ إِطْرَاقَ الْكَتِيبِ ؛ إِذْ كُنْتُ فِي هَذِهِ الصَّنِيعَةِ عَصَامِيًّا
لَا عِظَامِيًّا، وَثُمَّمَا لَا تَهَامِيًّا ؛ غَيْرَ أَنِّي تَعَلَّقْتُ مِنْهَا بِجِبَالِ الْقَمَرِ، وَأَسْتَوْقَدْتُ نَارَهَا
مِنْ أَصْغَرِ الشَّرَرِ؛ فَتَلَقَّوْنِي بِالرَّحْبِ، وَأَحْلُونِي مِنْ دِيَوَانِهِم بِالْمَكَانِ الرَّحْبِ؛ وَقَابَلُونِي
بِالْجِيلِ قَبْلَ الْمَعْرِفَةِ، وَعَامَلُونِي بِالْإِحْسَانِ وَالنَّصَفَةِ .

فلما رأيتُ ذلك منهم حمِدْتُ مَسْرَايَ ، وشكرْتُ مَسْعَايَ ؛ ودَعَوْتُ لِصَاحِبِي أَوَّلًا
إِذْ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَنِي ، ودَلَّنِي عَلَيْهِمْ وَسَاقَنِي .

ولما تحققتُ أَنِّي قد أَثْبِتُ في دِيوانِهِ ، وَكُنَيْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَمَائِهِ ؛ رَجَعْتُ
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكُتُبِ ، وَأَسْتَوَيْتُ عِنْدِي الْمَحَلَّ وَالْخَصْبَ ؛ وَاكْتَفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الْعُلَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيَّ تُرَقِّبُنِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلسَانِ الصَّدِّيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفِيَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَقَامَةَ مِنْ فَضْلِ الْكِتَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتَّابِ مَفْعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،
وَمُنًى عَنْ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخة مَقَامَةِ أَنْشَأَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْخُوارِزْمِيُّ في لِفَائِهِ لِأَدِيبٍ يَعْرِفُ بِالْهِنْدِيِّ ،
وَأَنْقَطَاعِهِ في الْبَحْثِ ، وَغَلِيَّةِ الْخُوارِزْمِيِّ لَهُ . أوردَهَا أَبُو حَمْدُونَ في "تَذَكُّرَتِهِ" وَهِيَ :
وَصِيْبَةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقِفٌ أَرِيبٌ ، جَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ
مِنْ مَصَادِفِ النَّطَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَّاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَفْضُ مِنْ سِيَاهِهِ ، وَيُظْهِرَ بَعْضَ شِكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمَ بِأَيْسَرِ
قِيَمَتِهِ ، وَيُسْتَرْ كَثِيرًا مِنْ يَصَاعَتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْتَطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَايَشَرَ النَّاسَ بِصَدِّيقِ الْمُتَاصِحَةِ ، وَبِجَمِيلِ الْمُسَاسَحَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْهَلَ
الْعِجَابَ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْإِزْدِرَاءِ بِمَنْ يَسْتَفْرِئُهُ ، وَالْإِقْرَاءَ عَلَى مَنْ يَمْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنَظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْأَعْيَانِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ الْخَيَالِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس القى من قال: إني أنا القى، * ولكنّه من قيل: أنت كذلكا.

وكمّ مدّج ملكا بنير شهادة * له نجله إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالانضاع، على ذى نباهة وأرضاع، وذلك أنى أضعفت فى بعض
الأعوام، مع جماعة من العوام، بين تأجير وزائر، إلى العزل والحائر، حتى آتينا
إلى قرية شاربته، أهله زاربه، وما منا إلا من أمّته السمرية فأعترضته،
وأسمته وأمرضته، وقترته فقبضته، وكثر منا الجوار، وأسنوينا طينا الدور،
فخرجنا منها نخرج المسجون، وقد ههؤنا ههؤس العرجون، فأسترحنا بالصعود،
من طول القعود:

كاننا الطير من الأفاص * ناجية من أحبل القناص،

طية الأتيس بالخلّاص * مفضات الرّيش والنواص!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة، حتى وقف علينا واقف، وهتف
بنا هاتف، أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المفرد، والشاب المستند،
فأقبل إلى، وسلم على، وقال: إن الناظر يستيرك، فليجمل إليه مصيرك، فقامت
معه، يتقدّمنى وأتبعه، حتى آتتهى إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال،
وزينة وجمال، من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار، من أهل وأسط
وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كلّ مرهوب العامة لائما * على وجهه بدر تحته قلب ضيق!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال فى سؤاله
وسلامه، وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت دناها وأحبيت، وأخذوا

يَسْتَخِيرُونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةِ الْإِرْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّبَةِ وَالْمَقْصَدِ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْجِيرَانِ وَالْبَلَدِ .

وما منهم إِلَّا حَفِيَّ مُسَائِلٌ، * وَوَصِيفُ أَشْوَاقٍ وَمُتَنِّ بِصَالِحٍ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أُنْتِ أُمِّمٍ لَيَالِيَا * أَرْوَحُ وَأَغْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ !

ثم قال قائلهم : هل لقيت عَيْنَ الزَّمَانِ وَقَلْبَهُ، وَمَالِكَ الْفَضْلِ وَرَبَّهُ، وَقَلْبَ الْأَدَبِ
وَعَرْبَهُ ؛ إِمَامَ الْعِرَاقِ، وَتَمَسَّ الْأَفَاقِ ؟ . فقلتُ : وَمَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَهُولَةِ،
وَالِخَيَاةِ الْمُجْهُولَةِ ؛ فَقَالُوا : أَوْ مَا سَمِعْتَ بِكَامِلِ هَيْتِ، ذِي الصُّوْتِ وَالصَّيْتِ ؟ :

ذَلِكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَايْنِ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيِّبَوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانِ،
وَعَامِرُ الشُّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْرٍ وَأَبْنُ صَفْوَانِ .
قَالُوا مَجَابُّ كُلِّهِمْ : إِنَّهُ * سَيِّدُنَا، أَوْ قَالَ : غُلَامِنِي .

فقلتُ لهم : قد قُلِدْتُمْ الْمِنَّةَ، وَهَيِّجْتُمُ الْحَنَّةَ ؛ إِلَى لِقَاءِ هَذَا الْعَالِمِ الْمَذْكُورِ، وَالسَّيِّدِ
الْمَشْهُورِ ؛ وَقَدْ كَانَتْ الرِّيحُ تَأْتِينِي بِنَفْثَاتِ هَذَا الطَّيِّبِ ، وَهَدِيرِ هَذَا الْخَلِيبِ ؛
فَالْآنَ لَا أَتَرَبِّدُ عَيْنَ ، سَأَصْبَحُ لِأَجَلِهِ عَنْ سُرَى الْقَيْنِ ؛ أَغْتَنِمَا لِلْقَائِدِ ، وَالتَّعَمُّ
الْبَارِدَةِ، وَوُجِدَانَا لِلضَّلَالَةِ الشَّارِدَةِ .

أَيْنَ أَمَضِي وَمَا الَّذِي أَنَا ابْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابِ ؟
فَإِنَّمَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَا أُرِيدُ التَّوَابَا .
إِنْهَبُوا أَمْ فُزُّوْا عَلَيَّا : * لَا زُورَ الْحَقِّ وَالْآدَابَا :
لَنْ أَبَالِي إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزُ * مَنِ أَخْطَأَ فَعَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجِدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كَمَا نَشَرُّ أَعْلَاقَكَ ،
وَتَقْنَى أَتَمَّافَكَ ؛ وَتَسْدَاوُلُ أَوْصَافَكَ ، وَنَحِبُ مُضَافَكَ ؛ وَنُكْرِ لَدَيْهِ ذِكْرَكَ ، وَنُعْظَمُ
لَدَيْهِ قَدْرَكَ ؛ فَيَحْزَنُكَ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّلُ بِكَ أَمَاكِنُهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سَبْعَانَهُ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحَضْرَانَا ، وَتُلاَمِحَ عَيْنَكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيُلْتَفَّ غُيَارُكَ بِغُيَارِهِ ،
وَيَعْتَرِجُ تَبَارُكَ بَنْيَارِهِ ، وَيُخْطِلُ مِضَارُكَ بِمِضَارِهِ ؛ فَيُعْرِفُ مِنْكَ السَّائِي وَالسَّكِيْتُ ،
وَالسُّودَائِي وَالْكُفَيْتُ ؛ وَيَتَيَّنُّ مِنَ الَّذِي يَتَوَى الْقَصَبُ ، فَاثْنَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هَمَّا رُحْمَانِ خَطَّيَانِ كَانَا * مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّ الصَّمَادِ

تَهْلُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَّأَ عَلَيْهَا * بِمَثَلِهِمَا نُسَالِمُ أَوْ نَعَايْ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَقَدْ تَنَجَّيْتُمْ الْإِنْصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمُ الْاِفْتِرَافَ ؛ وَأَبْغَضْتُمُ
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمُ الْاِثْبَاسَ ؛ أَيْنَ أَبْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَبْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَبْنُ الْبُؤْنِ ،
مِنَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ ؟ ؛ وَالزُّنْحُ الرَّازِحُ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالْكُودُنُ الْمَبْرُوضُ ،
مِنَ الْمُجَرَّبِ الْمَرُوضِ .

وَأَبْنُ الْبُؤْنِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ الْقَنَاصِيْسِ !

كَمْ لِسِهِمْ بَطْلَانُجٌ وَسِبَاحُ ، وَسَاكِنُ صَرَائِفٍ وَأَكْوَاخُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَةُ أَنْبَاطُ ،
وَعُلُوجُ أَشْرَاطُ ، وَرِعَاطُ أَخْلَاطُ ، وَسِفْلُ سُقَاطُ ؛ فِي بَلَدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،
وَعَبْرَتُ جُسُورَهَا ، حُجَّتْ : وَاعْرِضْهَا ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهَهَا غَرِبًا نَادَيْتُ : وَابْتَاهُ ؛
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَىِّ وَالِدِي إِمَامًا ؛ فِي مَعْتَمِرٍ مَا عَرَفُوا
الْتِّحَالَ ، وَلَا رَكَبُوا الشُّرُوجَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعَشَرُ كَبَائِتِ تَمِشُ * خَوَالِفَ لَا تَقْدُومُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاحبة رجل جوال، رجال حلال، بيت وضع، وبالكوفة أريض، ويتبعه أئمة، وبواسط أخضر، وبالحجاز وتهامة فطامه، وبمصر والمغرب كان اختلاطه؛ وبقيد والشام بقل عارضه، وباليمن وعمان قويته نواضيه؛ وبخراسان بلغ أشده، وبخارا وسمرقند تآهى جلده؛ وبغزنة والهند شاب وأكتمل، ومن سيحون وجيحون عل ونهل؛ وبميسان والبصرة عود وقريح، وبالجبال جله وجلح؛ فهو يمد «المازني» إمامه، وأبن «جني» ذلامه؛ و«المثنى» من روايته، و«المعري» حامل دوائه، و«الصائي» باري قلبه، و«الصاحب» رافع علمه؛ و«ابن مقلّة» من ناقل غاشيته، و«بن أبي حفصة» بعض حاشيته، وقد قرأ الكتب وتلاها، وحفظ العلوم ورواها، ودرس الآداب ووعاها؛ ودون الدواوين وألفها، وأنشأ الحكم وصنفها، وفصل المشكلات وشرحها، وأرجل الخطب وتفتحها؛ فهو البحر المورود، والإمام المقصود، والعلم المصمود، هذا يوفى ومرئى شديد.

ألقون بالأعزّل الرأى، * وبالأكشف الحاسر الدار،

وبالكودن السابق السابح، * وبالمنجل الصارم القاطع؛

فما أستم كلامه حتى أقبل : فاذا نحن به قد طلع مهرولا، وأقبل مستجلا؛ فرأيت رجلا أبلج، أتم أفلح، أفلح أزدح، طويلا عتظط، يحيي ذنبا أمعط، أجمع أخطب، فتلقوه معظمين، وله مفتحمين؛ فقصد في المجلس صدره، وأسند إلى الحدة ظهره؛ فما استقر به المكان، حتى قيل له : هذا فلان؛ فقبض من أفنه، ونظر إلى بشطير من طرفه؛ وقال ببعض فيه، هأنذا ما كنتم فيه؛ تأسا للشواه؛ وجاليتها، والقرعاه وحاليها :

جاء زيد مجرّرا رسنه * فحل لا يمنعه سنه (٩)

أحبّه قومه على شوه * إن القرني في عين أمها حسنه :

كان لنا شيخٌ بالأخبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أُملاء، ومن السنِّ أعلاه؛
قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السراج“، و”ديوانُ
ابنِ السَّجَّاح“؛ و”كتابُ الإصلاح“، و”مشروحُ الإيضاح“؛ و”شعرُ الطَّرِمَّاح“،
و”العين“ للفَرُّهَوْدِي، و”الجمهرة“ للأَزْدِي؛ وأكثر من المصنَّفات، المجهولات
والمعروفات؛ يَنفُخُ في شَقَاشِقِهِ، وَيُزِيدُ في بَقَايِهِ، ويتعاطمُ في غمارِهِ؛ وجعل
القَوْمُ يَقْسِمُونَ بيننا الألفاظ؛ ويَحْسِبُونَ الألفاظ؛ وما منهم إلا من اغتاط لسُكُوتِي
وكلامِهِ، وتأخَّرِي وإقدامِهِ.

ثم هذى الشيخُ إذ وُصِفَ له رَجُلٌ على القَيْبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدراه؛
وَأَشَدُّ مُتَمَتِّلًا:

لَعَمْرُ أَيْكَ تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِي * بَعِيدَ الدَّارِ خَيْرُ أَنْ تَرَاهُ

فقال: هذا المُعَيْدِيُّ هو ضَمْرَةٌ، بَنُ ضَمْرَةٍ، بَنُ جَابِرٍ، بَنُ قَطَنٍ، بَنُ تَهْشَلٍ، بَنُ
دَارِمٍ، بَنُ مَالِكٍ، بَنُ حَنْظَلَةَ، بَنُ مَالِكٍ، بَنُ زَيْدِمَنَاءَةَ، بَنُ نَعِيمٍ، بَنُ مِرَّةَ، بَنُ أَدَّ،
ابنُ طَاهِجَةَ، بَنُ أَلْيَاسٍ، بَنُ مُضَرَ، بَنُ زُرَّارٍ، بَنُ مَعَدٍّ، بَنُ عَدْنَانَ. والمُعَيْدِيُّ تَصْغِيرُ
مُعَيْدٍ، وهو الذي قالت فيه نَدِيبَتُهُ:

أَنْتَ الْكَرِيمُ التَّهْشَلِيُّ الْمُصْطَفَى * أَكْرَمَ مِنْ حَامِرٍ أَوْ تَحْنَدَا!

فقلتُ: ما بعد هذا المَقَالِ، وَجْهٌ لِلْأَحْثَالِ؛ وما يَجِبُ لِي بعدَ هذه المُواخَّةِ،
غَيْرُ الْمَكَاهِفِ؛ ولم يبقَ لِي بعدَ المُغَالَبَةِ، من مُرَاقِبَةٍ:

مَا عَطَيْتِي وَأَنَا جَلْدٌ تَابِلٌ^(١) * وَالْقَوْمُ فِيهِ وَتَرَحُّلٌ

* تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهِ الْمَعَالِلُ!

(١) كذا في اللسان في مادة - ظل - وفي مادة عنيل "خب خائل".

ما ملئني وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه وتر عرود
* مثل ذراع البكر أو أشد *

فقطعت عليه عطف الشائر العاصف ، وألقت إليه ألقيات الطائر الخاطف ؛
قلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ما شئت ، فاجب الآن إذا دُعيت ؛ وألزم مكانك ،
وغض عنانك ، وقصر لسانك ؛ إن نادية صخرة خندقته ، لما وصفته ؛ وما سمعتُ
في نسبك إياه لخنيف ذكراً ، فأبى عن ذلك صديراً ؛ فقال : إن خنيف هي امرأة
ألياس بن مضر ، قلبت على بنينا فلبسوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبلندوية وعمرينة ،
والسلوكية وجعينة ، ونذبة وأذينة ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدعامة . قلت له :
سئلت ، فأجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خنيف هل هو أمم موضوع ، أو لقب
مصنوع ؟ ؛ فوقف عند ذلك حاراً ، ونحلت ناره ؛ وردك جريانه ، وسكني هديانه ،
وقتر قليانه ، وتلهر حرانه ؛ ودل وأقنع ، وأنطوى واجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وأجلاه
الاستعجاء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطرق لفظه : أغلته لقباً . قلت : هو
كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجب ؟ فلم يجب بداً من أن يقول :
لا أدري ، فقال وقد أذقته مر الإماته ، وأحس من القوم بتظاهر الشباهة :

وَوَدَّ يَجْدُجُ الْأَنْفِ لَوْ أَنَّ مَحَبَّةَ * تَادَرُوا وَقَالُوا فِي الْمَنَاجِ لَه : نَم !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه متהלله ، وألسنة متوسله ؛ في شرح الحال ،
والقيام بجواب السؤال ؛ فقلت : هذا يدع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجيب ؛ إن ألياس
ابن مضر تزوج لبلى بنت عتبة^(١) ، بن حلوان ، بن الحلاف ، بن قضاة ، بن معد ،
(في بعض النسخ) ، فولد له منها : عمرو وعامر وعُمير . ففقدتهم ذات يوم ، فالتحق

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

على ليلٍ باليوم، فقال: آخرجني في أثرهم، وأتيني بغيرهم، فبعثت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحنف في اتباعهم، حتى ظفرت بلفائهم؛ فقال لما ألبس: أنت خفيف. وانحدفة في الاتباع، فأرب الخلو في إسرار؛ وقال عمرو: يا أباي أنا أدركت الصيد فلوئته، فقال له: أنت مدركة إذ حوتيه. وقال عامر: أنا طبعته وشويته. فقال له: أنت طائخة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنقمت في إنباء، فقال له: أنت قسمة للاختيار؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم أستفدته، وفضل أستردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب، نساء في الآداب. فقلت له مثملاً:

أقول له والرخ ياطر منته * تأمل خفاً: إني أنا ذليكا!

ثم لم يمتدح إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهذيبه؛ طمعاً بأن يأخذ بالتأثر، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم الدسيية، وجال في ميدان العريية؛ ولم يحس أن بابه فيها أقصر، وطرقه دون حقايقها أحسر؛ فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مضجع، وحكم مقنع، وعالم مصدع، ومكي من كل عتيق صهل، وعتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فاحذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلخوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالحق، بيث [الفرزدق]^(١):

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسعناً أو مجلفاً!

فَكَثُرَ فِيهِ الْجِدَالُ، وَطَالَ الْمَقَالُ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ، وَأَصَابَ
الْقِرَاطَ؛ وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَأَتَى بِالتَّحْقِيقِ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ سَاهُونَ،
وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَعْهَوْنَ؛ فَتَنَادَيْتُهُمْ: إِلَى فَسَارِعُوا، وَمِنِّي فَاسْتَمِعُوا؛ فَإِنِّي أَنَا أَبْنُ بَجْدَتِهَا،
وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِهَا؛ ثُمَّ لَمَّا أَبَدْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ؛ وَحَلَلْتُ عُقْدَهُ،
وَعَحَّضْتُ زُبْدَهُ، وَأَطْرَقْتُ لَبْدَهُ؛ وَبَحَّسْتُ حَجَرَهُ، وَأَبْتَنْتُمْ عُجْرَهُ وَبُجْرَهُ؛ فَقَالُوا: اللَّهُ
أَبُوكَ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ، وَأَكْشَفْنَا لِنْيَايِهِ؛ وَأَجَلْنَا لَشَبِّهِ، وَأَضُوْنَا فِي بَدَنِهِ؛
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهَرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ، وَيَطْلُعُ عَلَى خَافِيهِ.

فَادْرَكَنِي الْإِهْتِمَاضُ، وَأَخَذَنِي الْأَفْضَاضُ؛ فَانْسَدَتْ:

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ!

وَقُلْتُ لَهُ: أَدَّعَيْتَ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ؛ فَأَخْبَرَنِي مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ، يَا مُجَرِّي
الْكُبَيْتِ؛ وَكَيْفَ تُنْشِئُهُ: وَعُصٌّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعُصٌّ بِالضَّمِّ؟ فَقَالَ: كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ،
فَقُلْتُ: تَبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَمُودُ إِلَى الْأَنْثَى يَا ذَا الْإِعْجَابِ، تَبَيُّاَ لِلْسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ؛
وَأَخْبَرَنِي لَمْ تَحْتَجِ إِلَى الْمَاضِي؟ فَأَسْرَعَ مِنْ ضِرِّ التَّفَاضِي، وَقَالَ: لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ. قُلْتُ: هَذَا جَوَابٌ تَعْلَمُهُ، وَمِنْ صِيغِ الْمَكْتَبِ لَا تَعْدِمُهُ؛
وَأَمَّا أَتَيْتُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا. فَقَالَ: مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةٍ
النَّهْءِ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ؛ فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْحَشْتُهُ. قُلْتُ: دَعِ
عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبَيِّنَةِ، أَلَيْسَ أَمْ لَقِيَهَا؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَجَّعُ، وَيَتَأَنَّبُ
نَارَةً وَيَتَحَنَّنُ. فَلَمَّا سُدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ، وَحَصَلَ فِي مِصْبِقِهِ، وَعُصٌّ بِرِيقِهِ؛
قَالَ: لَا أَعْلَمُ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ: أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْغَيِّ سِلَاحَهُ، وَعُصَّ جِمَاحَهُ؛
وَمِنْ أَذْبَرٍ بَعْدَ إِقْبَالِهِ، مُدِلٌّ عَنْ قِتَالِهِ:

والحق أبلغ لا يُحمد سبيله * والحق يعرف ذوو الأبواب!

والآن فقد فازت قِداحك ، وبانت غُررك وأوضاحك ؛ وأجنت النضال ، وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دللت ؛ لئلا يقال : هذا بهت ، ومحالٌ بحث ؛ قلت حبا وكراهه ، إسمع أنت بألفامه ؛ إن الفعل من فاعله ، كالولد من نأجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كل قائل ؛ وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك : أن الفتحة لا تكون مع الناء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجت وأخرجنا ، فستط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت النون التي مع الألف ضمير المفعول عدت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا بين . فصفت الجماعة وممحت ، وحسنت وبجحت ؛ وجعل الأديب يضطرب أضطراب المضفور ، ويتقلب تقلب الصفور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ، وبأزیه عاد صردا ؛ ودوره اقلبت مخلصا (١) ، وزيتونه تحول حربا ، وقناه تغير قضا ؛ وأن مستقبله تموج ، وجسده تبهرج ، ومحيجه تدرج ، وجديده تكرج ؛ فقال منشدكم :

ترى الرجل النجيف قد دبره * وتحت شيا به أسد مزير
ويعجبك الطير فتبتليه * فيخاف ظنك الرجل الطير
فأعظم الرجال لهم بفخر * ولكن غرهم كرم وخير!

فأخذه الأبلas ، وضاق به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفه المض ؛ ويشام بيومه ،

ويعود على نفسه بلومه ؛ يَمْسَحُ جَبِينَهُ ، وَيَكْثُرُ أَيْنَهُ . فَمَتَّ فَمَتَّ مَعِيَ الْجَمَاعَةُ
وَتَرَكْنَهُ ، وَأَسْتَهَانَتْ بِهِ وَفَرَكْنَهُ ؛ فَلَمَّا بَقِيَ وَحْدَهُ ، تَمَنَّى لِحَدِّهِ ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَهُ ،
وَوَدَّ أَنَّ الْأَرْضَ بَلَعَتْهُ :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ * تَلُوذُ بِمَقْصُورَةِ السَّرَاةِ الْأَكْبَرِ ،
فَأَصْبَحَ مِثْلَ الْأَجْرِبِ الْحَلِدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فَمَا تَدْنُو إِلَيْهِ الْأَبَاصِرُ !

فَقَامَ فَتَبَنَّى ، وَوَقَفَ وَوَدَّعَنَى ؛ وَأَطَالَ الْأَعْيُذَارَ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ ؛
وَقَالَ : مَثَلُكَ مِنْ سَرِّ الْخَلَلِ ، وَأَقَالَ الْعَقَّةَ وَالزَّلَلَ ؛ فَقَدْ أَفْتَرَدْتَ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَائِثِ ،
وَمِنْ أَخْلَاقِكَ بِالذَّمَامَةِ . قُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَقْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْدُورٌ
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنَنَا فَهُوَ مَنَسِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ ، وَمَطْوِيٌُّّ غَيْرُ مَنَشُورٍ ، وَخَفِيٌُّّ
غَيْرُ مَشْهُورٍ :

[جِدَالٌ] أَهْلُ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَادِحٍ * مَا يَنْ غَالِبِهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

فَمِنْ سَكَتٍ فَمَا أَعَادَ ، وَتَزَلَّتْ وَجَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبَاطِنَ
لِقَاءٍ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلَّ اجْتِمَاعٍ وَسَائِرِهِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فِي الرِّسَائِلِ)

وهي جمیع رسائله والمراد فيها أمور يُرَتَّبُهَا الْكَاتِبُ : مِنْ حِكَايَةِ حَالٍ مِنْ مَدُونٍ
أَوْ صَبِيحَةٍ ، أَوْ مَدْحٍ وَتَقْرِيرِضٍ ، أَوْ مُفَاتَرَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا
الْمَجْرَى . وَتُمَيِّتُ رِسَائِلُ مِنْ نَحْوِ أَنَّ الْأَدِيبَ الْمُتَنَبِّئَ لَهَا رَبِّمَا كَتَبَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ

مُخبراً فيها بصورة الحال، مُفتحة بما تفتح به المكتبات، ثم تُوسّع فيها فافتحت بالخطب وغيرها .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل المُلوكية ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهى أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأُقتلَ عنها من أيدي التتار ، وأسبَلَاهِ على مُلكها ، وجُلّسه على تخت بنى مُلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كُتب بها إلى الصّاحِب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما آسفت عليه حال تلك السّفره ، وهى :

يُقبِلُ الأرضَ بساحاتِ الأبواب الشريفة السّيدية ، الصّاحبية البهائية ؛ لا زالت رُكائبُ السّيرتُحُ إلى أرجائها السّير ، وصُروفُ الرّمين تُسالمُ خُدّامها ويُحِلُّ الغيرَ بالغير ، ولا يرحلُ موطن البرّ ومعدن الجلود وبحر الكرم وعُكاظ الخير ؛ ويُنهى بعد رفع أدعيته التى لا تزال من الإجابة مَحْوطه ، ولا تَبْرُحُ يداها مَسْوَطه ؛ أن العبيد من شأنهم لأخاف مواليم بما يُشاهدونه في سَفَرَاتِهِمْ من عجائب ، وإطلاّعهم على ما يروّنه في غَرَواتِهِمْ من غَرَائب ؛ ليقضُوا بذلك حُقُوقَ الاسترقاق ، وتكونَ نِعَمُ ساداتِهِمْ قد أَحَسَّنَتْ لأفواههم الاستِنطاق ؛ ويتَمَرَّضُوا لما عساه يَبْنِي من مَرَامِهِمْ التى ماعندهم غيرها يَتَفَدّ وما عندها باق .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في مآثره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نقعائها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يجفف الخواطر الشريفة من هذه الفزوة بلع يختار منها من يؤلف، ويُسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ وإنما قصد أن يخفف بها أبواب مولانا مع بسط القول وأتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يعمل رسالته؛ فإن كان المملوك قد طَوَّل في المطارحه، فمولانا يتطوَّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذئ، فما زال شرح الوقائع مطوَّلاً كذا؛ وتالله ما وُرخ مثلها في التواريخ الأولى، ولمعنى إن خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل؛ والأمر أعلى في قرائتها وأستيعابها، والتَّهْلُ في حجلها حتى تُسِفِرَ حسنَ نَهايا وترفع مسئُول قنايعها،

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية، وأنها استصعبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنايك الخليل نار، ولا تتمر على ملبنية إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يترد الزائر من الأعباء، أو يتزوَّد الطائر من النعش؛ تسبق وقد الريح من حيث تتجى، وتكاد مواطن خيلنا بما تسجبه أذبال الصوافي تمتجى؛ تحمل هماً الخليل المتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا الحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها المأم؟ * نحن نبت الربا وأنت الغلام!

وَمَرَّ لَا يَفْعَلُ السَّيْفُ أَعْمَالَهُ ، وَلَا يَسِيرُ فِي مَهْمِهِ إِلَّا عَمَهُ وَلَا جَبَلٍ إِلَّا طَالَهُ ؛
تُسَارِهِ السَّوَارِي وَالْفَوَادِي ، وَلَا يَنْفِكُ النَّيْتُ مِنْ أَنْسِكَابٍ فِي كُلِّ نَادٍ وَوَادِي :
فَبَاشَرَ وَجْهًا طَالَتْ بِأَشْرَ الْقَنَا ، * وَبَلَّ ثِيَابًا طَالَتْ بِهَا الدَّمُ !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأندراج لامات حريمهم ،
وَحَلَّيَ آلَاتِ طَعْنِهِمْ وَضَرَبَهُمْ :

بِحَازَلِهِ حَتَّى عَلَى الشَّمْسِ حُكُّهُ ، * وَبَانَ لَهُ حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ مِسْمُ .
يَمْسُدُ يَدَيْهِ فِي الْمُقَاضَةِ ضَمِيمٌ * وَعَيْبُهُ مِنْ تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ !

وَرَحَلُوا مِنْ حَلَبَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَانِي ذِي الْقَعْدَةِ بِرَأْسِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَهْودِ ،
قَدْ خَفَّفُوا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْبُنُودَ وَالْعَمُودَ ؛ فَبَسَرْنَا فِي جِبَالٍ نَشْتَهِي فِيهَا سُلُوكَ الْأَرْضِ ،
وَأَوْدِيَةٍ تَهْلِكُ الْأَشْوَاطُ فِيهَا إِذَا مُلِيتِ الْفُرُوجُ مِنَ الرُّكُضِ ؛ نَزُورُ دِيَارًا مَا تُحِبُّ
مَقْنَاهَا ، وَلَا نَعْرِفُ أَفْصَاهَا مِنْ أَذْنَاهَا ، وَاسْتَقْبَلْنَا الدَّرْبَ فَكَانَ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

رَمَى الدَّرْبَ بِالْخَيْلِ الْعِتَاقِ إِلَى الْعِدَا ^(١) * وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ ،
شَوَائِلُ تَسْوَالُ الْعَقَارِبَ بِالْقَنَا * لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَيْلُ .
[وَمَا هِيَ إِلَّا خَطَرَةٌ عَرَّضَتْ لَهُ * بِحَوَافِ لَبْنَهَا قَنَا وَنُصُولُ
هُمَامٌ إِذَا مَا هُمْ أَمْضَى هُمُوسِهِ * يَارَعَنَ وَطَهُ الْمَوْتِ فِيهِ تَقِيلُ
وَحَيْلُ بَرَاهَا الرُّكُضُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا عَرَّسَتْ فِيهَا قَلَيْسٌ حَيْلُ]
فَلَمَّا تَجَمَّلَ مِنْ دُلُوكَ وَصَنَجَةٍ * طَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَأْيَهُ وَرَعِيلُ

(١) القى في دهران المتني : بِالْمَرْدِ الْجِيَادِ .

(٢) الزيادة من دهران المتني .

عَلَى طَرَفِهَا عَلَى الطَّرَفِ رَفْعَةً * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ مُمُولُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُودَ وَهِيَ رُؤُوسُ مَسْكَنَاتِهَا ، ضَاحِكَةً عَنْ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَرَةٍ قُدْرَانِهَا ، ذَاتُ بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَلَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَنْسِيٍّ مُتَمَدِّدَةٍ ، وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجٍ الدِّيَابِجِ تَتَمَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ بُجَادَى ، ظُلُمَاتِهَا مُنْكَمِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عَمَّهُ ، لَا يَثْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّمَا سَالِكُهَا يَمْتَشِي عَلَى شَقَا جُرْفٍ
هَارٍ ، فَبَيْنَا هُنَاكَ لَيْلَةٌ تَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شَيْئَتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَنْتَهِي الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً مُجُوعٍ ، وَأَخَذْنَا فِي اخْتِرَاقِ غَابَاتِ أَشْجَارِ تَخْفِي الرِّفِيقَ عَنْ رَفِيقِهِ ، وَتَشْغُلُهُ عَنْ
اِقْتِضَاءِ طَرِيقِهِ ، يَتَبَرَّى مِنْهَا كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يُخْرِجُ السَّهْمَ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَاجِيْقِهِ ، حَوْلَهَا مَعَائِرُ أَشْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بَعِثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَقَطَّرَتْ ، بِبَيْنِهَا
مَخَاضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضَ ، كَأَنَّهَا بِحَارٌ بَهْرَتْ ، مَا نَحْرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْجَدَاوِلِ وَتَعَمَّتْ بِالْبُلُوجِ ، وَحُمِيتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؟ تَضَيَّقُ مَتَابِعُهَا بِمَنْثِي الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ
تَجَرِّبَاتُهَا أَلْفَافَ الْأَكَامِ عَلَى السَّائِدِ ، ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلِقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِيقَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ
بِالْمُزْدَحْمِينَ مَحْتَبَقَةٍ ، بَيْنَمَا يَقُولُ مُتَحَبِّبُهَا : قَدْ نَلَتْ السَّمَاءُ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ، لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَقْضُمُنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُقْظِمُنَا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنَابِضَ أَوْجُهِنَا ، * وَ[لَا] تُسَوِّدُ بَيْضَ الْعُنْدِ وَالْأَلَمِ ،
[وَكَانَ حَالَهُمَا فِي الْحَكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكْمِ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفُكُ مِنْ سَفَرِي ، * مَا سَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الْحَرَاءَ الْمُهْمَاءَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ وَمَعْنَاهَا الْمُحَرَّقَةُ ، كَانَ الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ مِيسَ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَّرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتُّجَّارِ . فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْهَائَةِ سَيَّرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَاتَّصَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتْلَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَيَّ الْحَرِيمَ وَالذَّرِّيَّةَ ، وَتَحَرَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحَيَيْنِ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبَيْنَ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَعَثَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَاسِيَا حَوْلَهَا مُتَلَظِّمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ، وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الْعَلَيْبِ بِقَوْلِهِ :

غَضِبَ النَّهْرُ وَالْمُلُوكَ عَلَيَّهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ النَّهْرِ خَالَا

فِيهِ تَمَيُّزٌ مَتْنِي الْعُرُوسِ أَخِيَّالَا * وَتَنَفَّى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فَبَنَاهَا وَأَبْنَيْنَا وَخَلَيْنَا مَبْنُوتَةً فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا تَبَرَّتِ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَلُوسُ ؛ إِذَا زَلَّغَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاغِمِ عَلَى الْبُلُكُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالصَّبِيلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ، وَخُضْنَا فِي أَشْيَاءِ ذَلِكَ حَتَّى أَفْضَ سَوَاغُ ، كَأَنَّهَا لِأَجْلِ عَوَمِ الْخَبْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مَنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَاحِجٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بِمَرِّ قَطْعَتَاهُ أَتَعَرَّضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسْتَهَانُ كُنُوزُ الْهُيُوتِ فِيهِ تَقَادُ الْأَجَلُ ، لَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كَوْكَبُوا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رُدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبِنْدَاتِ لَمَّا قَصِدَ التَّوَجُّهُ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوِي رِجَالِهَا ، وَمَتَوِي عَنَامِهَا ، وَمَلَوِي زِمَامِهَا ، وَمَاوِي قَنَامِهَا ، فَلَقِلْتُ حَبْرَاهُ رَكْعَاهُ ، وَأَعْمَلْتُ الْخَبْلُ فَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ بِلْجَةً أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخِرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ
السَّيَّارُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الشَّمْسِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِرْبَنْدَ فَمَا ثَبَتَ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافِحَةٍ صَفَافًا، وَلَا نَعْلُهُ لِمَكَاثِفَةٍ رَحَاها، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارِحَةٍ قُوَاهَا، وَتَمَزَّتْ
الْخَيْلُ عَلَى الْأَفْصَاحِ وَالْأَزْدِيحَامِ فِي التَّطَرُّقِ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرُبِ
وَالْتَسَلُّقِ، فَصَارَتْ تَنْحَطُّ أَلْحِطَاطَ الْمَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ أَرْفَاعَ الْكَوْكَبِ، وَتُسْرِى
سَرِيانَ الْخَيْالِ، وَتَمُكِّنُ حَوَافِرَهَا الْحَيَادَ قَتَرُولَ مِنْهَا الْجِبَالِ، حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِرْبَنْدَ وَهُوَ خَنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمَّ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقٍ، وَفَمَّ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمَّ عَضَّتْ أَنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِيٍ وَمُسَارِقٍ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِينَ
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ، وَتَمَحَّتِ السَّحُبُ بِهَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَرَدٍّ، وَجَاءَتْ الرِّيحُ بِمَا أَلَمَّتِ الْجِلْدَ وَاسْتَنْفَدَتِ الْجِلْدَ، وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتِ الْمَقَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَاهِزِ،
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ ثَمَسَ الدِّينِ سُقْرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ،
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ التَّارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَايَ، فَأَنْهَزُمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِيَّ فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَأَسْتَمَثَتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّارِ وَيُؤْسَرُ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَيْتَمٍ
يَتَّقُظَ وَأَعْظَمَ حَذَرٍ، وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ التَّيْفِيسَةَ لِقَوْمٍ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامِ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بِدَاخِلِ الْخَبَرِ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا، وَأَنَّهُمْ ثَابُوا وَوَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي جَلْبِ * أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا ابْصَرُوهُ عَمُّوا !

وشرع . ولانا السلطان فوصى جنوده بالثبوت عند المصدمة ، والاجتماع عند المصادمة ، ورب جيش الإسلام الحبيب ، على ما يجب ، وأرأهم من نور رأيه . الا على بصير ولا بصيرة يحتاج ، فطلعت العساكر مشرفة على مخفرات هونى من بلد أبلسين ، وكان العدو ليلته تلك يائسا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جحان ، وهو نهر جحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرض لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من طلي الجبل شاهدوا المغل قد تربعوا أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا بمفرده . ولما شاهدوا ستاجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفراء المقترحة ، وكانها في شعاع الشمس نيرانا فقتلهم ، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم لحلوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وأقبل بعضهم على بعض يتساملون ، وعلى الموت يترأسون ، فانصب الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الحيلة منهم ونفى الخيل ، فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء المغل كان طاغية التار آينا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيما الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ، وكان فيهم من المقلدتين الكار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التقاد ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفعه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرخخوا أخوت تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمى الألويف دزك ، وصهر آينا ، وقرالى وخوآصه :

بعض الموارض طمأنون من لحقوا * من القواريس شلالون للنعيم !
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيْبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ !
 فَعِنْدَ مَا شَهِدُوا تَجَدُّدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَحَقُّقُوا أَنَّ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ؛ أَخْلَدَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ قَتَلَتْ ، وَطَاجَتِ الْمَنَآيَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ
 لَهُمْ وَتَاجَرَتْ ، وَكَثُرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ؛ وَلِلْوَقْتِ خُذْلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبَطُونِ السَّيَاحِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ؛ فَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ أَصَقَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامَى ، وَنَاضَلَ وَرَأَى ؛
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَاسَلَمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كَنَائِهِ سَهْمٌ ؛ وَذَى مِنْ طَارِحٍ بِهِ فِى
 طَرَحِهِ حَتَّى تَنَلَّمَ ، وَذَى سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالْعَقَالِ فِى جَلِّ مُحَادَثِهِ حَتَّى تَكَلَّمَ ؛ وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَبِيهِ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَفْثَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ وَأَشْتَلَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمُسَرَّةِ مُعْرِجِينَ عَلَى السَّانِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهِ ، مُثْقَلِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَّمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ !

فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَتَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْمَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ
 فَافْرَطَ ؛ وَلَحِقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَاخْذَعُ الْأَخَذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتْلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمْتَشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَيْلِ ؟

وَأَهْزَمَتْ جَمَاعَةُ بَسِيرَةٍ طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْقَوَامِ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخْذَنْتِ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا أَيْسٌ مِنْ حَيَاةٍ عَدِيدَةٍ فِي أَمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِتَارُ

إِذَا قَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاقَلْتُمْ * بِأَرْمَاجٍ مِنَ الْعَطِشِ الْفِقَارِ!

وقصدتُ مِثْمَةَ عَسْكَرِنَا جَمَاعَةً مِنَ الْمُغَلِّ ذُوو بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى
خَجِرَ الْحَدِيدُ مِنَ الْحَدِيدِ ؛ وَكَانَ مَوْلَانَا الصَّاحِبُ زَيْنُ الدِّينِ - حَرَسَ اللَّهُ جَلَالَهُ -
لَمَّا دُعِيَ تَزَالُ أَقْلَ مُسَابِقٍ ، وَأَسْرَعَ رَاشِقٍ ؛ وَأَقْرَبَ مُطَاعِنٍ ، وَأَعْظَمَ مُعَاوِنٍ ؛
فَدَرَكْنَا مِنْ شَاهِدِهِ أَنَّهُ أَحْسَنُ فِي مَعْرَكَتِهِ ، وَأَجْمَلُ فِي كَرَّتِهِ ، وَأَجَادُ فِي طَلْعَتِهِ ؛ وَزَارَ
زَيْهَرَ اللَّيْلِ ، وَسَابَقَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ حَيْثُ ؛ وَوَقَفَ دَرِيئَةً لِلرِّمَاحِ مِنْ عَنِّ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ،
وَحَضَبَ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمٍ صُلُوهُ أَوْ خَافَ سَرَجُهُ وَهَنَانُ لِحَامِهِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ
بَاقِيَةٌ وَاقِيَةٌ فِي تَهْدِيمِهِ وَإِقْدَامِهِ ؛ وَشَاهَدَنَاهُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ وَسْطِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ شَاكِي
السَّلَاحِ ، وَقَدْ أَخَذَ نَصِيْبَهُ وَنَصِيْبَ قَرِيْبِهِ مِنْ سَالِمِ الْحَرَاكِ ؛ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ لَا يُغْلِيَهُ مِنَ
إِسْأَلَةِ دِمِّ يُعْظَمُ اللَّهُ الْأَجْرَ بِسَائِلِهِ ، بِحَمَلِهِ - وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ - مِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ أَنْامِلِهِ .

وَلَقَدْ ذَكَرَ الْأَمِيرُ عَزُّ الدِّينِ الْيَتِيمُ الدَّوَادَارَ الظَّاهِرِيَّ ، قَالَ : لَقِيْتُهُ وَقَدْ تَكَسَّرَ
رُجْمِي ، وَعَادَ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ - إِلَى الْخَسَارَةِ رِجْمِي ؛ فَأَعْطَانِي الْمَوْلَى الصَّاحِبُ
زَيْنُ الدِّينِ رُجْمَهُ فَإِذَا فِيهِ نُصُولٌ ، وَبِسْنَةٍ مِنْ قِرَاعِ الدَّارِصِينَ فُلُولٌ ؛ وَرَأَيْتُ دُبُوسَ
الْمَوْلَى الصَّاحِبِ زَيْنِ الدِّينِ وَقَدْ تَسَلَّمَ ، وَكَانَ الْخَوْفُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَدِيدًا
وَلَكِنْ اللَّهُ مُسَلِّمٌ ؛ وَلَقَدْ بَلَغَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ خَبْرَهُ فَسَأَلَهُ فَا أَجَابَهُ بِغَيْرِ أَنْ قَالَ :
سَيِّفٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ هُوَ الَّذِي سَفَكَ ، وَعَزَّمُهُ هُوَ الَّذِي فَتَكَ .

وَمَنْ يَكُ عَفْوَظًا مِنْ اللَّهِ فَلْيَكُنْ * سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَاذِرُهُ هَكَذَا ،

وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّقُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنَ يَبْدِيهِ وَلَا تَالَهُ أَذَى !!

وَأَمَّا الْمَدُّ فَتَقَسَّيَتِ الْإِيْدَى مَا يَتَطَلَّوْنَ مِنَ الصَّوَاهِلِ وَالصَّوَاغِنِ ، وَمَا يَصُولُونَ بِهِ
مِنْ سُيُوفٍ وَقِيسٍ وَكَتَائِنٍ ، وَمَا يَلْبَسُونَهُ مِنْ خُودٍ وَدُرُوجٍ وَجَوَاشِينِ ، وَمَا يَتَمَوَّلُونَهُ

من جميع أصناف المعادين ؛ فَنِمَّ ما هُنَاكَ ، وَاسْلَمَ من استشهد من المسلمين رِضْوَانُ
وَاسْلَمَ من قُتِلَ من الكُفَّارِ مَالِكٌ .

وكان الذين استشهدوا في هذه الوقعة من المقلّمين : شرف الدين قهران العلّايّ،
وعمر الدين أخو الأمير جمال الدين محمدى . ومن الممالك السلطانية : شرف الدين
فلحق (٥) الجاشنكير الظاهريّ ، وأبيك الشقيقيّ الذي كان وزير الشقيف . وكان
المهروحوون عدّة لطيفة لم يُعلم عددها لقتلها ، بل نلقتها ؛ وأوردت الله المسلمين منازلهم
فزلوها ، ووطّأتهم ونركوايتهم قتلها ؛ وكان مولانا السلطان وكان أمدادوه كما قيل :
قَسَامُهُمْ وَبُسْطُهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَحَهُمْ وَبُسْطُهُمْ تَرَابٌ !!

وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاءهم ، ولا تبصر إلا أعيالهم ؛ كما جَزُرُ
أجسادهم جَزَارُ يَحْتَلُّها من الدماء السيل ، وكأما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز
المنصور أكرّ تلعب بها صواجله من الأيدي والأرجل من الخيل :

أَلَقْتُ إِلَيْنَا دِمَاءَ الْمُفْلِلِ طَاعَتَهَا * فَلَوْ دَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دُمُ !

فَكَمْ شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامة ، تُتَفَرَّسُ في جهامة
وجبه الفخامة ، قد فَصَّ الرُّيحُ قَاهُ فَقَرَعَ السَّنُّ على الحقيقة نَدَامَهُ :

وُجُوهُهَا أَخَافُهَا مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكْتُ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ !

أوكما قيل :

لَا رَحِمَ اللَّهُ أَرْؤُسًا لَهُمْ * أَطَرْنَ عَنْ هَامِيْنِ الْخَفَا !

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتمارفون ، ولاخبار بعبائهم
يتواصفون ؛ فكم من قاتل : هَذَا فُلَانٌ وَهَذَا فُلَانٌ ، وَهَذَا كَانَ وَهَذَا كَانَ ؛ وَهَذَا

(١) في ديوان الختي "لا يريم" .

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَزِيحُ الْأَلُوفَ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذِيهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ يَدَايِهِ
الْمُصْفُوفُ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الْمَغْلِ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كُبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ، وَعَلَى
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَخْجَى فِي الْأَرْضِ﴾.
فَجَعَلَهُمُ لِلسُّيُوفِ طُعْمَةً، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الرُّومِ قَرِيبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَاللَّهْمَ :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْمَقْوِيِّ عَنْهُمْ، * وَمِنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَمْنَعُ الْيَدَا!
وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارَى الرُّومِيِّينَ مُهَذَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي، يَتَنَى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدَ الْبُرَوَانَةِ، وَنُورُ الدِّينِ جَاجَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ، فَكَانَ الْبُرَوَانَةُ أَحَقَّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

تَجَمُّوتُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَقْتَ إِحْدَى مُهَجَبَيْكَ سَبِيلُ!
أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ أَبْنَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ؟
لَأَنَّهُ شَمَرُ الذِّلِّ، وَأَمْتَعِي - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدْنَى اللَّيْلِ؛ وَثُمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ، * وَالْبَرْقُ فِي شُغْلٍ، وَالْبَحْرُ فِي تَجَلٍّ !!

وَدَخَلَ الْبُرَوَانَةُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ،
فَأَقْبَحَهُمْ غِيَاثُ الدِّينِ سُلْطَانُهَا، وَالصَّاحِبُ نَهْرُ الدِّينِ بْنِ عَلَمَا (؟) وَالْأَتَايَا تَجْدُ الدِّينِ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي، وَالْأَمِيرَ بَدْرُ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّاتِبِ، وَالْأَمِيرَ فُلَانُ
الدِّينِ الطُّغْرَايَ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أَيْمَنِ الْبُرَوَانَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمَغْلِ وَبَقِيَتْهُمْ مُنْزِمُونَ، وَيُخْشَوْنَ مِنْهُمْ دُخُولَ قَيْصَرِيَّةَ
وِإِتْلَافَ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقَّقًا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَاخْذَمَ جَرَائِدَ، وَأَخَذَ

زَوَجَتْهُ كُرْجَى خَاتُون بِنْتُ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنَ الرُّومِ ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعًا عَشَرَ جَارِيَةً لَهَا ، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَقَائِ وَالْأَلْيَامِ ، وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَفَاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ ذَاكًا قَدْ اقْتَرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبُرْوَانَةُ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا تُخْرِجُ عَنْهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ تَمَسَّ الدِّينِ سُبُقْرًا الْأَشَقَرَّ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا بِهِ لِإِدْرَاكِهِ مِنْ فَاتٍ مِنَ الْمُغْلِ ، فَرَوُّوا فِي طَرِيقِهِمْ بَفَرَقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَكَلُ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمُحَرَّكَ ، فَتَزَلَّ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلَدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ خِيَرًا مِنْ انْخَطَ الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَمْنَاءُ بِرِيَّانَ فَإِنَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ كَالْهَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلُومٌ ، وَعُمُرَتِ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَبَدَلَتْ كَانَتْهَا مَجْرَّةُ التَّجُومِ ، وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دِرَابَزِينَاتٍ مَنُجُورَةٍ ، وَرَوَّاشِينَ قَدْ بَدَتْ فِي أَكْلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُّهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيْنَانٍ ، وَيَطْلُوها مِنْ رَأْسِهَا مِثْلُ مَسْنَمِ الرَّاسِ كَمَا يَطْلُو الصُّعْدَةُ السَّنَانُ ؛ وَتَطْلُوفُ بِهِذِهِ الْقَرْيَةُ جِبَالًا كَانَتْهَا أَسْوَادُ بِلِ سَوَارٍ ، وَكَانَتْهَا فِي وَسْطِهَا إِثَاءً فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَانَتْهَا جَبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ، وَمَضَائِقُ لَا يُلْقَى عَبْرَهَا لَنَا كَبٌ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مَقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَنَحَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبُ كُلِّ وَهْدٍ ؛ وَنَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَمْلُص من تَمْلُص ، وَحَضَرَ من كَانَ في المَصَائِقِ قد تَرَصَّص ، وقال : كُلُّ الأرض حَصَصَص .

وَرَحَلْنَا من هناك في يوم الأحد ثاني عشر شهر ذي القعدة وكانت السماء قد حَبَّتِ الأرض بِيَجَانٍ أمطارها ، وَأَغْرَقَتِ المَوَامَّ في أَجْحَارِها ، وَافْتَتَحَ في أَوْكَارِها ؛ وَأَصْبَحَتِ الأرض لَانْتِمَاسَكُ حَتَّى وَلَا لِمُرُورِ الأَرَامِ ، وَالجِبَالُ لَانْتِمَاسَكُ أَنْ تَكُونَ لِلْعِمَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بها من الدُّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ حَمَلٍ ، وَتَزَلُّقُ في مَصْبِلِهَا أَرْجُلُ الثَّمَلِ ، وَنَزَلْنَا على هذه الحالة نَهَارًا كُلَّهُ إلى قَرِيبِ الغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَا بِتَسْلِمِنَا أَيْدِي الدُّرُوبِ من أَيْدِي الدُّوَابِّ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً في مُتَتَجِّعِ أَرْضٍ تَطْلُوفُ بها جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، وَبِمَاءٌ دَافِقَةٌ ، تُعْرِفُ قَاعَةً تِلْكَ الأرضِ بِوِلَاةٍ قَشَلًا وَسَارِ (٩) من أعمال أصاروس العتيق . وَقَرِيبَ من تِلْكَ الجِهَةِ مَعْدِنُ الفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قد شَرَعْنَا في أَهْبَةِ المَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّيْثِ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ قد صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قد سَمَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بِأَنْ قَوْبًا من التَّسَارِ في بَقْوَةٍ هُنَاكَ قد أَسْتَرَوْا ، وَفي تَجْمُوعٍ لِفِرَّةٍ قد آتَتْظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مولانا السلطان وَرَكِبَ النَّاسُ في السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا على المَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَاجُعُ النِّيثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الجَنَاحِ ؟ ثم لَطَفَ اللهُ وَعَادَ مولانا السلطانُ وهو يقول للناس : لا بَاسَ ، فِينَمَا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ، وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً في كُلِّ وَادٍ تِيمَ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَمِيطُ بها الوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عَذْرَاءُ الطَّرْفِ فيها حِينَ يَكْبُو فيها الطَّرْفُ ؛ تَقَطُّعُ منها إلى جَنَادِلَ ، يَضْعُفُ عن الهَوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الأَجَادِلِ ؛ بَيْنَا قَوْلُ : قد أَحْسَنَ اللهُ لَهَا نَقَادًا وَمِنْهَا نَقَادًا ، وَإِذَا بَعْدَ الأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الجِبَالِ جِبَالٌ تُشْكِرُ عند ذَاكَ هُنَاكَ وَذَلِكَ عند هَذَا ؛ وَمررنا على قَرْيَةٍ أَوْتَرَاكُ ، وَنَمَتِهَا قَنَاطِرُ وَخَانٌ من حَجَرٍ مَنُوحَتِ ، ثُمَّ خَانَ آتَمُّ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَابِعَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشِيدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنٍ سَمْتَدُو ، الَّتِي
عَرَضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُخْدِمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْتَدُو * وَإِنْ يُحْجِمُ فَوَعِدُهُ الْخَلِيجُ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَيرَ إِلَيْهَا خَوَاصَهُ بِكَتَّابٍ إِلَى نَائِبِهَا فَقَبِلَهُ وَقَبْلَهُ ، وَأَذَعَنَ
لِتَسْلِيمِ حِصْنِهَا الْمُنِيعِ وَالتَّارُولِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّهُ ، فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَفَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ،
فَكَلَّهْمُ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ، وَزَلْنَا فِي وَطَاءٍ قَرِيبٍ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ
بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَعَتْ عُلوْفَاتُ حَيْلِهِمْ أَوْ كَادَتْ ، وَالتَّحْيِيلُ قَدْ بَاتَتْ لِيَالِي
بَلَا مَلِيْقِي فَمَا أَسْتَفَادَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكُسُوبِ (٩) فِي عَلَيْقِهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا
فِي طُرُوقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ، فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نَفُوسِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ
الْقَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ، فَصَادَقْنَا فِي هَذِهِ الدَّيْلَةِ بَعْضُ
أَثْبَانٍ أَمْسَكَتْ أَرْمَاقُهَا ، وَأَحْسَنْتْ إِرْفَاقُهَا وَإِرْفَاقُهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ رَاحِلِينَ فِي جِبَالٍ كَانَتْهَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ،
وَهَاطِطِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَخَنَّى سَالِكُهَا مِنْ شِدَّةِ مَضَائِقِهَا أَنْتَ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَفُّيْ أَعْلَى
جَبَلٍ ، وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانٍ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايَ بِدَلٍّ عَلَى شَرَفٍ
هَمَّةَ بَائِيهِ ، وَطَلَبَ ثَوَابَ اللَّهِ فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَيْبَةِ سَعَةً وَأَرْيَافًا ،
وَأَحْسَنَهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ، كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْجَمْرِ الْمَنْحُوتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَانَتْ
رِخَامُ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَزْكَانِهِ قُقُوشٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِيحَ مِنْهَا بِالْأَقْلَامِ ، وَلَهُ
خَارِجٌ بِأَيِّهِ مِثْلُ الرِّيشِ بَيَاضَيْنِ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَائِيتُ .
وَأَبْوَابُ الْخَانِ حَدِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوَاوِينَ صَيْفِيَّةٍ ، وَأَمْكِنَةٌ

شَتِيَّه ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هذه الصورة لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
وما مِنْهَا إِلَّا مَا يَمِيحُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّيْءِ وَالصَّبِيفِ ؛ وفيه الْحَمَامُ وَالْبَيَارِيسَتَانُ
وَالْأَدْوِيَّةُ وَالْقُرْشُ وَالْأَوَانِي وَالضَّبَائِفُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حُمِلَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
مِنْ ضِيَائِهِ لِمَا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَمُبَاشِرُونَ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضِ النَّتَارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَاهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكَرُّمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبَالِغُونَ فِي تَجْهِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقْرُبُ مِنْ قَبْعَرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقٍ وَادِي
صَلُومَةٍ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُلُوبَ تَتَوْبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ صَبِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَيْرُ بَانٍ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وهذا الْجَبَلُ يعلوه جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وهو الَّذِي يَقْرِبُ الرُّومَ الْأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
وَتَنْضَاءُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ دُيُوبُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ ثُلُوجِهِ شَيْءٌ وَصِيفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَجْمَرَةِ الْمُتَصَدِّدَةِ مِنْهُ عِشَائِرُهُ
مِنْ صُبْحِهِ .

ولما كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّفِ ذِي الْقَعْدَةِ ، وهو يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
الْمَسَاكِرُ الْمُنْصَوْرَةَ مُتَرَتِّبَةً ، وَمِلَاتِ الْفَضَاءِ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوَى أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مَيْدَانٍ ، وَيَصْبِيحُ بِهِ فَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانٌ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَقْلُ مُلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلْكَاءٌ وَتَقْلَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكارها، وعلمائها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونسائها
وصغارها؛ فأتهم مولانا السلطان ممسّاهم، وشكر مسماهم؛ وتلقّى قضائهم وعلمهم
رُكباناً، وحادثهم أنساناً فأنساناً؛ وحصلت جماعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجِد
مُطريّه، وصدّحاتٌ ذكري مُعجبه. وكان دهليز السلطان غياث الدين صاحب الروم
وخيائمه وشعار سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك في وطاة قريب الجوسق والبستان
المروف يكتسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من
ملك وأمة ومأمور وأمير، وأرغمت الأصوات بالتّهليل والتكبير:

رجا الروم من ترعى النوافل كلها * لديه ولا ترجى لديه الطوائل!

ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المعصدة لكرم الوفاة، وضربت نوبة
سلجوق على باب دهلزيه على العاده؛ وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى
شريف قسطنطينة، وتبليهم بنظره واحتياطه؛ وحضر أصحاب الملاهي، فاطفروا
بغير النواهي؛ وقيل لهم: أريجوا وراءكم فالتبسوا، وأذهبوا إلى وإذ غير هذا
الوادي فالتبسوا؛ فهذه الهاته لا تنفق هنا، وما هذا موضع الغناء بل هذا موضع
الغنى؛ وشرع مولانا السلطان في إنفاق اللهى، وعين لكل جهة شخصاً وقال: أنت
لها، وحكم وحكم، وعلم وعلم؛ وأحمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيايه،
وأعطى كلّا يمينه كتابه؛ وأقام المجمة على من أترج بالاستعطاف، وتأمين من خاف؛
فأخرج كبيرهم عن الخاتله، ولا زعيمهم عن المطاوله؛ فلما علم مولانا السلطان
أنهم لا يقلعون، ولغير التار لا يصلحون؛ وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يمسون
وإن أسسوا لا يصيحون؛ عاد عن تلك الوعود، وأختر أن مابدأ إليه يعود، وأن
يبحث نفسه إلى ما بنه الله إليه من المقام المحمود؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير ، ونصب جتر بنی سلجوق على رأسه فشاهد
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير ؛ ودخل قيصرية في بكرة
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فُرِشت لئزوله ، وتحت بنی سلجوق وقد هُيَّ
لحلولة ؛ وهى دار ترهه ، ومنازل من يتبدد أو مئازه من يلهو ؛ أنيقة المبتى ، تحف
بها بسائين عذبة الجنى ؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة ، وباجمل
نقوشه مصرية ؛ بغلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت ، ونال
التخت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصيه * لغیر المليك الظاهر التذیب يصلح .
ملكك على اسم الله ما فتحت له * صوارمه البيض المواضى وتفتح .
أنته وتود الروم والكل قائل : * رأيناك تفوق عن كثير وتصفع .
فأوسمهم حلتا وجاد لهم ندى * وأمسوا على من وأمن وأصبحوا .
ولو أنهم لم يمنحوا لمتكيب * عن الحق والنهج القويم لأفلحوا ،
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد * تصافح كفا زنتها النار قدح !!!

وأقبل الناس على مولانا السلطان مهنؤونه ، وعلى كفه الشريف بقبولونه ؛ وبعد
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والسوفية ودؤو المراتب من أصحاب العمام
على عادة بنی سلجوق في كل جمعة ، ووقف أمير الحفيل وهو كبير المقادير عندهم ، له
وسامة ونقامة ، وله أكبركم وأوسع عمامه ؛ وأخذ في ترتيب الحفيل على قدر الأقدار ،
وأنصب قائماً بين يدي مولانا السلطان منظرًا مائليه به يسار ؛ وشرع القراء يقرءون
جميعاً وفرادى بأحسن تلحين ، واجمل تحسين ؛ فانت أصواتهم بكل عجب ، وعدلوا
عن الترتيل إلى الترتيب . ولما فرغوا شرع أمير الحفيل صارخا ، وبكورية نايغا ؛

فَأَتَشَدُّ وَأُورَدُ بِالْقَارِيسِيَّةِ مَا يُجِبُّ مَذْلُوهٌ ، وَيَهْوِلُ مَقُولُهُ ، وَأَحْسَلَ وَمَا حَاطَبُ ،
وَأَسْتَصَوِّبُ مِنْ يَعْزِفُ مَقَالَهُ قَوْلُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَلَمَّا أَهْضَى ذَلِكَ مَذْهَبَ سِمَاطٍ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَّ الْمُلُوكِ ، فَكَلَّ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَّفَ ؛ وَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِمْتِنَاعِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى عُجْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ، وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمُ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْجَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَائِخُ خُدَّامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنِّهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكِبَرِ ؛ عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْاُنْكِسَارِ ، وَأَمَارِ الْأَقْفَارِ ؛
بِخَبَرِهِمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَتَمَّهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قَبْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جُمُعَاتٍ ، وَبِهَا خُطْبَاهُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْهَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السُّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلَى يَدَيْهِ عَلَى أَحْقِفَالٍ مُلَوَّكِيهَا بِيُوتِ عِبَادَتِهِمْ ، وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَهْضِي بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَخَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَايَرُهَا ، وَجَلَسُوا حَلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجَمِيَّةِ صُنُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَقِيقَةِ
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَخَارُجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةُ بَعِيدَةٍ عَنِ الدَّرَايَةِ ؛ بَلْ إِنَّمَا
تُبْرِزُهَا أَصَوَاتٌ مُتَرْتِمَةٌ ، وَالْحُكْمُ لَتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةٌ ؛ يَنْطَقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ اتَّفَقَتْ ، وَلَا يَتَوَقَّعُونَ عَلَى عَمَّارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا بِنَاطِلَتْ أَوْ لَا نَاطِلَتْ .

فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قِبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ قُودُوا عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِيَّانَةٍ وَلَا إِبَانَةٍ . وَلَمَّا تَنَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصَوَاتٍ مُتَّحِمَةٍ مُلَمَّلَةٍ ، وَتَنَاهَتْ مُتَنَوِّعَةٌ ؛ يُمَسِّكُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْحِينٍ ، وَيَتَرْتَمُونَ بِالأَصَوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ ؛ وَفَرَّغَ الْأَذَانُ وَكُلُّهُمْ قُودُوا مَا مِنْهُمْ

أحد غير الصبيّ وقَفَ ، وما مِنّا أحدٌ لكلمةٍ من الأَذَانِ عَرَفَ ، ولما فرَغَ الأَذَانُ طَلَعَ شيخٌ كبيرُ السنِّ يعرفُ بأميرِ عَمَلِ المِتْبَرِ، فصَعِدَ إِلَى ذِرْوَةِ المِتْبَرِ، وَشَرَعَ فِي دُعَاءٍ لَا تَعْرِفُهُ ، وَأَدْمَاءَ لَا تَأْلَفُهُ ؛ كَأَنَّهُ مُخَاصِمٌ ، أَوْ وَكِيلٌ شَرِيعٌ أَحْضَرَهُ مُشَادَّةَ خَصْمِهِ نَحَاكُمْ بَيْنَ يَدَيِ حَاكِمٍ ؛ وَطَلَعَ الخَطِيبُ بعدَ ذلكَ نَحَطَبُ ودعا مولانا السلطانَ بغيرِ مُشَارَكَةٍ ، ودعا النَّاسَ بِمَا تَلَقَّتهُ مِنَ الأَقْوَامِ المَلَائِكَةِ ؛ وَأَتَقَضَتِ الجُمُعَةُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، الْمَسْطُورَةِ ؛ وَضُرِبَتِ السَّكَّةُ بِاسْمِ مولانا السلطانِ ، وَأَحْضُرَتِ الدَّرَاهِمُ إِلَيْهِ فِي هَذَا اليَوْمِ ، فَشَاهَدَهَا فَرَأَى أَوَجُّهَهَا بِاسْمَةِ بِاسْمِهِ المَيْمُونِ ، وَأَقْرَبَتِ الأَلْسِنَةُ بِهِذِهِ النِّعْمَةِ وَقَرَّتِ العُيُونُ ؛ وَشَاهَدَتْ بِقَيْسَارِيَّةِ مَنَارِسَ وَخَوَاقِنِ وَرُبُطًا تَدُلُّ عَلَى أَهْتِيَامِ بَانِيهَا ، وَدَغْنَتِهِمْ فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، مُشِيدَةً بِأَحْسَنِ الحِجَارِ الحُمْرِ المَصْقُولَةِ المَنْقُوشَةِ ، وَأَرَاضِيهَا بِأَجْمَلِ تِلْكَ مَفْرُوشَةٍ ؛ وَأَوَايُهَا وَصُفْقُهَا مُؤَزَّرَةٌ بِالْقَاشَانِيِّ الأَبْجَلِ صُورَةٍ ، وَجَمِيعُهَا مَفْرُوشَةٌ بِالبُسْطِ الكَرَجِيَّةِ والعَالِيَةِ ، وَفِيهَا المِائَةُ البَجَارِيَّةِ ، وَلَهَا الشَّبَابِيكُ عَلَى البَسَائِينَ الحَسَنَةِ ، وَسُوقُ قَيْصَرِيَّةٍ طَائِفٌ بِهَا مِنْ حَوْلِهَا ، وَلَيْسَ دَاخِلُ المَدِينَةِ دُكَّانٌ وَلَا سُوقٌ .

وَالْوَزِيرُ فِي بِلَادِ الرُّومِ جَمِيعُهَا يُعْرَفُ بِالصَّاحِبِ «تَقَرُّ الدِّينِ خَوَاجَا عَلَى» وَلَا يُنْحَسِنُ الكِتَابَةَ وَلَا الْخَطَّ ، وَخَلَعَتْهُ مِنْ مَمَالِكِهِ خَاصَّةً مَاثِنَا تَمْلُوكَ ، وَدَخَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ - غَيْرُ دَخَلِ أَوْلَادِهِ وَغَيْرِ الإِنْطَاعَاتِ الَّتِي لَهُ وَلِأَوْلَادِهِ وَخَوَاصِّهِ - سَبْعَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ سُلْطَانِيَّةٍ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ فِي مَنَدَرَسَتِهِ مِنْ خِيَامِهِ وَتَرَكَلَوَاتِهِ شَيْئًا لَا يَكُونُ لِأَكْبَرِ المُلُوكِ ، وَلَهُ بِرُومَةٍ مَعْرُوفٍ ، وَهُوَ بِالتَّخْيِيرِ مَوْصُوفٌ :

وَالْمُسَمَّنُونَ بِالْوَزِيرِ كَثِيرٌ * وَالْوَزِيرُ الَّذِي لَنَا المَأْمُولُ !

وَعَلَى هَذَا وَذَلِكَ عَلَى * وَعَلَى هَذَا لَهُ التَّفْضِيلُ !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَبَدَأَ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ!

وَمَعِيَ إِنَّمَا سَأَلْتُكَ كَأَنِّي * كُلُّ وَجْهِهِ لَهُ بَوَاجِيهِ كَفِيلُ!

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ الْبَرْوَانَةَ وَزَوْجَتُهُ كُرْجِي خَاتُونُ ، فظهر لها من الوجود
الْبَادِي لِلصُّيُوفِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وجمد الله آستولى مولانا السلطانُ وَمَعَالِيكُمُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَّحَ بِلَقِيَسَ .

ولما أقام مولانا السلطانُ بَقِيَصَرِيَّةَ هَذِهِ الْمَلَّةِ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمَصَارِمَةِ مَلَّتْ ، وَالسُّوَادَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ، وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُعْزَى ، وَلَا يَجْزَاءُ الشُّوْءَ يُعْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرُ رَعَايَا كَالسُّوَاهِمِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةَ - لِلْكَفَرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَعَاقِلُهُ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ قَالِبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ؛ وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالذُّوسِ قَدْ أَصْحَحَلَتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَبِحُ لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ السَّيَاحِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرِّعْيِ وَالرَّيَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحَسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ الْبَتَّارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَتَجَبَّهُمْ عَامُهُمْ فَيَمُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلِ .

وَرَجَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاهُ وَخَوَاصُهُ
كُلَّ مَا أَحْضَرُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوْلِيهِ أَسْمُ النِّعْمَةِ ؛ فَتَزَلَّ
بِمَتَزَلَّةٍ تَعْرِفُ بِتَرْتُلُوا فِي هَذِهِ الْمَتَزَلَّةِ وَرَدَ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَرْوَانَةِ وَالْكَبَرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى عَلِيُّهُ الدِّينِ التَّرْتُمَانُ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبَرْوَانَةِ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَمَا عَلَيْهِمْ
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيَوَاسَ . فَتَعَدَّدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَاتِهِ بِهَيْدِهِ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَفْصَى

ملكه مع بُعده ، وأنهم ما وَقَفُوا عند الشروط المُتَّزَهِ ، ولا وَقَفُوا بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ
 الْمُسِيرَةِ ، وأنهم لما جاء الحقُّ وَزَقَّ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ أُعْطِيَهُم
 لِلْكَفْرِ مُسَامَةً ، وأنهم منذَ اسْتِبْلَاءِ التَّارِهِمِ أَصْحَابُ الْمَشَامَةِ ، وَعَلِمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
 أَنَّ بِلَادَ الرُّومِ مَا بَهَا عَسْكَرٌ يَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، وَلَا مَنْ يُقَابِلُ الْمُخْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا
 مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ، وَأَنْهُمْ أَهْلُ الْبِلَادِ ، لَا أَهْلُ الْفَقْدِ ، وَأَهْلُ طَرْبٍ ،
 لَا أَهْلُ حَرْبٍ [وَعَلَبَ] ؛ وَأَهْلُ طَبِيعَةِ عَيْشٍ ، لَا قَوَادِ جَيْشٍ ، فَردَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ
 الْبَرْوَانَةِ مَدَّ يَدَهُ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ : لَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا ، وَأَخَذْتُ أَمَّهُ
 أُسِيرَةً وَأَبْنُ بَيْتِهِ وَوَلَدَهُ ، وَكَيْفِيْنَا مَا جَرَى مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيْزِ ، (وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَعَضَى قَرِيضَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْحَاوِرَةُ ، وَلَا بَعْدَ
 هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْحَاوِرَةِ حَاوِرُهُ ، وَنَحْنُ قَدْ أَبْتَدَيْنَا فِيَا أَنَا اللَّهُ :
 مِنْ حَقِّ دِمَائِهِ أَهْلُ الرُّومِ وَصَدَمَ نَيْبِ أُمُومِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَتَرْتَدُّ عَنْ أُمُومِهِمْ
 لِلتَّارِ تَسْتَحْيُونَهَا ، وَمَغَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَمْ مِنْ الْجَنَاتِ مَغَارِمُ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ؛
 وَمَا كَانَتْ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَانِكُمْ لِرِيَادَةِ بَقِيَّةِ آلِ سُلْجُوقٍ ، إِلَّا لِنُعَلِّمَكُمُ أَنَّهُ
 لَا حَاقِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يُعَوِّقُ ؛ وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ،
 وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كُلَّ مَسَافَةٍ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ؛ وَمُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ
 التَّحْتِ جَلَالًا ، وَأَرْفَعُ مَنَالًا ؛ وَكَمْ فِي مَمَالِكَا كَرَامِي مُلْكٍ نَحْنُ آيُهُ ذَلِكَ الْكَرَامِي ،
 وَكَمْ لَنَا قَتَحٌ كُلُّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنَافَةِ الْقَتَحِ الْقُدْسِي .

مَنْ كَانَ فَوْقَ عَمَلِ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَضَعُ !

وَأَسْتَصْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيٌّ لَهُ اشْتِغَالٌ بِطِلْمٍ ، وَكَانَ لَهُ

في الأروم صورة، وهو أمير داريغني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين موح (٩) مشرف المالک، ومرتبته دون الوزارة فيه فضل، ونسخ كثيرا من العلوم بخطه، مثل الصباح في مجلد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوسد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (٩) والأمير سيف الدين بكجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المتجنيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر .

وأستصحب قاضي القضاة بمطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي السکر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدتهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولدت البرواناه المسذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعيم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر شاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجیش، والأمير حسام الدين ركاوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير الترمجاني .

ومن المغل : مقدمي الألوف والمآت - زيرك وسرطاق، وحنوك، وسركده

وتصاديه (٩) .

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلة قريب خان السلطان علاء الدين كيقباز، ويعرف بكرواني صراي . وهذا الخان بنة عظيمة من نسبة خان قرطاي ، وله أوقاف عظيمة . ومن جملة ما وجد قريبا منه أنواد كثيرة من الأغنام عبت فيها العساكر المنصورة ، سألت عنها فقيل : إنها وقفت على هذا الخان يذبح نتائجها للواردين على هذا الخان ، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف ، قدر الله استيفادها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف .

ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر ، وزلنا في وطاة عادة التار يتزلون بها تسمى روران كودلوا ، وكودلوا اسم جبال تلك الوطاة .

ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة ، فمارضنا بها . في وطاة خلف حصن سمنسو من طريق غير الطريق التي كنا توجهنا منها - نهر يعرف بنهر قزل صو ، قريب كودلوا الصغير . ومعنى قزل صو النهر الأحمر ، وهذا النهر صعب الخاض ، واسع الأعتراض ، عالي المهبط ، زلق المسقط ، مرنجع المرتقى ، بعيد المستقى ، لا يجد السالك من أحوال حافته إلا صعبا زلقا ، فوقف مولانا السلطان بنفسه ، وجرّد سيفه بيده ، وباشر العمل بنفسه هو وجميع خواصه ، حتى تبا المكان جميعه ، ووقف راجلا يبر الناس أولا فأولا : من كبير وصغير وغلام ، وهو في أثناء ذلك يكر على من يزدحم ، ويكرر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويتعجم ، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين . ولما خفت البرور ، ولم يبق إلا المروء ، ركب فرسه وصبر الماء والألينة له دأبيه ، وعليه من الله وأقية باقيه ، فزل في واد هناك به مرعى ولا كالسعدان ، ومرأى ولا كشمب بوان .

ثم رحل في يوم الجمعة فقتل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قريبة من هدر رجال (٩) قبالة بازار بلو، وهذا بازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويأع فيه كل شيء يطلب من الأقاليم، ويقرب من كودلو الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في ولاة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أتم التار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كوايسرها، وكف بأسمهم من النشور مناسرها، وكيف أصبحوا لا ينسبهم إلا اليوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأيسنة لا زرق الروم، فرأهم لمن بقي عبره، وعبروا على ربهم صفا وجاؤوه كما خلقوا أول مره، وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتم وقد هذأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدكم متكرمة وهذه عليهم متقصفه .

قد سودت شجر الجبال شعورهم * فكان في مسفة الغياب !

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أنست لكافة الكفر كافة وشالته ودارته، وأثنوا على منته التي سلت إليهم خيار السكاكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه، وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل الثني والدين، واستغبرهم مولانا السلطان عن عدة قتل المغل فقالوا : (فأسأل العادين) ؛ فاستغهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتل ، فقال : (قل الله أعلم بعتيهم ما يعلمهم إلا قليل) وقال بعضهم من علمهم ومن عنده علم من الكتاب : ، أنا عدت ستة آلاف وسبعائة وسبعين تقرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوفا مرها .

الحِساب ؛ هذا : غير من آوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف لها عصمه ،
وغير من اعتقد أن قرسه تسلمه فأسلمه ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقوات
مزرعة لجسومهم ، والنود لأنها مؤمنة وهم كفار قد أثرت كالتواسر في لجوهم ؛
فرسم مولانا السلطان بتسلم الأتقال والحراس والذهاب المتصور محبة الأمير
بدر الدين الخزندار ، والدخول في ألقه دربند ، وأقام مولانا السلطان في ساقه السكر
المتصور بقية يوم السبت ويوم الأحد :

فهو يوم الطراد أول سابق * وهو يوم القبول آخر سائق !

وأتتظر في هذين اليومين صيداً من العدويعن ، وما من دماعم إلى السيف يمين ؛
فلما لم يجد أحداً رحل في يوم الاثنين فقتل قريباً من الخان الذي في الدربند ، وركب
يوم الاثنين من طريق غير التي حضر منها ، فسلك طريقاً من الأوتار يساً ، وسلك
من قلل الجبال في مضاي كأن كلا منها ألف حملت من الأنجم قساً ، فقامى العالم
في هذا اليوم من الشنة ما لا يدخل في قياس ، وكادوا يهلكون لولا أن الله عز وجل
تدارك الناس ؛ فسابقوا ولكن على مثل حد السيف ، وتسلبوا ولكن سل حوافر
الخيال كيف ؟ ، وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف ؛
يستصعب البحر المالح من شاطئ وقوعه في عقابها ، ويستهلج النجم الثاقب ترفع
شعابها ؛ بالقرب منها جبل شاهق يعرف بسقر وما أدراك ما سقر ، لا يبي على شيء
من النواب ولا يدرك له عقة لراحة البشر ؛ أمان الله على المبوط منها ، وفاز بمشيئة
الله وبمساعدة مولانا السلطان من زحرج عنها ؛ وعدينا كوكصوا وهو النهر الأزرق ،
وبات مولانا السلطان هناك ، وكان قسيم البغال تلك الليلة ورق البلوط ، إلا من
أمست عناية الله أن تيسر في شيعر بخسة عشر درهماً كل مد يحوط .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة فقتل قريب
كسول (٩) المقتم ذكراً، وصل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله الداعي، وقالوا
للشعير: ما فينا لك مخاطب ولا منا فيك بماله مخاطر، وللخويل قد حصل لك
في مضر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذى الحجة الربيع الآخر، فأرقت
لا يرونها أفعاب الموازين في تلك المساجد، واستمرت في مروج يتأسف عليها
أبن المساجد (٩)؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء
النجوم، وأوقف كل أحد في مقام حتى قال: ((وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ))؛ فكم
هناك من مروج أعشبت فأعجبت، وأنجابت السماء عنها فأعجبت، وأزبت
على زهر النجوم فاهترت وربت:

يَصُدُّ الشَّمْسُ انِّي وَاجَهَتُنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَذْدُبُ النَّسِيمَ!

يَقْلَعُهَا هُنَاكَ أَتْرَعُ الْحِيَاضَ، وَيَهْوِيهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ الْعَايِي بِهَا
فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ .

هذا كله: وخير من أرزقمان، حارة برجان، وخير من أراضى توريز، قطعة
من اليز؛ وكوم من كيان سفظ ميثوم، خير من قصر في قيصريّة الروم، ونظرة
إلى المقياس، خير من سيواس، ومناظر اللوق، خير من كيقياذ آل سلجوق، وربة
من ترب القرافة، خير من مروج العرافة، وشبر من شبرا، خير من سطا ومرا (٩)
وجلوس في باب دارك خير * من جلوس في باب إيوان كسري،

وأنجاسي لنور وجهك خير * لي من أني أشاهد بدر!

ياوليا يولي الأيادي سرا * ووزيرا فليس يكسب وزرا:

ما رأينا والله فيمن رأينا * لك منلا من البرية طرا.

كَمْ خَبَرْنَا الرِّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ • فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا !
كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا • فَإِذَا النَّاسُ دُونَ حَبْلِكَ حَسْرَى !
لَكَ مَذْحٌ قَدْ طَبِقَ الْأَرْضُ سُبْحًا • نَ إِلَهِ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَمْرًا !
مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كَمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا !

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصبيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
الملك المنصور « قلاوون » من إنشاء القاضي تاج الدين البازاري ، وهي :
الحمد لله الذي تمّ النفوس الشريفة بإدراك الظفر ، وأنعم على هذه الأمة بمحمد
الذي أثار كوكب نهره وسفر ، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الفتيمة
في السفر ، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حُفَّتْ أيامه بالعز
والتأييد والظفر .

نحمد على أن أقر العيون بفضل به أقر ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة ألانت قلب من قر ، وكُرمت أسبابها فلا يمتسك بها إلا أعز فریق وغفر ،
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر ، صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر ، وسلم تسليما .

وبعد ، فإن في ابتغاء النصر ملأذا تدركها كل ذات شرفت ، وتملكها السجيا
التي تصارفت بالمخار وأسلفت ، وتناكس النفوس التي مالت إلى العز وإلى تغلبه

صُرِّقَتْ ، وَبَشَّرُهَا مِنْ خَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْعَقُ بِرُوقِ الصَّفَاحِ ،
وَتَسِيَّبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُعُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَسْرُحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِنَجْلِ فِي الْجَوَارِحِ
وَتَصِيدُ فِي الْأُرُوحِ ، وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ يَلْمُ عِنْدَ مَا تَنْسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ
الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشِرُحُ الصَّدُورُ إِلَى مَعَاطَاةِ الصَّبُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ،
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ قَتَاصِيدِ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدِ ، وَتُرْسَلُ الْخَوَاصِي الْمُسَكَّةُ ،
وَتُتَّقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكُهُ ، وَتُقَاضَى حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوَّحُ الْعَصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَبْعُثُ مَوَاقِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع لَلْوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَلِكِيَّةِ ،
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةِ الْخَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسَلَامًا ، وَأَتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرُ الْأَرْقَعُ
وَالْعِزُّ الْأَمْنِيُّ ، وَوَسَمَ بِصَدَقَاتِهِ وَعَزَمَاتِهِ الْأَمْرَيْنِ وَنَسَمَا ، وَنَصَرَهُ نَفْسًا وَعَظْمَهُ
شُعْمَةً وَشَرَفَهُ انْسِمًا ، فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْصَارُ ، وَأَسْبِلَاءُ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةُ
تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَقْنَى الْكُفَّارُ ، وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَيْبَةٌ ، وَصَدَقَاتُ مُنْجِيَّةُ
مُنْجِيَّةُ ، وَرَفْعُ ظُلُمَاتٍ مُنْشَعِبَةٍ ، وَقَنْعُ نَفُوسٍ مُتَوَبِّهَةٍ ، وَحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَةٍ ،
وَحِفْظُ الْخَوَازِيءِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَوَقَايَتُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ، وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
تُصَرَّفُ عَزَائِمُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آسْتِنَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَرِينِ
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ ظَفِيرٍ جَدِيدٍ ، فَيَرْتَمُ - خَلَدَ
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْتَمُ بِهِ مِنْ مَشَقِّ كُلِّ عَامٍ بِإِنْجَارِ الدَّهْلِيزِ الْمَنْصُورِ
فَيُنْصَبُ فِي بَرَّالِيْنَةٍ بِسَفْعِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةٍ آخِذَةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالكَرَمِ ،
فَتَمْدُّ بِالتَّائِيْدِ أَطْنَابَهُ ، وَتَرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِيَابَهُ ، وَيُحَاطُ بِمَجْرَاسَةِ الْمَلَامَكَةِ الْكَرَامِ
رِحَابُهُ ، وَتُضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقَا ، وَتُحْفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ،
وَيَسْتَقِلُّ الرُّكَّابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّبْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهَرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تنجيهِ من الخافه ، والحراسة تصبِيهِ فيما قُربَ ونأى
من المسافه ، ولسان السعيد قد خاطبه بالحيّة وشافه ؛ ومالكه الأمرأه قد حَفُوا به
أطلابا ، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإصاة نجايا ؛ ولم يزل حتى يأتى النيل
المبارك ويستوى على الكرسي فى القلک المشحون ، محمّلا بالنصر الميمون والجيش
المامون ، وقد استبشر باغتيلاه البحر والنون ؛ وأضحى لظهور القلک من الفخار
[بحضرته] المكرمه ، مالمصوات أجياده العتاق المسومه ؛ فلهذا نشر أعلام بشرها ،
وقال : (أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ جُحْرَاهَا وَمِرْسَاهَا) ، فسارت به فى اليم ، ونصر الله
قد تم ، وصعد من قلعه ، على مايسر نفوس المؤمنين فى كمال سلطانهِ وعِزّة مُلكهِ ؛
واستقر على جواد شرفت صهوته ، وقُرئت بالآتاة والسكون خطوته ؛ عرى النجار ،
يغتال فى سيرة كائما أنتشى من العقار :

ويغتال بك الطرف * كَانَ الطرف نَسْوانُ .

ترى الطرف دَرَى أو ليس يدري أَنَّكَ سُلْطانُ !

وسار فى زُرُوج مُحَضَره ، وثُور نبات مُفْتَره ؛ وقد طلعت للطفر شمسه وبُدوره ،
وأمنت للصيد بُزائه وصقوره ؛ من كل متوقد اللّظ من الشّماه ، محمول على
الراحات من قِوط الكرامه ؛ يُتَوَمُّ فيه النّجاح ، قبل خفقي الجناح ، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح ؛ وبأزها الأشهب ، ييجى بالطفر ويذهب بصدير
مُقَضِّض وناظير مُذهب ؛ له ميسر أفتى ، طالبا أغنى ، كائما هو شبّا السّنان وقد
حباه البكاة طمنا :

وصارم فى يدك مُنصَلت * إن كان للسيف فى الوعى رُوحُ ،

مُتَّعِد اللّظ من شهادته * فالجُو من ناظريه مجروحُ !

قد راح التَّجَحُّ جَنَاحَهُ، وَقَرَنَ اللَّهُ بِأَمْنَيْنِ غُدُوهُ وَرَوْاحَهُ، وَنَصَرَ فِي حَرْبِهِ حَيْثُ
 جَمَلَ مُنْصَرَّهُ رُحْمَهُ وَجَلَبَهُ صِفَاحَهُ ؛ فِي قَوَائِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِهِ النَّصْرُ
 ظَاهِرُ الْعَالَمِ ؛ كَأَنَّمَا أَلَمَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يُورِكَ لِأَمْنِي فِي بُكُورِهَا» ،
 فَيَسْرُحُ وَالطَّيْرُ جَائِعَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِغْيَاشِ السَّحَرِ عَلَيْهِ سَوَادٌ ، فِيهَا بِهِ
 الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
 عَلَى الطَّيْرِ حَلْقَةً وَهِيَ لَا هَيْبَةَ فِي الْإِقْطَاطِ حَبِهَا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، فَيَذْعُرُونَهَا بِخَفَقِ
 الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَنَا فِيهَا مُتَقَرَّبٌ ، وَلَطَائِرُهَا
 بِالْجَارِحِ مُعَقَّبٌ ، لَهَا يَدْنُو الْكَرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
 سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَتِهِ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جَنْبٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ
 بِبَعْضِهِ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَتَسَّبَّ فِيهِ مَخَالِبُهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
 وَمَذَاهِبِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَعِّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ
 صُيُودِهِ ، وَأَوَقَاتِ سُجُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرْبِهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
 وَيَجُودُهُ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ التَّهَارُ اللَّيْلُ بِظُلُمَاتِهِ ، وَيَلْمَعَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
 ذَلِكَ الرَّكَابِ الشَّرِيفِ إِلَى الْخَيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارِ وَاهِبِهِ ؛
 وَالْجَوَارِحِ مَسْرُورِهِ ، وَالطُّيُورِ مَأْسُورِهِ ؛ وَالتَّشْوِشِ مُتَمَتِّعِهِ ، وَالْمَوَاقِبِ مُنَوَّعِهِ ، وَالْأَرْجَاءِ
 مُصْبُوعِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَامِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
 أَمَامَهُ قَاتُو سَائِنِ تَوْعْمَانِ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانِ ، أَوْ قَرَقَدَانِ رَفَعْتُهُمَا بِدَانِ ؛ فَيَدْنُو
 إِلَى خَيْمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْخَفِيفِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْإِثْمِيلِ ، وَتَتَرَجَّلُ الْإِنْصَارُ
 قَبْلَ قُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدَرِ مِيلٍ ؛ وَيُسَمَّى بِالشُّمُوعِ لَتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى تَحْتِ الْمُلْكِ
 لَتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالْمُهَلِّيزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشُّمُوعِ الْمَرْقُوعَةِ ،
 وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَبِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه التَّعَمُّ فاعظاها ، والمِهْمَاتُ الإسلامية قَضَاهَا ، وَقُدِّمَتْ لَهُ الْحَيَادُ الْمُسَوِّمَةُ فامْتطَاها ؛ وِيَسْرَحُ إِلَى الصَّبْدِ وَالْجَوَارِحِ الَّتِي صَادَتْ بِالْأَمْسِ قَدْ اسْتَأْذَنْتْ ، وَبَسَادَتِهِ إِلَى ظَفَرِهَا قَدْ أُرْشِدَتْ ؛ فَلِذَا سَارَ رِكَابُهُ الشَّرِيفُ تَرَقَّتْ عَلَى أَتْرِهِ عَسَاكِرُ الْإِسْلَامِ ، وَقَوَّضَتْ تِلْكَ الْخِيَامُ كَانَهَا الْأَيَّامُ .

وَلَمْ يَبْرَحْ ذَلِكَ دَابَّةً فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَرَكَتِهِ حَتَّى يَأْخُذَ حَقْلَهُ مِنْ صَيْدِ الطَّيْرِ ، فَنَصْدُ ذَلِكَ يَنْتَنِي عَيْنَانَ السَّيْرِ ؛ إِلَى اقْتِنَاصِ الْوَحْشِ فَيَعُدُّ لِإِمْسَاكِهَا كُلَّ هَبْكَلٍ قَبْدَ الْأَوَابِدِ ، قَدْ حَقِدَ الْخَيْرَ بِنَاصِيَتِهِ فَاصْبَحَ حَسَنَ الْمَعَاقِدِ .

فَمِنْ أَشْهَبَ : كَرِيمُ الْمَغَارِ ، ذِي إِهَابٍ مِنَ النَّهَارِ ، وَأَدِيمُ كَانَتْهُ صَحِيفَةُ الْأَنْزَارِ ، أَيْبَضَ مِثْلَ الْمُدَى ، لَهُ فِي الصُّبْحِ إِثَارَةُ النَّصْرِ وَإِظَارَةُ عَلَى الْعِيدَا ؛ عَلَا قَدْرًا وَغَلَا قِيمَةً ، وَلَهُ إِلَى آلِ أَعْوَجَ نِسْبَةُ مُسْتَقِيمَةٍ ؛ إِذَا اسْتَنْتَ فِي مِضَارٍ يَسْبِقُ الْبُرُوقِ الْخَاطِطَةُ ، وَيُخْلَفُ الرِّيحَ حَسْرَى وَهِيَ وَاقِفَةٌ ؛ يَجِدُهُ الْفَارِسُ بِحَرَا ، وَلَهُ عِنْدَ تَجْرِي الْعَوَالِي مَعَ السَّوَابِقِ تَجْرَى .

وَمِنْ أَحْمَرِ : كَأَنَّمَا صَبِغَ بِدَمِ الْأَعْدَاءِ أَدِيمُهُ ، وَكَأَنَّمَا هُوَ شَقِيقُ الشَّقِيقِ وَقَسِيمُهُ ، كَرُمَتْ غُرْرُهُ وَجُجُولُهُ ، وَحَسُنَتْ أَعْرَافُهُ وَدُيُولُهُ ، مَكْرَمَةٌ بِجُلُودِهِ مَحْجَرُ حِطْنِهِ مِنْ عَلَى سُيُولِهِ ؛ حَتَّى لَوْ نَهَ تَحْزَنُ الرَّحِيقِ ، وَلَهُ كُلُّ يَوْمٍ ظَفَرٌ جَدِيدٌ مَعَ أَنَّهُ عَتِيقُ .

وَمِنْ أَدِيمِ : مُدْرِكُ كَالِيلٍ ، مُنْصَبِّ كَالِيلٍ ؛ كَرِيمِ النَّاصِيَةِ ، جَوَابِ قَاصِيَةِ ؛ كَانَ غُرْرَتُهُ صَبِغٌ تَنْفَسُ فِي الدُّجَى الْحَالِكِ ، وَكَانَتْهُ مِنَ اللَّيْلِ بَاقِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكُوبُ يُضِيءُ الْمَسَالِكَ ، وَكَأَنَّ مُجْجُولَهُ بَرُوقٌ تَفَرَّقَتْ فِي جَوَانِبِ النَّسِيقِ لِحَسَنِ مَنَظَرًا لِذَلِكَ ؛ سَنَائِكُهُ يُوْرِي قَدْحُهَا ، وَغُرْرَتُهُ يُبِيرُ صُبْحُهَا ؛ وَجَوَارِحُهُ مُسَوَّدٌ جَنْحُهَا ، وَصَهْوَتُهُ كَنَّ فِيهَا الْبَرْقُ فَلَا يَزَالُ ظَاهِرًا يُجْجَحُهَا .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ الْفَقْدَ نَحْوَ شَيْئَاتِهَا * وَأَلَوْنَهَا فَالْحُسْنَ عَنْكَ مُقِيبٌ^(١) !

وَأَمَّا هِيَ بِصَبْرِهَا عَلَى الظَّأِ ، وَشِدَّةِ عَنُودِهَا فِي النُّورِ وَالظُّلُمَاءِ ، وَسَبْقِهَا إِلَى غَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَثَبَاتِهَا تَحْتَ رَايَاتِ فُرْسَانِهَا .

وَتَلِيهَا الْقُهُودُ الْحَسَنُ مَنْظَرُهَا ، الْجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابُهَا وَطَفَرُهَا ، تَفَرُّقُ اللَّيْلِ فِي أَهْلِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَذْرَكِي الْعَوَاصِمَ فِي هَضْبِهَا الْمُتَرَفِّعَةِ ، وَجُوهُهَا كَوْجُوهِ الْبُيُوتِ الْخَاصِرَةِ ، وَثَبَاتُهَا عَلَى الطَّرِيدَةِ وَثَبَاتُ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفِئَةِ الْكَافِرَةِ ، مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرِ ، مَا أُطْلِقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا قَنَصَتْهُ سَرِيعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بَمَاءَةٍ مِنْ حُمُرٍ إِلَّا أَخَذَتْهَا جَمِيعًا .

ثُمَّ الْحَوَارِي الْمُعَلَّمَةِ ، وَالضُّوَارِي الَّتِي أَحْضَتْ بِالْمَجْمَعِ مُتَوَسِّمَةً ، مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَالِصَةِ ، وَثَبَاتُهَا طَائِلَةٌ غَيْرَ قَاصِرَةٍ ، بِبُيُوبِ كَالِاسِيَّةِ ، وَمُسَاعِدِينَ مَقْتُولِينَ تَسْبِقُ بِهِمَا ذَوَاتِ الْأَعْيَةِ ، لَوْ رَأَاهُ عِدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إِلَى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضَرِبُ الْعَسَاكِرَ حَلَقَةً مَا يَتَّقِي طَرَفَاهَا إِلَّا إِلَى اللَّيْلِ فِي اتِّسَاعِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الْأَوْبَادِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ تَعَامٍ : خُضِبَ ظَلِيمُهَا لِمَا أَكَلَ رَيْبًا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رِيثِهِ فَكَانَتْهَا سِبْهًا أَصَابَتْ نَجِيمًا ، طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَانَتْهَا خَطِيئَةً ، وَأَشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةَ فَكَانَتْهَا مَطِيئَةً ، شَارَكَتِ الطَّيْرَ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي تَكْفَةِ الْأَشْبَاحِ ، وَأَشْبَهَتْ

(١) القى في دهران المنى :

إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنِ شَيْئَاتِهَا * وَأَعْضَانَهَا فَالْحُسْنَ عَنْكَ مُقِيبٌ .

الْوَحْشُ فِي مَسْكَنِ الْفَقَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ أَجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا الْقَوَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَتَتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضُّدَّانَ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ ظَبَايَهِ : مُسَوَّدَةُ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي تَحْلِيلِ الْمُقِيلِ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَّتْ بِطُغْنِهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَجَلَّكَتْ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي مَحَرَّاتِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَالْمِسْكُ مِنْ دَمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَخَيْشِيَّةٍ : غُفْرُ الْإِهَابِ ، سَاكِنةُ الْمُضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّمْلِ
مَرَايِضٌ ، حَدَرًا مِنْ قَانِيصٍ قَانِيصٌ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ بِإِرَّةٍ
رَوْقَهُ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ النُّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرِ إِهَابِهَا أَمْرٌ مَنَسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (٩) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَتَّى الْجَزَعِ
الَّذِي لَمْ يَتَّقَبْ فِي دُبْحَى اللَّيْلِ عِيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَتَقَى حَلَقَةُ الْعَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَاسِ الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَنْثَمُ النَّافِذَةُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ قَتَمُوجُ الْوَحْشِ دُغْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ
وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِبَنَائِلٍ وَنُحْرَصَانٍ ؛ فَيُخَيِّدُ تَغْرِ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالظُّبَاءِ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرَعْنَ جَادِرِهَا ، وَالْجُرْعْنَ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُسَكِّمْ بِجَارِحٍ لِأَمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ ؛ وَتُجْزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَفْلَهُ
مِنْ الْقَبِيضِ وَلَذَّةِ الْاِكْتِسَابِ ، رَمَمَ لِأَمْرَاتِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْتَنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنص ذبيح، وإتق كل بما اقتنصه ليظهر الترييح؛ فإذا استكمل أوقات الصيد من الطير والوحش نحا ركابه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد آنحرت بكونها أصبحت من مكاسيه .

هذا كله وإن كانت النفس تراه لهوا، وتبلغ به كل ما تهوى، ففى طيه من تمرين الجنود على الحرب ما تشد به العزائم وتقوى؛ فيؤم الركاب الشريف عائداً إلى سرير ملكه بالقلعة المحروسة، والسلامة قد قصت ما يجب عليها من حراسه، والأقدار قد وقفت ما ينبغي من كلاءه؛ فلم يك إلا وهو صاعد إلى القلعة المحروسة وألست السعادة تخاطبه، ومسيره قد آهت فرحاً بمقدمه جوانبه، والصيد المبارك قد سعدت مباديه وجمدت عواقبه؛ فلبى أهبة السقر، وأخذ فيا بطن من المصالح الإسلامية وظهر، وتشد ألست السلامة ما أمل عليها العز والتأييد والظفر :

مَلِكُ الْبَسِطَةِ أَبٌ مِنْ سَفَرِهِ * وَالنَّصْرُ وَالْإِيسِدُ فِي آثَرِهِ،

فَكَانَهُ فِي عِزِّ مَوَكِبِهِ * بِدَرْ تَأَلَّقَ فِي مَسَنَا خَفَرِهِ.

مَا فِي الْبَرِيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ * أَوْقَى الذِّى أَوْتِيَهُ مِنْ ظَفَرِهِ!

يَسِيرُ إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ * مِمَّا يَلْتُ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ.

فَإِنَّهُ رَبُّ النَّاسِ قَاطِرُنَا * يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ!!

الصنف الثاني

(من الرسائل ما يرد منها مؤيد المدح والتقريض)

إما بأن يجعل المدح مؤيد الرسالة ويصدر بمدح ذلك الشخص المراد، وإما بأن يصدر بما جرى يحكيها المثنى ويخلص منها إلى مدح من يقصد مدحه وتقريضه

وما يجرى تجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك آفانين مختلفة المقاصد ، وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنساها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر" قصد بها تقييض وزير المتوكل وشكر نعمة لديه ، مُصدراً لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده ، وهى :

جُعِلَتْ فِدَاكَ ، أَيْدِكَ اللهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . لَيْسَ يَكُونُ الشُّكْرُ - أَبْهَاكَ اللهُ - تَأَمَّنَا ، وَمَنْ حَدَّ النُّقْصَانِ خَارِجاً ، حَتَّى يَسْتَصْحِبَ أَرْبَعَ خِيَالَ ، وَيَسْتَمِيلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك : من سد خلّة ، أو مبلغ لذة وطُوفى درجة ، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم للشفقة ، والذي حاول من المماناة والكثفة في بذل جاه مصون ، أو مفارقة عليّ تمين . وكيف لا يكون كذلك ؟ وقد خول من نعمة بعض ما كان حبيساً على حوادث عتة ، فزاد في نيم غيره بما انتقص من نيم نفسه وولده . فكلما تذكر الشاكر ما احتمل من مشونة البذل ، سهل عليه احتمال ما نهض به من ثقل الشكر .

والخصلة الثانية : الحرية الباعثة على حب المكافاة واستحسان المجازاة . والشكر من أكبر أبواب الأمانة ، وأبعد من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحد في ذلك غاية الحميد إلا بمهونة الطمع ، وإلا الحرب يحال بينهما ، والظفر مقسوم عليهما . كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوة ، وتمازت في بلوغ المدة . وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان ، كما أن البادئ بالظلم والمتصر لا يتبدلان ، لأن البادئ أخذ ما ليس له ، والمتصر لم يتجاوز حقه الذى هو له ؛ ولأن البادئ لم يكن مهيباً على

الْعُلَمَاءُ بِعِلْمِهِ جَنَاهَا الْمُتَصَرُّعُ ، وَالْمُتَصَرُّعُ مَهْجٌ عَلَى الْمَكَاافَةِ بِعِلْمِهِ جَنَاهَا الْبَادِيُّ ، وَالْمُتَوَرِّدُ لِلطَّبَاعِ الْمُغْتَضِبِ ، وَالْمُسْتَحْيَفُ الْمُهْجُ اعْذَرُوا مِنَ السَّائِكِ الْوَاكِيعِ الْمُطْمَئِنِّ .
فلذلك قالوا : إن الْبَادِيَّ أَظْلَمُ ، وَالْمُتَصَرُّعَ اعْذَرُوا . وَزَعَمُوا أَنَّ الْمُنِيمَ هُوَ الَّذِي أَوْدَعَ صَدْرَ الشَّاكِرِ الْحُبَّةَ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ ، وَهَبَّجَهُ بِذَلِكَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ ، فَقَدْ صَارَ الْمُنِيمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فِي إِحْسَانِهِ ، وَتَفَرَّدَ بِفَضْلِ إِنْعَامِهِ كُفُونًا مُشَارَكَةً فِيهِ ، وَالْمُنِيمُ هُوَ الَّذِي دَفَعَ لِلشَّاكِرِ أَدَاةَ الشُّكْرِ ، وَأَعَارَهُ آلَةَ الْوَقَاءِ ، فَهُوَ مِنْ هُنَا أَحَقُّ بِالتَّعْدِيمِ ، وَأَوْلَى بِالتَّقْضِيلِ .

هذا ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ : مَنْ تَمَّاعَ كَرَّمَ الْمُنِيمَ التَّعَاوُلُ عَنْ حُجَّتِهِ ، وَالْإِفْرَارُ بِالْفَضِيلَةِ لِشَّاكِرٍ نِعْمَتِهِ ؛ لِأَنَّ الْحَاجَةَ مُغَالِبَهُ ، وَلَا تَتِمُّ مَوَدَّةٌ إِلَّا مَعَ الْمُسَامَحَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّبِيُّ لِنَاسٍ مِنَ الْعَرَبِ يَخْتَصِمُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قَالُوا : قَدْ عَرَفْنَا الْحَقَّ ، فَمَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قَالَ : التَّعَاوُلُ فَإِنَّ الْحَقَّ مُرٌّ . أَلَا تَرَى إِلَى بِنْتِ هَرِيرٍ بَنِ سَيَانَ لَمَّا قَالَتْ لِأَبْنَةِ زُهَيْرٍ بَنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي بَعْضِ الْمَنَاحَاتِ ، أَوْ فِي بَعْضِ الْمَزَاوِرَاتِ : إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي مَا أَرَى مِنْ حُسْنِ شَارِكِكُمْ ، وَقَوَاءِ نَفْسِكُمْ . قَالَتْ ابْنَةُ زُهَيْرٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتِ مَا قُلْتِ ، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قُضُولِ مَا وَهَبْتُمْ ، وَمِنْ بَقَايَا مَا أَنْعَمْتُمْ . قَالَتْ بِنْتُ هَرِيرٍ : لِأَنَّ لَكُمْ الْفَضْلَ ، وَعَلَيْنَا الشُّكْرُ ، أُعْطَيْنَاكُمْ مَا يَفْنَى ، وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا يَبْقَى . وَقِيلَ لَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ حِينَ أُجْزِلَ لِنُصَيْبِ الشَّامِرِ فِي الْهَيْبَةِ ، وَكَثَّرَ لَهُ فِي الْعَطِيَّةِ : أَتُنِيلُ هَذَا الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ كُلَّ هَذَا النَّيْلِ ، وَتَحْبُوهُ بِمِثْلِ هَذَا الْحَيَاءِ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ أَسْوَدَ الْحُلْدِ إِنَّهُ لَا يَبْقَى الشَّمْرُ ، أُعْطَيْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفْنَى ، وَثِيَابًا تَبْلَى ، وَرَوَاحِلَ تُشْقَى ؛ وَأَعْطَانَا نِسَاءً يَفْنَى ، وَحَدِيثًا يَفْنَى ، وَمَكَارِمَ لَا تَبْقَى . فَهَذِهِ الْخِصَالُ تَكَامَلَتْ خِصَالُ الْمَجْدِ فِيهِمْ ، فَظَهَرَ عُتُونُ كَرَمِ الْخَيْرِ عَلَيْهِمْ ، فَصَارُوا فِي زَمَانِهِمْ مَنَارًا ، وَلَنْ يَسْلَمَ

أَعْلَامًا . وليس تَبَيَّنَ مَعْنَى كَرَمِ الْمُنْعِمِ ، وَمَعْنَى وَفَاءِ الشَّاكِرِ ، حَتَّى تَتَوَافَى أَقْوَالُهُمَا ، وَتَتَّفِقَ أَهْوَاؤُهُمَا عَلَى تَدَاوُعِ الْحُجَّةِ ، وَالْإِقْوَارِ بِالْمُعْجِزَةِ ، فَيَزِيدُ ذَلِكَ الْمُنْعِمُ فَضْلًا ، وَالشَّاكِرُ نُبْلًا .

هَذَا بُحْلَةُ الْقَوْلِ فِي خَصْلَتَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا ، وَشَهَرْنَا أَمْرَهَا .

وَالْخَصْلَةُ الثَّلَاثَةُ : الدِّيانَةُ بِالشُّكْرِ ، وَالْإِخْلَاصُ لِلنِّعَمِ فِي تَصْفِيَةِ الْوُدِّ ، فَانَ الدِّينَ قَائِدُ الْمُرُوءَةِ ، كَمَا أَنَّ الْمُرُوءَةَ خِطَامُ الْحَمِيَّةِ . وَهَذِهِ الْخِصَالُ وَإِنْ تَشَعَّبَتْ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ ، وَافْتَرَقَتْ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى نِصَابٍ يَجْمَعُهَا ، وَإِلَى إِنْاءٍ يَحْفَظُهَا ، مِنْهُ تَجَمُّعٌ ، وَعَنْهُ انْتَبَثٌ ، وَإِلَيْهِ رَجَعَتْ . وَلَا جَمَاعَ هَذِهِ الْخِصَالِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى ، وَجُبَانَةِ الْهَوَيْئِ ، وَعَلَى اتِّهَامِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ ، وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْ كُلِّ الطَّبِيعَةِ - وَفَقَّ الْأَوَّلُونَ بَيْنَهَا فِي بُحْلَةِ الْأَسَمِ ، وَقَارَنُوا بَيْنَهَا فِي جَهْمَةِ الْحُكْمِ . وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَعْتَبَرْتُ عِزَّيَ بِحِمِّيَّتِهِ ، وَحَزَنِي بِمَنَاجِ بِتِهِ .

وَمَدَارُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْمَحْمُودَةِ عَلَى الصَّبْرِ ، وَلَنْ يَتَكَلَّفَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ مَنْ يَجْهَلُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ . وَقَالُوا : لِمَا صَارَ ثَقُلَ الشُّكْرُ لَا يُحْتَمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ ، صَارَ الشُّكْرُ مِنْ نِتَاجِ الصَّبْرِ . وَكَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعِلْمِ - مَعَ كَرَمِ الْحِلْمِ - مِنَ الصَّبْرِ ، فَكَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلشُّكْرِ - مَعَ كَرَمِ الشُّكْرِ - مِنَ الصَّبْرِ . فَالْصَّبْرُ يَجْرِي مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ ، كَمَا يَجْرِي الْهَوَى مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّارَ وَحَقَّقَهَا بِالشَّهَوَاتِ ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ وَحَقَّقَهَا بِالْمَكَارِهِ » .

وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ : وَصَفُ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ بِاللِّسَانِ الْبَيِّنِ ، وَتَحْمِيهِ بِالْبَيَانِ النَّبِيِّ ، وَبِالْفِطْرِ الْعَذِيبِ الشَّيْئِيِّ ، وَالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْبَيِّتِيِّ . فَانَ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ حَسَنًا ، جَعَلَتْهُ الْحِكْمَةُ آدِبًا ، وَوَجَدَتْهُ الرُّوَاةُ إِلَى تَثْرِيهِ سَبَبًا ، حَتَّى يَصِيرَ حَدِيثًا مَأْثُورًا ، وَمَجْدًا

مَذْكُورًا، وداخلًا في أثمار الملوك، وسوقًا من أسواق المتأدين، ووصلة في المجالس، وزيادة في العقل، وتخذلًا للسان، وترهيقًا للقلب، وتطيقًا للفكر، وعِمارة للصدر، وسلبًا إلى العظمة، وسببًا إلى الحيلة الكبراء. وإذا لم يكن اللفظ رائعا، والمعنى بارعًا، والبنوادر موشعا، وبالملح مجلوا، لم تصنع له الأسماع، ولم تنشرح له الصدور، ولم تحفظه النفوس، ولم تنطق به الأفواه، ولم يحلّد في الكتب، ولم يقيد بالدروس، ولم يحلّل به قائل، ولم يلتد به سامع. ومضى لم يكن كذلك كان كلامًا ككلام الفؤ، ومعاني السهو؛ كالشجر الذي لا يفهم، والمستنق الذي لا يعلم.

وليس - أبداك الله - نبيّ أحوج إلى الحلق، ولا أقهر إلى الرفق، من الشكر النافع، والمديح الناجع، الذي يبقى بقاء الوشم، ويلوح كما يلوح النجم. كما أنه لا نبيّ أحوج إلى وسع الطاقة، وإلى الفضل في القوة، وإلى البسطة في العلم، وإلى تمام العزم - من الصبر. وعلى أن الشكر في طبقات متفاوتة، ومنازل متباينة، وإن جمعها أسم، فليس يجمعها حكم، فربما كان كلامًا يجيش به الصدور، ويمجبه الأفواه، وتجيف به الألسنة، ويستعمل فيه الرأي المتعصب، والخطأ المختار، والكلام المرتجل، فيرى به على عواهنه، ويثني مصادره على غير موارده، لا يتعذر فيه الشاكرون لا انتفاع المنعمين، كما تعذر المنعمون لا انتفاع الشاكرين. وليست غاية القائل إلا أن يعدد بليقا مقوها، أو يستريد به إلى نعمة السالفة نعمة آتية، أو ليس إلا ليقتر كريما، أو يفتد غنيا لا يفتقد ساعات القول، ولا يعرف أقدار المستمعين؟ وليس غايته إلا الكسب والترضى والانتفاع والترحم؛ وعلى هذا يدور شكر المستأكلين، وإحماد المتكسبين.

وهذا الباب وإن جعلته العوام شكرا، فهو بنير الشكر أشبه، وبذلك أولى، وربما كان شكره عن تأني وتذكير، وعن تحير وتخيير، وعن تفقد للحالات،

وتَحْصِيلُ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهْجَتِهِ ، وَبَحْضَةُ عُلُوِّ لَا يَزَالُ مُرْصِدًا لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا أَتَمَسَّ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا أَتَمَسَّ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِضْطِرَاحَ قَلْبِهِ ، وَتَقَضَّى الْمُتَبَرِّمِ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدَرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدَرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ فِي الْمَصْلَحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرِيمِ زَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُّ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ، فَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مَثْنَوًى : لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبُسرَ وَأَتَمَّلَ الْفُرُوقَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النِّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَرَى أَنْ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأَتْبَلُ الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّذْيِيرِ قَوْلُ نَصِيبٍ : فَجَاجُوا فَأَتَشَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَّوْا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَرَبِيِّ :

يَا بَنَ الْعَلَاءِ وَيَا بَنَ الْقُرَى مِرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأَطْرِيكَ فِي أَهْلِي وَجُلَامِي .
حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا عَطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَأْسِي !
أَنْتَ عَلَيَّكَ وَلِي حَالٌ تُكْذِّبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَعِجِي مِنَ النَّاسِ !

وَيَنْ هَذِينَ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتُ مَعْرُوفِهِ ، وَمَنَازِلُ مَعْلُومِهِ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ مِنْ قَلْبِ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالِاسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدَرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ مِنْ صِدْقِ اللَّهْبَةِ ، وَمِنْ قَلَّةِ السَّرَفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالِاِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ . وَهَذَا بَابُ سَوَى الْبَابِ الْآخَرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ مَا أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَابْلَغَ فِي الْاِعْتِبَارِ فِي تَرْقِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرَّ أَحَدًا يَخْتَشِعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وقيلَ لِمُجْلِسِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْزَرَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَتَزَرَ ؟ وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْزَرَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزْرَقُ؟ قَالُوا : لِأَنَّ قَلْبَ الْفَضْلِ أَرْقَى ، فَصَارَتْ قُلُوبُهَا أَرْقَى ،
وَالْقُلُوبُ نَجَّارَى .

وقالوا : كُوبَى لِّلْمُدُوحِ إِذَا كَانَ لِّلنَّجِ مُسْتَحِقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلْمُسْتَجِيبَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنِيعِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّارِكِ إِذَا حَظِيَ بِالْقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْتَمِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزَيَّدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أَمْدُحُكَ
مِنْ جِهَةٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوَّلُیِّی بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الْمُسْتَفْتَى الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ
الْمُسْتَفِيزُ ، وَالْحَدِيثُ الْمَأْثُورُ : « مَا قُلَّ وَكَثُرَ خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَيْ . وَقَلِيلٌ بَاقِي
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنَّ » .

تَذَكَّرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزَّلَ حَالَاتِهِمْ
فِي الْبَرِّ ، وَمِنْ كَانَتْ الْخَصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَنْسَبِقَ رَجُلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ؛ وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَفُوقَ الرَّجُلُ أَزْوَاجَهُ فِي الزُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الْفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَاحِبُ فِي كُلِّ
الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ السَّجَبَ السَّجِيبَ ، وَالتَّادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَلْسَقَ لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ صَحَاحٍ : يَفْتَحُ الْفُتُوحَ ، وَيُدَوِّخُ الْإِلَادَ ،
وَيُمَصِّرُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَقْرُسُ الْفُرُوسَ ، وَيُرْتَبِ الْخَالِصَةَ ، وَيُدِيرُ
الْعَامَةَ ، وَيُجِئُ النَّيَّةَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلاذِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُنْهْرِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونُونَ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مُلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحْمِلُ وَيَقْدُ ،
وَيُؤَيِّلُ وَيَعْزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَّغَتْ خَيْلَهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَّاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّضْيِيرِ الْمَصْحُوحِ وَالضُّبْطِ ، وَالْإِتْقَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزَمِ

المُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْع مَصْلَحَةُ الْأُمَّة ، ولا يَحْشَوْهُمْ عَلَى حَقِّهِمْ مِنَ الْأَقْسَةِ
وَأَجْتِنَاجِ الْكَلِمَةِ ، وإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ ، مع ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لَيْنٌ
فِي غَيْرِ ضَعِيفٍ ، وَشِدَّةٌ فِي غَيْرِ عُنُفٍ . ثم ضربَ بِدَلِّهِ سِنِيَهُ كُلَّهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ ، لَا يَتَحَرَّفُ عَنْهَا ، وَلَا يَنْحَرِفُ ، وَلَا يَنْحَرِفُ ، وَلَا يَسْأَلُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :
مِنْ خُشُونَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ ، وَغَلْظِ الْمَرْكَبِ ، وَطَلْفِ النَّفْسِ عَنْ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ،
وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يُنَاحِرُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءِهِ وَلَا فِي حِجَابِ ،
وَلَا فِي مُعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنَعَ ، وَلَا قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ :
وَالدُّنْيَا تَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ صَبَابًا ، وَتَتَدَقَّقُ عَلَيْهِ تَدَقُّقًا ، وَالْحَصْلَةُ مِنْ خَصَالِهِ ، وَالْحِلَّةُ مِنْ
خِلَالِهِ ، تَدْعُو إِلَى الرِّغْبَةِ ، وَتَفْتَحُ بَابَ الْأَقْسَةِ ، وَتَقْضِي الْمُبْرَمَ ، وَتُعِيدُ الْمُرُوءَةَ
وَتُفْسِحُ الْمُنَّةَ ، وَتَحْمِلُ الْمُقَدَّةَ ، وَتُورِثُ الْإِعْتِرَافَ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِتِّكَالَ عَلَى دَوَامِ
الظَّفَرِ ، وَمَوَاقِفِ الْأَيَّامِ ، وَمُتَابَعَةِ الزَّمَانِ . وَكَانَ ثَبَاتُهُ عَشْرَ حِجَجٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
أَعْجُوبَةٌ ، وَمِنْ الْبَدَائِعِ الْفَرِيحَةِ . وَبَاقِلٌ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْمَجَبُّ ، وَيُسْتَمَلُ الْكِبَرُ ،
وَيَظْهَرُ الْحِفَاءُ ، وَيَقِلُّ التَّوَاضُّعُ .

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَجِيرُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطَبَائِعِ عُمْرٍ وَمَنْهَجِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،
وَمَمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأًا مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ اسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ
خَلِيقَتُهُ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ النِّعَمِ ، وَتَظَاهُرِ الصَّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ النِّعَمُ مُخْتَلِفَةً
الْأَجْنَاسَ ، وَتُتَفَاوَتْ فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ مع قوله : ” تَوَانٌ
الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ بَعْدَ مَا بَالَيْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ “ وَلِكُنَّا عَلَى حَالٍ لَا نَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ
بَانَ مِنْ نَظَائِرِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَثَلَةِ ، إِذْ كَانَ أَذْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ
مَرِيرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْحَاذَةِ الْوُسْطَى ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْمُفْعَلَى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يُجِبُّني قول
الفاصل : لم يدع الأول للآخر شيئاً، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخطير، والقيم النجى، والمنهج الرحب . ولو أن الناس مُدَّجَرَتْ هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأُعْجِبَ بها الأثمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، وأسئَلُوا
لهذا المذهب، وأهملوا الروية، ولبسوا من الفائدة، لقد كان ارتفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم غزير .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحقُّ بالتفضيل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان الموكلي على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جَلَّ فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه،
وتلخيصه وتنقيحه، وإعزازه وتأيينه، وأجتماع كلمته، ورجوع ألفه . وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا
من كفاة السلطان وولايته، وأعوانه وحمايته، من كلف يؤمل تحكك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفخ، ومن الصاف والمعجب، ومن
الغلاء، ومن إفراط التفرُّد للأولياء، والتسكُّم على الخلفاء، ومن سوء اللقاء،
مالا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب، ولا على
خاصي ولا على عامي .

فجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتعجب، وبين الإنصاف
وقلة التردد؛ فلا يستطيع عدو ملعن، ولا كاشع مُسر، ولا جاهل غبي، ولا غلام
مُبَرَّر، يزعم أنه رأى في شمايلك وأعطائك - عند تنابح النعم، وتظاهر المِنَّة - تقيراً
في لقاء ولا في بشر عند المسألة، ولا في إنصاف عند المعاملة، واحتمال عند
المطالبة . الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهري، والنجح ثاقبي، والأعمال

زَاجِسِهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ؛ وَالْعِيُونَ نَاطِقَةً بِمَحَبَّتِهِ ، وَالصُّدُورَ مُأَهْوِلَةً بِمُنُودِهِ ؛
وَالدَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ؛ وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزِدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَّاضُعِ ثُبُلًا ،
وَبِالْإِنْصَافِ قُضْلًا ؛ وَيَحْسِنُ اللَّقَاءَ مَحَبَّةً ، وَيَقِلَّةَ الْحُجْبِ هَيِّبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونٍ فِي دُعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَتْ يَتَنَبَّأُ بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَأَبْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوَفِّيًا عَلَى أَمْسِهِ ،
مُقَصِّرًا عَنْ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَغْنَى هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخَضَّرَمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مَنْكَ أَمْسَ ،
وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ جِدِّ شَمْسَ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنَّهُمُ اللَّهُ طَلَبُكَ وَأَسْنَعُ ، فَاشْكُرْ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ يَحْتَدِّكَ شَرِيفٌ ، وَأَرْوَمُكَ
كَرِيمٌ ، وَالْعَرِيقُ مُنْجِبٌ ، وَالْعَدَدُ دَثَرٌ ، وَالْأَمْرُ بِجَمِيلٍ ، وَالْوُجُوهُ حَسَنَانِ ، وَالْمَقُولُ
رِزَانٌ ، وَالْعَفَافُ ظَاهِرٌ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبٌ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةٌ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةٌ ؛
وَمَا مَثَلُكُمْ إِلَّا مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِيَةَ الْكَرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ الْمَكَارِهِ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،
زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِّمَ أَخْلَاقَ بُحْسِنِ وَجْهِهِ !

النِّعْمَةُ عَفْوَظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَقِّقِ ،
وَالْحَقِيقُ مُرَدُّودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصَّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَغَشَاكَ مِنَ الْمَحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبِئْسَ الْآلَانُ أَنْ تَشْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْمِثَرَةِ ؛
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَانْهَمَا لَا يَمْرَأَانِ مِنَ النِّشَاطِ ؛

وَيُنَجِّانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا يُثْمِرُهُ الشَّبُوهُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَيَجُودُ بِخُزُونِ
قُوَّاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ حِلَّةٍ مُحَرَكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد الجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وَتَكَافَأَ التَّهَوُّصَ بِأَعْبَاءِ
الْخِلَافَةِ : أَيُّ بَحَى ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجَزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمِلُ .
إِنِّي لَسْتُ أَتَمُنُّ أَنْ تَتَفَسَّخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَفَسَّخَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْجَمَلِ الثَّقِيلِ .
قال جعفر : لَكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرِ
مَبْهُورٍ ، وَأَجِءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَايَ ، لَأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
قَرِيسَى رَكْبًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَسَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُنْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ تَهَضَّتْ ثِقَلُهَا فِهَذَا ، وَإِلَّا فَلَا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
إِلَى حُبِّ ذَاكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَبْسَدَانِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْيَارِهِ ؛
أَنْ يُخْرِجَ عَلَى آدَبِهِ وَقَلِيمِهِ ، وَعَلَى تَتَقَرِّفِهِ وَقَوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمْلَ ،
وَيُخْرِجَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ وَيُطِيبَ ذِكْرَهُ ،
وَيُعْلِي كَعْبَهُ ؛ وَيُسِّرَ صَدِيقَهُ ، وَيَكْتِبَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
سليمان المَعْرِي التَّنُوخِي إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَغْرَبِيِّ ، وَهِيَ :

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإمانة] ^(١).

السلام عليك أيتها الحكمة المغربية، والألفاظ العربية، أي هواء وقال، وأى
غيث سقائك، برقه كالإحريض، وودقه مثل الإغريض، حلت الرقوه، وجلت
عن الهبوه، أقول لك ما قال أخو نمير، لفنة بنى نمير:

زَكَاَ لَكَ صَالِحٌ وَخَلَائِكُ دَمٌ * وَصَبَّحَ الْيَأْمَنُ وَالسُّعُودُ!

لَأَنَا آسَفٌ عَلَى قُرَيْكِ مِنَ الْغُرَابِ الْجَازِي، عَلَى حُسْنِ الزَّيِّ، لَمَّا أَفْقَر، وَرَكِبَ
السَّفَرُ، فَقَدِمَ جِبَالِ الرُّومِ فِي تَوٍّ، أَنْزَلَ الْبُرْسُ ^(٢) مِنَ الْجَوِّ، فَاتَّفَتَ إِلَى عِطْفِهِ وَقَدْ شَبَّطَ
فَأَيْسَى، وَتَرَكَ التَّيِّبَ أَوْتَيْسَى، وَهَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ فَشَى فِي قَيْدٍ، وَتَمَثَّلَ بَيْتَ دُرَيْدٍ:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ، * فَلَمَّا عَلَا قَالَ لِلْبَاطِلِ: أَبْعِد!

وأراد الإياب، في ذلك الحلباب، فكَرِهَ الشَّمَاتِ، فَكَيْدَ حَتَّى مَاتَ، وَرُبَّ وَلِيٍّ
أَغْرَقَ فِي الْإِكْرَامِ، فَوَقَعَ فِي الْإِبْرَامِ، إِبْرَامَ السَّامِ، لَا إِبْرَامَ السَّلَمِ، لِحُرْسِ اللَّهِ سَيِّدَنَا
حَتَّى تُبْغِمَ الطَّاءُ فِي الْمَاءِ، فَهَلِكُ حِرَاسَةٌ بغيرِ أَتِهَاءٍ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ ضِدَّانِ، وَعَلَى
التَّضَادِّ مُتْبَاعِدَانِ، رَخُوٌّ وَشَدِيدٌ، وَهَادٍ وَدُوٌّ تَصْمِيدٌ، وَهَمٌّ فِي الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ،
بِمَنْزِلَةِ غَيْدٍ وَأَمْسٍ، وَجَمَلُ اللَّهِ رُبَّتُهُ الَّتِي كَالْفَاعِلِ وَالْمُبْتَدَأِ، فَظَلِمَ الْفِعْلُ فِي أَنْهَا
لَا تَخْفِضُ أَبَدًا، فَقَدْ جَمَلَنِي: إِنْ حَضَرْتُ حَرَفَ شَانِي، وَإِنْ غَبْتُ لَمْ يَجْهَلْ
مَكَانِي، يَكُنَى فِي النَّدَاءِ، وَالْمُخَوِّفِ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، إِذَا قُلْتُ: زَيْدٌ أَقْبَلُ، وَالْإِبْلُ
الْإِبِلُ، بَعْدَ مَا كُنْتُ كَهَاءِ الْوَقْفِ إِنْ أَقْبَيْتُ فَيُوجِبُ، وَإِنْ ذُكِرْتُ فَيُفِيدُ لَزِيْبَ.

(١) الزيادة من هرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب.

(٢) البرس القطن، والمراد الطبع الشبيه به.

إِنِّي وَإِنْ غَدَوْتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرِ الدَّد ، كِهَاءِ الْعَدَدِ ؛ لَزِمَتِ الْمُدَّكَرَ ، فَاتَتْ
بِالْمُتَكَّرِ ؛ مَعَ الْإِثْبَاتِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَالْإِثْبَاتِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكُرُنِي بِغَيْرِ التَّنَاءِ ، وَبَطَرُخْنِي
عِنْدَ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالِ كَالْمُزْمَنَةِ تُبْدِلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ يَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرِّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَنْتَهِي عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صُورَةٌ
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَتَوَائِبُ الْخَفِيتِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّمَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلُوسٍ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبُوسٍ ؛ لَأَمُدَّنَّ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُفْرِ فِي صَوْتِهِ
فِي هُؤُلَاءِ ؛ وَأَخَفُّ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْخَبَرِ ؛ تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَّرَ
طَلِبُهُ مِنَ التَّبَرُّعِ ؛ إِنْ كَانَتْ فَلَسْتُ مُتَمِسِّسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسَجَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
ثَوَابٍ ؛ حَسْبِي مَا أَلَدَى مِنْ أَيْدِيهِ ، وَمَا تَحَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ آدَامَ اللَّهِ
لَهَا الْقَدَرُ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْدَرِجُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ يَمِينَ عَدُوَّهُمَا عَنْ كُلِّ مَعْنَى ، قَبَضَ الْعُرُوضَ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجَمَعَ لَهُ
الْمُهَانَةَ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقَلَمَ قَلَمَ الْفَيْسِطِ ، وَخَبَلَ كَسْبَاعِيَّ
الْبَيْسِطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْبَهَامَةَ شَاثِيَهُمَا وَهُوَ مَحْزُورٌ ، عَصَبَ الْوَاوِ الْثَالِثِ وَهُوَ
مَحْزُورٌ ؛ بَلَّ أَصْمَرُهُ الْأَرْضَ إِصْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمَلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَقُرْبَاهِ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَقْنَنْتُ فِي نِعْمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَنَّانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمُّ سَيِّئَةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةٌ مَفْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ قَمِي مَرَّاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِنْدَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ؛ وَثُرَيَّا سُهَيْلٍ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَةٍ وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ

في مَقْتٍ؛ فقد نَصَبَ لِلآثَابِ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ؛ وَالْعِرَاقُ كَمِرَاقِ
الشَّعِيبِ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُمَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ؛ هِنْدِ الطَّيْبِ،
وَهِنْدِ النَّسِيبِ؛ رَبُّهُ الْخَمَارُ، وَأَرْبَابُ قِمَارٍ؛ أَخْدَانِ النَّجَرِ، وَخَدِيشَةِ الْمَجَرِ.
مَاحِلَمَةُ طَوَاقٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَبُرْدٌ مِنَ الْمُتَرَبِّيعِ مَكْمُوفِ الذَّلِيلِ؛ أَوْفَتِ الْأَشَاءُ، فَقَالَتْ
لِلْكُتَيْبِ مَا شَاءَ؛ تُسْمِعُهُ غَيْرَ مَقْهُومٍ، لَا بِالرَّيْلِ وَلَا بِالْمَرْمُومِ؛ كَانَ يَجِيحُهَا قَرِيضُ،
وَمُرُاسِلُهَا الْفَرِيضُ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ، وَفَقِدْنَهَا لَا يَعُودُ؛ تَنْدُبُ هَدِيدَلَاتُ،
وَأُتْبِيعُ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا مِنْ عَيْدِهِ إِلَى مَنْاسِمَةِ أَنْبَاهِهِ، وَلَا أَوْجَدَ
عَلَى إِيْفِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ؛ وَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ، لَدَوَاتِ الْأَطْوَاقِ؛ وَلَا عِنْدِ
السَّاجِمِهِ، عَبْرَةُ مُتَرَاجِمِهِ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَلِينَ، قَبِيلَ الْبُطَيْنِ؛ وَالرِّشَاءَ، بِمَدِّ
الْعِشَاءِ؛ خَفِكَتْ صَوْتُ الْمَاءِ فِي الْخَيْرِ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
قَدَّتْ حِيْمًا، وَنِكَلتْ وَلَدًا كَرِيْمًا: وَهِيَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتَ، فَصَدَحْتَ؛
وَأُمْسَيْتَ، فَتَنَاسَيْتَ؛ لَا هَمَامَ لَا هَمَامَ، مَا زَايَتْ أَعْجَبَ مِنْ هَافِيفِ الْحَمَامِ؛ سَلِمَ
فَتَاحٌ، وَصَحَّتْ وَهُوَ مَكْسُورُ الْفَتَاحِ؛ إِنَّمَا الشُّوقُ لِمَنْ يَدْرِكُ فِي كُلِّ حِينٍ، وَلَا يُنْعِلُهُ
مُضَى السَّيْنِ.

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ الْفَائِلُ النَّظْمُ فِي أَدِّ كَلَامٍ مِثْلَ الزَّهَرِ، وَفِي النِّقَآءِ مِثْلُ
الْجَوْهَرِ؛ تَحَسَّبُ بِإِدْرِيَتِهِ التَّاجَ، أَرْتَفَعَ عَنِ الْيَحْيَاجِ؛ وَغَارِيَتِهِ الْيَجْلُ، فِي الرَّجْلِ؛ يَجْعُ
بَيْنَ الْفَلِظِ الْقَلِيلِ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ؛ جَمَعَ الْأُمُومَانَ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ الْفَلِّ، وَفَقَدِ الْبِلَّةَ؛
خَشَنَ، فَخَسَنَ؛ وَلَانَ، فَمَا هَانَ؛ لَيْنُ الشَّكْرِ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْمُحْضِرِ، وَحَرَشُ
الدَّيْنَارِ، أَيُّهُ كَرَمُ النَّجَارِ؛ فَصُنُوفُ الْأَشْعَارِ بِعِذَةِ كَالِيفِ السَّلَامِ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ،
وَلَا تَنْتَبِهُ لَهَا هَيْئَةً بَعْدَ اللَّامِ؛ خَلَصَ مِنْ سَبْكِ التَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ، مِنَ اللَّهَبِ؛
وَالْبُهَيْنِ، مَنْ يَدِ الْقَيْنِ؛ كَأَنَّهُ لَآلُ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالٍ؛ وَسِوَاهُ لَطٌ، فِي عُنُقِ قَطٍ؛

مَا خَاتَمَتْهُ قُوَّةُ الْخَطَايَا الْأَمِينِ ، وَلَا جِبَّ بَسَاتِدَ وَلَا تَضْمِينَ ، وَأَيْنَ الثَّقَةِ ، مِنْ
الْعَثَرَةِ ، وَالْفَرْقَدِ ، مِنَ الْفَرْقَدِ ؟ ، فَالَسَّاعِي فِي آثَرِهِ فَارِسٌ عَصَا بَصِيرٍ ، لَا قَارِسُ
عَصَا قَصِيرٍ .

وَأَنَا نَائِتٌ عَلَى هَذِهِ الطَّوِيَّةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ ؛
عَنِّي عَنِ الْإِيمَانِ فَلَا عَدَمَ ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قُلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا تَدَمَ ، وَإِنَّمَا تُحِبُّ الدَّرَّةَ ،
لِلْحَسَنَاءِ الْحَزْوَ ، وَيُحَادُّ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعَلَقِ الثَّمِينِ ؛ مَا أَتَمَّه خَاطِرًا أَمْتَرَى الْفِضَّةَ ،
مِنَ الْفِضَّةِ ، وَالْوَصَاءِ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاءِ ، وَرُبَّمَا تَزَعَّتِ الْأَشْيَاءُ ، وَلَمْ يُسْبِ الْمَرْءُ
أَبَاهُ ، وَلَا غَرَوَ لَذَلِكَ : الْخُضْرَةُ أَمْ اللَّهِيْبُ ، وَالْخَمْرَةُ بِنْتُ الْغَرِيْبِ .

وَكَذَلِكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ مِنْ بَحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِهَفَاءِ الْمُتَدَبِّرِينَ ؛ كَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ
تَنَبَّيَ السُّودَ ، وَتَنَبَّيَ الْحُسُودَ ؛ كَلِمَتٌ ، مِنْ شُرْبِ الْعَاطَةِ الْكَيْتِ ؛ نُسُورُهُ قَرِيبٌ ،
وِحْسَابُهُ ثَرِيْبٌ ؛ أَيْنَ مُشَبِّهُو النَّاقَةِ بِالْقَدَنِ ، وَالْمُصَحَّصِ بِرِذَاءِ الرَّدَنِ ؛ وَجِبَّ
الرَّحِيلِ ، عَنِ الرَّعِ الْحِيلِ ؛ نَسَأُ بَعْدَهُمْ وَأَصِفُ ، نُغَوِّدُ رَأْيَهُ كَالْمُنَاصِفِ ؛ إِذَا سَمِعَ
الْخَافِضَ صِفَتَهُ لِلْمُهَبِّ الْقَيْسِجِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَخْنَاءِ ،
وَحُلُوقِهِ عَصِيمِ الْهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاحَ بِرَى ذَوَاتِ الْأَرْسَانِ ، مِنْ
بُرَى الْبَيْضِ الْحِسَانِ ؛ شَفَقًا لِدُرِّ التُّحُورِ ، وَوَعُونََ الْخُورِ ؛ وَشَفَقًا بِدُرِّ بَكِيٍّ ، وَبَيْنَ
مِثْلِ الرِّكْيِ ؛ وَإِعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الْخُدُورِ ؛ إِلَى مَحُولِ ، كَأَهْلَةِ الْمَحُولِ ؛
فَهُنَّ أَشْيَاءُ الْقَيْسَى ، وَتَعَامَ النَّبَى ؛ وَإِنْ أَخَذَ فِي نَمَتِ [الْحَيْلِ] ^(١) فَيَاخِيهِ مِنْ سَبَبِ
الْأَوَايِدِ بِالْتَّقِيدِ ، وَشَبَّهَ الْحَافِرَ بِقَعْبِ الْوَلِيدِ ؛ فَمَا عَبَطَ بِهِ الْمُهَبِّينَ الْمُنْسُوبَ ، وَالْبَازِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرحالة .

(٢) أى أذهب حواسها . وفى الأصل شبه بالشين .

الْبَسُوب؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، تَمَيُّ بِبَعْضِ الْفَرَرِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وَخَفَّتْ جَرْسٌ، وَلِلْقَالِحِ، ابْتِغَاضُ طَالِحٍ، وَالْأَزْرَقِ، يُجَنَّبُكَ عَنْهُ الْفَرَقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبْهَةُ مِنَ الْمَعْصِ، وَتَمَيَّلَ بَعْضُهَا بِرَكَاتٍ بَعْضٌ؛ فَأَيُّقُنِ النَّطِيجَ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيعُ؛ وَالْمُهَقَّوعَ، تَجَاءُ رَأْيَكِهِ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُجَرَّبَ، قَائِدُ الْمُقَرَّبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابِ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِهَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَائِبِ. وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَحْمَرِي الْقَيْسِ: الدِّبَاءُ، لِرَأْيِ الْمَبَاءِ؛ وَالْأُتْمِيَّةُ، لِلْقُدْرِ الْكَفِيِّ؛ فَقَمَاعِي جَاعِلٌ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبْهَتَهَا كَمُحَدِّفِ الثُّرُوسِ؛ وَأَنَّى لِلِكِنْدِيِّ، قَوَائِفَ كَهَيْجَةِ السَّعْدِيِّ:

إِذَا أَصْطَلَكْتَ بِضَيْقِي حِمَجَهَا • تَلَاقَى السَّجْدِيَّةُ وَاللِّطِيمُ!

فَالْقَيْسِيُّ، فِي تَضَاعُيفِ النَّسَبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ الْقَشِيبِ؛ لَيْسَ رَوِيَّةٌ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ أَيْلَ مَاءِ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظِلْمَاءِ الظُّبَا؛ فَالْمِصْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيْبَةِ، حَكَّتِ الزُّيْنَةَ وَالرَّيْبَةَ؛ وَأَرَتِ الْحُسْنَاءُ سَنَاهَا، وَالسَّمِجَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْمَرَمِ، وَأَتَتْكَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرْضَ دِنَانُ الْعُقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَتَسْجُ الْمَنَائِبِ، عَلَى الْمَنَائِبِ؛ وَلَكِنْ تَكْمَلُ مِنْ وَفَى ثِيَابًا، وَيُجْعَلُ طِلَافُهَا زُرِّيَابًا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خِيَمَةَ يَقِيطُ الْمِسْكِ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيَوَدُّ سَعْدُ الْأَخِيَّةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْإِلْيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» الَّذِي كَادَ نِيْمَاءُ الْأَبْوَابِ، يُغْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَافِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ، وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْخَرَاتِ، شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبَ،
وَكَفَى مِنْ ابْنِ قُرَيْبٍ، وَدَلَّ عَلَى جَوَامِعِ اللَّفَّةِ بِالْإِيْمَاءِ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُّ عَلَى مَا طَالَ
مِنْ الْأَسْمَاءِ .

أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ ، فَلِذَا أَصَحَّرْتُهُ ، عُرِفَ مَقَى قُلْتُ :
أَمَرْتُهُ ، وَأَبْلَى مِنَ الْمَرَضِ وَالْمَرِيضِ ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ، كَأَنَّهُمْ
فِي تِلْكَ الْحَالِ ، شَهِدُوا بِالْحَالِ ، عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُم بِالْإِنْقِطَاعِ ، عَلَى حَقِّ
عَلَمِهِ بِالْعِيَانِ ، فَاسْتَفْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

وقد تأملتُ شواهدَ "إصلاح المنطقي" فوجدتها عشرة أنواع في عدة إخوة
الصدق ، لمَّا تظاهروا على غير حقيق ، وتزيد على العشرة بواحد ، كالجَّح يُوسَفُ
لم يكن بالشَّاهد . والشعر الأول وإن كان سبب الآثر ، وصحيفة المآثر ، فإنه كدُّوب
القاله ، ثموم الإطالة ، وإنَّ قفا تَبِكَ [على حُسْنها] ، وقدم سنَّها ، لثِقْرَما يُبطل
شهادة العدل الرضا ، فكيف بالبنى الأثني ، قاتلها الله عجوزًا لو كانت بشرته ،
كانت من أغوى البرية . وقد تمادى بأبي يوسف رحمه الله الاجتهاد ، في إقامة
الأشهاد ، حتى أئسد رجز الضب ، وإن معنًا من ذلك لحد مفضَّب ، أعلى فصاحتِه
يُستعان بالقرض ، ويُستشهد بأحناس الأرض ؟ ، مارؤوبه عنده في تغير ، فما قولك
في ضب دامي الاظفير ؟ ، ومن نظل في كتاب يعقوب وجده كالمهمل ، إلا باب فعل
وقبل ، فإنه مؤلف على عشرين حرفًا : سنة مُدَّقه ، وثلاثة مُطَبَّقه ، وأربعة من
الحروف الشديده ، وواحد من المزيده ، وتفتيتين : الثاء والذال ، وآخر متعال ،
والأختين التين والحاء ، والشين مضافة إلى حيز الزاء . فريح الله أبا يوسف لو عاش
لفاظ كمدًا ، أو أحفاظ حصدًا ، سبق ابن السكيت ثم صار السكيت ، وسمى ثم حار
ويذا لليت ، كان الكتاب يترأ في تراب معدن ، بين الحث وبين المتدن ، فاستخرجه

سَيِّدًا وَاسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ؛ فَغَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْإِلَّالِ النَّفِيشِ؛
فهو محبوبٌ ليس يهين، على أنه ذو وجهين؛ ماتمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ، وَلَا نَقَطُ وَلَا أَرَمَ؛
فقد تَابَ في كَلَامِ الْعَرَبِ الصَّيِّمِ، مَنَابِ مِرْآةِ الْمُتَعَجِّمِ في عِلْمِ التَّنْجِيمِ؛ تَخَفَّضَهَا ضَيْئِلُ
مَلُومٍ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالشُّجُومِ .

وأقولُ بعدُ في إعادة اللفظ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ في ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَالْبَتِّعِ
في النِّكَاحِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأَوَّلَى حِلُّ يَرَامُ، وَالثَّانِيَةِ بَسْلُ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ
في الْهُودَجِ لَيْسَانَ، وَفِي السَّبَةِ تَحْيِيسَانَ ؛ يَا أُمُّ الْقَتَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ ، وَيَا أَبَا
الْقَتَاتِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَرِّينَبَ وَدَعْدَ، وَسَمَّ أَيْهَا الرَّجُلُ بِسَوَى سَعْدَ ؛
مَا قَلَّ أَثِيرُ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرُ .

مَثَلٌ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ، وَعَطَلَتْ الْخَصَرَ وَالسَّاقِ؛
كَانَ يَوْمَ قُدُومِ تِلْكَ النُّسَخَةِ يَوْمَ ضَرْيَبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَابَ
الْجُلُوسَ إِلَى غَيْرِ الْجُلُوسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الطَّبَّاءِ ، بِالسَّبَاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛
وَلَكِنْ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَلْتَسْتَمِعْ ؛ وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ فَيْرِ أَدَاةٍ ؛ وَإِنْ عَبْدَهُ
مُوسَى لَقَيْنِي بِقَابَا ، فَقَالَ : هَلَمْ كِتَابَا ؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفَا ، وَبِمَوَالَيْكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفَا ؛ قَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجْمُوعَ فِيهَا
وَلَا تَقْرَأُ وَأَنْتَ لَا تَقْلَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤْدُودِ فَقَالَ لِمُخَلِّفِهِ ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ : ﴿ إِنِّي آخَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسَ
لَهَبٌ ؟ بَلْ يَشْتَرُفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْصَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَةُ الزَّمَنُ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَمَعَهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوحَ كَمَا جَاءَ في شرح رسائل المزمز الموجودة
بدار الكتب السلطانية .

بانت حَوَاطِبُ لَيْلٍ يَتَتَبَسَّنُ لَهَا * جَزَلُ الْحَذَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَصِرٍ !

وقد آب من سفرته الأولى ومعه جَلْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إن لَيْسَتْ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أو أَوْنِسَتْ فَنَارُ الْكَلِيمِ ؛ وَاجْتَنَى بهَا رَأً حَبَّتْ به المَرَايِبَةُ كِسْرَى ، وَجَلَّ في فَكَاكِ
الْأَسْرَى ؛ وَادْرَكَ نُوحًا مع القوم ، وَبَقِيَ غَضًّا إلى الْيَوْمِ ؛ وَمَا أَتَجْعَلُ مُوسَى إِلَّا الرُّوضِ
الْعَمِيمِ ، وَلَا أَتَّبِعُ إِلَّا أَصْدَقَ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عِنْدَهُ الزُّهَيْرِيُّ من حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ وَكَانَتْ
زَهْرَةً بِقِيَعٍ ، أو وَرْدَةٌ وَبَسِيعٌ ؛ كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَلِيَّةُ الْعَرَقِ ؛ وَلَيْسَ هو في نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
في ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَاجْتَابَ ، في السَّحَابِ الْمُتَجَابِ ؛ لِأَن الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالغَامَ
يَسْفِرُ ، وَلَيْكُنْهُ مِثْلُ النُّونِ في الْجَلَّةِ ، وَالْأَعْقَرُ تَحْتَ جَرْيِهِ .

وقد كنتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا في مَا سَلَفَ أَنَّ الْآدَبَ كَمُوهودٍ في غَيْبِ دُوهودٍ ، أَرَوْتُ
الْتِّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالْوُوهودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ من ذَاكَ الْغَيْبِ بَيْلِدٍ طَسَمَ ، كَأَثَرِ الْوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ الْقِرَاعَ ، مَنْ الْإِمْرَاعَ ؛ يَابُوسَ ، نَبِيَّ سُدُوسَ ؛ الْعَدُوَّ حَازِبَ ، وَالْكَلاَّ
عَازِبَ ؛ يَاحْضَبُ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ ، ضَانٌّ في الْحَرْبِ وَإِبِلٌ في السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الْأَطْلَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ في اللَّيْدِ ، إِلَّا الْهَيْدُ ؛ جَنَيْتُهُ من
تَجْمَرَةٍ أَجْتَنَنْتُ من فَوْقِ الْأَرْضِ مَا هَلَا من قَرَارٍ . لَبَنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ مُرٌّ ، وَعَنِ
الْأَرَاكِ طَلِبٌ حُرٌّ .

هَذَا مِثْلِي في الْآدَبِ . فَأَمَّا في النَّشَبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِمَحْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِقَائِ سَيِّدِنَا
بُلْتَنَانَ : بُلْتَنَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْتَنَةُ وَقَرٍ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَالْفُجُوجِ الرَّيْبِيِّ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالْقَائِلُ ؛ سَلَّمَ إِلَى الْجَلِيلِ ؛ كَالْمُصَلَّى يُرْفَعُ الشُّعْوُ ، بِأَسْبَاغِ
الْوُضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ يَفْسِلُ الْحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكتبة حضرة سيّدنا الحليّة، والمثل عن حضرة سيّدنا الأجلّ واليه
 - أعز الله نصره - كتبنا بن يعرب، لما أتتهل في التقريب، إلى خالي النور، ومُصَرَّف
 الأمور، نظر فلم يرَ أشرق من الشمس يداً، فسجد لها تعبدًا . وغير مألوم سيّدنا
 لو أعرض عن شقائق النعمان الربيعيّة، ومدائح البرّويّة، ملأ من أهل هذه البلد
 المضايّ إلى هذا الأمّ، فغير مُعْتَدِر، من أنقص لأجلهم بني المنذر، وهم إلى
 حضرة السليّة رجالات : سائل، وقائل، فأما السائل فالخ، وأما القائل فغير
 مُستَمَلح، وقد سترت نفسي عنها ستر الخبيص، بالقيص، وأخي الهز، بسجوف
 السّتر؛ فظهر لي فضله الذي مثله مثل الصّبح إذا لمع تصرّف الحيوان في شؤونهِ
 وتخرج من بيته البرّوع، وبرز الملك من أجلّ الربّوع، وقد يولّع الهجرس؛ بأن
 يحرس في البلد الجرد، قدّام الأسد الورد . وإني حُبرت أن تلك الرسالة الأولى
 غير ضت بالمعريض الكريم : فأوجب ذلك رجيل أخنها، مُتعرّضة ليشل بختها ؛
 وكيف لا تنفع، وفي اليمّ تقع ؛ وهي بمقصد سيّدنا فانيه، ولو نُهيت الأولى
 لآتته الآخرة :

كملت الرسالة .



قلت : وهذه رسالة أنشأتها في تقرّير المقرّ الكريم الفتحى، أبى المعالي فتح الله،
 صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلاميّة، أدام الله
 تعالى معاليه، في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهى :

الحمد لله الذى جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة، ومُسْتَقَرّ نواها، وعيظ
 دارة الأفكار الواردة، ومركز شعاع كواها، ومادة عناصر الأنعام الجائلة، وعناد
 شيكمة قواها .

تَحْسُدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَلَكَهَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِدْبَاعِ سِرِّهَا الْمُصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَجِيبٍ، وَأَنْهَضَ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَرَتْ كَتَائِبُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْقِ : فَقَدْ نَبَّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٌ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِلِ الْأَفْلامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مِنْ إِذَا طَرَقَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانُ يَرَاعَتِهِ : ﴿ نَصْرُ مَنْ أَلَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بُرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتَشِيدُ لِفَلَاحِ الْإِيمَانِ بِإِفْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا، وَتُرْقِمُ أَسْرَارُ شِعَائِرِهَا بِنَقِصِ الْقَبُولِ فِي مُخَفِّفِ الْإِقْبَالِ قُبُسُلُ دَاعِيَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ اِعْلَانًا، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مُلُوكُ الْمَالِكِ النَّائِيَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَقَارِقِ بَعْدَ اللَّتَمِ تَيْصَانًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَمْدًا عَيْدَهُ وَرَسُولَهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنِّ الْمَعْرُوفِ وَتَدَبُّ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَائِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْثُهُ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكُوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَّتَهُ وَأَقْتَفَوْا فِيهِ سُنَّتَهُ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . صَلَاةٌ مُتَقَاوِلٌ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا، وَيَتَصَدَّى لِرِوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي النَّهْرِ أَخْبَارُهَا، وَسَلَّمُ تَسْلِيَا كَثِيرًا .

وبعد، فإن رِياسَةَ أَهْلِ الدَّوْلِ تَتَفَاوَتْ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ الرِّئِيسِ مِنْ مِلْكِهِ فِي مُحَاطَبَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ، وَاعْتِمَادِ نَصْرَتِهِ فِي أُمُورِ دَوْلَتِهِ وَتَنْفِيزِ مُهِمَّاتِهِ، وَالْاِسْتِنَادِ عَلَى رَأْيِهِ فِي جَلِيلِ خُطُوبِهِ وَعَظِيمِ مُلْكِيَّاتِهِ :

فَعَالٌ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوكِ كَأَمَّا * مُحَاوِلٌ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

وَلَا خَفَاءَ أَنَّ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الرِّتَبَةِ بِالْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ، وَالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا تُكَافَأُ وَلَا تُدْفَعُ، وَالْمَقَامِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِصِدْقَاتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدَرِ لَا يُنْتَقَى وَلَا يُجْنَعُ ؛

إذ هو كليم الملك ونجيه ، ومقرب حضرته وحظيه ؛ بل عميد الملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسادها ، حامي حومتها وسادها ؛ وعقدتها المسق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسامها ، وجهته خبرها ، وحقبة وردها وصديها ؛ ومبلغ أنبائها
وسفيرها ، وزند رأيا المورى ومشيرها .

فهملا بالكرامات وبالثلث * وجهلا بالفضل والسؤدد المحض !

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصصهم بدرك قصده وبلوغ
بقيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقعاته بما يقضى بنصرتيه ؛ وجهتله فلا يصلح
لها إلا من كان مع حرم الخيم بارزا الخيام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجنب لدى المسألة ، ومع
قربه بمحضرة سلطانه قريبا من الرجة حتى من المسكين والأرملة .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال ، والتقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجمع
العالي والمنخفض ، والمنرفيع والساقط ؟ أم كيف تتصل الأرض بالسما ، أو يقع
أمتراج عنصر النار بعنصر الماء ؟ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقل وجوده حتى لم يوجد إلا في الواحد القدد فلا تراه
إن تراه إلا في حيز النادر ، ولا تظفر به إلا خفرك الأبيض الأثوي إن كان يظفر به
خافره ؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالقدد من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسعد
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الإنشاء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يُرَقَّه مَا يُرَقَّه فِي التَّفَاضِي * وَلَيْسَ لَدَيْهِ فَيَرِ الْمَطْلُ تَقْدُ!

إِلَى أَنْ طَلَعَ نَبْرُ الزَّمَانِ وَتَوَحَّحَ شُرُوقُهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَقْلَ بَطْلُوعِ السُّعْدِ عِيُوقُهُ؛ فَأَقْبِلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الْأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْيِ عَادَتِهَا؛ وَوَفَّرَ لِلدُّوَلَيْنِ مِنْ آتِخَابِ الْأَصْفِيَاءِ قِسْمَتَهَا، وَخَصَّصَتْ لَهَا الرُّأْيَ الصَّابِتَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ زُبْدَتُهَا؛ فَكَانَتْ خُلَاصَةَ أَصْطِفَائِهِمَا، وَزُبْدَةَ أَتِخَاتِيهِمَا؛ الْمُقَرَّرَ الْأَشْرَفَ، الْعَالِي، الْمَوْلَوِيَّ، الْقَاضِيَّ، الْكَبِيرِيَّ، السَّفِيرِيَّ، الْمُشِيرِيَّ، الْفَتْحِيَّ، نِظَامَ الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا، وَمُتَقَدِّمُ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْسِهَا؛ أَبُو الْعَالِي تَحَقَّقَ أَفْهَ صَاحِبُ دَوَابِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آزِقَاتِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ حَقِيَّ اللُّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ وَقَدْ قُلَّ، فَأُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمُلْكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَأَتَمَّقَتْ بِمُحَسَّنِ سِفَارَتِهِ بِأَتَمِّ الرِّوَاةِ أَسَانِيدُهَا، فَتَعَدَّتْ بِتَقْيِيدِهِ أُمُورُهَا، وَكَانَتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُتُوبُهَا؛ بَحَرِيَّ الْأُمُورِ بِمُحَسَّنِ تَدْوِينِهِ عَلَى السَّدَادِ، وَمَشَتْ الْأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أَتَمِّ الْمُرَادِ؛ وَأَعْتَرَفَتْ لَهُ الْكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعْيَةَ تَقَدَّمَتْ فِي الرَّاسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ .

وَإِنْ أُمُورَ الْمُلْكِ أَحْضَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ بِكَادَارَتْ عَلَى قُطْعِهَا الرِّحَى!

قَدْ اسْتَبَدَّ الْخَطُّ فَاصْبَحَ لَهُ كَالْخَدِيمِ، وَأَتَى مِنَ الْمَعْرُوفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فَانْسَى مِنْ أَرِغْنَهُ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ؛ فَلَوْ رَأَاهُ «خَالِدُ بْنُ بَرَكَمَ» لَأَخْبَجَمَ عَنْ مِلَاقَاتِهِ عِظَمًا، أَوْ نَوَاهُ «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لِمَاتَ مِنْ مُنَاوَأَتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَبْنَاهُ لِسَبْقِهِمَا كَرَمًا :

مَنَاقِبُ لَوْ أَتَى تَكَلَّفَتْ نَسَخَهَا، * لَأَقْلَسْتُ فِي أَفْلَاحِهَا وَمِدَادِهَا !

أوسيع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسهل، أو يصربه "الفضل" أخوه، لما رأى أنه للفضل أهل؛ أو عاينه "أبو علي بن مقله" لعم أنه فاقه خطأ وخطا، أو نظره "أبن هلال" إلى أهله نواته لتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة الحروف وما أخطا :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * فَتَفْتَحُ نَوْرًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال، أو حاور أتى من البلاغة بما يقصر عن رتبته "محبان" في المقال، أو ترسل أعني "عبد الحميد" في رسائله، أو كتب رقت من روض خطه في زهر نغمائه :

يُؤَلِّفُ التُّوَلُّو المَشُورَ مَنَظُّمَهُ * وَيَنْظِمُ النُّزْرَ بِالْأَفْلامِ فِي الكُتُبِ !

فرايه السيوف لا ما صنع الهند، وعقله الصارم لا ما استودع الغمد :

فَفِي رَأْيِهِ تُجْمَعُ الْأُمُورُ وَلَمْ يَزَلْ * كَفَيْلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوقِفًا !

أفلامه تُزري بالصوارم وتهزأ بالأسل، ويحري بصلة الأرزاق قريد على الأمانى وتربو على الأمل :

بِتْ جَارِهِ فَالْعَيْشُ تَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَمْسَقَ فَاَلْبَحْرُ مِنْ أَنْوَالِهِ !

فكأرمه تقني من الإملاق، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق، وعطايه

تسير سبر السحاب فتمطر النيث على الآفاق ;

كَرِيمُ مَسَاعِيهِ الْحَبْدِ يَرْكَبُ نَجْمَدَهُ * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَيَبْذُلُ الْفَوَاضِلَ !

قد حذمته الحظوظ وأسعدته الجودود، وقسمت المنازل السينة فكان له منها

سعد السعود :

لَوْ عَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لَمَا بَرِحَتْ * تَنبِي الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْقُذَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوكَ أَمْسَرَ الْعَيْنَاءِ أَوْ أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَنْقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاحِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ وَالسَّنَةَ الْخُصْبَةَ ، وَلِضَوْضَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحَظَّتْكَ عُيُونُهَا ، * تَمَّ فَالْمَخَافُوفُ كُلُّهُمْ أَمَانُ ،

وَاصْطَفَدَ بِهَا الْعَنْقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْنَدَ بِهَا الْجَوَزَاءُ فَهِيَ عَيْنَانُ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْفِهِ ، وَتَقْصُصُ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْطَلِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى زَرْعِهِ ، وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمُجِدُّ فَوْقَ ، وَصَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَاغْتَازَ إِلَيْهِ وَعَظَفَ .

فَقَصَّرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقَاصِي الْكَرَمِ الَّتِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاطًا ضَيْقًا!

فَتَنَافَهَ تَسْبِيْقُ أَقْلَامِ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَفْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَارْتِفَاعِهِ غَايَةٌ ،
وَلَا لَتَدَاوُلِهَا نِهَائِيَّةٌ ؛ فَلَا تُؤْفَى جَامِعَةُ بَشَرِطِهَا ، وَلَا تَقُومُ جَرِيدَةٌ بِبَسْطِهَا :

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَمَةِ * إِنْ وَجَدَتْ لِسَانًا فَأَيُّهَا فَقُلْ!

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَتَنَقَّلَتْ بِقَفْضِهِ أَقْوَاهُ الْخُطَابِرِ
فَنُكِّسَتْ رِفْعَةً قَدْرَهُ شَوَائِجُ الرُّعُوسِ ؛ وَطَلَّتْ فِي أَفْئِ الْمَهَارِقِ سُعُودُ إِبَائِيهِ السَّعِيدَةِ
فَأَقْلَتْ لَوْجُودِهِ النُّحُوسِ ؛ وَرَفَّتْ حَاسِنُهُ بِنَفْسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفَحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَجِلَّتْ أَخْبَارُ مَعْرُوفِهِ قَرَارِحَتِ الْإِفَاقِ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجِ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَأَسْتَهْمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتُهُ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

اُتِّفِقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُلِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ، وَأَسْتَفْرَقَتْ تَمَادُّحُهُ الْأَزِمَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخَيَّرٌ * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَعْدُنْ دَقَرٌ !
عَلَى أَنِّي اسْتَقْبَلُ عَثَرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَطْرَائِهِ، وَالتَّعَرُّضُ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَهْتُضُ
بِأَصْبَائِهِ، فَلَوْ أَنَّ «الْجَالِحِظَّ» نَصِيرِي، وَ«أَبْنَ الْمُقَفِّعِ» ظَهِيرِي، وَ«قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ»
يُسْعِدُنِي، وَ«تَحْبَانَ وَائِلَ» مُجْعِدُنِي، وَ«عَمْرُو بْنَ الْأَهَمِّ» يَرْشِدُنِي، لَكَانَ اعْتَرَاظِي
بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ
تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصُرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم مَعِينُ الدِّينِ تاجِ الْعُلَمَاءِ، خَطِيبِ الْخُطَبَاءِ،
زَيْنُ الْأَمَةِ، قُدْوَةُ الشَّرِيعَةِ، الصَّدْرُ ابْنُ الْفَضْلِ بِحْيِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْحَصَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتُبِ، وَعِقَابُ الْأَقْبَابِ، الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى
أُصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَهِيَ :

عَزِيزِي مِنْ وَزَرَاءِ النِّسْبَةِ وَكُنَّيَا، وَكُتُبَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِيَا، وَأَوْلِيَايِ الدُّوَلِ
وَأَطْنَابِيَا، وَنَوَافِدِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْبِيَايَا^(١)، وَجُبَاةِ بُيُوتِ الْأُمُوالِ، وَالشُّعَاةِ فِي زَمِّ نُسْرِ
الْأَحْوالِ، وَسَامَةِ الْمَالِكِ، وَمُخَصِّفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ، الشَّاعِرِينَ بِأَنْوَفِ النَّبِيِّ
وَالْكَبِيرِيَاءِ، وَالسَّاحِجِينَ دُيُولَ الْحُجُبِ وَالنَّجِيلَاءِ، الرَّاغِبِينَ فِي حُلُلِ الْبَهَاءِ، وَالنَّافِلِينَ
عَنْ قُرُوضِ الْمَلَأِ، الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الشُّؤْدَدَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ، وَقَسَّمُوا الرُّتَبَ بِلا إِعْدَادٍ؛

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكانهم الحاسب ، وعدواقه المناسب ، شغلهم الأثر والفجور ، واكل على
بسطته يخور ، مهم معج الأخرع ، ونجّ الرح بالماء القراح ، وأمنطه المرد ،
والناتق الجرد ، أكلهم نقيذ الأفنيه ، ونشيد الأنيه ، والزياة في الرقيق والكراع ،
والخول والابجاع ، وليس بقال ، كثرة خيل ويقال ، بما باعوه من الورع والديانة ،
وأضاعوه من العفة والصيانة :

قد ملكوا الدنيا على غرة * ونافسوا فيها السلاطين !
توزعوا الدولة والملك والحضرة والإسلام والدنيا ،
شادوا بأعمالهم دورهم * وأخربوا فيها الدواوين ،
عفا وما عفا بأفلاهم * مساكنا تحوى مساكننا ،
غررتهم الدنيا بأن أظهرت * عن غلظة تضمرها لنا ،
واللهم كم جرع في مرة * مرّا وجيتا ساقه جيتا .
بأنفسا ذلت بآثانهم * ولك أتاين الأنايين .
لا ترضي في رسلهم إنا * تمرين في القعب الأمرينا !
وكان يجدي القصد لو أنهم * يدرون شيئا أو يدرون .
موتى هو فليك تحريظهم * إن كنت لا تأبين ، تأبين ،
لا يعتني الفضل بإطراء من * يكون فيه الهجو مقبونا ،
لو رمت شيئا دون أقدارهم * لهجوهم لم يجيد الدنيا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
وعنوا بأسوداد الليقه ، عن سؤدد الخليقة ، وأحالوا حل الرّم ، عند قصور الهيم ،
ومن أعظم الآفات ، نقرهم بالعظم الرقات .

وَكَاثِمٌ لِّصَمِيمٍ هَاشِمٌ * أَوْ مِنْ لَمَاسِمِ الْمَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا فَا يَغْشَاهُمْ * بِالطُّوَجِ إِلَّا كُلَّ غَاشِمٍ :

لَا يَصِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مَرْوَةٍ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخْوَةٍ ، وَلَا يَرَعَى وَارِثَ أَبُوهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بُنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالْعُلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُؤْيُهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلْبَهُ الصَّامِتُ ، أَجْدَلَّ عَدُوَّهُ الشَّامِتُ ؛
فَزَادَ أَذْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَذْرَاجِهِ نَاقِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلَى لَهُمْ حِلْمَهُ * مَعَ الْخَنَاءِ وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيبَهُمْ * شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقْصِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلَا نَاطِرٍ ، * وَفَارِضٍ يُعْمَى بِلَا عَارِضِ ،
وَمُشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَدُهُ * فِي الْوَلَبِ إِلَّا زُبْدُ الْمَاخِضِ ،
وَحَازِنٍ إِنْ لَفَّ مَرَضَاتُهُ * مِنْ حُلُومِ عَفِّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَيَّبَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الدَّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاثِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوَّلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْتَقِعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهْودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوَّلَى بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنْ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفَتْوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحَلَمِ ، أَوَّلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالسَّحَابِ ، مِنَ السَّحَابِ ؛ وَالْيَقُّ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقْطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَنْحَطُّ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ، ظَلِمْتَ بِغُصَّةِ الْمَتَاحِ ؛ وَخَشَرَ الْمَفَاتِحَ ، إِنْ خَطَّ : فَتَرْتُهُ
كَلَامِهِ ، وَخَطَّ فُتُونَهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ اقْتَدُوا أَنْفَذْتُمْ أَسْمَهُ الْكَلَمِ ،
أَوْ قَلِدُوا قُلْدُوا خِزْيًا يُحِلُّهُمْ ، * أَوْ اقْطَعُوا قُطْعُوا شَمًا يَجْهَلُهُمْ .
أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقُوا * جَاءُوا مِنَ الرِّثْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرَّقَمِ ،
فَالْتَمَسُوا يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَاللَّاقِاسِ بِالْحَقِّ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ !!

فَالجَدِيدُ بِهِمْ تَمَلَّ ، وَالسَّوَامُ بَيْنَهُمْ هَمَلٌ ، وَلَا حِلْمٌ عِنْدَهُمْ وَلَا عَمَلٌ ، هُنَّ عَلَى
الْفَضْلِ الْمُدَّالِ ، بِرِفْعَةِ الْأَنْدَالِ ؛ وَضَيَاعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِبَاعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع اضطحاب الهم والزهر ، وَفَقَاقِ سُوقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
فِي سُوقِهِ ، وَأَقْصَالِ صُبُوحِهِ بِبُوقِهِ ، وَتَحْلِيَةِ فِي الْهَوَى لِلْعِبِّ وَاللَّهُوَى ، مِنْ ظَهْرِ غَيِّ
يُرْتَكَبُ ، وَدِي يَسَارِيْنِكَبُ ؛ وَسَاجِ يَنْبِي ، وَرَاجِ يَرْثِي ، وَرُسُومِ حَيْفِ تُجَدِّدُ ،
وَمَوَاتِ تَعْدُ ، مَا بَصُرُهُ مِنْ شَكْوَى الْجَارِحِ الْبَغَاثِ ، وَصَرْيَخِ لَا يَغَاثِ ؛ وَوَالِ
يَسِيفُ بِأَهْلِ مَعْرِهِ ، وَإِنْ شَرِكُهُ فِي أَصْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرَّجِيهِ ، وَلَا يَتَّبِعُ
الْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ، وَفَقِيهِ يَسِفُ إِلَى تَحْصِيلِ عَرَضِ زَائِلٍ ، وَتَعْجِيلِ غَرَضٍ مِنْ
سَائِلٍ ؛ مَالَهُ وَلِحَفِظِ الْمَالِ ، وَمُحَاسِنَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَا عَلَى الْعَامِلِ نَيْسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمَ وَزَادَ الْخَرَاجَ ؟
عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلَ فِي كُفٍّ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخَرَاجِ .
وَهُوَ خَرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطِ بِالْبَيْضِ مَا فِي الْخَرَاجِ !!!

شُغْلُهُمْ بِالشَّهْدِ الْمَشُورِ ، لَا بِمَشْهَدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدُهُمُ الْجَمْعُ وَالْإِكْتِسَابُ ،
وَتَقَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ،
لَا إِعْدَادُ لِيَوْمِ الرَّضِ :

وَأَنَّى لَأَتَرَى لِرَوَائِبِ نَحْوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودٌ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فَيَا يَسِينَهُمْ * وَلَيْكَنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،
 يَحَاطُّ إِذَا مَا تَوَبَّ اللَّؤْمُ دَائِعِيَا * وَعِنْدَ نَدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْفِهِمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُودٌ.
 لَقَدْ حُصِدُوا غُلَقًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لَأَيْحَى تَقِصَّ بِسُودٍ حُسُودٌ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمُحْسُودِ كُفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَتَدَوَّدُ وَأُنْحَرَى بِالنَّوَالِ تَجُودٌ.
 لَحَا اللَّهُ دُنْيَانَا الَّتِي ضَلَّ مَسْعَاهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُودٌ.
 إِذَا صُغِرَتْ كَاسُ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

لَمَّا الْعَسْدَرُ مِنْ صَدْرِهِ كَالَهُ ، وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُ ، وَجَرَّدَ الْعَزَمَاتُ ، فَشَرَّدَ
 الْأَزِمَاتُ ، وَتَنَى بِذَبِّهِ الْكُرْبَاتُ ، وَأَصْطَفَى لِرَبِّهِ الْقُرْبَاتُ ، فَسَهَلَ الْغَيْ ، وَأَقَمَّ الْإِنَا ،
 وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ الْهِنَا ، فَهُوَ يَشُ النُّوَالِ ، وَيَشُ عِنْدَ السُّوَالِ ، لَا يَسُوبُ
 وَرَدَهُ الْقَنَّا ، وَلَا يُبْطِلُ مِنْهُ بَالَنْ وَالْأَدَى ، يَشُرُّ شِرَّهُ بِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْشُرُ نَشْرَهُ
 الطَّيِّبِ فِي الْأَفَاقِ ، وَيُحْيِمُ بِدَوَاثِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ ، وَيُحْرِزُ بِقَصْبَتِهِ قَصَبَ السَّبَاقِ :

يُجْرِدُهُ مِنْ مِثْلِ وَقْضَةِ تَائِلِ * أَجْتَنِبُ مِنْ تَائِفَاتِ الْمَعَالِلِ ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُرَى سَبَاتُهَا * بَلْهَمَ مَنَسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلِ ،
 وَإِنْ بَذَرْتُ عَنْ حَبَةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ * مِنْ الْبَرِّ قَبْلَ الْبَرِّ سَبْعَ مَنَائِلِ !

دُورُهُ لِإِقَالَةِ الْعَاثِرِ ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ ، وَإِشَاعَةِ الْمَاثِرِ ، هُمٌّ فِي مُعْضِلَةِ تَرَاثِرِ ،
 وَمَعْلِيَّةٍ مُنَاضٍ ، وَخَلَلٍ يُسَدُّ ، وَجَلَلٍ يُصَدِّ ، وَعَاثِرٍ بِظَهْرِهِ بُعَانٍ ، وَعَاثِرٍ بِقَهْرِهِ بُعَانٍ ،
 بِأَبِهِ مُفْتَوِّحٌ ، وَخَيْرُهُ تَمْنُوحٌ ، وَمَا أَقَلُّ الْأَلِيمِ ، لَنْ أَكْثَرَ الْوَلَايِمِ ، وَأَغْفَلَ الْجَسَادِ ،

لَمَنْ صَنَعَ الْمَادِيبَ؛ وَأَخْلَصَ الْإِخَاءَ، لَمَنْ اسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ؛ فَبَدَّلَ الرُّغْوَ وَالصَّرِيحَ،
وَالسَّامَ الْإِطْرِيحَ؛ لَا كَنْ يَسُحُّ بِالْقَتَارِ، لَقَرَطِ الْإِقْتَارِ؛ وَيَقْنُ بِالْوَضَرِ، عَلَى
الْمُخْتَضِرِ؛ وَيَقْتَلُ بِالْعَرَاقِ، عَمَّنْ رُوحُهُ فِي التَّرَاقِ، وَيُسِّرُ الْفَمِيرَةَ، لَمَنْ يَنْتَنِي الْمِيرَةَ؛
وَيُطِئُنُ الدَّاءَ، لَمَنْ يَنْتَظِرُ الْغَدَاءَ؛ وَيُسْمِرُ الْأَحْشَاءَ، لَمَنْ تَرَقَّبَ الْعَشَاءَ :

مسلط سيرته همة * وجائر قسمته ضيزى،

ليس بذى لب يمل الثأى * ولا لباب يمل الشينى!

يَقْدُ عَلَى الْإِخْوَانِ، عِنْدَ ظُهُورِ الْخَوَانِ؛ قَرَاهُ يُحَدِّقُ، إِلَى مَنْ يُسَدِّقُ؛ وَيَنْتَقِمُ،
مَنْ يَلْتَمِمْ، وَيُدُلُّ الْأَيْكِلَ، وَيُحِلُّ بِهِ التَّنَكُّلَ؛ وَيُنْفِضُ الشَّرِّيبَ، وَإِنْ كَانَ الْخِلْدَنُ
الْقَرِيبَ؛ فَالْحَائِنُ مِنْ يَرْدَ، فَيَزْدَرِدُ؛ وَالْحَائِنُ مِنْ يَنْسِطُ، فَيَسْتَرْطُ؛ يَسْنَأُ مِنْ
الْأَنْجَرِاسِ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ؛ وَحَشْرَجَةِ الْبَلَاغِ، بِدَحْرَجَةِ الْمَطَامِ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشَّدُوقِ، وَحَرَجَةِ الْحُلُوقِ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاجِرُ بِلَوَاهِ، أَقْوَاهَا تَصَدَّتْ لِحْلَوَاهِ؛
وَحَكَّتْ بِلَاهِمِهِ، بِمَكَّةِ بِلَاهِمِهِ؛ وَعُدَّتْ يَكْبَوَانِهِ، لَمْسَى وَعُدَّتْ بِالْوَانِهِ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ
مَنْ الْغَرِيفِ، وَأَغْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الْطَرِيفِ؛ صَرِيفُ بَابِهِ، دُونَ صَرِيفِ نَابِهِ؛
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَابِهِ، عَنْ كَبَابِهِ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جَفَانِهِ، مِنْ سَدِيفِ أَجْفَانِهِ؛ يُمَانِعُ
بَلَدِيْدِهِ، عَنْ سَقُودِ قَدِيدِهِ؛ وَيُصَابِغُ بِصَفْحَةِ وَرِيدِهِ، عَنْ صَفْحَةِ قَرِيدِهِ؛ سَمَلُهُ مِنْ
نُجُومِ الْحَمَلِ، وَتَسْمَكُهُ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعْرَازِلُ؛ وَحَوْثُهُ بَيْنَ الْحَوْتِ وَالْأَسَدِ، وَجَذِيْدُهُ
عِنْدَ جَذِيْدِ الْفَرْقَدِ؛ دُونَ مُجَبِّتِهِ أَرْتِفَاعِ الْعَبَاجَةِ، وَتَحْتَ دَبَّاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّبَّاجَةِ :

يُدْرِجُ فِي الْقَدْرِ دُرَّاجُهُ * لِيَقْطَعَ الْحَبَّ وَعَلَيْهِوَجُهُ

فِي السَّمَاوَاتِ سُمَمَاتُهُ * وَعِنْدَ دِيكَ الْعَرْشِ فَرْوَجُهُ

(١) مَنْ عَزَّاهُ بِعَزِّهِ انْتَهَاهُ انْتِهَاهُ عِنْفًا وَالْغَرِيفُ الْغَالِي .

يَحْرُسُ مَا بَيْنَهُ الدَّلُو وَالْمَقْرَبُ ، وَهُمَا مِمَّا ادْنَى وَأَقْرَبُ ؛ يُعْجِبُهُ التَّشْبِيرُ وَالْاِخْتِجَانُ ،
وَيَلْذُلُهُ التَّوْفِيرُ وَالْاِخْتِرَانُ ؛ وَقَصْرُ مُفَاجَأَةِ أَحْوَالِ ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالِ ؛ وَكَأَنَّكَ
بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْاِئْتِسَامِ ، شَاهِرَةٌ لِقَسَامِ ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصَلُ ، فِي بُكْرِهَا
وَالْأَصْلُ ؛ وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيبِ مَسْحُوبِ ، لَتَنْكُرُ مَصْحُوبِ ؛ وَأَنْتَ يَرْتَدُّ فِي الْبُوسِ ،
وَيُتَخَلَّدُ فِي الْبُيُوسِ ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَةِ الْحُلُوى ، مِنْ سَلَةِ الْحُلَاوَى ؛ وَمِنْ طَعْمِ
الْعَسَلِ ، عَلَى طَعْمِ الْأَسَلِ ؛ وَمِنْ الْعَلْبِ الْبَارِدِ ، عَلَى حَرِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكَبُولُ * فَهُوَ عَلَى قَبْلِهِ يَبُولُ ،

خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ * وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ ،

يَتَسَكَّرُ لِي اللَّهِ مُسْتَفِيئًا * وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ ،

ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيهِ وَالْمَبُولُ !

فَهْمُ بَيْنَ حَمَى مَعَصَرٍ ، وَقَفَا يَقْصَرُ ؛ وَكَهَابِ مَتَّقُوهُ ، وَأَنْوَاعِ عُقُوبِهِ ؛ أَوْ يَقَالُ
فَلَا نَأْنَاهُ شُعُوبِ ، وَوَارَثَهُ الْجُبُوبِ ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَخَاتِ ، مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ ؛
وَمَا ظَنُّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيعِ ، فِي ضَنْكِ الضَّرِيعِ ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزَخُ الْمَوْصُودُ ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
الْمَنْصُودُ ، أَنْظَرَ كَيْفَ هُجْرَابِهِ الْمَقْصُودِ ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُقُودُ ؛ وَأَخْلَقَتْ رِبَاعُهُ ،
وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ ؛ هَمْ تَسْوِيهِ الْحُوبِ ، أَبْشَحَ مِنْ تَسْوِيهِ الشُّحُوبِ (٢) ؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
الْبُورِ ، مِنْ بَعَثَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْاِئْتِسَامِ الْغَاوِيَةِ * مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَقِيرِ الْهَآوِيَةِ ،

وَكُلُّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأَمَّهُ فِي بَيْتِهِ هَآوِيَةِ ،

وَلَيْسَ يَدْرِي وَيَحْتُمُّ مَا يَحْتُمُّ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَآيِيَةِ !

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضَى جَهْلُهُا بِالشَّارِ، وَأَقْصَالٍ تُخْفَى بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ، بِكَرَمِهِ
وَإِحْسَانِهِ، وَكَوْلِهِ وَأَمْنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاتحة ، وهي على أنواع)

منها : المفاتحة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاتحة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عيد الرحمن
أبن شيخ الإسلام ، بَقِيَّةَ المجتهدين ، أبي حَقِيقِ عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ،
أَمِنَ اللهُ تعالى المسلمين بِبَقَائِهِ ، ذَكَرْتُ فِيهَا نَيْفًا وَسَبْعِينَ عِلْمًا ، أَبْتَدَأْتُا بِعِلْمِ اللُّغَةِ ،
وَسَخَّمْتُهَا بِفَنِّ التَّارِيخِ ، ذَاكَرًا نَحْرَ كُلِّ عِلْمٍ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ، مُحْتَجًّا عَلَيْهِ بِفَضَائِلِ موجودَةٍ
فِيهِ دُونَ الْآخَرِ ، وَجَعَلْتُ مَصَبَّ الْقَوْلِ فِيهَا إِلَى أَشْغَالِهِ عَلَى جَمِيعِهَا ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّهَا ،
مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى فَضْلِ وَالِدِهِ ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَمُسَاهِمَتِهِ لَهُ فِي الْفَضْلِ ، عَلَى مَا سَتَقِفُ
عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالًا تَوَدُّ جَلَائِلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَتْبَاعًا ، وَأَطْلَقَ
أَلْسِنَةَ الْأَقْلَامِ مِنْ جِيلٍ تَتَأْتِيهِ بِمَا أَنْطَقَ بِهِ أَلْسِنَةُ الْعَالَمِ لِيَكُونَ الْحُكْمُ بِمَا ثَبَتَ مِنْ
مَأْثُورِ فَضْلِهِ إِجْمَاعًا ، وَأَجْرِي مِنْ قَامُوسِ فِكْرِهِ جَدَاوِلُ أَنْهَارِ الْعُلُومِ الرَّيْكَةِ فَنَمَشُ
قُلُوبًا وَنَزَّ أَبْصَارًا وَشَتَّى أَشْمَاعًا .

أَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَفَاضَ نَتَائِجَ الْأَفْكَارِ عَلَى الْأَذْهَانِ السَّالِمَةِ لِذِي النَّظَرِ الصَّحِيحِ ،
وَبَتْ جِيَادُ الْأَلْسِنَةِ فِي مِيدَانِ الْجِدَالِ حَازَ قَصَبَ السَّبْقِ مِنْهَا كُلُّ لِسَانٍ ذَلِيقٌ فَيَصْبِحُ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قهرت بينات دلائله المُلحد المَعاند، وبهرت قواطع براهينه الأله الخَصيم والجَلد المُكابد؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أظهر من واضح المُجج الحليّة ما سقط بحجّته دَعوى المُعارض، وأتى من فصل الخطاب بما ألهم به الخصوم فلم يستطع أشدّهم فى البلاغة شيكّة أن يأتى له بمناقض، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل وصيف جميل، وأشتهرت فى الوجود مَقانيرهم فلم يُحتج فى إثباتها إلى إقامة دليل؛ صلاة يُتمسك فى دَعوى الشرف بيمين حبلها، وتُتفق أدلة العقل والعقل على القطع بعلوّ شأنها وتوفّر فضلها .

وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركة فى أصل التفضيل ، متفقة الفضل فى الجملة وإن تفاوتت فى التفصيل، مسلماً أصل الشرف فيها من غير منازع ، مجعماً على أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بتأخير ، مع اختلافها فى التفاضل باختلاف موضوعاتها ، وتفاوتها فى الشرف بحسب الحاجة إليها أو وثاقة مجبجها أو قساسة غاياتها ، عطس كل منها بأنف شايخ غير مُسلمٍ للآخر ولا مُسلم ، ومدّ إلى العليّة يد المطاولة فتناول الثرياً قاعداً غير قائم ، وأدعى كل منها أن بحر العلم ، وفضله النامى ، وجوّاده الطامح ، وسماكته الرَّامح ، زاعماً أن حُسامه القاطع وعَضْبُه القاضب ، وقُدَحُه المُعلّى وسَهْمُه الصّائب ، وتَجْمُه السارى وشِهابُه الشّاقب ؛ وأن نُشرُ النّناء على تجاميره موقوف ، وخَطيبُ المعامد بمآزيره معروف ؛ وفَلَكُ الفضل على قُطْبِه دائر ، وكلُّ شرفٍ عليه مُحْبَسٌ وكلُّ نَقَرٍ عليه قاصر ؛ فأس يعطفه ومال ، وبَسَطَ فى الكلام لِسَانَه فقال وطال .

هَذَا : وإنّا اجتمعنا يوماً اجْتِمَاعَ مَعْنَى لا صُورَه ، وقامت لها سُوقٌ بالْبَحْثِ معروفةٌ وعلى الحدال مقصوده ؛ وتفاوتت لِسَانِ الحال وتماطبت ، وتمازوت

في دَعْوَى الشَّرَفِ وَتَجَاوَبَتْ ، وَأَلَمْتُ بِالْمُنَافَرَةِ فَتَنَافَرْتُ ، وَتَسَابَقْتُ فِي مِيدَانِ
الْإِضْغَارِ فَتَضَاعَرْتُ ، وَأَخَذْتُ كُلَّ مِنْهَا فِي نُصْرَةٍ مَذْمُومَةٍ ، وَتَحْقِيقَ مَطْلَبِهِ ، بِأَنْوَاعِ الْمَجْجِ
وَالْإِسْتِدْلَالَاتِ ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتَرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بِدَأْمِهَا بِالْكَلَامِ ، وَقَفَّحَ بَابَ الْإِدْخَالِ وَالْخِصَامِ : -

عَلَّمَ اللُّغَةَ قَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعْتَرِ الْمَعْلُومِ أَنَّيْ أَعْمَكُمْ فَعَمًا ، وَأَوْسَعَكُمْ جَمَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمْعًا ، عَلَى قُطْبِ
فَلَكَ تَدَوُّرِ الدَّوَارِ ، وَبِوَسْطَقِي تُدْرِكُ الْمَقَاصِدَ وَيَسْتَعْلِمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ، وَبِدَلَاتِي تُعَلِّمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَخَيَّرُ مَا يَدُلُّ عَلَى النُّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدْوَاتِ ، وَتَقْبِينُ دِلَالَاتِ
الْعَالَمِ وَالْخَاصِ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْإِخْتِصَاصِ ،
عَلَى أَنَّ كُلَّكُمْ كُلُّ عَلَى ، وَنَحْتَاجُ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَى ، فَلَقَطِي "الْمُحْكَمَ" وَأَقْوَالِي
"الصَّحَاحَ" ، وَكَلَامِي "الْجَامِعَ" وَسَمِيفُ لِسَانِي "الْمُجَرَّدَ" نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ، وَفَضْلِي
"الْمُجْمِلَ" لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . اسْتَأْثَرَهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَثَرَهُ فِي
مَعْرِفَةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خِصْمِيصَةً لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَقْنَضِي قِيلَهُ ، وَبَانَتْ لِسْتَيْبِرِ سَيْلُهُ ، ثَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلَتَقْبِيسِهِ وَلِسَانُ الْمَعْلُومِ مُتَّصِرًا ، فَقَالَ : رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ إِذَا
الْمُنَاضِلُ ، فَقَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُ مَنْ تَرَفَّعَ عَلَى أَيْبَاءِ جَنْسِهِ وَلَوْ عَقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَمَا يُجْدِي الْبَازِي بغيرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُفْنِي السَّاعِي إِلَى الْحَرْبِ بِغيرِ
سِلَاحٍ ، وَأَنْيَ يَطْمَعُ رُخٌّ بِغيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقَطِّعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيَّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَهْبِضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ، إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرِقْتَ أَصْلًا ، وَكُنْتَ لِلْكَلَامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة «يُخْصِمُون» وَيُجِدُّ .

يَبَيِّنُ المقاصد إِمَامًا ؛ فَانْتَ غَيْر مُسْتَقِلِّ بِنَفْسِكَ ، وَلَا قَائِمِ بِرَأْسِكَ ؛ بَلْ أَنَا الْمُتَكَفِّلُ
بِتَأْسِيسِ مَبَانِيكَ ، وَالْمُلْتَمِ بِتَحْرِيرِ أَلْفَاظِكَ وَتَقْرِيرِ مَعَانِيكَ ؛ بَلْ تُعَرِّفُ أَصُولَ أُبْنِيَّةِ
الْكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، وَكَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي أَسْمَائِهَا وَأَعْمَالِهَا ؛ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الْحُرُوفِ الْهَسِيطةِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَاختِلَافِ مَخَارِجِهَا وَبَيَانِ تَرْكِيبِهَا ؛ وَالْأَصْلِيَّةِ
مِنْهَا وَالْمَزِيدِ ، وَالْمُهْمُوسِ وَالرَّخِوِ وَالشَّدِيدِ ؛ وَتَقْدِيرِهِ ، وَالصَّحِيحِ وَالْمُعْتَلِّ^(١)
وَتَحْرِيرِهِ ، وَكَيْفِيَّةِ الثَّنِيَّةِ وَاجْتِمَاعِهَا ، وَالْفَصْلِ وَالْوَصْلِ وَالْإِبْتِدَاءِ وَالْقَطْعِ ، وَأَنْوَاعِ الْأُبْنِيَّةِ
وَتَقْدِيرِهَا عِنْدَ اللَّوَا حِقِّ ، وَكَيْفِيَّةِ تَصْرِيفِ الْفِعْلِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ الْعَوَاقِقِ ، وَأَمْثَلُهُ
الْأَلْفَاظُ الْمَفْرَدَةُ فِي الزَّيْنَةِ وَالْهَيْئَةِ وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ ، وَتَمْيِيزِ الْجَامِدِ
مِنْهَا وَالْمُسْتَقِّ وَأَصْنَافِ الْأَشْتِقَاقِ : وَكَيْفَ هُوَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ .

عَلَى أَنَّكَ لَوْ خُلِّيتَ وَبُجِرَدَ التَّعْرِيفُ ، وَبَيَانُ الْمَقَاصِدِ بِالْأَصْطِلَاحِ أَوْ التَّوْقِيفِ ؛
لَكَانَ عِلْمُ الْخَطِّ يَقُومُ مَقَامَكَ فِي الدَّلَالَةِ الْحَالِيَّةِ لَدَى الْمُتَقِيٍّ ، وَيَتَرَجَّحُ عَلَيْكَ بَعْدَ
الْمَسَافَةِ مَعَ طُولِ الْبَقَاءِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ ، وَضَبْطِ الْأُمُورِ ؛
وَحِفْظِ الْمَعْلُومِ فِي الْأَدْوَارِ ، وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الْأَكْوَارِ ؛ وَانْتِقَالِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى
زَمَانٍ ، وَحَمَلِهَا مَرَّةً مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؛ بَلْ رُبَّمَا أَكْتَفَيْتَ عَنْكَ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّلْوِجِ ،
وَقَامَتِ الْكَفَايَةُ مِنْهَا مَقَامَ التَّصْرِيحِ .

فَعِنْدَهَا غَضَبُ عِلْمِ النَّحْوِ وَكَفْهَرُ وَزَجَرِ وَأَسْمَحَرِ ؛ وَقَالَ : يَا هَلْهُ ! « أَسْتَنْتِ
الْفَصَالُ حَتَّى الْقَرْمَا » ، وَ« أَسْتَنْتِ الْبَقَا » فَكَانَ أَشَدَّ ثَلَمَةً وَأَعْظَمَ صَدْمًا ؛ لَقَدْ
أَذْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، وَ« مَنْ تَسْبَحُ بِمَا لَمْ يَتَلْ فَهُوَ كَلَالِيْسُ تَوْبَى زُور » ؛
وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا بَضْعَةٌ مِثِّي ؟ ، تُسْنَدُ إِلَيَّ وَتَقْتُلُ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْكَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِي ،

وَجُثَّتْكَ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ، حَتَّى مِيزَكَ " الْمَازِي " فَاغْدُوكَ بِالْمُصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "ابْنُ جَنِّي" قَتَبَهُ فِي التَّأْلِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "ابْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورَةِ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "ابْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمَنِ كُنِّي ، نَسَبْتُكَ مُتَّصِلَةً بِنَسَبِي وَحَسَبِكَ لَاحِقٌ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مُلْحِ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَفْنِي عَنِّي مِتْكَمُ ، وَلَا يَلِيْقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي تَبَيَّنَ أَحْوَالُ الْأَفْظَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيرْتَفِعُ الْبَاسُ
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَةِ وَالْعَائِدِ ؛ غُلَوَاتِي الْمِتْكَمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَكِنْ لَبَّحْتَ حَلَاوَتَهُ ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ ، وَعِيبٌ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغْيِيرٌ لِذِلَالَتِهِ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلُقَاءُ تَحْتُ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْدَرُ الْخَنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَاجْلِثْهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَيَبْنِا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعُ جُمْلَةً ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصَدَقِ الْعَزْمِ فِي الْفَاءِ حَمَلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَمْعَةٌ رَحًا مِنْ غَيْرِ طَعْنٍ ، وَتَضْوِيَتْ
 رَعْدٌ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ آتَيْتَ بِغَيْرِ مُعَرَّبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنْ لَيْسَ بِمُطَرَّبٍ ؛
 الْحَقُّ أَتْلُجٌ ، وَالْبَاطِلُ بِالتَّلْجِ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لَقَدْ حِثْنَا ، وَالْوَزَى لَقَدْ حِثْنَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْقَرِيْبَةِ وَخُلَاصَتِهَا ، وَالْمَعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ حَامِتُهَا وَخَاصَتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْاِسْتِمْلَالُ فَايَنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلَحَ عَلَى
 نَسَبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعَ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالْفَتَاهِمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لَذَلِكَ أَقُوْمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ نَسِيتُمْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّيْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجَلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرْدُونٍ ، وَعَنِّي تَصْدُرُونَ ؛

والى تَنَسُّبُون، وبى تَنَسُّبَرُون، مع ما أَشْمَلْتُ عليه من المَدْح الذى كم رَفَعَ وَضَعًا،
وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْمًا؛ والمَجْزُوع الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وَأَتَمَدَّ ذِكْرًا،
وَجَعَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالْوَضِيعِ فى حَاطِطَةِ الْقَدْرِ نَسَبًا وَصِهْرًا؛ لِئَلَّا يَخِلَّ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ
الشَّعْرَةِ الَّتِى شَاعَ ذِكْرُهَا، وَأَضْوَاعِ الْمِطْرَةِ الَّتِى فَاحَ نَشْرُهَا؛ بَلْ لَا يَكْدُ عِلْمٌ مِنْ
الْعُلُومِ الْأَدَبِيَّةِ يَسْتَفْنِ عَنْ شَوَاهِدِى، وَلَا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عَنْ قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى؛
حَتَّى عِلْمُ النَّثْرِ الَّذِى هُوَ شَقِيقِى فى النَّسَبِ، وَعَدِيلِى فى لِسَانِ الْعَرَبِ؛ لَمْ يَزَلْ أَهْلُهُ
يَتَطَفَّلُونَ عَلَىِّ فى بَيْتِ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ مِنْ يَدِيعِ عَاسِى عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدُّونَهُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْقَافِيَةِ : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَى بِرُقَى مَبَاسِمِكَ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ؛ فَانْتَ
مَوْقُوفٌ عَلَى مَقَاصِدِى، وَمُعْتَرِفٌ مِنْ رِوَايَةِ مَوَارِدِى؛ أَنَا مُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَمُعْتَمِدَةُ النَّاسِ؛
لَا يَسْتَفْنِ عَنِّى شَعْرٌ وَلَا خَطَابُهُ، وَلَا يَسْتَنكِفُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِ دُورِ تَرْسُلِ
وَلَا يَكْتَابُهُ؛ طَالَمَا عَثَرَ الْفُحُولُ فى مِيدَانِى، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ فَضْلُوا السَّبِيلِ
وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْمَبَانِى؛ فَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ التَّكَائُفِ وَالْتِرَاكِبِ فى التَّعَارُفِ، وَلَمْ يُبْذِرُوا
بَيْنَ التَّدَارُكِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّرَادُفِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْعُرُوضِ : لَقَدْ أَسْمَعْتَ الْقَوْلَ فى الدَّعْوَى مِنْ غَيْرِ تَوْجِيهِ فَدَخَلَ
عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وَأَوْقَعَكَ الْوَصْلَ دُونَ تَأْيِيسِى فى هُوَةِ النِّقْصِ : فَهَلْ إِلَى خُرُوجِ
مِنْ سَبِيلِ؟ أَنَا مِيزَانُ الْفَرِيضِ وَمِيزَانُهُ، وَعَلَى ثُبْنَى قَوَاعِدِهِ وَأَرْكَانُهُ؛ لَمْ يَزَلْ الشَّعْرُ
فى عُلُوِّ رُتَبَتِهِ بِفَضْلِى مُعْتَرِفًا وَلِخَقِّ مَتَحَقِّقًا، وَمِنْ بُحُورِى مُعْتَرِفًا، وَبِأَسْبَابِى مُتَعَلِّقًا؛
فَأَيَّانُهُ بِمِيزَانِى عَمْرَهُ، وَأَجْزَاؤُهُ بِسَطَاسِى تَعَايِلِ مُقَسَّدَهُ؛ وَبِفَوَاصِلِى مُتَفَصِّلَهُ،
وَبِأَوَادِى مُرْتَبِطَهُ غَيْرَ مُتَفَصِّلَهُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوْسِقَى : لَقَدْ أَسْرَفْتَ فى الْاِخْتِخَارِ فَضَلَّلْتَ الطَّرِيقَ وَبَنَتْ عَنْهَا،
وَوَرَّطْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَا فَايِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لَا تَتَفَكُّ عَنْهَا؛ وَأَيَّتَ مِنْ طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته لنقل قولاً، ويحث من بسيط القول بما لو اقتصرت منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وآخر نبأ طباؤه عن الوزن فلم ينفع من علمك بضره ولا عروضة؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا موصول عليك؛ وكفى بك هضمًا، وقبصةً وذمًا؛ واستدلالاً على تحضن محبتك، وضعيف أدلتك؛ قول ابن سحاج :

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ . فَعُولٌ * مَسَائِلُ كُلُّهَا فُضُولُ ،

قد كان شعر الورى جميعاً * من قبل أن يخلق الخليل !

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أو الشعراء فائدة؛ فأنما تفاعيلك مقدمة لألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عמוד الأفراح؛ والمتكفل ببسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتوحيها بشئها وفرضها؛ أحرّك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد المهوم والندم؛ فتارة أستمعل في الأفراح وزوال الكروب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وأوبئة في محل الأحران واجتماع المآثم، وصرّة يستعملني قوم في بيوت العبادات فابشهم على طلب الطاعات واجتباب المحارم؛ وآتي من غريب الألحان، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان، ويأنس به المستوحش ويلتقط به الكسلان؛ وقدنو لهماه السباع، ويعنونه بعد الشدة الشجاع .

مع ما يتفرّع عن علم الآلات الروحانية التي تتعش الأرواح، وتجلّب الأفراح، وتنبئ الأضرار، وتؤثر في البخل السامح، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في البليات بعض الصفاح .

فقال علمُ الطَّب : لقد أَصَغَتِ الزَّمانَ في اللّهُو، ومِلَّتْ مع الأَرَبِيَّةِ فاسَ بك
العُجْب وزَاد بك الزَّهو، وداخَلَكَ الطُّيُشُ فَقَعِنَتْ بالإطراب، وعِنِيَتْ بمعْرِفة المُن
فَفَاتَكَ الإِعْراب، تَذَكَّرَ المُشاقُّ أحوالَ النَّوى فُيَسْلِمُها المَوى إلى المَوان، وَتَنَقَّلُ
في نَوامِي الإيقاعِ تَنَقَّلُ المَسائِمُ قُتْمِي في حِجَازٍ وتُصْبِحُ في أَصْهان، وَأَنْتَ وَإِنْ
أَدْعَيْتَ أَنَّكَ العِلْمُ الرُّوحاني، والمُسْتَوَلِي بِمُحَرِّكِ الطَّبائِعِ الأَرَبِ على النَّوعِ الإنساني
وَضَرِ الإنسانِ، فَأَنْتَ ضَرُّ مُسْتَفْتِي عني، وَلَا فَتْكَ في الحَقِيقَةُ مُتَقَلِّ عَن قِيٍّ، بَلْ
قَوَاعِدُكَ مُرْتَبَةٌ على قَوَاعِدِي، وفَوَائِدُكَ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ قَوَائِدِي، وَأَهْلُ صِنَاعَتِكَ
يَتَطَلَّعُونَ في مَعْرِفَةِ المُلَائمِ والمُنَافِي على سَاقِطِ لُبَّابِ مَوَائِدِي، وَأَنْتَ تَبْسُطُ بِكَ الرُّوحَ
مَعَ وُجُودِ السَّكَمِ، أَوْ يَسْتَرْجِعُ إِلَيْكَ القَلْبُ مع شِدَّةِ مَقاساةِ الأَلَمِ؟ بَلْ أَنَا قِيَامُ
الأُبْدَانِ، وَقَايَةُ مِلَالِكَ الإنسانِ، بِي تُحَفِّظُ صِحَّةَ الأَجْسامِ، وَتُحَكِّمُ النَّفْسَ مِنْ
أَسْتِكْمالِ قُوَّتَيْهَا النَّظَرِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ بواسطةِ زَوَالِ الأَسْقامِ وَأَنْتِفَاءِ الأَلَامِ، مع ما يَنْصَحُ
بِالنَّظَرِ في التَّشْرِيحِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أنواعِ مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الصَّعَةِ والمَرَضِ وَسِرِّ المَوْتِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى بَدَأَ الخَلْقَ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وإِلَيْهِ يَحْشَرُونَ .

مع ما يَتَحَقَّقُ بِي مِنْ عِلْمِ خَوَاصِّ العَقَاقِيرِ الغَرِيْبَةِ، والأَعْجَابِ الَّتِي تُؤَثِّرُ بِمُخْزِيَّيْهَا
الصَّنَائِعِي التَّأْمِيرِ السَّجِيْمَةِ، وتَأْتِي مِنْ نَوَادِرِ الأَعْمَالِ بالأَعْمَالِ الغَرِيْبَةِ، على أَنِّي لَسْتُ
بِمُخْتَصِّصٍ في الحَقِيقَةِ بِيَدَيْنِ الإنسانِ، وَلَا قاصِرٌ على تَوْجِعٍ مِنْ أنواعِ الحَيَوانِ، وَإِنَّمَا
أُفْرِدْتُ بَنُوْعَ البَشَرِ أَهْتِامًا بَشَانَهُ، وَتَهَيَّأْتُ على جَلالَةِ قَدْرِهِ وَطُوعًا مَكَانَهُ .

ثم أُلْحِقُ بِالإنسانِ في الأَعْتِناءِ بِهِ اِئْتِيَاؤُها فَاشْتَقُّ لَهَا مَنِّي عِلْمَ البَيْطَرَةِ، وتَلَامَا
في الأَعْتِناءِ جَوَارِحُ الطُّيُورِ لاهْتِامِ المُلُوكِ بِشَأْنِها فَاسْتَبْطَلْها مِنْ أَجْزائِ عِلْمِ البَيْرَزَةِ،
وأَهْمَلْ ما يَسُوِي ذلِكَ مِنْ جِنْسِ الحَيَوانِ، فَلَمْ يَمُنَّ بِأَمْرِهِ عِلْمُ يُمِّهِ لَه بَشَان .

قال علم القَافَةِ : لقد أَرْتَقَيْتْ مُرْتَقَى صَعْبًا ، وَوَبَّيْتُتْ مَوَلِحًا صُلْبًا ، وَأَيْتَيْتْ
 مِنْ مُشْكَلاتِ التَّضَايَا بِمَا ضَافَتْ مَطَالِيهَ ، وَعَرَّضْتُ نَفْسَكَ لِمُغَالِبَةِ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ
 لَا شَيْءَ يُغَالِيهِ ؛ وَأَقْتَصَرْتُ فِي تَشْرِيحِكَ الْأَعْضَاءَ عَلَى ذِكْرِ مَنَافِعِهَا وَصِفَاتِهَا ،
 وَأَضْرَبْتُ عَمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَصُورُهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا ؛ أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْخَلْقِ الْإِنْسَانِ بِالْأَبِّ بِالصِّفَاتِ
 الْمَتَمَازِلَةِ ، وَالْحُكْمِ بِأُبُوتِ النَّسَبِ بِدَلَالِ الْأَعْضَاءِ كَمَا يُحْكَمُ بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ ؟ ؛ فَهَذِهِ هِيَ
 الْفَضِيلَةُ الَّتِي لَا تُسَاوَى ، وَالْمَقْبَةُ الَّتِي لَا تُعَادَلُ وَلَا تُتَاوَى ؛ وَكَفَالِكَ ذَلِكَ شَاهِدًا ،
 وَحُلِّيُّ ثُبُوتِهِ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ مُسَاعِدًا ؛ وَأَنَّهُ لَا يَتَوَرَّذُ ذَلِكَ مُعَارَضَةً وَلَا تَقْضُ ،
 أَسْتَشِيرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ مَذْجِ الْمَذِلِّيِّ : « إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا
 مِنْ بَعْضٍ » .

قال علم قِصِّ الْأَثَرِ : نَمَّ إِنْ شَأْنُكَ لَقَرِيبٍ ، وَإِنْ أَجْتَهَادَكَ لِمُصِيبٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ
 أَنَا أَغْرَبُ مِنْكَ شَأْنًا ، وَأَدْقُ فِي الْإِدْرَاكِ مَعْنَى ؛ إِذْ أَنْتَ إِنَّمَا تُلْحِقُ الْحَقِّقَ بِالمُشَاهِدَةِ
 بِمَثَلِهِ ، وَتَهَيِّسُ قَرَعًا عَلَى أَصْلِهِ ثُمَّ تُلْحِقُ الْقَرَعَ بِأَصْلِهِ ؛ وَأَنَا فَأُدْرِكُ الْمُؤَثَّرَ مِنَ الْأَثَرِ ،
 وَأَسْتَدِلُّ عَلَى الْغَائِبِ بِمَا يَظْهَرُ مِنَ اللَّوَانِخِ فِي الرِّمْلِ وَالْمَدَرِ ؛ وَرُبَّمَا مِيزْتُ أَثَرَ الْبَعِيرِ
 الشَّارِدِ مِنَ الْمَرَاتِعِ ، وَفَرَّقْتُ بِالنَّظَرِ فِيهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالظَّالِعِ ؛ فَأَدْرَكْتُ مِنَ الْأَمْرِ
 الْخَفِيِّ مَا تُدْرِكُهُ أَنْتَ مِنَ الظَّاهِرِ ، وَقَضَيْتُ عَلَى الْغَائِبِ بِمَا تَقْضِي بِهِ عَلَى الْحَاضِرِ .

قال علم غُضُوضِ الْكَتِفِ وَالْجَبْهَةِ : مَا الَّذِي آتَيْتَ بِهِ مِنَ الْغَرِيبِ ، أَوْ أَظْهَرْتَهُ
 بِعِلْمِكَ مِنَ الْعَجِيبِ ؟ ؛ فَلَوْ أُبْلِيَتْ بَارِضُ صُلْبِي لَوَقَفْتَ آمَالُكَ ، أَوْ حَمَتِ الرِّجُّ مَعَالِمَ
 الْأَثَرِ لَبَلَّتْ أَعْمَالُكَ ، أَوْ وَجَّحَ مَنْ قَفَى أَثَرَهُ الْمَاءَ فَهَاتَ حَدْسُكَ الصَّابِ ، أَوْ جَعَلَ
 الْمَاضِي مُقَدِّمَ نَهْلِهِ مُؤَخَّرَهُ لَقُلْتُ : إِنَّ الدَّاهِبَ قَادِمٌ وَالْقَادِمُ ذَاهِبٌ ؛ لَكِنْ أَنَا كَأَنَّيْتُ
 الْأَمْرَ الْخَفِيَّ ، وَالْمُسْتَدِلُّ عَلَى لَوَازِمِ الْإِنْسَانِ بِمَا رُكِبَ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْخَلْفِيَّةِ ؛

أستخرج من أسرار الجنبية وغضون الكف أمورا قد أرشدت الحكمة الالهية إليها ، وجعلت تلك العلامة في الانسان دلالة عليها .

فقال علم الكنف : إنه ليس في الاستدلال على الشيء بلازيمه أمر مستغرب ، ولا ما يقال فيه : هذا من ذلك أعجب ؛ وإنما الشأن أن يقع الاستدلال على الشيء بما هو أجنبي منه ، وخارج عنه ، كما استدلت أنا بالخطوط الموجودة في كتيف الذبيحة على الحوادث الغريبة ، والأسرار العجيبة ؛ مما أجرى الله به العادة في ذلك ، وجعله علامة دالة على ما هتالك .

فقال علم خط الرمل : لقد علمت أنك لست بتحقيق لما أنت له متوسم ، ولا واثق بالإصابة فيما أنت تترجم ، وغايتك الوقوف مع التجارب ، والرجوع فيما تحاوله إلى التقارب ، مع ما أنت عليه من الرض والإهمال ، وما ربيت به من القطيعة وقلة الاستعمال ؛ أما أنا فقاريس هذا الميدان ، ومالك زمام هذا الشأن ؛ فكمن ضمير أبرزته ، وأسر خفي أظهرته ؛ ومكان عينته فوافي ، وأمد قدرته فطابق ؛ على أنه ليس لك أصل ترجع إليه ، ولا دليل تعتمد عليه ؛ فانا أثبت منك قواعد ، وأوضح عند الاعتبار في الدلالة على المقاصد ؛ فان صدوت طورك ، أو جزت في الاحتجاج خصمك ؛ فذاك ، أنه كان نبي يخط لمن وافق خطه فذاك .

فقال علم تعبير الرؤيا : إنك وإن أظهرت السرائر ، وأبرزت الضائير ؛ فإن أمرك موقوف في حدسك على الدلالة الحالية ، ومقصورك في تخمينك على الأمور الاحتمالية ؛ أين أنت مني حين أصبر عما شاهدته النفس في النوم من عالم الغيب ؟ وكيف أكتشف عنه المحجب بالتأويل فيقع كفتاق الضبح من غير شك ولا ريب ؛ فأخبر بحوادث تقع في العالم قبل وجودها ، وآتي من حقائق النذارة والبشارة بما ينبئ على التحذير من نحوها والترقب لموافاة سعودها .

فقال علم أَحكام النجوم : حقيق ما أولت ، وصحيح ما عنه عبرت وعليه عوّلت ؛ إلا أنك فاصِر على وقائع مخصوصة تُرشد إليها ، وأُمور محدودة تُنبه عليها ؛ على أنه رُبما نَسأت الرؤيا عن فكرة وقعت في اليقظة فاتصلت بالنام ، أو حدثت عن سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فلأني أدل بما أجراه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العامة مصاحباً لمقتضيات الإرادة ؛ ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويتبين ما أشمكت عليه الأفلاك العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يترتب على ذلك من الأعمال السجية ، والأحوال الغريبة ؛ التي تبهّر العقول ، ويتمتع إليها من غير طريق الوصول :

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الذرية وعلم الأوقاف ، وكذلك علم النبوءات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولأباطيل تُسمّوها ، وأكاذيب تُزعمها وتزبرقها ؛ وأما نيل يتممها المتمم فتخيب ، وأقاويل تارة تُخطئ وتارة تصيب ؛ ولقد وردت الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الفراء بنحو أخبارك وإغفاء آثارك ؛ وتأهيك بفساد هذا الاعتقاد وردّ هذا المنهج ، ما ثبت في الصحيح من أنه من قال : مُطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة نوع من أنواع ، مُسدود من جُنْدَى ومُحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل الاعتبار في القدرة بتمام الفرض ، والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات والأرض ؛ عني يتفرع علم الزيجات والتقاويم الذي به يُعرف موضع كل واحد من الكواكب السائرة ومدة إقامتها ، وزمن تشريقها وتغريبها ويقدر رجوعها

وَأَسْتَقَاتَهَا ؛ وَحَالُ ظَهْوِهَا وَأَخْتِفَاتُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِنْفِصَالِ وَالْخُسُوفِ وَالْكَسُوفِ وَأَخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرَضَادِ : مَا عِلْمُ الزَّيْجَاتِ وَالنَّاقِوِيمِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ مِلَّةً ، وَتُؤَيِّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَى ؛ إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَائِكِيَّةِ ، وَالتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا بِالْأَلَاتِ الرَّصِيدَةِ ؛ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبِ عِلْمُ الزَّيْجَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ الْإِتِّصَالَاتُ وَالْإِنْفِصَالَاتُ وَالْإِمْتَرَا جَاتُ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ اتِّخَاذِ الْآلَاتِ الشَّعَاعِيَّةِ ، وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَائِكِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَزَيْجِهَا ، وَشَرِيْقُهَا فِي الشَّرِيعَةِ وَكَرِيْمُهَا ؛ بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ؛ وَتُعَلَّمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَعَمَلُهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْجَادِهَا وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ مَعَ مَا يَخْطُرُ فِي هَذَا السَّلْكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالِعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَاعِ مِنْهَا وَالْقَارِبِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الشَّعَاعَاتِ الْخَفُورَةِ ، وَالظَّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمُبْسُوطَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ، وَيُنْسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبِي .

مِنْ عِلْمِ الْآلَاتِ الظَّلِيلَةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيُظْهِرُ مِنْهَا الْمَاضِي وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُلْتَمِسٍ وَأَطْفِ اعْتِبَارٍ ، مِنْ نَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمُبْسُوطَاتِ مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ : إِنْ فَضَّلْتَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرَ مَنُكُورٍ ؛ إِلَّا أَنْ آلاَتِكَ بِي مُقَدَّرَةٌ ، وَأَشْكَالُكَ بِأَوْضَاعِي مُحَرَّرَةٌ ؛ فَإِنَّا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَهْتَدِي ، وَتَجُتَبَّكُ

الذى به تهتدى ؛ بل جميع علوم الهيئة فى الحقيقة موقوفة على ، وراجعة فى قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوة ، ولم يميز بين الخطوط والقيس والوائى المقدرة ، مع ما ينشأ عنى ، ويستعمل من محايى ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل لها ؛ واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين البقينة القاطعة ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البيئية والحدود الجامعة المانعة .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مآربك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنوك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ؛ وعمارمة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتنضيد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأتجار وترتيب الرياض ذوات الخمايل .

فقال علم بحر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة ستادك ، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك ؛ فى تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة ، حتى تسقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيرة .

فقال علم مراكر الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مراكر الأجسام المحمولة ، وبينان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعمولة .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومتفرقة حثك بكثير من المعانى ؛ من آراء الخراج والزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وَكَيْفِيَّةِ ذَرْجِ الْمُثَلَّثَاتِ ، وَالْمُرَبَّعَاتِ ، وَالْمُدَوَّرَاتِ ،
وَالْمُسْتَطِيلَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقِ الْأَعْمَالِ ، وَإِذْرَاكِ كَيْفِيَّاتِ الْمَقَادِيرِ عَلَى التَّفْصِيلِ
وَالْإِجْمَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفَلَاحَةِ : فَإِذَا قَدْ اعْتَرَفْتَ أَنَّكَ مِنْ جُمْلَةِ لَوَاحِقِ ، مُتَدَرِّجٍ فِي حُتُوفِ
وَدَاخِلٍ تَحْتَ مَرَاثِقِ ؛ فَأَنَا فِي الْحَقِيقَةِ الْمَقْصُودُ مِنْكَ فِي الْوَضْعِ بِالْقِيَاسِ ، وَالْمُتَّحِدُ
بِكَ دُونَ غَيْرِي مِنْ غَيْرِ أَتْبَاسٍ ؛ مَعَ مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَدْيِيرِ النَّبَاتِ مِنْ بَدْيِهِ
كَحَوْنِهِ إِلَى تِمَامِ تَدْيِيرِهِ ، وَتَسْمِيَةِ الْحُبُوبِ وَالنَّمَارِ بِاصْلَاحِ الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَلِّهَا
مِنَ الْمُحْفَنَاتِ كَالنَّمَادِ وَغَيْرِهِ وَمَا أُيَدِيهِ مِنَ اللَّطَائِفِ فِي إِعْصَادِ بَعْضِ الْقَوَائِكِ فِي غَيْرِ
فَصْلِهِ ، وَتَرْكِيبِ بَعْضِ الْأَشْجَارِ عَلَى بَعْضٍ وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ غَيْرِ أَصْلِهِ .

فَقَالَ عِلْمُ إنبَاتِ الْمِيَاهِ : إِلَّا أَنِّي أَنَا بِدَايَةِ عَمَلِكَ ، وَغَايَةِ مُنْتَهَى أَمَلِكَ ؛ لَا يَتِمُّ لَكَ
أَمْرٌ بِدُونِي ، وَلَا تَثْبُتُ لَكَ خَضْرَاءٌ مَا لَمْ تُنَسَّقْ مِنْ بِنَائِي وَعُيُونِي ؛ فَأَنَا الْكَفِيلُ
بِاحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ وَإِفْلَاحِهَا ، وَالْقَائِمُ بِتَطْلِيفِ مَرَايِجِهَا وَإِصْلَاحِهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَنَاطِرِ : مَا الَّذِي تُجِدِّي أَنْتَ وَطَرَفِي عَنْكَ مَرَّةً ، وَتَنْظُرِي إِلَيْكَ غَيْرَ
مُمْتَدٍّ ؛ وَأَنِّي أَسْتَطِيعُ مِيَاهُكَ التَّرِيْقِي مِنَ الْأَغْوَارِ إِلَى السُّجُودِ ، وَتَتَنَقَّلُ عِيُونُكَ وَأَنْبَارُكَ
بَيْنَ الْمُهْبُوطِ وَالْمُسْعُودِ ؛ إِذَا لَمْ أَكُنْ لَكَ مُلَاحِظًا ، وَهَلِي الْإِعْتِنَاءُ بِأَمْرِكَ مُحَافِظًا ؛
مَعَ مَا أَشْتَمَلُ عَلَيْهِ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ تَحْقِيقِ الْمُبْصِرَاتِ فِي الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهَا ،
وَمَا يَتَمَلَّظُ فِيهِ الْبَصَرُ كَالْأَشْجَارِ الْقَائِمَةِ عَلَى سُطُوطِ الْمِيَاهِ حَيْثُ تُرَى وَأَسَافُهَا أَغَالِيهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَرَايَا الْمُحْرِقَةِ ^(١) : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَقْتَ النَّظَرَ ، وَحَقَّقْتَ كُلَّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ
حَاسَةُ الْبَصَرِ ؛ فَأَنَا مَقْصِدُكَ الْأَعْظَمُ ، وَهَيْهَاتَكَ الْمُقَدَّمُ ، طَالَمَا أَرَحَقْتُ الْقِلَاحَ

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مرا. كمرح وأن النوراء يقولون في جمعها : مرايا .

بُشَامَى، وَحَصَّنَتِ الْجِيُوشَ بِدِقَائِي؛ وَقُلْتُ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْمَسْكِرَ
الْجَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَفْرَادِي عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاذَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَلَّكَ لِكَيْلٍ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِلذَّلِيلِ؛ وَمِلَاذَ عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ؟
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالتَّالِي لِلسَّانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَاذَا تَقَسَّ الْمَقْصُودُ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ، وَتَمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ، وَمُوَاقِعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ؛ وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا أَلَمٌ مِنَ الْآلَاتِ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ؛ وَأَنْتَى يُفْنَى
السَّلَاحُ عَنْ أَلْبَانٍ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاقِ، أَوْ يُجْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشُّجَاعُ؛
فَالْعَبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ، لَا بِالْتَّوَاتِلِ؛ وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ، لَا بِتَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْمَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهَا،
وَالْإِسْتِنَادُ إِلَى النَّهْبِ وَالْفَيْضَةِ بِخِلَافِ مَسَاوَاهَا؛ وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ، وَعَنْهُ يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ، أَحْوَالُ يُحْسِنُ التَّنْدِيرَ، مَا طَلَبَتْهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى تَمَرِّ الدُّهُورِ؛ فَآتِي بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ، وَأُجَابِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُنَازَعَتِهَا
فِيظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ؛ وَأُبْرِزُ مِنْ خِصَالِ الْإِكْسِيرِ مَا يَتَلَبَّ الْمُرِيحُ قَرَأَ
مِنْ غَيْرِ لَيْسَ، وَيُحِيلُ الزُّهْرَةَ شَمْسًا وَنَهْيَكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ؛ فَصَاحِبِي
أَبْدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ، شَرِيفُ النِّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ خَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَعْتَ عَنَّا، وَجَلَبْتَ غَنَى؛ فَاْمُؤَالِكَ
الْجَمَّةُ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ؛ عَنَاجِدُ إِلَى حُسَابِي، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كُنَّيْ؛ أَنَا جَائِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ مجملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيق الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قلدى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منبها على شرف قلدى وسنى حالاته : « وتولا قلم الحساب لأودت نمره الأكتساب ، ولا تصل الثناؤن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأنواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون بدسيا حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصص عنه همتك المقصرة ، وتتسعب عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محمده ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يؤولون فيها - على سعة قضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطائين : مالى ولعلم لا يؤصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناية إلى استصحاب ثمت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الختام جفده قاصر ونفقه قليل ؛ على أن غيرك يساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الفلظ ولا يعتريه ، وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج القبول من الأعداد بخطائين يقال : آنى بخطائين وهو مصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حَسْبُكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ كَنَقْطَةِ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُجْمَةٍ مِنْ بَحْرِ ؛ فَتَنْصَرِفُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالِكَ النَّازِكَةِ ،
 عَلَى مَا أَمَكَّنَ صِبْورَتَهُ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو مُذَرِّبٍ ،
 وَأَبْنُ بَجْدَتِي ، وَأَخُو بَجْدَتِي ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالْتِرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَمْرِي هَذَا الْخَبْرُ ؛ وَيَتَوَخَّوْهُ هَذَا النَّحْوُ وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْخُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُشُورِ .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهِمِ وَالْدِينَارِ : مَالِكَ وَلِإِدْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْوَارِثِ ، دُونَ مَا تَزِيدُ عَدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَأَنَّتْ حَيْثُ يَزِيدُ
 الدَّعَاوَى الْخَصْرِيَّةِ ؛ لَكِنِّي أَنَا كَاشِفُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمُبَيِّنُ سُبُلِهَا بِالْأَطْفِ الطَّرَاقِ ؛
 فَبِي إِلَيْهَا يَتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لَاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجَلُّ وَيُفْصَلُ .

فقال علم حِسَابِ الدَّوْرِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ،
 وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَإِنَّا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَةً ، وَأَجَلُّ مِنْهُ فَائِدَةً ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّوْرِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَضَحَّ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّوْرَ فَتَعُودُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال علمِ الْفِقْهِ : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نُبَذَ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ يَوَارِقِي ،
 تَتَعَلَّقُ بِأُنْصَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِي ؛ فِي تَمْيِيزِ مَعَالِمِ الْأَحْكَامِ ، وَبَيِّنِ الْوَاجِبِ
 وَالْمُنْتَدِبِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وَيَجْرَى بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَأَنَا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُسْتَمَدُّ
وَيَتَّبَعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَفَضَّلَ سَعْيُ الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَآ مَسَوَا فِي دُنْيَاهُ
مُدْهَمَّةٍ فَاصْبَحُوا عَنْ رُكَايِبِ الْخَيْرِ مُحْتَظِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

عِلْمُ الْفَرَائِضِ الَّذِي حَصَّ الشَّارِعُ عَلَى تَعْلِيمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ
مُنْتَبِهًا عَلَى تَمْظِيزِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِهِ ؛ وَبِالْعَمَلِ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنْ أَتَى اللَّهُ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أَصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَمَالٌ ، وَإِنَّ جَيْدَكَ لَحَالٌ ، غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أَصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُولِكَ ؛
بِى تُعَرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ اسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ مُجِيجِهَا
وَأَسْمَاءُ خَرَايجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِلِهَا ؛ فَبِأَصُولِي فُرُوعُكَ مَقْزُورَةٌ ، وَبِحَاسِنِ
اسْتِدْلَالِي مُجْهِمٌكَ مُنْقَعَةٌ مُحْزَرَةٌ ؛ قَدْ مَهَلْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَيَّنْتُ
عَلَى أَغْظَمِ الْأَصُولِ فُرُوعَكَ فَاسْتَدْتَهَا لِلِكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَسَارِكِ ؛ بِي تُعَرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْمَجْمَعِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبُ الثَّبَاتِ الْإِلْحَاقِيَّةِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى تَحْوِيلِ ، وَنَظَرُكَ إِلَى تَقَارِيرِ كُلِّ
حَالٍ مُؤَكَّدٌ .

فقال علم المنطق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِ الْمُنْطِقَةِ
أُفْرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ تَخَالُطَتْ أَصُولُ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟
فَأَنْتَ إِذَا فَرَّدَ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ، مَعَ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَاطِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُتَخَصِّصَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّنْثِيهِ الْمُقِيدُ لِلتَّحْجِيلِ الْمُوْجِبِ لِلْإِفْعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْقِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلُّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعْمِمْ مَرَاغَاتِي الْفِكْرَ عَنْ الْخَطَا فَلَإِ يَزَلْ ، وَتَهْدِيهِ سِوَا السَّبِيلِ
فَلَإِ يَجِدَ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلْ ، وَأَسْرِي فِي جَمِيعِ الْمُتَعْقُولَاتِ فَاتَصَرَّفْ فِيمَا
يَلِيْقُ مِنْهَا وَيَجِلْ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدِلَّةُ بِالتَّلَوُّعِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ ؛ وَلَا تَقْبِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتُسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى مُجْهِدٍ ، وَأَوْجَحُ مَحْجَهٍ ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا أَسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَلْتَ عَلَيْهِ فِي عُثُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ قَدْ حَسَّنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمَ وَالتَّالِيَّ ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرَافَعَاتِ وَتَتَأَيَّدُكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنْتَ إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَقَعَلْتِ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتِ بِكُلِّ لَفِظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب ؛ إلا أن الدراية ، موقوفة على الرواية ؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه ، أو يتأق العلم بمعناه قبل الوقوف عليه ؟ ؛ وهل ثبت قرع على غير أصل في مقتضى القياس ، أو يرق من غير سلم أو ينشأ على غير أساس ؟ ؛ فعل المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها ، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسماع المتصل وتحريرها وضبطها .

فقال علم التفسير : قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد ، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد ؛ إلا أنها وإن اختلفت في الدلالة والإرشاد ، فقد اختلفت الكتاب في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالآحاد .

فقال علم القراءة : إلا أنه لا ينبغي للقرآن أن يقدم على التفسير مالم يكن بقراءة السجع والشاذ مليا ، وبلغاتيا عارفا وللنظر في معانيها ملازما ؛ مع ما يتحقق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلق من المصاحف بخطها ، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها .

فقال علم النواميس : (وهو العلم بمتعلقات النبوة) : إنك لفرع من فروع الكتاب المبين ، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها ، وميسر الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقها ؛ والفرق بين النبوة الحققة ، والدعوى الباطلة غير المحققة ؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام ، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام ؛ فانا المقدم على سائر العلوم الشرعية ، وإمام الأصلية منها والقرعية .

فقال علم الإلهي : لقد تحققت أن اللازم المحتم ، والواجب تقديمه على كل مقدم ؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها ، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستجبل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحمول .

قال علم أصول الدين : لحيث قد فُزْتُ من جمعكما بالشرقين، وجمع لي منكما الفضل بطريقه فصرت بكما معلم الطرفين؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وقاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين، وبيّنت طريق الحق لسالكها فكنت سببا للفوز والنجاة في الدارين؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته، وكل علم يستمدّ من في مبادئه ويقتصر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما أزددت يقينا، إذ كان كل أمرى بما عمل مجازى وبما كسب رهينا؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازما، أن يكون عن دار النور متجافيا ولأعمال البرملازما؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة، إن حصلت النجاة فذلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فذلك إذا كره خاسره؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم، ومن أفتّر بزعمها الفاني . فقد خاب في الهداية ويديم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات، وتتابعت الحجج والمناقضات؛ نهض علم السياسة قائما، وقصد حسم مادة الجدال وطالبا؛ وقال: أنا جدتها المحكم وعديتها المرجب، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يشوق السامع، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع ثوته المطامع، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع؛ غير أنه لا يليق بالمتنصف أن يخطئ قدره المحمود ولا يتعدى جزئه المقسوم، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مَنكُم سَبِيلَ الْمَعْدِلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ
فَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ الْبَقَى ، وَلِقَامَ الْعِلْمِ أَرْقَى .

فَقَالَ عِلْمُ تَذْوِيرِ الْمَنْزِلِ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَصَّلِ
الْخَطَابِ ؛ لِكَيْنَهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبِيرِ عَالَمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لِسَمْلِكُمْ جَامِعًا ،
وَلِمَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي مَحَلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ،
خَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حُدَّةٍ وَمَوْضُوعَةٍ وَفَائِدَةٍ وَأَسْتِدَادَةٍ ؛ لِيُبَيِّنَ بِهِ مِنْ
الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنْ الشَّرَفِ عِنْدَ حُدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدْعِي مُدْجٍ بِغَيْرِ
مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنَّ الْمَحِيطَ بِكُلِّكُمْ عَلِمْنَا ، وَالْقَائِمَ
بِجَمِيعِكُمْ قَعَمْنَا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْقَرْدُ وَالْكِبَرِيَّةُ الْأَحْمَرُ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيْضِ
الْأَثَوَقِ بَلْ يَبْضُ الْأَثَوَقُ فِي الْوُجُودِ أَكْثَرُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ ، وَبَازَيْنَ يَحْدَثُهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ
زَعِيمٌ ، وَبِمَطْلَبِهِ عِلِيمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفٌ يَنْبَغِي عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّحٌ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكْتَنَهُ
بَيْنَ جَوَانِبِهِ ؛ لِحَامِلِ الْمِسْكِ لَا تَخْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زَكَامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَخْفَى ضَوْؤُهُ
عَلَى ذِي بَصِيرَةٍ وَإِنْ تَسْتَرَتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْقَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعَالَمِاءِ الْكَلَامِ ،
الَّذِينَ طَوَّارِيهِمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَقَاصِيلِهَا مُشْتَمِلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ،
وَتَقَرَّسْتُ وَتَوَقَّعْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْحَدَالِ وَالْخِصَامِ ؛
وَيُعْرِفُ بُلْغَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُصُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لَانْخِطَاطِهِ عَنْ
بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الرَّازِحُ ، وَ^(١) الَّذِي لَا يُعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يُدْرِكُ لَمَدَاهُ
آخِرٌ ؛ حَبِيرُ الْأَثَمَةِ ، وَعَلَامَةُ الْأَيْمَةِ ؛ وَنَاصِرُ السَّنَةِ وَحَامِيهَا ، وَقَائِعُ الْيَدْعَةِ وَقَائِمِيهَا ؛ تَجَلَّى^(٢)

(١) بياض بالأصل ولعله : القاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقائما بالمدح تخففه من قاء كنهه قمه .

شَيْخُ الْإِسْلَام ، وَخُلَاصَةُ غُرَرِ الْأَيَّامِ ، جَلَالُ الدِّينِ ، بَقِيَّةُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ أَبُو الْفَضْلِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبُلْقِينِي الشَّافِعِيُّ ، النَّاسِطُ فِي الْحُكْمِ الْعَزِيزُ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِِيَّةِ ، وَمَسَارِ
الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَا أُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْوُطَائِفِ الدِّيْنِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ فَوَاضِلُ
الْفَضَائِلِ مَعْرُوفَةٌ : فَهُوَ السَّالِمُ الَّذِي إِذَا قَالَ لَا يُمَارِضُ ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي إِذَا حَكَّمَ
لَا يُنَاقِضُ ؛ وَالْإِمَامُ الَّذِي لَا يَتَعَالَى أَجْتِهَادُهُ خَلَلَ ، وَالْمُنَاطِرُ الَّذِي مَا حَاوَلَ قَطَعَ خَصِمَ
إِلَّا كَانَ لِسَانُهُ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ إِذَا يُقَالُ : « سَبَقَ السَّيْفُ الْمَتَلَّ » :

إِذَا قَالَ بَدَّ الْفَائِلِينَ وَلَمْ يَدَّغْ * لَمُتِّمِينَ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا !

إِنْ تَكَلَّمَ فِي الْفِقْهِ فَكَأَنَّمَا بِلِسَانِ « الشَّافِعِيِّ » تَكَلَّمَ ، وَ « الرَّبِيعِ » عَنْهُ يَرَوِي
و « الْمُزَنِّي » مِنْهُ يَتَعَلَّمُ ؛ أَوْ خَاصٌّ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ . قَالَ « الْفَزَائِلِيُّ » : هَذَا هُوَ الْإِمَامُ
بِإِنْفَاقٍ ، وَقَطَعَ السَّيْفُ « الْأَمِيدُ » بِأَنَّهُ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْقَنْ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ أَوْ جَرَى
فِي التَّفْسِيرِ . قَالَ « الْوَاحِدِيُّ » : هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْأَوْحَدُ ، وَأَعْطَاهُ « أَبُو نُعَيْمٍ »
صَفَقَةً يَدُهُ بِأَنَّهُ مِثْلُهُ فِي التَّفْسِيرِ لَا يُوجَدُ ؛ وَأَعْرَفَ لَهُ « صَاحِبُ الْكُتَّافِ » بِالْكَشْفِ
عَنِ الْغَوَامِضِ ، وَقَالَ الْإِمَامُ « نَفَرُ الدِّينِ » : « هَذِهِ مَقَانِيجُ الْغَيْبِ وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ »
فَارْتَضَعَ انْخِلَافًا وَأَنْدَفَعَ الْمُعَارِضُ ؛ أَوْ أَخَذَ فِي الْقِرَاطَاتِ وَالرِّسْمِ أَزْدَى بِأَبِي « عَمْرُو
الدَّيَّانِي » ، وَعَدَا شَأْوُ « الشَّاطِطِيِّ » فِي « الرِّأْيَةِ » وَتَقَدَّمَ فِي « حِرْزِ الْأَمَانِي » ؛
أَوْ تَحَدَّثَ فِي الْحَدِيثِ تَمِيدُ لَهُ « السُّفْيَانَانِ » بَعُلُوُ الرِّبَةِ فِي الرِّوَايَةِ ، وَأَعْرَفَ لَهُ
« أَبُو مَعِينٍ » بِالْتَّبَرُّزِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الدَّرَايَةِ ؛ وَهَنَفَ « الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ » بِذِكْرِهِ
عَلَى الْكُتُبِ ، وَقَالَ « أَبُو الصَّلَاحِ » : لِيُنْثَلِ هُنَا الْفَوَائِدُ تَتَمِّينُ الرِّحْلَةَ وَفِي تَحْصِيلِهَا
تَتَفَدَّى الْخَطَرُ ؛ أَوْ أَبْدَى فِي أَصُولِ الدِّينِ نَظْرًا تَعَلَّقَ مِنْهُ « أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ » بِأَوْفَى
زَمَامٍ ، وَسَدَّ بَابَ الْكَلَامِ عَلَى الْمُتَعَرِّلَةِ حَتَّى يَقُولَ « عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ » وَ « وَاصِلُ بْنُ

عطاء : كَيْفَا لم تفتح باباً في الكلام ؛ أو دَقَّ النظر في المتطرق بهر « الأثيري »
 في مناظرته ، وكتب « الكاشي » على نفسه وثيقة بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألم بالجدل
 رمى « الأرموي » نفسه بين يديه ، وجعل « العميدي » عمده في آداب البحث
 عليه ؛ أو بسط في اللغة لسانه أعترف له ابن « سيده » بالسيادة ، وأقر بالعجز لديه
 « الجوهرى » وجلس « ابن فارس » بين يديه مجلس الاستفادة ؛ أو نحا إلى النحو
 والتصرف أرزبى فيه على « سيبويه » ، وصرف « الكسائي » له عزمه فصار من
 البعد إليه ؛ أو وضع أنموذجاً في علوم البلاغة وقف عنده « الجرجاني » ، ولم يمتد
 حده « ابن أبي الإصبع » ولم يتجاوز وضعه « الرمانى » ؛ أو روى أشعار العرب أزدى
 بـ « الأضمعي » في حفظه ، وفاق « أباصيدة » في كثرة روايته وغزير لفظه ، أو تعرض
 للمروض والقوافي استحقهما على « الخليل » ، وقال « الأخفش » عنه : أخذت
 المتدارك وأعترف « الجوهرى » بأنه ليس له في هذا الفن مثيل ؛ أو أصل
 في الطب أصلاً قال « ابن سينا » : هذا هو القانون المعتبر في الأصول ، وأقسم
 « الرازي » بجي الموتى إن « قراط » لو سمعه لما صنف « الفصول » ؛ أو جنح
 إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جتنب له ذلك العلم بزمام
 فأقاد إليه ؛ أو سلك في علوم الهندسة طريقاً لقال « أوفليدس » : هذا هو الخط
 المستقيم ، وأعرض « ابن الهيثم » عن حل الشكوك وولى وهو كظيم ، وحمد
 « المؤمن بن هود » عدم إكمال كتابه « الاستكمال » وقال : عرفت قدر نفسي وفوق
 كل ذي علم عليم ؛ أو عرج على علوم الهيئة لأعترف « أبو الرمان البيروني » أنه الأعمى
 النادر ، وقال ابن أفلح : هذا العالم قطب هذه النائرة ، أو صرف إلى علم الحساب فخره
 لقال « السموعل بن يحيى » لقد أحيا هذا الفن الدارس ، ونادى « ابن جلي الموصل »
 قد أنجلت عن هذا العلم غياهبه حتى لم يبق فيه عمه لعمامه ولا عمه على ممارس .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَلَمَّثَ وَجَدَتْ لِسَانًا قَائِلًا فَقِيلَ !

وَكَيْفَ لَا تُثْنِي إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا، وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
الإسلام وإمامه، ووَاحِدُ الدُّمْرِ وَعَلَامُهُ، وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَقَرِّدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
فِي أَوَاخِرِ الْأَعْيَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَحْتَلُو مِنْ مُجْتَمِدٍ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضُوعُ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْوِلًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَاءِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمِائَةِ الْأُولَى، فَالْخَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ، وَلَا غَرَوًا إِنْ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَاتَّشَدُ :

إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى * لَهَا عُمَرُ الثَّانِي لِنَا الدِّينِ صَاحِبُهُ،
وَوَلَّى رِجَالٌ بَعْدَ ذَلِكَ كَعِثْلِهِ * فَهَا عُمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ تَامَنِهِ
بِظَاهِرِهِ تَجَلَّى سَعِيدٌ قَدَّتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي دُرِّ الْحَقِّ آمَنِهِ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ * رَأَيْتَ جَلَالَ مَنْ سَنَا الْفَضْلَ قَارَنَهُ !
فَلَا يَمْتَدِّحُ الْإِسْلَامَ جَمَعَ عَلَامُهَا * وَلَوْ يَبْرَحُا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثَّغْرِ وَجِئْتُ بِالرَّأْيِ الْأَكْلِ، وَعَرَفْتَ مِنْ
أَبْنِ تَوَكُّلِ الْكِتَفِ فَعَلَبْتُ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ، إِلَّا أَنَّ مِنْ حَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ، أَنْ تَعُودُوا بِفَضْلِكُمْ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ وَرُكَّتُمْ، إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّقَاثُرِ
مَجْرَى الْإِنْصَافِ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلْبِهِ بِمَا أَشْتَقَلَّ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْتَكَمٍ مِنْ بَجِيلِ الْأَوْصَافِ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْإِلْتِمَامِ حَبْلَكُمْ، وَجَمَعَ بِالْحَقْلِ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّيَامِدِ
شَمْلَكُمْ، وَذَكَّرَكُمْ بِجُسْنِ الْمَصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَسِيدِ، وَتَلَا لِسَانَ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
(فَإِذَا الَّذِي يَبْنِيكَ وَيَبْنِيهِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . بَانَ بِتَقَصُّبِ كُلِّ مَنْتَكَمٍ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْحَلِيلِ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَفِيفِ، أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْعِنَايَةِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّيَايَةِ، لِيَعْرِفَ النَّاسَ جَانِبَهُ، وَيَطْلُعَ

في أُنْفِ السَّعْدِ بَعْدَ الْأَوَّلِ غَارِبُهُ ؛ وَيَتَلَعَّ مِنْ مُنْتَهَى أَمَلِهِ مَالَهُ جَهْدٌ ، وَيَسْعَدُ
بِالنَّظَرِ السَّعِيدِ جَدُّهُ فَقَدْ قِيلَ : « مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ نَظَرُ السَّعِيدِ سَعِدَ » .

على أنه - أمتع الله الإسلامَ ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دَارِ الْكَرَامَةِ
كما جمع لها بين طَارِفِ الْمَجْدِ وَتَالِدِهِ ؛ - قد فَصَحَ لَهُ مِنَ التَّرَقُّيِ أَوَّلَ بَابٍ ، وَلَا شَكَّ
أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ تُرْقِيهِ إِلَى السَّعَابِ .

فَأَزْرُقُ الْفَجْرَ يَدُوقِلْ أَبْيَضِهِ * وَأَوَّلُ الْفَيْثِ قَطْرُهُمْ يَنْسَكِبُ !

فَقَالَ عِلْمُ التَّارِيخِ : أَهْمِطُوا مَضْرَأَاتِ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَقَرُّوا عَيْنًا إِلَى الْقَعْدِ
الْجَلِيلِ وَصَلْتُمْ ، وَعَلَى غَايَةِ الْأَمَلِ - وَفِي الْحَمْدِ - حَصَلْتُمْ ؛ فَقَدْ بَلَّوْتُ الْأَوَائِلَ وَالْآخِرَ ،
وَحَبَّرْتُ حَالَ الْمَتَقَدِّمِ وَالْمُعَاصِرِ ؛ فَلَمْ أَرَفِمْ مَضَى وَضَعٍ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ وَأَشْتَهَرَ مِنْ
ذَوِي الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمَنَاصِبِ السَّالِيَةِ ، مَنْ يُسَاوِي هَذَا السَّيِّدَ الْجَلِيلَ فَضْلًا ،
أَوْ يُدَانِيهِ فِي الْمَعْرُوفِ قَوْلًا وَفِعْلًا ؛ قَدْ لَيْسَ شَرَفًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَلَا يَتَطَّلَعُ
الزَّمَانُ إِلَى نَزْعِهِ ؛ وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَأَتَمَّازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ ؛
وَحَلَّتْ الرَّأْسَةُ بِفَنَائِهِ فَاسْتَعْنَتْ بِهِ عَنِ السُّوَى ، وَأَنَاخَتِ السِّيَادَةُ بِأَفْنَائِهِ فَالْقَتِ
عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى ؛ فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ
يُنَاوِيهِ ؛ وَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى تَقْرِيطِهِ فُلِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَاقَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى
حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ خَيْرٌ ، * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيطِهِ بَطْنٌ دَقَرٌ !

فَهُوَ الْحَرِيُّ بِأَن يُكْتَبَ بِأَقْلَامِ اللَّحَبِ بِجَمِيلِ مَنَاقِبِهِ ، وَأَن يُرْقَمَ عَلَى صَفَحَاتِ
الْأَيَّامِ حَيْدُ مَطَالِيهِ ؛ فَلَا يَنْهَبُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ذِكْرُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَلَى تَوَالِي
الدُّهُورِ نَفْرُهَا .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قَارَنَ السَّعْدُ جَلَالَهُ، وَتَفَجَّرَتْ بِتَابِيعِ الْفَضْلِ
خِلَالَهُ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْرُ مُعَاتِبِينَ، وَبِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيرِضِ هَذَا الْخَبَرِ
وَمَنْحِهِ مُطَالِبِينَ؛ وَقَالُوا: قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَنَحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِبِهِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَحْنُمَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لِاتِّقَةِ، وَلِمَا نَحْنُ
فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَةٍ؛ قَائِمَةٍ مِنْ مَنَحِهِ بِالْوَاجِبِ، سَالِكَةٍ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ؛ لِكُتْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ نَفْلًا وَثَرًا، وَتَحَقُّقَ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
خُطَابَةً وَشِعْرًا؛ فَقَالَ: سَمِعَا وَعَاطَاهُ، وَأَسْتِكَانَةً وَضَرَاهُ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ عَجَلًا،
وَأَتَسَدَ مَرْجِيلاً:

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعْتُ بِصَدْرِ حَيْرٍ كَامِلٍ!
فُسُوهُ لَمْ يَجْتَمِعْ لِمَالٍ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ!
يَسْفَى الصُّلُورُ إِنْ خَدَا مُنَاطِرًا، * وَبَحْثُهُ فَرِيضَةُ الْهَافِلِ!
كَمْ عَمَّرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِسٍ، * وَزَيَّنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ عَاطِلٍ!
وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ!
وَكَمْ غَدَّتْ آرَاؤُهُ حَمِيدَةً، * وَنَهَبَتْ بِحِمْيُهَا مِنْ خَامِلٍ.
وَحُكْمُهُ فَعَكَمَ أَقَالَ عَثَرَةً * وَجُودُهُ فَفَوَّقَ قَصْدِ الْأَمِيلِ!
هَذَا: وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ * مَحْفُوفَةً بِالْطَلِفِ الشَّامِلِ!
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأْنَهُ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثِلِ الْأَمْثِلِ؟
مَوْلَى عَلَا فَوْقَ الْمَالِكِ رُتْبَةً * قَدْ زَيَّنَتْ بِأَفْضَلِ الْقَوَائِلِ!
فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ، * وَمَا لَبَّحِرُ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ!
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلُهُ أَنْ يَنْتَهِي * صِفَرِ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْئِي الْأَجَلِ!

قلت : ولم أر من تعرض للمُفَاخَرَةِ بين الملوك سوى القاضى الرشيد أبى الحسين
ابن الزبير فى مقالته المقدم ذكرها^(١) على أنها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مُرتبة
على هذا الترتيب ، مع الاختصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المُفَاخَلَةِ بينها على
ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدى بفضلِهِ إلى وجوه الترجيح التى يرجح بها
كلِّ حليم على خصمه ، ويُفْلِحُ به على غيره ، والمُنْصِف يعرف لذلك حقه . والذى
أعطى على ذلك جلاله قدر من صُنْفَتْ له وطُورَتْ به ، وآسأع فضله ، وكثرة
علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات المدح تهدى المادح وتُرشدُه .



ومنها المُفَاخَرَةُ بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فن عالٍ وهابط ،
وصاعد وساقط .

وهذه رسالة فى المُفَاخَرَةِ بين السيف والقلم ، أنشأها للقر الزينى أبى يزيد الدوادار
الظاهرى ، فى شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : "حيلة الفضل وزينة
الكرم ، فى المُفَاخَرَةِ بين السيف والقلم" وهى :

الحمد لله الذى أعزَّ السيفَ وشرفَ القلمَ ، وأفردَهما برُتبِ العُلَيا قَرَنَ لهما بين
المجدِّ والكرمِ ، وسأوى بينهما فى القِسْمة فهذا للحكم وهذا للحكم .

أحمدُ على أن جمعَ بغيرِ أميرٍ بعدَ التفرُّقِ شملهما ، ووصلَ بأعزِّ ملكٍ بعدَ التقاطعِ
حبَّلهما ، وأرغَبَ إليه بشكرٍ يكاثُرُ النجومَ فى عديدها ، ويكونُ للنعمة على سمر الزمانِ
أباً يزيدُها ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتمُّ الإخلاصُ
بمُدَّهها ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرَّ بها ، وأن عدا عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فى معنى قطعها سقطت من قلم السامع .

الذى حُصَّ بِأَشْرَفِ الْمَنَاقِبِ وَأَفْضَلِ الْمَآثِرِ، وَأَسْتَأْثَرَ بِالسُّؤْدِ فِي الدَّارَيْنِ حَازَ أَغْرَ
المصالي ونال أَعْلَى الْمَقَانِرِ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ قَامَتْ بِبُصْرَتِهِمْ
دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ فَسَمَتْ بِهِمْ عَلَى سَائِرِ الدُّوَلِ، وَكَرَّعَتْ فِي دِمَاءِ الْكُفْرِ سِيُوفُهُمْ فَعَادَتْ
بِخَلْقِ النَّصْرِ لِابْتِجَاعِ الْجَمَلِ؛ صَلَاةٌ يَنْفُضِي دُونَ أَحْضَانِهَا تَعَاقِبُ الْأَيَّامَ، وَبِكُلِّ أَلْسِنَةٍ
الْأَهْلَامُ عَنْ وَصْفِهَا وَلَوْ أَنَّ مَائِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامُ .

وبعد، فإنه ما تقارب آثانٍ في الرتبة إلا تماسدا، ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا
أزدحما على التَّحْدِ وتواردًا؛ ورأى كلُّ منهما أن يكونَ هو الآخرَ بِالْقُدْحِ الْمُحَلِّي، وأن يكونَ
مُفَرِّقُهُ هو الْمُتَوَجِّعُ وَجِيْدُهُ هو الْمُحَلِّي، وَأَدْعَى كُلُّ منهما أن جَوَادَهُ هو السَّابِقُ فِي حَلْبَةِ
السَّابِقِ، وَالْفَائِزُ بِقَصَبِ السَّبْقِ بِالْإِتِّفَاقِ؛ وَأَنْ تَجِبَهُ هُوَ الطَّالِعُ الَّذِي لَا يَأْتِلُ،
وَسُؤْدَدُهُ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُعْزَلُ؛ وَأَنْ الْمِسْكُ دُونَ صَيْرِهِ، وَالْبَحْرُ لَا يَجِيءُ نُقْطَةً
فِي غَدِيرِهِ؛ وَالذَّرُّ لَا يَصْلُحُ لَهُ صِدْقًا، وَنَيْفَسُ الْجَوْهَرِ لَا يُعَادِلُهُ شَرْقًا؛ وَأَنْ مَنَابِرَ
الْعَالِي مَوْقُوفَةٌ عَلَى قَدَمِهِ، وَبِحَامِرِ الْمَقَانِرِ فَاحِشَةٌ بِنَشِيرِ كَرَمِهِ .

وَمَا كَانَتِ السَّيْفُ وَالْقَلَمُ قَدْ تَدَانِيَا فِي الْمُحْدِ وَتَقَارَبَا، وَأَخَذَا بِطَرَفِي الشَّرَفِ
وَتَجَادَبَا؛ إِذْ كَانَا قُطْبَيْنِ تَدَوَّرُ عَلَيْهِمَا دَوَائِرُ الْكَمَالِ، وَمَسْعِدَيْنِ يَمْسَعَانِ فِي دَائِرَةِ
الْإِعْتِدَالِ؛ وَتَجَمَّيْنِ يَهْدِيَانِ إِلَى الْمَعَالِي، وَمِصْبَاحَيْنِ يُسْتَضَاءُ بِهِمَا فِي حَنَادِسِ اللَّيَالِي؛
وَقَاعِدَتَيْنِ تُنْفِي الثُّوْلَ عَلَى أَرْكَانِهِمَا، وَتَجَرَّتَيْنِ يُعْنِي الْعِزَّ مِنْ أَغْصَانِهِمَا؛ جَرَّ كُلُّ مَنِمَا
ثَوْبَ الْخِلْيَاءِ نَفْرًا مُشْتَرِيًّا وَتَجَفَّرَ، وَأَسْبَلَ رِداءَ الْعُجْبِ تَيْمًا فَاسْتَحْبَلَ وَلَا تَمَثَّرَ؛ وَأَتَّسَعَ
لَهُ الْمَجَالُ فِي الدَّعْوَى الْخَالِ، وَطَلَّاعَتُهُ يَدُ الْقَالِ قَطَالٍ وَطَلَّ؛ وَتَطَرَّقَتْ إِلَيْهِمَا عَقَارِبُ
الشَّحْنَاءِ وَدَبَّتْ، وَتَوَقَّعَتْ بَيْنَهُمَا نَارُ الْمُتَنَاقَسَةِ وَشَبَّتْ؛ وَأَظْهَرَ كُلُّ مَنِمَا مَا كَانَ
يُخْفِيهِ فَكُتِبَ وَأُمِّلِي، وَبَاحَ بِمَا يَكُنْهُ صَدْرُهُ وَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ حَيْلِي؛ وَبَدَأَ الْقَلَمُ
فَدَكَلَمَ، وَمَضَى فِي الْكَلَامِ بِصِدْقِ عَزْمِهِ فَاسْتَوْفَ وَلَا تَلْتَمَّعْ؛ فَقَالَ :

باسم الله تعالى استفتح، وبحمده آمين وأستنجح، إذ من شأنى الكتابة، ومن قفى الخطابه، وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجزم، وكل كلام لا يفتح بحمده فأساسه غير محكم ونداؤه غير معلم، والمافل من أتى الأمر من فقهه، وأخذ الحديث بنصه، والحق أحق أن ينفع، والباطل أجدر أن يترك فلا يصنى إليه ولا يستمع، إني لأوّل مخلوق بالنص الثابت والجهة القاطعه، والمستحق لفصل السبق من غير منازعه، أقسم الله تعالى بي في كتابه، وشرفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه، فقال جل من قائل: ﴿بِالْقَلَمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُعْتَذِرُونَ﴾. وقال جلت قدرته: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فكان لى من الفضل وأفر القسمة، وخصصت بكالم المعرفة فجملت شوايد العلوم وكنت قيم الحكمة.

فقال السيف: بسم الله والله أكبر: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. لكل باغ مصرع، وللصائل بالمدون مهلك لا ينجو منه ولا ينجح، وفاعل باب الشرع يلقى به، وقادح زند الحرب يحرق بلهيه، أقول بموجب أسيدللك، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك:

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك، وكان أوّل مخلوق ولست المعنى بما هنالك، إن ذلك لمعنى يكل فهمك عن إدراكه، ويضلّ تجهك أن تبترى في أفلاكه، وأنت وإن ذكرت في التنزيل، وتمسكت من الأمتنان بك في قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشبهة التقصيل، فقد حرم الله تعالى تعلّم خطك على رسوله، وحرمك من مسأله الشريفة ما يؤسى على قوبه ويسرّ بمضوله، ليكنّى قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد، فشبهت معه من الوقائع ما لم تشهد، وحلاني من كفّه شرقاً ولا يزول

حَلَبِهِ أَبَدًا ، وَكُنْتُ بَنَصِيرَهُ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جَنْبِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَمُّ وَأَشْهَرُ ، وَمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَعَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) . عَلَيَّ أَنْكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جَنْبِي الْقَصَبَ وَالْحَدِيدَ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْحَدِيدَ ، لَتَحَقَّقْتَ
 تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : قَرَّرْتُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدْلِهَا ، وَعَوَّلْتُ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهْلِهَا ، فَانْتَخَرْتُ
 بِحَيْفِكَ وَمُدُونِكَ ، وَأَعْتَمَدْتُ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعْدِيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَمَّ إِلَى الْعِلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْخَوَرِ : وَ « الطُّغْيَانُ أَغْلَبَ » ؛ فَلَا قِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَاةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخِصَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوْقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقِسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَّا أَنَا فَالْحَقُّ مُنْهَبِي ، وَالصَّدَقُ مَرْجِي ، وَالْعَدْلُ شَيْمِي ،
 وَحِلَّةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَصْطَلْتُ ، وَإِنْ أَسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَنَى مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عَمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالْاِقْتِنَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْاِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أَدْرِ فِي الْقُرْطَاسِ كَاسَاتِ
 نَعْمِي فَأَزِيهِ بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفَعُ فِيهِ سَحَرِيَّاتِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأَنْفَعُ جِيوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْزِمُ السَّائِرَ :

فَلَكُمْ يَغْلُ الْجَلِيشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْيَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلَّتَ الْفَيْهَ ، وَجِثَّتْ بَانْتِجِيهِ ؛ وَسَكَّتْ أَلْفَا ، وَنَطَقَتْ خَلْفَا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ مِنْ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

إِنَّ نَجَادِي لِحَيَّةِ اللِّمَاتِ ، وَمُصَاحَبِي أَسْنَةُ مِنَ البَوَاتِ ، مَا تَهْلِي عَائِقُ إِلَّا بَاتَ
عَرِيزًا ، وَلَا تَوْسِدُنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حَرِيزًا ، أَمْرِي المَطَاعُ وَقَوْلِي المُسْتَمَعُ ،
وَرَأْيِي المَصُوبُ وَحُكْمِي المُنْتَمَعُ ، لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَلَامِ مِصْبَاحًا ، وَلِلْعِزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ، فَأَنَّى لَكَ بِمُسَاجَلَتِي ، وَمُقَاوَفَتِي فِي الفَخْرِ وَمُنَاقَفَتِي ؟ ، مَعَ حُرِّي جِسْمِي
وَتَحَافَةِ بَدَنِي ، وَلِاسْرَاجِ تَلَافِكَ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبَيْتِ أَمْنِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى تَمَعِكَ ، وَضَيْقِ ذَرْعِكَ ، وَتَهَرُّقِ جَمْعِكَ ، وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقِلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ القَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا المَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا المُخَالِبُ ، وَالمُنَاصِلُ ، لَقَدْ
أَخْشَتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ، فَكَادَتْكَ سُبُلُ الإِصَابَةِ ، وَخَرَجَتْ عَنْ جَادَةِ الإِنَابَةِ ،
وَسُوَّتَ سَمْعًا فَاسْتَجَابَهُ ، إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسِيمُهَا ، شَرِيفِ النَّفْسِ كَرِيمُهَا ،
أَخِذْ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوْفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِهَا ، فَطَائِرِي مُمَيَّنٌ ،
وَعُودِي مَأْمُونٌ ، وَعِطَائِي غَيْرُ مَمْنُونٌ ، أَصِلْ وَتَقَطِّعْ ، وَأَعْطِ وَتَمْنَعْ ، وَتَفَرِّقْ وَأَجْمَعْ ،
وَإِنْ أَزْدَرَأَكَ بِي مِنَ الكِبَرِ المُنْهَيْ عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ العُجْبِ المُسْتَعَاذِ مِنْهُ ،
وَمِنْ حَقَرِ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمِنْ أَسْتَهَانَ بِفَاضِلِ فَضْلِهِ ، وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ جَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ تَحَيَّفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ البَاسِ عِنْدَ التَّرَالِ ، وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيًا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرْوَيْتُ ظَايِمًا ، وَإِنْ ضَاقَ ذَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْهَبَالِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أُسِيرًا ، وَأَنَا فِي مِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورٌ ، إِذَا
أَمْطَلْتُ طَرِيسِي ، وَتَنَزَّعْتُ نَقِيسِي ، وَتَقَلَّدْتُ تَهْمِي ، وَجَاسَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ نَفْسِي :-
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَقٌ * ضَعْفَى وَسَمِيحًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَنْسَيْتَ إِذْ أَنْتَ فِي المَعْدِنِ تُرَابٌ تَدَاسُ بِالأَقْدَامِ ؟ ، وَتَنْفِسُكَ الرِّيحُ وَتُزِيرِي بِكَ
الْأَيَّامُ ؟ ، ثُمَّ صَرْتَ إِلَى القَيْنِ تَعْمَدُ لَكَ السَّادِنُ بِالْمَرَاصِدِ ، وَتَدْمَقُ المَقَابِعُ وَتَسْطُو .

بك المبارد ؛ ثم لولا صِقَالُكَ لأذهبكَ الجربُ وأكلَكَ الصدى ، مع قِلَّةِ صَبْرِكَ على
المطر والندى .

قَالَ السَّيْفُ : إِنَّا فَه ! لَقَدْ اسْتَأْذَنَتِ الثَّعَالِبُ ، وَاسْتَنْصَرَتِ الْبُغَاثُ فَعَدَّ
الْمُصْفُورُ نَفْسَهُ مِنْ طَيْرِ الْوَاجِبِ ؛ وَجَاءَ الْفُرَابُ إِلَى الْبَازِي يُهْدِّدُهُ ، وَرَجَعَ ابْنُ آوَى
عَلَى الْأَسَدِ يُثَرِّدُهُ ؛ فَلَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ ، وَلَرِمْتَ فِي السَّكِينَةِ طَرِيقَ ابْنِ
جَنَسِكَ ؛ وَوَقَفْتَ عِنْدَ مَا حَدَّ لَكَ ، وَذَكَّرْتَ عَجْزَكَ وَكَسَلَكَ ؛ لَكَانَ أَجْدَرُ بِكَ ،
وَأَحْمَدُ لِمَاقِيكَ ، وَالْيَقَ بِأَدْرِكَ .

إِنَّ الْمُلُوكَ لَتُعْذِرُنِي لِمَهْمَاتِي ، وَتُسْتَعِجِدُنِي فِي مَلِمَاتِي ؛ وَتَعَالَى فِي نَفْسِي ، وَتَعَالَى
فِي حَسْبِي ، وَلِنَفَاسِي فِي قُنَيْتِي وَتَحَاسُدِ ، وَتَجْعَلُنِي حُرْمَةً لِأَيْمَانِيَا فَتَتَعَاقَدَ بِالْحَلِيفِ
عَلَى وَتَتَعَاقَدَ ؛ وَتَدْعُرُنِي فِي خَزَائِنِهَا أَذْخَارَ الْأَعْلَاقِ ، وَتُعْذِرُنِي أَنْفُسَ ذَخَائِرِهَا عَلَى
الْإِطْلَاقِ ؛ فَتُكَلِّفُنِي الْجَوَاهِرَ ، وَتُعْجِلُنِي الْعُقُودَ فَاطْهَرُ فِي أَحْسَنِ الْمَقَاهِرِ ؛ أُبْرِزُ
لِلشُّجَّانِ خَدَى الْإِسِيلِ فَأُتَسَيِّمُ الْخُدُودَ ذَوَاتِ السُّوَالِفِ ، وَأَزْهَوُ بَقْدَى فَاسْلُبُهُمْ
هَيْفَ الْخُدُودِ مَعَ لَيْنِ الْمَعَاطِفِ ؛ وَأَوْهِمُ الظُّمَانِ مِنْ قُرْبِ أَنْ بَأْتِيَارِي مَاءَ يَسِيلِ ،
وَأُخَيِّلُ لِلْقُرُودِ مِنْ بَعْدِ أَنْ جَدُّوهُ نَارَ فَيَطْلُبُنِي عَلَى الْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَيَخَالُنِي مُتَوَقِّعُ
الْفَيْثِ بَرَقًا لَا مِمَّا ، وَيُظَنُّنِي الْجَائِزُ فِي الشَّرْقِ نَجْمًا طَالِعًا ؛ فَالْشَّمْسُ مِنْ شُعَاعِي فِي نَجْمِ ،
وَاللَّيْلُ مِنْ ضَوْفِي فِي وَجَلِ ، وَمَا أَسْرَعْتُ فِي طَلَبِ تَأْرِ إِلَّا قَيْسِلُ : « قَاتَ مَا ذُجِجَ »
و« سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ » .

قَالَ الْقَلَمُ : بَرَقَ لَمْ لَا عَرَفَكَ ، وَرَوَّجَ عَلَى غَيْرِ الْجَوَاهِرِي صَدَقَكَ ؛ فَمَا أَنْتَ
مِنْ بَرَى وَلَا عَطْرِي ، وَلَسْتَ بِسُوءِ حَتِّكَ الْقَاطِعِ بِقَلَامَةِ طُفْرِي ؛ إِنْ بَرَقَ نَلْبُ ،
وَإِنْ رِيحَكَ لِأَزْيَبِ ؛ وَإِنْ مَالَكَ لِحَامِدِ ، وَإِنْ نَارَكَ لِحَامِدِ ؛ وَمِنْ أَدْعَى مَا لَيْسَ لَهُ
فَقَدْ بَاءَ بِالْفُجُورِ ، وَمِنْ تَشَبَّحَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَّيْسُ تَوْبَى زُورِ .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السَّمَى * بَغِيرِ دَلِيلٍ كَذَبْتَهُ دُكَاهُ !

أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرْجَبُ ، وَكَرَيْمُهَا الْمُبْجَلُ وَعِلْمُهَا الْمُهَنْبُ ؛ يَخْتَلِفُ
حَالِي فِي الْأَعْمَالِ السَّنِيَةِ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْنِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ
الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَرَى بِكُلِّ زَيٍّْ جَمِيلٍ ، فَأَنْزِلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً
أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لَمُقُودِ الشَّعْرَانِطِ ؛ وَطَوْرًا تُفْقِنِي
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَحَالِي نَجْمًا مُشْرِقًا ،
وَحِينًا تَحْسُنِي أَفْعَوَانًا مُطْرَقًا ؛ قَدْ فُتَّتِ الشَّبَابَةُ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزَتْ لَهَا فِي كُلِّ
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْعَانِي ؛ وَجِئْتُ
بِقَرِيبِ النَّجْمِ ، وَجِئْتُ بِسَيْدِ الْحِكْمِ ؛ وَلَيْبَتْ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَلَيْبَتْ بِالْأَلْبَابِ
فَأُتِجِلْتُ لَهَا عِرَاهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَّرْتَنِي الْعُلَمَى وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قِلَّةً وَعُدْتَ
خَاسِيًا ؛ فَكُنْتُ كَطَالِبِ الصَّبِيدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلُكَ ، وَخَالَفْتَ النَّصْرَ
فَالْقِيَتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْنَعْ مِنَ الْفَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْمَزِيْعَةَ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنْ أَرْبَعِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتُ مِمَّنْ يَشُقُّ غِيَارِي ، وَلَا يُهَابِلُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي
وَلَا يَصْطَلِي بَنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاسَكَ ، وَكَمْ مِنْ تُجَاعٍ عَجَلْتُ هَلَكَاهُ ؛
وَكَمَّ صِنْدِيدٍ أَرْقَتْ دَمَهُ ، وَكَمْ ثَابِتٍ الْجُنَاحُ زَلْزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجَدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَقَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةً
طَلَبَهُ وَحُسْنَ مُوَارِدِهِ ، وَسَلَاسَةَ قِيَادِهِ وَجَمِيلَ مَقَاصِدِهِ ؛ فَالَى إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ
إِلَى السَّلْمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ،
وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ قَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فنحن في الكرم شقيقان ، وفي التجدد رقيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأمن بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلبت الدهر أشطره ، وعليت أضفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرها وعلنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحرا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ تؤجِب شماتة العدو وتقم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد الصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديي جديمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بأما بالخل .

ولست بمستيق أنا لا تلمه * على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوبا ، ورقت عن وجه المحبة نقابا ؛ وسرت أحسن ممري ومرت أجل سبر ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعد ما * يفلتان كل الفل أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛ لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرقعة بقرع من فوقها غرر ؛ ولنسنا بفائزين بطليتنا ، وظافرين ببقيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد السرى ، والبطل الكبي ؛ والبحر الخضم ، والفيث الأتم ؛ مولى المالى ومولى النعم ، ومختطى جواد العز وراغب أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة فى الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

الملكة الذى عليه تمور، وفارسها الأزوع وأسدها المصبور، وبطلها السميع وليها
الشهير، وأبو عدوتها حقا من غير نكر وأبن يمدتها الساقطة منه على الخير، ومعلمها
الأمع وحرزها الحصين، وعقدتها الأقدس وجوهرها الثمين، ولادها العليم
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجماتها المتكلم بلسانها، وعالمها المتقن
في أفنانها، وطبيبها العارف بطلها، ومُنِيحُها الكاشف لكرها .

هذا : وإنه لَمَّا لِكَ أمرنا ، ورافعُ قدرنا ، والصائل منا بالحدّين ، والجامع منا
بين الضدين ، فلولقيه «فارس عيس» لولّى عايسا، أو طرق حى «كليب» لبات من
حماء آيسا، أو قارعه «ربيعه بن مكدّم» لعلّا بالسيف مفرقه، أو نازله «يسطام»
لبدد جمعه وفرقه، كما أنه لو قرّن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو قاسمه
«أبن مُقلّة» في الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه، أو فاحره «أبن هلال» لرأى
أنه سبقه إلى كلّ كرمه .

وبالجملّة فعزّه الظاهر وفضله الأكل، وسماكه الأربع وسماكّه غيره الأعزل،
فلا يسمّح الزمان أن يأتي له بنظير، ولا أراد مدح بلوغ شأوه إلا قيل : أتتد فقد
حاولت الانتباهن يحتاج كبير :

فحيمًا بالمكرّمات وبالسلّ * وحيمًا بالفضل والسؤدد الخفض !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم عمل وأفضل، وأحسن مقام وأجمل، فلهلمّ إليه يعقّد
بيننا عقد الصلح، وتبأيمه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبث أن كتب بينهما كتاباً بالصلح والمصافاة، وتماهدا على الودّ والمؤافاة،
وأعلن بتقدّ الصلح مُتاديهما، وحدّا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما، وراح يَشِدُّ :
حَمِّ الصلح ما أشتته الأعادى ، * وأذاعته السنّ الحساد !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَخْفَادُ وَالْإِخْنَ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطْنٍ ؛ وَتَلَّتْ قِرَانَهُمَا فَاسْعُدَ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَانْتَسَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ * فَمَا قَدِ الصُّلْحُ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهِمَمِ !
أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُلْكِ مَا لِكُنَا * وَوَأَصِلُ الْعِلْمِ فِي عِلْيَاهُ بِالْعِلْمِ .
فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْدِيهِ مِنْ مِدَحٍ * وَغَايَةُ التَّقْصِصِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !
وَأِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عِلَاقَلَمْ ، * فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قُلْتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَفَعَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ الْخَطِّ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِيدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ، وَعَظُمَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقٍ» وَطَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهُ وَظِيفَةَ الْفَوَائِدِ بِإِسْرَافٍ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عِنْدَهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوْلَا ابْنِي عِنْدَ حَمِيلِهَا لَهُ مِنَ الصَّلَةِ وَالرِّبِّ الْمَتَوَالِي مَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكُلُّ عَنْهُ اللِّسَانُ .

الصِّفْنَةُ الْخَامِسُ

(مِنْ الرِّسَالَةِ - الْأَمْثَلَةُ وَالْأَجْوَدَةُ ، وَهِيَ عَلَى ضَرِيَيْنِ)

الضَرْبُ الْأَوَّلُ

(الْأَمْثَلَةُ الْإِمْتِحَانِيَّةُ)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَسَائِجِ الْأَدَبِ وَفَضْلِهِ الْكَلْبُ أَنْهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفَاضِلِ بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِفْهَامِ وَاسْتِيفَاحَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّعْجِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَمْثَلَةِ بِأَجْوَدَةٍ فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين عمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتَّاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد ثبتت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُخْرِجُ الْكُفْرَ مَنَى غَيْرُ نَائِيَةٍ ^(١) * وَلَا أَلَيْنُ لِمَنْ لَا يَنْتَحِي لِيَنِي !

الاستفتاح بـ «لَا» تَمَيُّنٌ بركة الشهادة ، وهي ههنا مقرضٌ يقطعُ من العيب المدة ويحسم المآءة ، فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مَكْلَى الآداب ، وَمَلِكِ الشعراء والكتَّاب ، شَرَكْلَ عَيْنٍ حاسِدٍ ولو أنها قَيْنَ الشَّمْسِ ، وحماء عن مذَّالِيسَةِ ذَوَى الاغْتِيَابِ والأزْثِيَابِ مِنَ الهمجِ والهمس ، وهِيَ لَهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ حتى يكون يومه فيه مُقْصَرًا عن الغد زَائِدًا على الأَمْسِ ، وَأَسْتَحْدَمَ لَهُ الْأَقْدَارَ حَتَّى تَكُونَ فَرَائِضُ تَقْيِيلِ أَنْامِلِهِ الْعَشْرِ عَنْهُمْ كَفَرَائِضِ الْخَمْسِ ، وَجَعَلَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ الْعَيْنَ مِنَ الْعَيْبِ بَعْدَ شَأْنِهِ عَنِ الْمُتَنَاوِلِ يَوْقَايَةً عَنِ الْقَمْسِ ، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ عِلَآءُهُ * إِذَا حَدَّوْهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَسَدَا ،

وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا تَرَى بِقِيَّتِهِ * سِوَى أَنَّهُ تَرَوْنِي بِالْإِسْنَةِ الْأَعْدَا !

وَحَتَّى يُؤْمَنَ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَيْلِ إِلَيَّ * عَيْبٌ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْبِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخْرِجُ الْقَمْرَ مَنَى غَيْرُ مَائِيَةٍ . الْقَمْرُ .

القهر والمأية مصدر كاتحيمة معناها الإباء والبيت من كلمة لدى الإصح العلواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

نَحْنُ الْآنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ * مِنْ شَرِّ أَغْنِيهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ !
 الْعَبْدُ يَحْتَمِلُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً تَقْطَعُهَا الْحَوْبُ بِدَرِّ صَحَائِهِ ، وَأَفْرِغْ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ، وَأَمْتِدْ نَوْهَ الذَّرَاجِ لِتُدْبِجَ سَمَائَهَا ، وَتَأْرِجِحَ أَرْجَائَهَا ، وَتَحْيِسَ مَعَاصِمَ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْتَشِقَةِ بِأَفَانِيهَا ، وَصِقَالَ نَسَمَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عُيُونِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَايَ
 النَّالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ، تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْلُ جَنُودَهَا عَلَى
 الْحُمُومِ السُّيُوفِ ، وَتَجْنِبُ حَامِيَهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَتَشَقِّقُ دُوحَهَا إِلَى النَوَاطِرِ
 بِالْأَوْرَاقِ ، قَدْ تَرَفَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشُّبَابِ ، وَغَيَّ مُطَرَّبُ حَمَائِمِهَا وَعَتَرَهُ فِي حَكِ
 مِنَ الدُّبَابِ ، وَبَحَرَهَا رَوْقُ السَّيْفِ فِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الدُّبَابِ .

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيَا ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتِ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَهْجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَشْوَاقًا وَأَنْسَاقًا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثُ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَعُودُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَسْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ ! !
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيبُ مَكَايِبٍ ، قَدْ أُمَكَّنْتَهُمُ الْمَعَالِ ،
 وَطَاوَعْتَهُمُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ، وَخَدَمْتَهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَابِرٍ يَسْكُونُ الْجَاشَ مِنْحَدَرِ (؟) وَكَتَتْ قَدْ أَسْتَجَدَّتْ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ غَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيْبَةِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

(١) المتر الدُّبَابُ أَوْ صَوْتُهُ . (٢) ذِيَابُ السَّيْفِ حَذُّهُ أَوْ طَرَفُهُ الْمُخْطَرُفُ .

”وَلْيُسْعِدِ الْتَلْقَى إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَظَنَّ مَا ظَنَّ ، وَأَسْتَمِطَفَ بِسِمِ الْكَلَامِ
غُصْنُ بَرَامِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنَ ؛ وَبَيَّلَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،
وَحَرَمَنِي لَذَّةَ الْفَاضِلَةِ فَلَهَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلَتْ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُ الْبِلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرَّقِّ ؛
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ تَحْجُ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْقَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الذِّى حَسَّه
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ عِنْدَ عَيْنِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طُرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَثْوَالِهِ !

فَاعِلُ اللَّهِ كَلِمَةُ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرَ عَنِّي جُودَ كَرَمِهِ وَكَلِمَةُ النَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِصِجَابِ ، وَأَمْنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبَ ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفُ تَنْتَجِعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبَ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلَّ مَحَلَّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحَلُ ، وَتَحْتَى شُهْدَةً إِحْسَانِهِ وَالْأَوَاقَاتُ كِبَارُ النُّعْلِ ؛ حَتَّى عَذَرَنِي
فِي حُجَّةٍ مِنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ ، وَأَعْتَدْتُمْ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بَيِّدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلِمَتُهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينُ :
وَيُلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوةِ نِسْوَةٍ * جَعَلَ إِلَهُهُ خُدُودَهُنَّ نِعَامًا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شِهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعَنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرْجَى عَلَى الْأَرْبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْمَتِي وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ تَرَجَّ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَنِي أَنْوَارُهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَبِيلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشَوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَتَاهَيْكَ بَتْلُكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعَنِي الْفَاضِلَةَ
وَلَكِنِّي عَلَى السَّمَاءِ بَرَغَمَ حُسُودِي الْعَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنْدَارِهَا نِسْنَةُ الْأَقْلَامِ ،
وَتَكْتَبُ بِأَنْقَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفَحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِفْتَاقُ ، وَلَوْلَا التَّقِيُّ لَقُلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الذِّى أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحَبِّهِ الرَّفَاقُ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَنْفَرُخْ لَطَلَبِ مَدَحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَدَحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحِ وَإِنَّمَا مَدَحِي
له من فوائد مدحه :

وما هُوَ إِلَّا مِنْ نَدَاءٍ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُمْلِيْنِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَعْجَبُ مِنْ تَنَبُّتِ عَنَانِ الثَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ، وَعَادَيْتُ
فِي تَنْصِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْصَبْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطُّرُسِ وَلَيْلِ النَّقِيسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ، وَمَدَحْتُهُ بِمَلَاءَةٍ فِي وَاجْتِهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سَوَاءً عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتِهَدْتُ ، بِخَازِنِي مُجَازَاةِ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَتِيهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مَحَاسِنِي الَّتِي أُدْلِي بِهَا ذُؤُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِزَارُ ؟ :

وَكَانَ كِذْبُ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً * : لَعَمْرُؤَةٍ وَالذُّبُ غَرَّكَ أَنْ مَرِيئُ :

أَأَنْتَ الَّتِي مِنْ فَيْدِ سُوِّهِ سَمِعْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : مُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدْرَةَ * فَدُونَكَ كُلِّي لَا هَذَا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُرْجَمُ ، وَتَحْقِيقُ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمُ ، أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِمِهِمْ ، وَالنِّقَاطَ لِقَرَائِمِهِمْ ، لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ، أَرَادُوا النَّصَّ مِنِّي ، وَمَتَى الْإِحْسَانِ عَنِّي ، وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النُّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَئَانَا وَبِضَاحَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أَتَى أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ
صِنَاعَتِي : * هُوَ الْحَمْدُ وَمَقَانِيهِ وَمَقَانِيهِ *

وَالنَّهْمُ أَجْمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ، وَتَسَابَقُوا فِي الْقَبِيَةِ
أَفْرَاسَ رِهَانٍ ، وَأَعْجَبُ كُلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ،

وَلَا تُؤْمَرُوا وَتَلْمِزُوا، وَتُؤْمَرُوا بِالسَّبِّ وَقَوْلُوا، وَاسْتَطَابُوا لِحْمِ أَخِيهِمْ فَسَقَوْهُ بِالْإِسَةِ حَدَادٍ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَمُدَّ ذَاكَ إِلَى مَنْ نَبَادَ عَلَى الْجَوَابِ، وَفِئْلُهُ إِمَّا جَزَاءٌ لِلدَّجِّ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عِنِّي جَعَارٌ وَجَرْدِي * بَلْعِيمٌ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ !

وما كان المليح أن يُغري بي من سبق مدحه إلى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بِيَزِهِ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَيَّ "وهذا لعمري جهد من لآله جهد" وما تخلو هذه الأفعال : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
مُجَازَاةً عَلَى مَدَحِهِمْ ، فَإِنَّ الْكَرَامَ وَفَضْلَهُمْ ، وَالْمُنْصِقُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ غَلَاً أَيْ
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَإِنَّ ذُكَاةَ الْأَيْلَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ، وَمَلَّ تَقَلُّبُ السَّيَاءِ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنَّجْوَمُ أَنْ خَلَقَا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ، وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَأُ
حِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَّخِذَ الشَّمْسَ
فَضْلَهَا الطَّالِيلَ ، أَوْ يُجَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : سَيِّئَانِ وَإِلِيلَ جَاقِلَ ؟ ،
أَذِرْكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلِمَا أَمْرَقَ ، وَأُجِدِّنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقُ ،
وَأَضْوَاءُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقَ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلَمِ ؟ ، وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ، وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَعَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيِّئًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّرْتُ تَجَنِّيهِ فَصَادَقْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرِعِهِ السَّبَاعَا

فَإِنَّا أَنْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةِ الْعَاتِيَيْنِ ، أَوِ الْقَوْمَ الْعَاتِيَيْنِ ، هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْتَوُوا عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ بِجَرِيضَتِهِ ، وَتَرَكُوا فِيهِمُ الْجِهَادَ
بِقَضِيهِ وَقَضِيضَتِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كُتِّسَانِ بِلَاثِمَارَ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِي أَبِي الْعَلَاءِ
كَدِيَوَانِ أَبِي مِهْيَارَ ؛ لَا يُجَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكَتَابَةِ خَيْرَ الْعَامَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةِ الْمُعْجِجَةِ ،

وَالْعِبَادَةُ الصَّيْقَةُ وَالْأَتُوبُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَأَوَّلُ السَّلْمُ بِالْمَيِّنِ وَكِتَابُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشَّمَالِ، وَمَثَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» لَزَادَ فِي الْفِكْرِ وَقَصَّ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِجَلْبَسِي، وَ«الْحَوَارِزْمِيِّ»
لَقَالَ : سَرَّحُ قَرَيْمِي، «وَالْقَاضِلِ» لَقَالَ : هَاهُوَذَا ذَيْلُ مَلَبْسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ فَيَعْنِي الْمَلَامَ وَالْفَتْنَةَ :

عَلَّقُوا الْقَمَمَ لِلْبَرَا * ةٍ عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنُ^(١)

ثُمَّ لَامُوا الْبُرْءَةَ أَنْ * قَطَعْتَ تَحْوَهَا الرِّسْنَ،

لَوْ أَرَادُوا صِيَابَتِي * حَبَّبُوا وَجْهَكَ الْحَسْنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هُنَا وَجْهَ الْمُنْتَصِبِ وَجِبَابُهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارُ، وَتَحْبِشُ تِلْكَ
الْإِنْفَاطَ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهَذَا مَثَلِي مَعَ مَنْ ذَكَرَنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شِئْتُ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَيْعِيلاً !

فَقِيلَ لَهُ : بَحَلَّتِ النَّاسَ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَذَا فَتَى كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ مِنْ
عَرَضَتْ، وَصَحِيحٌ مِنْ أَمْرَضَتْ ؛ وَلِيُزَيِّزَ إِلَى مَضْجِيعِهِ، وَلِيَكُنَّ عَلَى يَدَيْنِ مِنْ مَضْجِعِهِ،
وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا مِنْ أَدْوَانِهِ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ تَادِبَتُهُ مِنْ حَتَائِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْرَحُ طَلِبَهُ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضُ مَا أَقْرَحَهُ الْفَضْلَاءُ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛
وَالْأَفْأَفَا أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ، وَمَالِكُ لِمْرَتِهِ، وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

فانه الذى نبهني عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكري الطعن وما كنت تأمسا؛ حتى رمتني من هذه المسائل، في مجادل، لا يهتدي فيها بغير الذعن الواقد، وأفتحت به في محار لا يصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيما أغفلت كالتد من الجار، والألمة من النهار؛ ولولا الاختصار، لأوتت منها بالجمع الجم فلنحمد الله والاختصار، فاقول :

من كتب في الوري وأستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشا وضبطه؟ ومن قال: أما بعد في كتابه؟ ومن جعله في الخطب وأسقطها في آتدائه في المكتبة وجوابه؟ ومن كره الاستشهاد في مكاتبات الملوك بالأشعار؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟ ومن الذى أراد أن يكتب شرا بقاء شعرا؟ ومن وضع هذه الطرة في التقاليد وأخترها؟ وما مجته إذ قدمها على أسم الله ورفعها؟ ومن الذى باعد بين السطور ومسماها؟ وكيف ترك بالتعاضم في كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمه من التواضع ما وسماها؟ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟ ومن اكتفى بيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟ ومن الذى عانى المترجمات وربها؟ وأخفى ملطفات الجواسيس وغيبها؟ ومن الذى سن البرد وبعتها في الملبات؟ ومن حاكى شيئا من ملك سليمان فأستخدم الطيور في بعض المهمات؟ وما أوجز مكتبة كتيب بها عن خليفة في معنى؟ وما أبلغ جواب وأوجز جواب به عن خليفة من لا سمي ولا كنى؟ ولم أرتج بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بولده أو غير ذلك من الأيام؟ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقته في المنام؟ ومن الذى وصف رسالة طويلة شيئا لم يصفه بمتار ولا نظام؟ وكيف جاز للكتاب أن يكتب آية من الكتاب في لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ خَفِظِهِ ؟ ، مَثَلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يُنَاطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْجَهَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَنْفِيَيْنَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجْنِ : ﴿ اخْضَعُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ ؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

وَعَلَامٌ يُطَوِّلُ الْكَاتِبُ بِأَهْلِ الْإِسْمَةِ ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوْ الْحَسْبَلَةُ ؟ ، وَلَا يُجَدِّدُ وَلَا يُبَسِّمِلُ عَلَى مَا أَلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرِاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا ؟ ، وَالسَّكِّينَ وَالنَّوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ اسْتَسْقَى وَلَمْ يُمَطَّرْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَصْرَحَ كَالْمُعْتَمِمْ وَكَيْفَ يُعْتَذِرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ خَلِيفَةُ خُلَيعٍ فَرَجَعَ ، وَغُرَبَّ عَنِ السَّجْنِ وَطَلَعَ ؟ ، وَآسَرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَاسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَنْ حَاصِرٍ حَصَنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْبِلٍ لَمْ يُوفَ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لِنَلِكٍ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَقْرَامِ ، وَيُنَشِّئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوَزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ طَلِبَةَ السَّلَامِ ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَعِجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ ؟ وَيُشِيرُ صَدْرًا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُنَبِّئُ خَصِيصًا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ فَرٍّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تُحْكَمُ الْقُلُوبُ فِي أَوْدَاجِهِ ؟ ،

وَيَكْتُبُ لِمَلِكٍ بَنَى مَبَانِيَ فَأَحْرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ رَهَانٍ فَسُقِيتَ خَبْلُهُ
وَأَنْقَطَعَتْ؟؛ أَوْ نَجَّحَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَحْدَ مَا يُصَادُ، أَوْ لَبَّرَ بَنْدُقَ أَحْتَضِلَ فِيهَا وَلَمْ يَصْرُغْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُتَعَادِ؟؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَلُّكِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَتْقَى فَضَلَّهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ دُكُورِ الْأَوْلَادِ.

وَمِنْ هُنَا أَكْثَفَ الْقَلَمُ عَنْ شَوْطِهِ، وَارْفَعَ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوَاطِئِهِ
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالْمَصْغَبِ، وَكَتَبْنِي بِالْفَرْقَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ.

فَإِذَا تَنَسَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ، وَتَجَرَّجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ؛ أَمَدَّتْ كُفَّ الثَّرَيَّا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ، وَجَاءَ بِمَوَابِ هَذَا النِّكَتِ كَمَا يُقَالُ: بَوْنَه؟ (؟) وَأَمَامُ لِنَامَهَا،
وَشَرَّعَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَمَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطْلَاحُ دُونَ غَارَتِهِ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْفَاءِ لِمُبَايَعَةِ رَسَائِلِهِ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَلَّ قَلْبُهُ عَلَى أَفْلَاحِ فُرْسَانِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحَقِيقَتُهُ، فَكَانَ كَمَنْ سَلَّ لِنَحْرِهِ سَيْفَهُ، وَعَذِرَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِيِبِ مُؤْنَبَهُ، وَكَانَ يَوْمِئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُكَذِّبُهُ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تَحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ:

فَعَاجُؤًا فَاتَّسَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكُنُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ!

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَلْلَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عُوِدَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عُوِدَهُ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرَّاوِيَا، وَشَيْخُ الْقَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا حَيَايَا؛ وَمَا هِيَ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْعَاهَا، وَهِيَ السُّطُورُ إِلَّا جَبَائِلُ تَنْصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا:

فَارْجُحْ عَلَيْهَا سِرَّ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قِدَمًا عَلَى عَوَارِي!

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب متهوّل عن حسن الإيهان ، مُعَلِّد عليه
نوابب الدهر بأنامل الخلفان ؛ مَرِيءٌ بِسِهَامِ الْأَعَادَى فِي قِيَمِ الصُّلُوحِ ، غَائِصٌ فِي بَحْرِ
الْهَمِّ وَكَلِمَا رُمَتْ أَنْ يُطْقَى إِلَى دُرِّ الْكَلَامِ أَلْفَى دُرُّ الدُّمُوعِ :

أَبْكِي فَتَجْرِي مُهَجَّتِي فِي صَبْرِي * وَكَأَنَّ مَا أَبْكَيْتُهُ أَبْكَايَ !

لَا يَدْعُ لِي الْفِكْرُ فِي قِلَّةٍ ... (١) ... الْإِخْوَانُ وَقَنَا اسْتَنْطِطَ فِيهِ مَعْنَى ، وَلَا يُفْسِحُ لِي
التَّعَجُّبُ مِنْ أُنْبَاءِ الزَّمَانِ لِنَقْصِهِمْ أَنْ أَصْحَحَ قَدًّا وَلَا وَزَنًا ؛ أَجْنَحَ لِسْلَمِ الْأَيَّامِ فَكَأَنِّي
لَحْرِبَهَا جَنَحْتُ ، وَأَقْدَحَ فِكْرِي فِي اسْتِطْفَاءِ الزَّمَانِ فَكَأَنِّي فِيهِ قَدْ قَدَحْتُ ، فَلَوْ قَطَعُوا
اللهُ بِالْمُنْيَةِ مِنَ الْمُنْيَةِ لَا رَحْتَ الزَّمَانِ وَأَسْرَحْتُ :

قَالَ لِرُضٍ تَمْلُمُ أَتَيْ مُتَصَرِّفٌ * مِنْ فَوْقِهَا وَكَأَنِّي مِنْ تَحْتِهَا !

وَلَا فَرَقَ بِنَا بَيْنَنَا غَيْرَ أَتْنَا * بِمَسِّ الْأَذَى نَدْرِي وَمَنْ مَاتَ لَا يَدْرِي !
وَلَا بَدَلِي أَنْ أَطْلُقَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ طَلَاقًا قَطْعِيًّا ، لَا عِلَاقًا رَجْعِيًّا ، وَأَجَاهِرُهَا
بِحِجَارًا حَرْبِيًّا لَا جِهَارًا عَيْلِيًّا ؛ وَأَضَعُ صَمْدَةَ حَمَلِهَا مِنْ أَدِيبٍ عَنِ بَدَنِي ، وَأَتَوَلَّى قَوْسَ
دَالِهِ مَعَ سَهْمٍ بَائِثًا لَمَّا أَصْبَحْتُ غَيْرَ كِيدِي ؛ « كَأَنَّمَا الْقَوْسُ مِنْهَا مَوْضِعُ الْوَرِّ » ، وَقُلْتُ
أَذْهَبِي يَا صَبَوْنِي بِسَلَامٍ « فَاذَا لَقِيتِ مِنْ آفَاتِنَا ، وَمُنِيتِ بِهِ مِنْ أَلْطُوفٍ فِي عَرَافَاتِنَا ،
وَمُطَرِنَتِ لَامِنْ عَوَارِضٍ قَطَرِهَا وَلَكِنْ مِنْ عَوَارِضٍ مُرِجَاتِنَا :

وَلِيْنِي رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى * إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَسِ الْحُبُّ يَدْعَبُ !

وَمَعَ هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ أَشْكُ أَنْ أَحَدًا سَيَتَقَدُّ عَلَى تَشْبِيهِ ، وَطَرَفَهُ قَدِيمَةٌ فِي اسْتِغْنَاعِ
الْمُكْتَاتَةِ ، وَاسْتِغْنَاعِ الْمُخَاطَبَةِ ؛ وَيَقُولُ : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَّتْ ، وَدَوْلَةٌ فَاضِلِيَّةٌ أَذْبَرَتْ
مِثْلَ مَا أَقْبَلَتْ ؛ فَكَيْفَ تَبِمَا وَتَرَكَ طَرِيقَةَ فَضْلَاءِ عَصْرِهِ ، وَأُنْبَاءَ مِصْرِهِ ؛ فَالْجَوَابُ

ما قاله القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فما كان أسعدَ خاطره ! ،
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيتُ الشمسَ ثم رأيتها * ما ذاعلٌ إذا عَشِقتُ الأحسنَا !

وذَكَرتُ أنَ الاسِ مدره ونسيتُ أنَ الاسِ أفعُلها .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نَمى بعيدَ الظلام ، وبلغَ عن الصُبحِ السَّلام ،
والأزهارُ قد سَلَبته عَيْنه فقام من كراهِ يَصيح ، وميدَانُ الفُصون قد أَحْضَبَ بِمَغْنَى
الأطيارِ وشَغِبَ الرِّيحُ ، ونَسَرَ السَّماءُ قد فرَّ من القِصَاةِ وبَازِيها ، والنُّجومُ قد حُمِلَتْ
إلى مَلَحِها من القُربِ على نُفُوسٍ دَيَّاجِها ، والمَجَرَّةُ من الجُوزاءِ عَاطِلَةٌ الخَصرِ ،
وَحَاقَانُ الصُّبحِ قد حَمَلَ على نَجَاشِي الظَّلامِ رَايَةَ النُّصرِ .

لَا بَرَحَ سَيِّدَانَا مَعْصُومِ الرُّويَّةِ والأَرْبَاجِ ، مسجلاً بِشِجَاعَةِ البِرِّاءَةِ والحَرْبِ بِجَالِ ،
مُحَمَّدَ المَوَاقِفِ والمَسَاعِي "وَالنَّفْسُ نَفَعُ والطُّرُوسُ جَمَالُ" ، والسَّلامُ .

الصنف السادس

(من الرسائل ما تُكْتَبُ به الحَوَادِثُ والمَآجِرَاتُ)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جَرِيَةٌ وأراد
الكتابةَ بها إلى بعضِ إخوانه ، حكى له تلكَ المَآجِرَةَ في كتابه مع تَثْبِيحِ الكلامِ
في ذلك ، إما أَبَدَاءً وإما جَوَابًا ، عند مُصَادَقَةٍ وَرُودِ كتابه إِذْ ذَاكَ إِلَيْهِ .

وهذه نُسخَةُ رسالةٍ أَنشأها الإمامُ قاضِي قُضَاةِ المُسْلِمِينَ عُمِّي الدِّينَ ، أَبُو الفَضْلِ
يَحْيَى ، بَنُ قَاضِي القُضَاةِ الإمامِ عُمِّي الدِّينِ أَبِي المَعَالِي مُحَمَّدَ ، بَنِ عَلِيٍّ ، بَنِ مُحَمَّدٍ ،

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين ومائة، وتُعرف "برسالة التمس" وهي :

وَرَدَتْ رُفْعَةُ سَيِّدِنَا أَسْعَدَ اللَّهُ تَوْفِيقَهُ، وَأَوْفَعَ فِي أَكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَقُوفُ السَّارِ بُوْرُودَهَا، الْمُسْتَسْعِدُ بُوْفُودِهَا، الْمُتَبَتِّلُ إِلَى اللَّهِ
 فِي إِبْقَاءِ مَهْجَتِهِ الَّتِي يَتَشَرَّفُ الْوُجُودُ بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَوَاقِيهِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ * وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ الْقَلَمَ وَالِدَمَا !

وَقَضَضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النَّوْرِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَامَتْ فِي أَكْتِسَاءِ
 وَشِبَا الْأَهْضَابِ وَالرَّيَا ؛ يَكْبُوْ جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضَارِ وَصْفِهَا، وَيَبْيُو عَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ مَجَارِيهَا فِي رَصْفِهَا ؛ يُحْمِلُ حُمَا النَّهَارِ بَيَاضَ طَرَسِهَا، وَيُوَدُّ اللَّيْلُ لَوْ قَضَضَتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةَ نَفْسِهَا ؛ وَتَحْسُدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِيهَا، وَتَمْنَى لَوْ أُصِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَاقِهَا
 وَتَلَالِيهَا ؛ فِي كُلِّ فِقرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامٌ، وَكُلُّ أَلْفِ سَائٍ وَكُلُّ سَيَرٍ
 طُرَّةٌ غَلَامٌ ؛ وَكُلُّ وَادٍ عَطْفَةٌ صُدِغَ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيْسٌ حَاجِبٌ، وَكُلُّ لَامٍ مَشَقَّةٌ
 صِدَارٍ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ ؛ يُصِيبُ مِنْ سَامِمِهَا أَقْصَى مَا يُرَادُ بِالْغَيْثِ فِي الْعَقْدِ،
 وَتُسْتَوْلِي بِلَفْظِهَا عَلَى لَبِّهِ أَسْتَبْلَاءُ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا أَجَلَّتْ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسَبَّحَةُ فِي اللَّفْظِ الْمَوْجِزِ، وَأَجَلَّتْ طَرَفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ
 زُرْعَةِ الْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوِزِ، وَأَسْلَمْتُ قِيَادِي إِلَى مِجْرَاهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتَلَ
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلْبَةِ السَّيَاقِ لِحَازِ قَصَبِ سَبْقِهَا،

وَذُلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَتَوَقَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا، وَحَكَّتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلَّمَتْ
 الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْمَلِكِ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا؛ فَنَ وَائِلَ؟ وَمَنْ تَتَّبَعَانِ؟، وَمَنْ
 عَبْدُ الْحَمِيدِ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا
 كَانَ؟ . فَسَأَلَتْ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُمُئَانِهِ ظِلَّهَا؛
 وَأَنْ يُعَارِضَهَا فِي حَلَّةِ الْمَسَاجِلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسَّكَيْتِ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا
 وَكَئِفَ بِنُطْقِي مَنْ مَيِّتَ؛ وَأَيُّ يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينٍ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ؛
 فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا، وَأَلْقَيْتُ بِأَقْلَامِي لَدَيْهِ قُسَا، فَمَا كُلُّ مَنْ طَرِقَ قَرَى،
 وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ قَرَى؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامًا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ
 مَاقُوهُ وَكَدَرَتْ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عَالِيهِ وَالْفَيْرَ، فَمِنْ دُونَ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرَرُ أَنْ يَلِينَ
 لِضُرِّسِ الْمَاضِغِ الْمَجْرَى؛ فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَعَبَتِ الْهُمُومُ سُبُلَهُ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ
 لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَقَعَةٍ وَقَعْتُ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنْشَقَّتَا، وَفَنَى عَنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَفَتِّتَا؛
 وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلَقُ بِسُلْطَانِهِ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ
 أَجْفَانِهِ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَلِيلَةٌ شُمُّهَا نَاقِعٌ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَايِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي
 الْخُطُوبِ تَوَازِعُ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنَى ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ نَفْسِي مُوجِعٌ

فَتَارَةً فِكْرُهُ مَتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ قَلْبِ حَظِّهِ، وَأَوْنَةً لَا يَبْقَى إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِرُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ؛
 وَإِنْ يَدُ الْخَمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصَرَّفَ
 إِلَيْهِ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطْلِفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقَرَّ فِي يَدَيْهِ :
 لَنْ كَانَ أَذَلُّ حَائِلٍ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَّةً فَخَطَطَتْ،

لَا تَرَكْنَهُ رَغْبَةً مِنْ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّمَا كَانَتْ لَا تَرْحُطُ!!

ولقد جَهِدَ فِي سِلْمِ الدَّهْرِ وَهُوَ يُجَارِبُهُ، «وَكَيْفَ تُوَفَّى ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟» فَمَا شَامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِحَقِّي حُتَيْنَ، وَفَرَّتْ أَعْيُنُ أَطْدِيهِ كُلَّمَا سَخَنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغَ مِنْ سَحَابِ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ «أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ».

وَكَلِمَا تَأْمُلُ جَدَّةَ الْمَآزِ النَّاقِصَ، وَتَنْظُرُ رِزْقَهُ النَّاضِبَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِجِ، وَمَتَى نَفْسُهُ عَقِبَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَدَّعَ عَلَيْهَا فَنَّى لِي بِالسَّائِجِ بَعْدَ الْبَآرِحِ؟؛ وَنَاجَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ بِالْعَرِيسِ غُرَّةَ آثِبٍ؛ وَيَصِلَ التَّهْجِيرَ بِالسَّرِيِّ، وَيَتَّ مِنْ قَيْدِ الْأَوَّلَانِ مُوَقَّاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَدَتْ قِصْبِلَةٌ مِنْ فِضَائِلِهِ، أَوْ رَدَّتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ أَكْتَسَبَ بِأُخْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَفَتْ فِي عَقْدِهَا وَمَتَّى بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَبْنُ يُجَدِّدُهَا، فَلَا أَلَمَ وَعَلَامَ وَحَقَّى مَتَّى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَمَرِ الشَّامِ؟؛ وَحَالِي أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ«إِذَا ذَلَّ مَوْتَى الْمَرْءُ فَهُوَ ذَلِيلٌ»:

وَمَا أَنَا كَالْمَعِيرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي مُجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَتْ تَقَعُمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَاسْتَفْتَحَ لِقَادِحَ زِنَادِ الْحِطِّ الْإِكْمَاءَ وَالْإِصْلَادِ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَجِبُّ أَوَّكَادٍ؛ فَأَثُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ، وَأَخَذَ إِذَا أَرْتَقَعَ عَنِ الدُّنْيَةِ مِنْ حِظِّهِ أَمْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلَفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفِضُ الدُّنْيَةَ وَلَا تُلَوِّعُ عَلَيْهَا، فَتَكُونُ «أَحَقَّ مِنَ الْمَهْوَرَةِ إِحْدَى خَدَمَتَيْهَا»، «فَالْخُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِيهَا»:

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ فَاتَهُ * عَلَى رِيفِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يُدْرِكُ الْأَمْرَ فَيُرِ الْأَرِيْبَ * وَقَدْ يَصْرَعُ الْحُسُولُ الْقَلْبُ!

ونارة يُحْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ قَوِي الْجَاهِ ، وَسَأَلْتُهُمْ بِالْحَاقِ
بِهِمْ فِي الْإِيْتَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَمْتُ عَلَى آتِنَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
وَأَضْرَبْتُ لَهُمْ : ”أَعِنْ أَخَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَيَّ مِثْلِي مَنْ يُحْيِيهِ الدُّمْرُ فِي ذَلِكَ
مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ بَلَّادُوا ،
بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مُلْكُوا ظِلَّ اللَّهِ لَأَصْبَحَتْ لِسَبْطِهِمْ ضَاحِيَا ،
وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَاتِيَا مُنَادِيَا ، وَقِيلِي بَنَى عَلَيَّ الْأَمْرُ فَنَاتَهُ وَأَدْرَكَ الْجَدَّ
السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ، وَإِلَى كَمْ أُعْلِلَ تَعْلِيلُ الْفُطَيْمِ بِالْخَضَابِ :

سَمِعْتُ الْعَمَشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَكِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرِّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيُغْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
عَلَيْهَا قَلْبَ الْيَلْبَابِ بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِهَا ؛ وَأَنَّهُمَا مَاقَدَمَتٌ لِأَحَدٍ سَعَادَةٍ إِلَّا عَقَبَتَا
بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوُ الْأَمَانِ بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْذِيرٍ ، وَأَنْ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَحْوَادِ ، وَقَصَارَايَ وَلَوْ اتَّخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ
رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمْرُ نُوْجٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَأَدَمُ وَقْتُ الْوَفَاةِ عَلَى
مِيعَادٍ ؛ فَإِنْ شِئْتَ فَارْقِعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضَعُ ، فَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعُ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمْرِي فِي غَيْرِ
مَآرِبِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أُنْجِزَتِي الْأَيَّامُ مَوَاعِيدَ
عُرُوقٍ ، لَأَقْبَسْتُ بِي إِلَى أَحَدٍ مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَةِ الرُّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
قَنِيتُ بِحَالِي ”وَوَشَّرْنَا أَلْهَآكَ إِلَى مَحْضَةِ عُرُوقٍ“ بِهَمِّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بَانَ تَبَثُّهُ وَأَضْبَرُ ،
فَالْبَلِيلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ؛ فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَهَيَّ بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْيَكَّابُ ،
فَلَا تَعَجَلْ بِحَرَى الْمَذِيكَاتِ غَلَابَ .

فاستَرْوَحْتُ إِلَى قَنْحِ بَابِ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ حَيَّا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
 هَمِّي قَرِجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقٍ فِكْرِي مُخْرِجَا ؛
 فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَالِكِ كَتْمِ خَطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرْنَمَةِ شَطَرَنَجٍ وَضَعْتُ بَيْنَ الرِّفَاقِ ؛
 أَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لَاسْتِجْلَاءِ وَجْهِ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلَدِي عَلَى الْقِيَامِ
 وَالْكَدِ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانِ الْمَرَّةِ عَمَّا وَاوَاهُ ، وَيُبَيِّحُ
 إِنْسَانَ الْقُرْفِ رَحَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلُمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيَنْبِشُ بِمَا أَسْتَوْدَعْتُهُ
 مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشِيرُ إِلَى غَيْضَةِ قَدِ الْتَفَّتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهْدَلْتُ ثِمَارُهَا ، وَرَقَصْتُ
 اغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدْتُ بِهَوَايِ الرِّزَالِ أَنْهَارُهَا ، وَنَمَتْ بِعَرَفِ الْعَبِيرِ
 الشَّعْرَى أَزْهَارُهَا ، وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِشُ النَّارِجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالِي فِي حَلْيِهَا وَحُلِيِّهَا ؛
 قَدْ أَلَيْسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خَضِرًا ، وَحُلِيَّتُ مِنْ ثِمَارِهَا تَبْرًا ؛ وَتَنَلَّمُ قَدَاحُهَا
 فِي جِيَادِهَا لَوْلَا رَطْبُهَا ، وَرَنَمُهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَالَتْ عَجْبَا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
 مِنَ الْبَقْسَجِ مَقَارِشُ سُنْدُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطُ أَخْضَرِ سَلَتْ أَيْدِي الْقِيُونِ
 عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عُيُونُ الرِّقَابِ مِنَ التَّرْجِيسِ قَائِمَةً عَلَى سَاقِ ،
 وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ قِيَامِلَتُ كَيْعَاقِ الْمُحِبِّينَ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَاجْتَلَيْتُ حَيًّا وَسَيْمًا تَنْبَلِجِ
 أَسْرَتُهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيًّا تَرُوقُ بِهِجَّتُهُ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاءُ بِسَاطًا أَزْرَقَا ، بُزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
 مُشْرِقَا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّفَقِ طَرَازًا مُذْهَبَا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرِقًا أَشْيَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَيَّا كَانَهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُنَوِّجٌ ،
 وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّبَلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَدْ لَاحَ خَفْضُ أَشْقَرِ اللَّوْنِ أَمْلَجٌ ،
 وَلَاحَتْ بِقِيَامَتِ النُّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَيْدِ الْخَضِرَاءِ نَوْرٌ يَفْشَحُ !

وَجَعَّ الْبَدْرُ لِلْمَرْوَبِ فَنَدَاعَتِ الْكَوَاكِبُ تَبْعَهُ تَكْوِكًا فَكَوِكًا ، فَكَانَهُ مَلِكٌ أَمَّخَذَ
 الْحَبْرَةَ طَلِبَهُ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّحَ بِالْأَرْيَا إِكْلِيلًا ، وَخَفَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْفِيرًا لَهُ

وتجسلا ؛ وأصطفيت حوله خدما وجنودا ، ونشرت من أشعتها ألوية وبؤدا ؛
وأخذت مقاماتها في مراكبها بجيوش عبت للقاء منازرها ، ومسايقها أخذ فرصة
النصر ومنازرها :

ولاح ميل من بعيد كأنه * شهاب ينجيه عن الريح قابس !

وأبصر نسيم السحر عيلا ، وجر على أعطاف الأزهار ذبلا يليلا ؛ وروى أحاديث
الرياض بلسان نشره ، مديعا لأسرار خزامه وزهره ؛ وغردت خطباء الطير على منابر
الأغصان ، واستبطلت من قلوب المحبين دقائق الأشجان ؛ وحث داعي القلاح ،
طائفة التقي والصلاح ؛ على أن تؤدى فرضها ونقلا ، وترتق بحضوعها بين يدي
مولاه درجات السعادة التي كانت أحق بها وأهلها ؛ وهتف بشير النجج بمن أحيا
ليته لما تمزق قيض الليل وأقوى : «عند الصباح يحد القوم السرى» .

فينا أنا أفكر في أن جملة ما عاينته سيصبح زائلا ، وعن تلك الصبغة العجيبة
حايلا ، وأتدبر : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا)
إذ أهدت إلى الأيام إحدى طرفيها وغرابتها ، وكبرى أو أيدىها ونجابتها ؛ فطرق سمى
من الشباك نباه ، وتلتها وجبة تبسمها وثبه ؛ فاستعدت من كيد الشيطان المريد ،
وقلت : أسعد أم سعاد ؛ وإذا شميس قد فارق يبارحه إلى وبارى ، واختارني حل
الصحراء جارا فارتفعت لجواري ؛ فوج مستأنسا ، ومرح بين يدي آيسا ، وأزاني
أحد كيفيه في الاسترسال ليلا والآخر بالفتح شامسا ؛ فدل له الحرم على جوره حبال
مكره وشباك ، ويد النيش تحول دون قتله وإنسا ؛ وبقايا الظلام تقضى
بمنه ، وتصد عن جملة من الوثاق في موضعه ؛ وأنا ملازمه ملازمة المعسر لرب
الدين ، حتى يبين الصبح لذي عيتين .

فلمّا خَشِيتُ عَلَى صَلَاحِي الْقُوَّةَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ قَرْنِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ مُوجِبًا وَعَرَضُهَا ؛ فَلَمَّا أَفْطَلْتُ مِنْ مُصَلَّيٍّ ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛ بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خَبِلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاحِقَةٌ ؛ فَقُلْتُ : أَذَرَّ قَرْنُ الْفَزَالَةِ ؟ ، وَالْأَفَلَاتُ جَيْنُ ذُبَالِهِ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْعُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَلَهُ الْمُهَنْدَقَشَقُّ لَهُ مِنَ الظُّلُمَاءِ بَقَرًا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكَفَّهَرًا ، وَرَأَى أَنْ يُطِيلَهُ مِنَ الْمَنِيَةِ مَرَجًا وَعَصْرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى أَسَدًا هَزَبَرًا ؛ وَأَتَرَعَ لَهُ كَأَسُ الْحِمَامِ بِالرَّافِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْإِنْفَاقِ ؛ فَمَقَطْتُ عَلَيْهِ بِاللَّامَةِ مُنْكَرًا لِحَقْلِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَدَرْتُهُ : "وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ" ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَظْلَمَ ؟ ، لَقَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ - وَإِنْ كُنْتُ وَلِيدًا - أَشْيَاءَ ، أَيْنَ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ عُخْرِيًّا ؟ ، " إِنَّكَ لَا جَبْنَ مِنْ الْمَتْرُوفِ ضَرِيًّا " لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَشَلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِزَاجَ فِي تَحْمَلِ الْجِدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرْجِيكَ بَعْدَهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَأَسْتَنْجِعُ الْمَاءَ جَلْمَدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي وَهَفٍ مُتَادِيٍّ ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَهُ أَزْرَى بِالسَّمَوَلِ بَيْنَ عَادِيٍّ : أُنْجِ هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيًا ، إِنْ رُمِيتُ مِنَ الْخَطُوبِ بِأَصْعَمِيٍّ ، وَلَا يُنْهَكَ بِالْحُرُوبِ كُجْرِيَّهَا ، وَالنَّافِثُ بِاللَّقَمَةِ أَخْبَرِيَّهَا ؛ فَلَقَدْ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَفْوُ ، وَمَا لَقَيْتُ فِي حَرْبٍ كَهَذِهِ الْمَرَّةِ ، "وَالْعَوَانُ لَا تُطْلَمُ الْخِمْرَةُ" ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالنُّشْرِ وَلَمْ يُجْتَمِعْ ، وَكَشَّرَ عَنِ أَنْبِيَاءِهِ غَيْرِ مُتَبَسِّمٍ ، "وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ" ، "وَأَسْتُ الْبَائِسِ أَطْمُ" ؛ تَأَلَّفَ إِلَيْهِ لِأَجْرًا مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَيْتَ سَبْرَتَهُ تَعْلَمَنَّ مَا يَنْ الدَّنْبِ وَالْقَدَرِ ، وَلَقَدْ رَضِيتُ نَفْسِي مِنَ الْغَنِيمةِ أَنْ تُؤَوِّبَ بِدَمَائِيهَا ، لِمَا تَشَبَّهَتْ بِخَيْصَرِي تَغَضُّبًا بِدَمَائِيهَا ، فَقُلْتُ : "أَجْفَلَ عَنْ جَنَابِكَ الْكَلْبُ وَأَجْلَى" ، "أَضَرُّطًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى" ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لِمَا شَهِدْتُ أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَرَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكَارَهُ الْخَطْبَ وَأَسْتِكَارَهُ ، وَقُلْتُ : مِنْ ضَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَطْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكَ الدَّخْرِ أَرَاهُ أَفْتَدَارَهُ، وَصَدَلْتُ إِلَى الدُّلُولِ الشَّائِسِ، الْمُسْتَأْسِدِ
الْمُسْتَأْسِسِ؛ وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَتَقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِلْجَابَةِ دَعْوِي سَائِعًا.

فَلَمَّا حَارَزَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالْإِكْثَارَ؛ وَقَدْ
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعَقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ؛ اسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَأَمِّلًا،
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْثَلًا؛ فَرَأَيْتُ هَامَةً نَفَمَهُ، وَجُنَّةً مَخْمَمَهُ، وَشِدْقًا أَهْرَمًا
رَحْبًا، فَا مِرَّةً عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَبِيحًا؛ وَأَنْبِيَاءَ مُخَدَّعةٍ عُصَلًا كَالنَّصَالِ، وَطَرَفًا
مُخَالِسًا غَيْرِغَرٍّ بِالْمَكْرِ وَالْخِلَالِ؛ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارٌ لَمْ تَمُتْ، وَسَامِعَتَيْنِ
تَتَوَجَّسَانِ مَا دَارِ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنْجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ؛ قَدْ
نَيْطَكْتُ بِعَقِّ صَفْرَتِ هَامَتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ اسْتَدْبَرْتَهُ قُلْتُ: هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
أَوْ اسْتَقْبَلْتَهُ قُلْتُ: هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ؛ يَسْتَعْمِلُ عَلَى تَحْرِيقِ خَصِيبِ، وَصَدْرِي رَجِيبٌ؛
فِيهِ زُرْعَتَا بَيَاضِ كِهْلَالَيْنِ قُرِينَا فِي نَسَقٍ، أَوْ تَجَمُّي ذُوَابَةٍ ظَهَرَا فِي غَسَقٍ، تُسْرِ نَفْسُ
النَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَيُعَقِّدُ خَيْصَرَ الْاِخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاطِ عَلَيْهَا؛ أَتَصَلُّ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
عَتِيدٍ، وَسَائِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْنِ شَتْنٍ وَمِخْلَبِ خَدِيدٍ:

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْثَفِهَا * نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِيبِ،

مُعَقِّفَةِ التَّرِيفِ عَوِجَ كَأَنُهَا * تَعَقُّرُ أَصْدَاغِ الْحِسَانِ الْكَوَاصِبِ!!

قَدْ جَاوَرَ جُؤْجُوًّا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَمَدًّا؛ يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ اضْطِطَارًّا،
وَمِجْمَتُهُ تَنْسَرُّ نَارًا، بِرَجُلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحَضَرِ يَدَيْهِ، وَتَهْدُ بِأَطْفَارِهَا أَذُنَيْهِ؛ وَذَنَبٌ
كَالزَّادِ الْمُسْبِلِ يَمُرُّ اخْتِيَالًا وَفَرَحًا، وَبَيْدُهُ نَجْمًا وَفَرَحًا؛ إِنْ أَنْسَابُ قُلْتُ: أَنْسَابُ
أَنْفُوانِ، أَوْ صَالٍ قُلْتُ: أَسَدُ خَفَّانِ؛ أَوْ وَبَّ سَبَقِ الْوَهْمِ فِي انْخِطَالِهِ، أَوْ طَلَبِ
أَذْرَكَ الْبَقِّ مِنْ نَسَاطِهِ، أَوْ طَلَبِ فَاتِ الطَّرْفِ فِي انْتِغَالِهِ؛ أَنْتُمْ مَسًّا مِنْ أَرْزَبِ،

وأزهى من قلب ؛ قد كَبَاهُ الظُّلَامُ نَحْلَمَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَمَتَهُ ؛ حَازَ مِنَ الصَّنَدِيسِ
صِقَالَهُ وَبَهَجَتَهُ ، وَمِنَ الْفَنَكِ لَيْنَهُ وَنَعْمَتَهُ ؛ أَلَيْسَ رِذَاءُ الشَّبَابِ ، وَزُورُهُ عَنْ تَرْوِيرِ
الْخِلَابِ ؛ إِنْ أَخْتَلَسَ لَهَا تَابُطُ شَرَاءٍ ، أَوْ خَاتَلُ أَزْرَى بِالشَّفْعَى مَكْرًا ؛ أَحَدُ نَفْسَا
مِنْ جَمْرَيْنِ مَعْدَى ، لَا يُصْلِدُ قَالِحِ زِنَادِ بَطْشِهِ وَلَا يُكْدِي ؛ أَنْزَلُ مِنْ أَبِي عِبَادِ ،
وَأَصُولُ مِنْ عَتَرَةِ بَنِ شَدَادٍ ؛ أَفْثَكُ مِنَ الْحَرِثِ بْنِ عَلَامٍ ؛ وَاتَّهَرُ فَصْدًا لِلدَّمِ مِنْ حَاتِمِ ؛
لَا يَلِيَنَّ وَلَا يَسْكُو إِلَى ذِي تَصْمِيمٍ ، "كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عِفْرِيتٍ" ؛ يَكَادُ عِنْدَ
الْمُخَالَتَةِ فِي الْأَسْيَابِ ، يَقُوتُ الْخَاطِرُ أَوْ يُخْرِجُ مِنْ إِهَابِهِ ؛ إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاهُ مِنْسَرًا
كَنَسِيرِ الْأَسَدِ ، أَغْلَبَ فِيهِ شَقًّا كَأَنَّهُ عَقْدُ قَمَانِينَ فِي الْعَمْدِ ؛ فَيُنْشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صَبَا
أَيُّهَا الظَّلَالُ الْبَالِي ، فَلَا يُحْسُ لَهُ بَعِيْنٌ وَلَا أَثَرٌ يَجِيْسُ الْبَالِي ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهَا رَطْبًا
وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِ الْعُنَابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِي ؛ أَعْتَادَ قَنْصَ السَّائِغِ وَالْبَارِجِ ، لَهَا فَاثُ
وَرَدَ الْمَنِيَّةِ مِنْهُ غَايِدٌ وَلَا رَائِحٌ ؛ طَوِيلُ الْقَرَا مُدْمِجُ الْأَعْظَمِ ، لَهُ مُخَالَتَةُ سِرْحَانٍ وَهَيْمَةٍ
ضَيْقٍ ؛ أَحَنُ مِنْ نَقَبِهِ (؟) ، وَأَعْظَمُ مِنْ حَبِّهِ ، أَطْلِشُ مِنْ فَرَّاشِهِ ، وَأَسْبِقُ إِلَى الْغَايَاتِ
مِنْ عُكَاثِهِ ؛ أَخْطَفُ مِنْ عُقَابِ ، وَأُتَجَبَّعُ مِنْ سَاكِنِ غَابِ ؛ أَسْرَقُ مِنْ جُرْمِ وَأَتَوَمُّ
مِنْ قَهْدِ ، وَأَلَيَنَّ مِنْ جَهَنِّ وَأَخْشَنُ مِنْ قِدِّ ؛ بِأُسِهِ قَضَاءٌ عَلَى الطَّيْرِ مُتَزَلِّ ، وَبَطْشُهُ
مَلَكٌ بِأَجَالِهَا مُرْسَلٌ .

فلما تأملت خلقه ، وسبرت بحجربة الفِرَاسَةِ خُلُقَهُ ؛ عَجَّلْتُ لَهُ جَرِيرًا مُسْتَحْصِدَ
الْمِرَّةِ لَوَائِقِهِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّهُ فِي مَحَلِّ خِنَاقِهِ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي مُجْرِبُكَ مَحَابَةِ هَذَا
النَّهَارِ ، "وَمَنْ سَلَكَ الْجِدَارَ مِنْ مَنِ الْعِتَارِ" ؛ فَصَلَّ ذِي خُبْرَةٍ بِمَكْرِهِ ، وَطَلَّ نِقْمَةً مِنْ ضَرْبِهِ ؛
فَإِنَّ اللَّيْمَ دُوْ صَوْلِيَةً بَعْدَ الْخُضُوعِ ، وَفَضَحَ التَّلَطُّعِ شَيْمَةَ الْمَطْبُوعِ ؛ وَكَيْفَ التَّقَى بِهِ
وَإِنْ أَسْتَعَزَّ وَلَمْ يَنْتَهِسْ ؟ وَأَيُّ الطُّمَائِنَةِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمُتَلَمَّسُ ؟ .

ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شأني ، والاجتماع بإخلائني وأخذاني ؛ وأمتزقت أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعتُ عمرَ يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيتُ نهجتي ، من نُجْجتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتني محمد إلى الوفاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شبيعة تستعيد بدعائها ، وتفرغ إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نيلاتها ؛ ذات خلوة عظيم ، ومنطلي رقيم ، وقلب رقيم ، ووجه ذي نضرة وقيم ؛ إن قامت أحييت الليل بالسهر ، أو قرأت رأيتنا حولنا زمرا بعد زمرا ؛ إن حادتها نطق بالسحر محلا ، أو تاركتها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلا ؛ تسر نفسك في حالة الصخب ، وتريك وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فد إلى يد العنوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛ ولم يرقب فيها إلا ولا ذمة ، وحملها حملنا من أذاها غمه ؛ ومزق قشيب أنوارها ، وحكم محالها الجديدة في إهابها ، فعظم مصاب من حوت داري بمصابها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مبيض ؛ فسليتُ بأن المصائب ثقاها الأبرار ، وترقتُ بها إلى أن رقت تلك الأدمع الزار ، وأوردت : « إن جرح العجاة جبان » ؛ وقلت : لهما لك وأعا ، لقد آرتكبت خطة ما ألقها بمدرك وأولاهما !! ، « فقد أنصف القارة من رآها » ثم آليتُ إليه بره ، لأوطئته من الوفاق بحر ، ولأقصن هذه المرة تلك المرة ؛ وآيته بسلسلة تلبو أنيابه عن عجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برجمها ؛ قد أبتع قبتها الصنعة بإحكامها ، وآتى بالعجب في نظامها ؛ فقه هو من تحكم فيما يقطع الجلسد ، فجعله من اللطافة يحمل ويقد ؛ فاستودعت عنقه منها أمانة لا يخفى ويتيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى نهته ؛ مستحكم القوة في الشد ، فتتبطئ تنبطئ الأسير على القيد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وتَذَلُّ بعد بَأْسٍ شديد، وَبَصَبَسَ بَذْنِهِ قَعْلُ : «أَمْكُرًا وَأَثَتْ فِي الْحَدِيدِ» . فَلَمَّا
أَبَسَ مِنَ الْخُلَاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَاتِ حِينَ مَنَاصِ) .

فلما تمَّ ما ذكره ، وأبدأته وأعدته ؛ وَرَدَتْ رُقْمَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِيلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعَتْ ، وَصَلَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْنَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ
وَإِنْ تَسَبَّلْتُ بِأَذْيَالِ الْحَدِّ ، فَأَنْعَرَجْتُهَا مَخْرَجَ الْخُرُودِ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قَصَبَاتِ
الْجُدِّ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ الرِّوَايَا خَيَابَا ، وَإِذَا مَعَ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَتَبَّهَتِ الشَّجَرُ فَلَمَّا أَبْنُ جَلَا
وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا .

هذا : وَإِنْ أَتَيْ قِرَاعُ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي قُلُوبًا ، «فَالْفَعْلُ يَجِي شَوْهَ مَعْقُولًا» ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَأَوْبُ ، وَطَرَقَتِ الرِّوَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ؛ وَجَرِيَتْ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَمِي الرِّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعَشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ، وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَمْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرُهُ كَيْفَ يَتَّقِي ؛
وَالْجُلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَعْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عَقِي السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَا تَكُنْتُ كَثُرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَقُ وَهُوَ عَازِرٌ * وَلَيْسَ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدِ !
فَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ لِمَنْ سَيِّدَنَا لِيُوَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرُهُ ، وَمَنْ يَشْتَرِي
سِنِّي وَهَذَا أَثَرُهُ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ «أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُسْتَعِيلٌ» .

(١) العقابيل جمع عقوبلة وقبول بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول النيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الخصال الفافقي الأنطليسي ، نقلها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبي سيد الناس البعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشف السوء سواء ، ولا يدعو المضطر إلا إياه ، نزل فقرنا بفناه ،
ونعوذ من خطئه برضاه ، ونستغفره من ذنوبنا : (ومن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً علماً فاقته ، وأورد عباده
وأصدر ، وبسط الرزق وقدر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بشر وأنذر ،
ورغب وحذر ، وغلب البشرى على الإقنات ، ودل على الصراط ، وأشار إلى الساعة
بالأشراط ، ولم يأل أمته فى اللب والاحتياط ، صلى الله عليه وعلى الوُزراء الخلفاء ،
والبررة الأتقياء ، والأشداء الرُحما ، والأصحاب الرُحما ، صلاة على ما بين الأرض
والسما ، وتوا فيه فى كل الأوقات والآنا ، وتضع الثناء موضع الثنا .

ولما قعحت حرب الجند عن حبال ، وأشفق رب الصريحة والعيال ، وتآدى
الحيران للتفرق والزبال ، وتآوحت فى الميوس ريمها الجنوب والشمال ، وتراوحت
على القلوب راحات البين والشمال ، وأحضرت أنفس الأغنياء الشح ، وودوا أن
لا تنشأ عزنة ولا تسبح ، وتوهم خازن البر ، أن صاعه يعدل صاع الدر ، وخفت
الأزواد ، وماجت الأرض وألقت الرواد ، وآترعت العازب القصى ، فألقت المعى ،
وصدرت بحمراتها ، وقد أسلمت حرراتها ، وأصبحت كل فئة فداء ، وهضبة دراء ،
(صفاء وهما وتقبا وهما) (؟) ، والصبيح فى كل أفتى قطر أو قطع ، والأرض كلها سيف
ونعير ، والشمر يشمر ذيله للتناق ، ويضمخ خيله للسياق ، وجاء الخلد وراح المزلق ،

وقُلْنَا : هَذِهِ الشَّيْءُ هَذَا الْأَزَلُّ ؛ وَلِلرَّحْمَنِ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ ظَلُّوْهَا لَا تَبْدُ ،
وَقِيْسُ نَحْوِ الْغُيُوبِ تُنْطَفُ وَتُبْدُ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَافِ يَمْرُقُ ،
وَسِهَابٍ يَمْرُقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيمَانَ ، وَأَخَذُوا بِرَعْمِهِمُ الْآمَانَ ، وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ
فِي الْفَيْثِ ، وَزُحِلَ فِي اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا فَارَقَ الْأَسَدُ ، لَكَدَّ مَا أَفْسَدَ :

تَحَرَّصًا وَاحَادِيثًا مُلَفَّقَةً = لَيْسَتْ بِبَيْعٍ إِذَا عُلْتُ وَلَا غَرَبٍ !

أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَمَا النُّجُومُ دَرَارِيهَا الْأَعْلَامَ ، وَأَغْفَلَهَا
الَّتِي لَا تُنْجِدُ عَنْهُمْ وَلَا تَلَامُ ؛ قَدْ اخْتَلَطَ مَرَاهَا بِالْحَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السَّيِّدَةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْجَدِيِّ بِالزَّيْتَالِ ، وَلَا أَحْسَنَ الثَّوْرِ بِالرَّأْيِ ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُلُ الْقَامِ ،
وَجَبَّتْهَا أَسْتَارُ كَأَجْنَعَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخْلَتْ عَلَيْهَا فِي الطُّرُوقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مَقْنَعٌ بَنِيصِفٍ ، أَوْ مَرْمَلٌ فِي نِجَادٍ خَصِيْفٍ ؛ لَمْ تَرَكَ لَهُ مَعْنَ تَطْرِيفٍ ،
وَلَا تَقَبُّةً يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يُسْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دَوْرٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدَوْرٍ مُتَنَازِعَةِ
السُّمُوطِ ، وَدِيْمٍ مُنْعَلَةٍ الْخِيُوطِ ؛ وَجَبُوشَ مَتَصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، ثَابِتَةَ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَابَ
صَادِقَةِ الْمُجُومِ ، صَائِبَةِ الرُّجُومِ ، تَطْلُبُ الْحَمَلَ مَا بَيْنَ التُّخُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَهْمَارِهِ ، وَتَحْمِرُهُ فِي أَجْنَارِهِ ، وَتَقْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَفَّتْ عَلَى آثَارِهِ ،
وَأَخْلَتْ لِلْفَزَنِ وَالسَّهْلِ بَيَّارِهِ .

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، أَنْظِرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِغْ فِي لُحَجِ سُبُوحِهَا ،
وَارْتَحِ فِي مَرْمَرِ دُيُوبِهَا ؛ وَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَنَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَقْلَ إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودَ الظُّوَاهِرِ غُضْرَهُ ، وَتُقُورَ الْأَزَاهِرِ مُفْتَرَهُ ؛ وَمَسَرَّتِ الْغُفُوسَ
مُنْتَشِرَهُ ، وَالْأَنْبِيَاءَ مُسْتَبْشِرَهُ ؛ وَأَرْوَاهُ الْأَدْوَابِ حَامِلَهُ ، وَأَعْطَاهُ الْأَغْصَانِ
مَائِلَهُ ؛ وَأَوْرَاقَ الْأُورَاقِ تَفْصِيلَ ، وَأَجْنَعَةَ الْقَلَالِ تَرَّاشَ وَتَوْصِلَ ؛ وَخُطْبَاءَ الطَّيْرِ

تَرَوِي وَتُحَدِّدِ ، وَتُسَبِّحُ الْخَارِبَ تُهْلَلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْتَفِعُ بِجَبْرِيَّةٍ ،
وَيَشْهَدُ لِلْكُورَةِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَإِذَا انْخَطَطَ طَيْفٌ فَقَدْ سَبَقَ هَايِمَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَاجَعَ شُكْرًا فَهَ نَادِيهَا ؛
فَعُشَّ يَوْمَ ، وَلَيْلَةً إِلَى أَنْتَرَى تَرَمَ ، وَشَعَثُ يَلَمَ ، وَبَدَأُ تَوَفَّى وَتَمَ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنْتَ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتْ اللَّقَائِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا تُزَامَا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَعْلَامِهَا أَوْزَامَا ، وَأَجَدَّتْ إِقْطَامَا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخَضْبِ أَمْرًا مُطَاعَا ، وَحَازَتْ
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَائِتِ إِقْطَامَا ؛ وَسَيَفِرُّ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَاءُ ، وَيُضَيِّعُكَ هَذَا الْوَابِلُ
الْبَكَاءُ ، وَتُزْوِمُهُ فَلَا تَلَحُظُهُ ذُكَاةٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ النَّاعِمَةِ قِلَاصُ ، وَأُخْصَتُهُ مِنْ
الْخُمْزِ الثَّيْبِيَّةِ دِلَاصُ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُتَنَكَّرَاتِ ، وَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ ؛ وَالْمَرْغَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْوَا كِبِ النُّورِ تَزْدَانِ ، وَيَقَاعُ تَدِينُ الْغَيْثِ
كَمَا تُدَانُ ؛ أَذْكَرَهَا فَذْكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَصَرَّفَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّهَا أَعْدَاكَهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةٍ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : يَخْطُبُ فَقَالَ : نَحْنُ ،
فَقَتَلَتْ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي سَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ كَالْحَفْظَةِ فِي شَعْلِ نَجِيلِهِ .

فَإِنْ تَرَجَّسَ تَرَوُ الْوَاوِيَّ بِأَحْدَاقِهِ ، وَفَسْتَمِيرُ الشَّمْسِ بِهَجَّةِ إِشْرَاقِهِ ؛ وَيُودُّ الْمِسْكُ
نَفْعَةَ أَنْتَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَتَحْتَنَاهُ الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَهْتَفِقُ ، أَوْ غُصْنٌ بَازٍ لَا يَزَالُ يُوْرِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَقْنَى مُطَالِعُهُ عَلَى عَرَارٍ ، وَكَلَفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْفَوَادِي كَلَفَ غَمْرُو
بِرَّارٍ ؛ بَلَّغَاءَ كَسَاوِلِ الْغَيْدِ تَرَفَ ، وَكُومِيضِ الثُّغُورِ يَبْقَى وَيَسْفَ .

وَمِنْ أَخْوَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَايَا النَّزْ ، وَسَيْكٌ مِنْ نَاصِحِ الدَّرْ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبِقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوُّ بِمَا ^(١) وَيَفِيقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

ومن بَشَمَيجِ كَاطْلَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ، تَشَرَّفَ بِأَبْدِجِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفَ مِنَ النَّسَقِ وَالخَلْقِ ؛ تَلَحَّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجْجٍ بِالْأَحْجَانِ وَبَيْتٌ ،
وَبُدْمُوعِ الْكَمَلِ سُفِيَّتٌ ؛ نَسِيمُهُ الْيَنُّ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعْطَرُ مِنَ الْعَيْدِ ؛ يُقَاخِرُهُ
كَأَنَّهُ الْبَرْدُ ، مُقَاخَرَةٌ يَسَّانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلُّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُنْحُرَهَا وَأَزْيَلَتْ ، وَبَيَّتَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّتَتْ ؛ كَمَا تَنْتَوِجُ
فِي إِبْرَائِيهِ كَسْرِي ، وَأَسْتَقْبَلْتَهُ وَفُودُهُ تَتَرَى ، وَأَهْلَبْتَ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرِي ،
وَكُلُّ تَلْعَةٍ مَذَانِبٌ فُصُولُهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُولِهَا لَا تُكْنَى ؛ وَأَرَاظِمُ تَنْسَابِ ، وَطُحَيْنُ
يُذَابُ وَيَذَابُ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا مُجُومٌ مِنَ التَّوَرِ مُشْتَبِكُهُ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْقَوَائِي
مُتَشَبِكُهُ ؛ فَلَوْ أَقْبَصْتَ الظُّهُورُ وَالْبُلُوكُنَ ، وَتَطَلَّعْتَ الشُّهُولَ وَالْحَزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قِيلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّ شُكْرًا ، وَصَحْفًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِي السَّمِ ،
وَدَارِي الْقَسَمِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ ، وَبَاعِثِ الرَّحِمِ ، وَنَحْيِي الْأُمِّ ،
فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْشَكَ عَلَى غُرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِنَشْرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمَرْوِقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَعِيذُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْإِسْلَامِ ؛ رِزْقُنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِيئَنَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا تُشْرِكْ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَحْدُثُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُتَعَدًّا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأَمَّتْ الْحَيُّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُصِلَ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَانْصِبْنَا فِيْمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّنَا فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَخْصِي وَلَا يُقْصَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) الْآيَةُ .



وهذه نسخة رسالة ، كتب بها صاحب نضر الدين عبد الرحمن بن مكائس ،
تعمده الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشتكى عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهي :

ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمين ، وسلام على نوح في العالمين .
ما تأخير مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الما ؟ ، وما قعاده عن زرقه
هذا النيل الذى جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما ؟ ،
وكيف لم ير هذا الطوفان الذى استحال للزيادة لما أشبه زيادته بالظما ، فهى كزيادة
الأصابيع الدالة فى الكف على قصصه ، وأولى أن نلشد يئت المثل بنصه :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عَظِيمِ مَا قَدْ سَرَّيْتُ أَبْكَائِي !

فإنه قارب أن يمتزج ببحر المعجزة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المعنى [بقول القائل] : " حَلَّتْ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجٌ " ، وتجاوز فى عشر الثلاثين
الحّد ، وأرانا بالمعاينة فى كلّ ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمدّ ، وأساء فى دفعه
فلم يذق بالثى هى أحسن ، وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكّا إلى الله
فى الحالين جور الزمن ، وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت
أصعب كأس ، وسئل ابن أبى الرّاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ،
أمتلاّ الياب ، وهالّ القباب ، وضاع العدّ وأخطط الحساب ، كأل فططف ، وزار
فما خفف ، غسل الجسور ، وأعاد الإنلاق بمزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى
بقول الحلى من ابن منصور :

بِكَارِمِ تَدْرُ السَّيَّاسِ أَبْجَرًا * وَعِزَّائِمِ تَدْرُ الْبَحَارِ سَبَّاسًا !

جمع في صُوبِهِ إلى الجبال بين الحادئ والملاح، ودخل النَّاسُ إلى أسواقٍ مِصر
وخصُوصاً سوقُ الرِّيقِ على كُلِّ جارية ذاتِ الرِّاح ؛ وقد اتيَّارُ نَسَابٍ في كُلِّ يَمٍّ
كالأيم، وأصبحتْ مِصْبابُ الموجِ في سماءِ البحرِ وكأَنَّها هي قِطْعُ النِّيمِ ؛ وأستحالت
الأفلاكُ فكلُّ بُرْجٍ مائي ، وتغيَّرتِ الألوانُ فكلُّ ما في الأرضِ سَمائي ؛ وحكى ماؤه
حُكَاةَ الصَّنَدَلِ لما سسه شيطانُ الرِّيحِ فتخبَّطَ ، وزادَ فاستَحَالَ نَفْعُهُ فتحقَّقَ
ما يُنسَبُ إلى الصَّنَدَلِ من الاستحالة إذا أفرط ؛ فلقد حكَّتْ أمواجه ودَوَّاهُ
الأعْكَانَ والسُّررَ ، وقد اكلَ حَيٌّ مَيْتاً من زيادته لا كما قالَ المَعْرِيُّ : حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ^(١)
وتحالى إلى أن أَقَرَفَ اليمونَ الأخضرَ ، وأحرَّتْ حَبْنَهُ على الناسِ فاذاقَهُمُ الموتَ
الأخمرَ ؛ ولقد صَعَبَ سُلُوكُهُ وَكَيْفَ لا ؟ وهو البَحرُ المَلِيدُ ، وأصبحَ كُلُّ جَدُولٍ منه
جَعْفَرًا وَيَزِيدُ :

قَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةً شَاخِصٍ * إِلَيْهِ بَعِينَ أَوْ مِشِيرًا بِأَصْبَحٍ !

فلَمَّ قالَ المَرَمُ للسايرينَ ياساريةَ الجبلِ ، وأتشدَّ وقد شَمَّرَ ساقَهُ لِقَوضِ : أنا القَرِيقُ
لَمَّا خَوِيَ مِنَ البَلَلِ ؟ وَكَمْ قالَ أبو المَوَلِ : لا هَوَلَ إِلَّا هَوَلَ هذا البَحرِ ، وقالَ
المسافرونُ : ما رأينا مثلَ هذا النَّيلِ من هُنا إلى ماوراءَ النَّهرِ ، وقالَ المؤرِّخونَ : لم نَنقُلْ
كَهَذِهِ الزيادةِ من عهدِ النَّهروانِ وإلى هذا النَّهرِ .

وَكَيفَ يَسُوعُ مَولانا في هذه الأيامِ غيرَ آرتشافِ قِمِ الخُورِ ؟ ولمَ لا يُغيِّرْ مَذْجَهُ
وَيُطِيبَ على هذه الخُلُجِ بالسَّلْسِلِ والنَّورِ ؟ وَكَيفَ وَكَيفَ ؟ ! ، ولمَ لا يَتَّخِذُ
مَولانا حَمَوَ النَّيْلِ وَبَرْدَهُ رِشَّةَ الشَّاءِ والصَّيفِ ؟ ، وهو في المبادرةِ إلى طَلْوِ المَعاني
وَعُلُوِّ المَعاني ، وأتَهَازَ القَرِصُ في بَلاغِ الآمالِ وِبلُوغِ الأمانِ :

(١) يشير إلى بيت المعري في قوله :

وإنَّ بَحَلَّتْ عَنِ الأَحْياءِ كَلِمَهُمْ * فَاسْقِ المَواطِرَ حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَنَوْعُ فَرْدٍ وَشَكْلُ غَرِيبٍ!

نَقَمَ :

مَنْ قَامَكُمْ بِسَوَاكُمْ * قَاسَ الْيَمَارَ إِلَى التَّمَادِ!

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْمُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّعَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيِّدِيهِ وَهَلُمَّ بَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِيِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَهْرًا :

وَشَيْخِ سَيْحُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجَلَةَ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبُلَّةِ!

إِى وَالله :

أَقُولُ لَوْ بَلَّغْتَ مَا عَسَى : * الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُفَا!

لَا مَهْمًا لِعَطْرِ بَدْعِ عَرُوسٍ ، أَنْتَ أَهْوَمُ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ أَبْنِ قَادُوسٍ ، وَأَصْلَحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بَنِ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، وَأَتَمَّهِ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ أَبْنِ حِجَّاجِ إِلَى
النُّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا * وَحَقَّكَ مَا اسْتَحْلَلَهُ النَّاسُ زَانِدًا!

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ أَبْنِ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوْنِهِ بِجَبَلٍ ؛ : فَلَوْ رَأَى مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرَ بِلَاسٍ خِلَالَ الدَّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَشْهُوقِ فَتَرَكَهُ كَالْمَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَّى بَعْنَى عُرْوِهِ ،
وَأَوَى مِنَ الرَّصَدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صُلْبِهِ عَيُونَ النَّارِ إِلَى رَبْوِهِ ؛ أَوْدَنَا لِرَوْضِ الْجَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَلَّصَتْ عَرَائِيسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينَ بِالْيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ تَقَاتَتْ
مُلَاكُمَهَا حِينَ تَقْدُ بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَصْفَرَّ قَارَانَا الْعُنَابِ وَالْحَشَفِ .
وَالْجِزَةِ وَقَدْ قُلْتُ لَهَا : تَبَّأَ لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَلَكِ صُورَةً وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَايِكَ فَسَى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِثْنَاءٍ . وقُرَاهَا الْغَرَبِيَّةُ . وقد قُلْتُ لَهَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعْلَى الْأَرْضِ مَرَبَّأً
 مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلَّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْحَمَتْ لَارْتِفَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَخْطَطْتُ بِالسَّمَاءِ ؛ وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَثَرُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرَجِّحِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّضَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقْلِيحِي ، وَالنَّيْلُ تَبْنُو عَلَيْهِ الْقُلُوعَ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّهَا الْخِلَامُ بِذِي طُلُوحٍ ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بَطْفَانِهِ فَكَأَنَّهَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فلقد طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولَ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ الْمَجْرَى مِنَ السَّكَارَى بِالشَّعَائِنِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامِ الرَّاحِ . وَتَرَجَّسَ الْبَسَاتِينِ وَقَدْ أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَظِيمٍ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَّاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرُ الْقَلَّاسِ صَدِيقٍ وَغَيْرِ الْمَاءِ حَمِيمٍ .
 وَالْوَرْدُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ أَسٍ ، وَغَضِبَ الْبَايَ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَاقَبَكَ
 وَلَا بَأْسَ . وَالْإِسْمَاقُ وَقَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقَلَّاسُ وَقَدْ شَكَا شَكَاؤَ ابْنِ قَلَّاسٍ
 وَأَيْنَهُ مِنَ الْفَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْجِلْزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ التَّرْفُوهِ بَيْتَ الشَّرَابِ ، وَالْقَصَبُ
 بِوُلَاقٍ لَمْ يُجْعَلْ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْفَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَافٍ ، وَالْفَارِسِيُّ بِالْبَسَاتِينِ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَاذًا كَيْفَ تَكْثِيرِ الْأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلْأَسِ : طَالِ جِيرَانَكَ بِالْغَيْطَانِ فَالْأَسُ
 بِالْأَسِ ، وَبَادَرَ إِلَى جَبْرِ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينِ إِلَى الْأَسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَبَبَاتِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ؛ وَإِنْ أَحْتَلَّتْ بِالْأَمْسِقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الْقَصَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعَيُونِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَمْلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَغْرَاضِ :
 وَقَاتِلِ فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بِأَقْسَةٍ = مِنَ السَّقَامِ وَمَا حَمَّتْ خُصُورَهُمْ ،

وفي النسيم فقلت: الأمرُ مُشْتَبِهٌ * عليك فأنزمتُ فانتَ الحاذقُ القيمُ.

قلتُ الصَّحيحُ وليكني بموجبه * أقول: تلك دَوَاةٌ برؤها السقم!

قد أحاط بها النيلُ إحاطةَ المَرَاثِفِ بالآ ، فأشرقتُ ضياءَ بين زُرْقته فكأنها
البدرُ في كبدِ السما :

بصحنِ خَدٍّ لم يَمِضْ مأوهُ * ولم تَحْضُهُ أعينُ الناسِ!

مُتَعَطِّشٌ مع هذا الطوفانِ لِرَيَّاك ، مُتَشَوِّفٌ وإن كنتُ مُغَاوِلَ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمَاوِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ؛ لِيَكُنِّي يُسَلِّقُنِي أُنَى مَا نَقَرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلَّا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الْجِهَاتِ ، وَلَا تَحْتُ بِيُوتَ الْبَحْرِ بِلِ الْبُحُورِ إِلَّا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الْآيَاتِ :

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ حَظِيرِ * إِلَّا رَأَيْتُ خَيْالًا مِنْكَ فِي الْمَاءِ !

وَلَكِنْ لِلْمِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبَ الْمَشَاهِدَةِ الْكَلِمِ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْثَلْهُ الْعُيُونُ ، وَالنَّظَرُ إِلَى سَائِرِ الْخُلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّامِيزِ رُؤْيَا هَذَا الْبَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
شَيْخِهِ ، وَلَا يَلْذُلُهُ التَّمَلُّ بِمُشَاهَدَةِ هَذَا الْقُلُوكِ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَفِيهِهُ بَيْدَرٌ وَمُزَيْنٌ ؛
فَا هَذَا الْإِحْمَالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ تَمَاشَاكَ بَأَى الْأَعْمَالِ ؟ ، أَبَا الْكَتَابَةِ ؟
فَتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلُوعِ بِغَيْرِ مِثَالٍ ، أَوْ بِالنَّظَرِ وَالنَّظَمِ ؟ فَفِي هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تَوَخَّدَ الدُّرُورُ فِيهِ تُضَرَّبُ الْأَمْثَالُ ، وَلَقَدْ وَلَدَ فِيهِ الْفِكْرُ لِلْمَلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادُّمُ الْأَتَمَقَاءِ وَقَهْرُ الْمُلُوكِ لِلُلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا وَرَجَ
فِي طَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الزَّائِدَةِ ، وَالْجُرْئِي عَلَى تَحْرِيقِ الْعَادَةِ الَّتِي لَا جَمَلَ

الله بها صِلَةٌ ولا منها طَائِدَةٌ ؛ وغايَةُ ما وَصَلَ إليه في الماضي من عِشرينَ : قَضَيْتُ
بَسْعَتِهِ الْمَسَالِكَ ، وَأَوْجَبَ الْمَهَالِكَ ، وَتَطَرَّقَ تَطَرَّقَ أَهْلُ الْجَرَائِمِ وَالْفَسَادِ فَقَطَعَ
الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِ ، وَأَحْجَجَ مَرَاتٍ إِلَى الْإِسْتِضَاءِ لَا أَحْجَجَ لِلَّهِ لَذَلِكَ .

وَدَلِيلٌ مَا شَمَلَ بِهِ مِنَ الْفَسَادِ ، وَمَا حَامَلَ بِهِ الْبِلَادَ وَأَهْلَ الْبِلَادِ ؛ مَا قَالَهُ أَدْبَاءُ كُلِّ
عَصْرِ ، عِنْدَ مَا أَيْبَحَ لُسَافِرِي مَدَّ عَرَضِهِ الْقَصْرِ .

لَمِنَ ذَلِكَ مَا قَالَهُ مَوْلَانَا الْقَاضِي الْفَاضِلُ ، وَمَا هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا بِمَجَرِّ طَفَحِ دُرِّهِ ،
فَلِلَّهِ دُرُّهُ ، مِنْ رِسَالَةٍ :

وَرُودُ مِثَالِهِ يَتَضَمَّنُ تَبَا سُلُوطِهِ الْعَظِيمَةِ أَمْرَ طُوفَانِ النَّيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا جَدَائِلُهُ ،
وَأَنَّهُ جَادَ لِمُؤْمَلِهِ بِنَفْسِهِ الَّتِي لَيْسَ فِي يَدِهِ غَيْرُهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

ومنها : وَلَمْ يَزَلْ يَجْرِي لِمُسْتَقَرِّهِ ، وَيَقْصُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ أَدْرَكَ آخِرَهُ أَوَّلُهُ ؛
حَتَّى إِذَا تَكَامَلَ سُمُومُ أَمْوَاجِهِ حَالًا عَلَى حَالٍ ، وَتَوَدَّمَ أَقَاصِي الْأَرْضِ مِنْ بَنِيَةِ الْمِقْيَاسِ
فَادَانَاهَا النَّظَرُ الْعَالِ ؛ فَلَمْ يَتْرَكْ بُقْعَةً كَانَتْ مِنْ قَبْلُ فَارِغَةً إِلَّا وَكَلَّهَا عِنْدَ نَظَرِهِ مَاتَ ،
وَلَيْتَ هَوَاهُ الْمُعْتَلَّ كَانَ عَدْلًا فَحَمَلَ كُلَّ غَدِيرٍ مَا أَطَاقَ ؛ وَطَلَّكَ جَرَى بِالْصُّفَا وَلَكِنْ
كَدَّرَ صَفَاهُ هَذَا الْمَسْعَى ، وَالْمَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَتَلَوَّ مَا أَفْسَدَهُ هَذَا الْمَاءُ مَا يُصْلِحُهُ
خُرُوجُ الْمَرْغَى .

وَمَا قَالَهُ الْقَاضِي مُحَمَّدِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ ، سَقَى اللَّهُ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ النَّبِيلَةَ
صَوَّبَ الْمَاطِرَ :

وَيُنْهَى إِلَيْهِ أَمْرَ النَّبِيلِ الَّذِي سَرَفَ أَوَائِلُهُ الْأَنْفُسَ بِأَنْفُسٍ بُشِّرَى ، وَيَقْصُ عَلَيْهِ
نَبَأَهُ الْعَظِيمَ الَّذِي مَا يُرِينَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ الْأُخْرَى ، وَيَصِفُ لَهُ مَا سَأَفَهُ
إِلَى الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ طَلِيعَةٍ إِذَا تَنَفَّسَ النَّيْلُ تَهَرَّقَ صُبْحُهَا وَتَهَرَّقَ ؛ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ

خَصَّ اللَّهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِرُفُودِهِ وَوَقَاتِهِ ، وَأَخْنَىٰ بِهِ قُطْرَهَا عَنْ الْقَطْرِ فَلَمْ يَمْتَحِ إِلَىٰ مَدِّ
كَافِهِ وَقَاتِهِ ، وَتَزَوَّجَهُ عَنْ مِثْنَةِ الْفَهَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهْمَةٍ رَمَدَهُ وَدَقَقَةٍ
بُكَائِهِ ، فَقَدْ وَطِنَ بِإِلَادَتِهَا بَسْكَرَهُ الْعِجَاجَ ، وَزَاوَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ، فَعَمِلَ
فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَنَاقِهِ وَتَحَقَّلَهَا بِزِرَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ
قُلُوعِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا تُعْمَدُ قَلَاعِهِ ، وَزَارَ زَرَائِي الثُّورِ الْمَبْثُوثَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِي
كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مُورُوثِهِ ، وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِيرِهِ الْمُنْكُوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ
وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَهْسَارِ وَالشُّجُومِ أَشْعَمَتِهَا الْمَكُوسَةُ ، وَحَمَلَ عَلَىٰ بِرْكَةِ
الْفَيْلِ حَمْلَ الْأَسُودِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَسَلَ الْمَجْنُونَةُ مِنْ تِيَارِهِ الْمُتَحَدِّدِ فِي السَّلَاسِلِ
وَالْأَغْلَالِ ، وَالْمَرْجُوحُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ لَيْتِنَا مِنْهُ مَا عَاهَدَنَا ، فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ
الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِزُّ ، فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ، وَبُلُوغُ الْحَرَمِ ،
إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَرَّمْ ، وَأَمِنْ كُلِّ فَرِيقٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ، وَفَرِحَ قَطَّانُ الْأَوْطَانِ ،
إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ
مِنْ نَقَائِصِهِ ، طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَقْلِيلِهِ ، وَقَازَ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَا فِيهِ
الْمُعْصِفُ بِتَقْلِيلِهِ .

وَمَا قَالَهُ الْمَوْلَى زَيْنُ الدِّينِ عُمَرُ الصَّفَدِيُّ تَقْدِمُهُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ حِلَاوَةِ
الْكُتُورِ وَصَفْوِهِ :

وَأَمَّا النَّبِيُّ فَقَدْ أَخَذَ النَّارَ وَالسَّكَّانَ ، وَقَالَ ابْنَ الْخَامِلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانُ
الْأَمَانُ ، وَبَنَى النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقِيلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ، وَأَنْسَابَتْ أَرَائِمُ غُدْرَانِهِ
فِي الْإِقْلِيمِ قَابَلَتَتْ غُدْرَانَ أَرَائِمِهِ ، وَنَحَا مَسِيلُهُ الْمُنْدَقَّ مَمَالِيهِ الْمَجْهُولَةَ فَاسْتَمْعَلَ
الْأَفْلاَمَ فِي إِثْبَاتِ مَمَالِيهِ ، وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بِسُورٍ ،
وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكَبَ إِلَّا الْمَرَاكِبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح، نُصرة الأباط، وأحد عميد الشعر المشهورة
بالنسطاط، فما أطيّب مدائح النبوة التي جعلها سوراً بينه وبين النار، وما أنجب
رقاه: جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار!!! :

يَا تَيْلُ يَا مَلِكِ الْإِنهَارِ قَدْ شَرِيتْ * مِنْكَ الْبَرَاءَ بِشَرَابٍ طَيِّبٍ وَغِذَاءٍ،
وَقَدْ دَخَلْتَ الْقُرَى تَبْنِي مَنَافِعَهَا * فَعَمَّهَا بَعْدَ فَرْطِ الْقَمْعِ مِنْكَ أَدَى.
فَقَالَ : يُذَكِّرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ * وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعه من الآداب جوائج
نظمها ونثرها، ومُغرث له بحور الشعر فقالت له الآداب : أخت من دُرّها؛ فُسبحان
من يسر له مُتَمَتِّع الكلام وهَوْنَه، وجعله من الذين يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه،
فما أشَفَ دَقِيقَ فِكْرِهِ الْجَلِيلِ، وما أَكْثَرَ ما يَضْحَكُ زَهْرُ تَقَاطِيعِهِ عَلَى زَهْرِ مُقَطَّلَاتِ
النَّيْلِ، فإِكان إلا مُتَخَوِّصًا فِي الْأَدَبِ بِصُورِ الْهَيَاتِ، وكلامه في العُدُوَّةِ والبُلَاغَةِ
يُزِيْرُ بِالْقُرَاتِ وَأَبْنِ الْقُرَاتِ، وإن قيل أَيْ أَصْلَقَ كَلِمَةً فَأَلَمَّا شَاعِرٌ بَعْدَ لَيْدٍ، يقال
قَوْلُ ابْنِ نَبَاتَةٍ .

فَلَا تَجِبْ لِلْفِطْيِ حِينَ يَحُلُوْ * فَهَذَا الْقَطْرُ مِنْ ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النبل فقد استوى على الأرض فتبت فيها قدمه، وأمتدَّ فَعَبْلُ تِيَارِهِ كَالسَّيْفِ
الصَّبِيلِ قَتَلَ الْإِقْلِيمَ وَهَذَا الْأَحْمَرُ أَلْمَا هُوَ دَمُهُ :

حُرْمَتُهَا مِنْ دِمَائِهِ مَا قَتَلَتْ * وَالنَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ تَجِبُ !

فلم يترك وعظاً بل وعيداً إلا وقاه، ولا وَهْدًا بل جَبَلًا إلا أخفاه، أقبل كالأَسَدِ
المُصَوِّرِ إِذَا أَحْتَسَدَ وَأَضْلَمَ، وجاء من سِنِّ الْجَنَائِدِ فَعَدَّرَ وَعَلَا حَتَّى بَلَغَ أَفْعَى
الْحَرَمِ، وطأَلِ الْبِلَادَ بِالْجَلَاءِ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ أَيْدٍ بِالنَّصْرِ، قَاتِلًا :

إِنْ كُنْتُ بَلِيتُ بِالْأَحْزَانِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَيْضًا إِنْ أَرَيْتُ مِنْ بَرِّوْقِ تَبَارِي
بَشَرٍ كَالْقَصْرِ .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل ، وسَمِعْنَا عَنْهُ كُلَّ خَيْرٍ خَيْرٍ ثَابِتٍ وَيَزِيدُ مَا قَالَ
جَمِيلٌ ، وَكُلُّ يَدِيحٍ مِنْ آثَارِ جُودٍ يَصْبِغُ الثَّرَى فَيَخْضَرُّ بِخِلَافِ الْمَشْهُورِ عَنْ حَسْبَةِ
الْقَلِيلِ ، وَطَالَمَا خَصَصْنَاهُ بِدُءَاءٍ فَكَانَتْ الرَّاحَةُ بِهِ كَيْفِيَّاسِهِ ذَاتَ بَسْطَةٍ ، وَكَتَنَزِلِ
الْخَضْبِ بِقُدُومِهِ الْمُبَارَكِ ذَاتَ غَيْطَةٍ ، وَمَتَحْنَاهُ بِوَلَاءٍ وَتَنَاءٍ هَذَا يَدُورُ مِنَ الْإِخْلَاصِ
بِفُلْكِكَ وَهَذَا يَتَدَبُّ مِنَ الْبَحَارِ بِنُقْطَةٍ ، ثُمَّ وَرَدَ إِلَى الْبِلَادِ ضَبِيقًا وَمَعَهُ الْقَرَى ، وَكَمْ أَتَى
مُرْسَلًا بِمُجِيزِ آيَاتِ الْخَضْبِ إِلَى أَهْلِ الْقَرَى ، فَهُوَ جَوَادٌ قَدْ خَلَعَ الرِّسْنَ ، سَاهِرٌ
فِي مَصَالِحِ الْخَلْقِ وَقَدْ مَلَأَ الْأَمْنُ أَجْفَانَهُمْ بِالْوَسْنِ ، جَامِعٌ لِأَهْلِ مِصْرَ مِنْ سُقْيَاهُ
وَمَرْمَرَاهُ وَوَجْهِهِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْخَضِرَةِ وَالْوَجْهِ الْحَسَنَ ، كَمْ بَاتَ سَيْرٌ مِقْيَاسُهُ يَشْمَلُ
يُظِلُّهُ الْغَائِيثِينَ وَالْحَاضِرِينَ ، وَكَمْ رَقَعَ عَلَى الْوَفَاءِ رَايَةً صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْهَنًا تَسُرُّ النَّاطِلِينَ ،
وَيَلْغُ وَيَلْغُ بِحَيْرِ الْبَارِ سَلَامُهُ ، وَبَاتَ النَّاسُ بِوَفَائِهِ مِنْ حِذَارِ الْغَلَاءِ تَحْتَ السَّيْرِ
وَالسَّلَامَةِ ، وَخَلَقَ صَدْرُ الْعُمُودِ وَكَيْفَ لَا يُخَلِّقُ بَشِيرَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، وَدَقَّ مِصْرَ لِأَخِيذِ
زُنُوفِهَا فَسَوَاءٌ قِيلَ : ذَاتَ الْعُمُودِ أَوْ ذَاتَ الْعِمَادِ ، وَبَسَطَ يَدَهُ بِرَكَّةِ الْمَاءِ فَعِيلٌ :
سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَخَضَبَ بَنَانَهُ وَأَقْسَمَ بِحُصُولِ الْخَيْرِ قَبِيلَ لِحْظُوبِ
الْبَنَانِ يَمِينِ ، وَإِشَارَ إِلَى وُصُولِ الْمَدِّ الْمَتَابِ ، وَقَبَضَ يَدَهُ الْمُخَلَّقَةَ عَلَى الْمَاءِ فَوَقَّتْ
وَمَا خَابَتْ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ ، وَنَادَى رَائِدُ الْوَفَاءِ وَلَكِنْ كَمْ حَيَاةٍ فِي الْأَرْضِ لِمَنْ يُنَادِي ،
وَتَمَّتْ أَصَابِعُ الزِّيَادَةِ وَتَمَّتْ حَتَّى قَالَ النَّاسُ : مَا ذِي أَصَابِعٍ ذِي أَيَادِي .

هَذَا وَقَدْ قُرِئَتْ زُرَابُ الثُّورِ الْمَبْشُورَةِ بِالْمُتَارِقِ ، وَقَالَ الْمِقْيَاسُ : تَمَطَّتْ مِنْهَا
الدَّرَجُ فَتَالِ الرَّجَاءِ وَظَهَرَتِ الدَّقَائِقُ ، فَهُوَ يَمُّ الْمَنَافِعِ ، عَذْبُ الْمَنَافِعِ ، يُسَارِفُ الْحَقِيقَةَ
وَالْمَجَازَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ .

فأعاده الله إلى ذلك التَّعَمُّ المهود ، وأَرَانَا مِنْهُ الْأَمَانَ مِنَ الطُّوفَانِ إِلَى أَنْ نَرِدَ
الْحَوْضَ الْمَوْرُودَ ، وَكَفَى أَهْلَ مَضَرِّ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ قَالُوا :
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلاَهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَهِلُوا أَصَابَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَقْشَوْا نِيَابَهُمْ فَأَمَّا يَسْتَقْشِي نِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي الْمَطَرِ وَيَحْتَمِلُ
أَصَابَهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَذِّنُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعَمَةِ ، وَأَوَّلَى بِرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
فَيْضِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وما قاله صاحبنا الشيخُ شهابُ الدين بن أبي حَجَّالَةَ الذي كان أَغْرَبَ مِنْ زَرْقَانِ
الْيَمَامَةِ ، وَأَعْجَبَ إِذَا رَكِبَ بَقْلَهُ وَزُدُّرَهُ مِنْ أَبِي دُلَامَةَ ، الْأَدِيبُ الَّذِي كَانَ حُجَّةَ
الْعَرَبِ ، وَالسَّائِرُ الَّذِي كَانَ يَنْسِبُهُ إِلَى الطُّيُورِ مُحَرِّكَ الْمَنَاطِقِ إِلَى الشَّعْرِ صَنَاجَةِ
الْأَدَبِ ، وَالنَّاظِمُ الَّذِي كَانَ إِذَا أَتَشَدَّ مَقَاطِعَهُ فِي التَّشْيِيبِ فَاقَ عَلَى الْمَوَاصِلِ ذَوَاتِ
الطَّرَبِ ، وَالصَّدِيقُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ عَوَائِدُ الْوَفَاءِ مَالُوفَةً ، وَشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ الَّذِي
لَا تَعْجَبُ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْمَقَامَاتُ الْمُوصُوفَةُ ، أَسْكَنَهُ اللَّهُ فَيْسَجَ الْجَنَانِ ، وَخَصَّ ذَلِكَ
الْوَجْهَ الْجَمِيلَ بِالْمَارِضِ الْجَنَانِ ، مِنْ مَقَامَتِهِ الزَّعْفَرَانِيَّةِ عَنْ أَبِي الرَّيَاشِ :

فَاعْتَقَنَتْهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَأَاكَ بِأَعْصَامَ ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ النَّيْلَ تَرَايَدَ
دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرَرِ رَفْعُهُ ، فَقَالَ : خُذِ الْعَفْوَ ، وَلَا تُكَذِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالْمُصِرَّاتِ نَجَاجَهُ ، وَأَهْوَى طَلِيبَ النِّيطَانِ عِلَاجَهُ :

وَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ * وَغَرَبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فَالْعَمَلُ التَّغْيِيرُ ، بِمِيزَةِ الطَّيْرِ ؛ قَالَ : لَمْ يَبْقَ بِهَا هَاتِفٌ يُشِيرُ بِالصَّبَاحِ ،
وَلَا سَاجِدٌ يَسْمُو بِرَجُلٍ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحٍ ، إِلَّا أَخَذَ تَقَفًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَّمَ فِي السَّمَاءِ ،
أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَغِيصُهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَذَاقَ بِهَا الْحَمَامُ الْحَمَامَ فِي الْمَرْوُجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كَيْفَ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَتَيْتُمْ تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ تَشِيرٍ وَاقِعٍ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :
وَمَنْهَلٍ فِيهِ الْقُرَابُ مَيْتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْقَيْتُ !

قُلْتُ : فَمَصْر؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَسْكَرُهُ الْجُرَّارُ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .

قُلْتُ : فَالْجَبَّةُ؟ قَالَ : طَلَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِيرِهَا وَتَجَمَّرَ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَابَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَمَّرَ؛ فَاصْبَحَ بَعْدَ اخْضِرَارِ بَرْزِهِ شَاخِبَ الْإِهَابِ، نَاصِلَ الْخَضَابِ، غَارِقًا فِي قَمَرٍ بَحْرٍ يَنْشَاءُ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ مَوْجٌ مِنْ قَوْفِهِ مَحَبَّابٍ، وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مَنْ بَهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْفُقَرَاءِ، وَتَرَكَ الطَّلَاجَ كَالصَّالِحِ يَمِينِي عَلَى الْمَاءِ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَلَّا يَدْخُلَتْهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ، وَأَذْرَكَهُمُ الْغُرُقُ فَأَيُّسُوا مِنْ اخْتِلَاصٍ، وَغَشِيَهُمُ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ؛ وَنَزَلَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قُوَاهُمْ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالزُّوْضَةُ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَيْلَامِ بِزَمَرِهِ، وَالْكَاسُ بِجُبَابِ نَحْمَرِهِ:

فَكَأَنَّهُ فِيهِ بِسَاطُ اخْضَرُ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَازُ مُنْهَبٍ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِهِ يَدَانِ، وَكَمْ أَتَشَدَّ مَرْجُئُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ بِتَقْيَانِ :
أَعْنَى كُفًّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغْيِ سَعَى أُتْبِيتُ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَذَاكَ النُّعَاسُ؟ قَالَ : اتَّخَسَّ حَالِمًا، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا؛ فَدَخَلَ مِنْ حَمَامِهَا الطُّهْرُ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرُ؛ فَأَلْحَقَ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ، وَرَفَى مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ؛ كَمْ أَتَغَرَّفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرُفِ غَرَفًا، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلُقَا .

قلت : فالخليج الحار يئس ؟ قال : خرج صكر موجه بعد الكسر على حية ،
وسرق من قسي قناطيره مروق السهم من الرمية .

قلت : فالمنشأة ؟ قال : أصبحت للبحر مقره ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل
للمنشا : أتى يحيى هذه الله بعد موته قال : يحيى الذي أنشأها أول مره ، قد مال
على ما فيها من شون الغلال كل المثل ، وتركها تنلوق فيها الذي شفتاه مضرا
بابها : ﴿ يَأْمَنَّا مَنَعَ مِا الْكَل ﴾ .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل مزارها ، وأتى على مفاها فلم يدع
شيئا من ريسها وخيارها ؛ أخلق دياجة روضها الأنف ، وترك قلقاسها في الجروف
على شفا جرف :

بعني رأيت الماء يوما وقد جرى * على رأسه من شاعري فكسرا !

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ؛ وتمثل بقول الأول :

وإن سألك عن قلبي وما قاسي * قل : قاسي ، وقل : قاسي ، وقل : قاسي !!!

لم يفته تحسنه من ورقه بالدريق والستائر ، ولا حق عليه حين تضرع بأصابعه
فصيح أن الماء سلطان جائر .

قلت : ففكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ؛ قد احتمل
من دوره تعالها ، وجعل طليبا ساظها ؛ فكتم دار أعدم صاحبها قراره ، ونادى
في عرصاتها المتداعية : إياك أنهي فاستمي بإجاره ؛ فأصبحت بعد نعمها قليلة
الجد ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أصحكت في يومها
أبكت فدا .

قلتُ : فبولاق ؟ قال : إملأق ، قد أَلَفْتُ بها من الزَّلي السَّاقِ بالسَّاقِ ، فأتى من الثَّوبِيَّةِ على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ وَجَمَّرها على النَّيِّرِ وَالْقَطِيمِ .
هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر ، وحيطانه بأمة القرى ، قد دنا قهقها ، وحان يلافها ، فكأني به وقد منع رفقه ، وتلا على بحرايه سورة السجدة .
قلتُ : بخزيرة الفيل ؟ قال : أقتلع أشجارها بشروشها ، وترك سواقها خاوية على عروشها .

قلتُ : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هيم على حريها ، وعم الوجوه من فريها إلى قدميها ، قبل ترى الموتى في التَّخُومِ ، وعنت الوجوه لحي القيوم ، قلتُ : فالحيلة ؟ قال : ترك الحيلة :

دعها سَمَّايَوة تجرى على قدر * لا تُفسدنا برأي منك راضى (؟)

طال الجُباب ، ونرجنا عن فصل الخطاب :

ولربما ساق المحدث بعض ما * ليس الندى إليه بالمتحاج !

وكأني بقائل يقول : أليس من الكبر أن يستغنى هذا في رسائه مُلوك الكلام ، ومن الحق أن يتحلى عرائس أفكاره بما للناس من حلي التَّارِ والنِّظام ، فأقول : مُسلم أن كل ما أوردته دُرر وجواهر ، وعقود كزهر الربيع حيون وجوهرها النواضر قواطر ، وليكنها هاهنا أمثل ، وجمع تمثلا على هذى العروس أجمل :

* وفي عقيق الحسنة يستحسن العقد ! *

وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب ، فيقول : لا عيب على الفقيرة إذا تجملت بحلي الفينة ، ولا عار على الجواهرى إذا نظم سلكا كانت دُرره على الطرق سمرية ، وترجع إلى ما أوله الفكر من عجب البحر ، وما ظهر من دفع

الملوك لأمثالها عن جريها إلى غاياتها بصُور القمر، فاقولُ : إنما قالت الأدباءُ ذلك لما جرى من جُور النيل على الأرض، ولما عمَّ الناس من الإرجاف يطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العَرْض ، وكلُّ ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجعل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض خبره ، السرى الذي أعتامه بالمعروف معروف ، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف ؛ أتاك العساكر، والملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالمسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور ؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبيل ، وردّ دفعه بكلّ دفع من الرأي والتدبير يُفني عن البيض والأسل ؛ وحارب به جيش عزم إلى أن ولّى هارباً مع التراجع والقاطر، وجاهدته بمنيد ركهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراجع ، وفلّ يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس أنواع التراجع ، لما هو إلا أن تضامل بينان سطواته وأحترق ، وفلّ خاضعاً وكفى به تغرماً بالأصابع وتوسلاً بالملق ، وأطاع لما لم يحبه مجاهرته من تياره بالسيف ولا تحصنته من داراته بالدرق .

على أنه تطاول ليضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر ، وتحمس فركب خيل خياله ليما كي بأشبه فوق من جُور عجيبه وتقطر ، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره ففيل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم تلاء كليم * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر مُطِماً وأمنى * على الحائلين ليس له قرار!

فلو زِدَتْ في أيام غيره من الملوك المتترفين، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك، وفعلت في أبناء مصرِكَ جهنمَكَ؛ وكنت من الملوك الذين إذا دخلوا قرية استعملوا فيها الأهلَّة، وأفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلَّة؛ لكن هبَّ قبُولك إذارا، ولافت رِيحك إعصارا؛ فليس لك به قبيل، "والسَّيْلُ أَدْرَى بِالْجَبَلِ"؛ فمالك سبيلٌ إلى بلاده، ولا طاقةُ بآباب الخيرِ على عِنايته؛ فانه خَادِمُ الْحَرَمَيْنِ، والمُدْعُو لَهُ حتَّى في مَوَاقِفِ الْحَرْبِ بين الْعَلَمَيْنِ؛ حَامِي السَّوَادِجِ وَالْثَغُورِ، والمُتَعَدِّمُ بِإِيَادِي السَّعَائِبِ وَأَصَابِعِ الْبُحُورِ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جَعْفَرٍ فلست بمنصُور؛ والرَّأْيُ أَنْ تَقِفَ مُسْتَنْفِرًا، وتَقُولَ مُتَنَبِّرًا؛ : لم أفرط بالزيادة في أيامه، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقيل آثارِ جِوَادٍ خَيْلِهِ وَمَوَاطِنِ أَقْدَامِهِ؛ ونَتَّبِعَ نَوَاهِيهِ وَنَحْتَسِلَ أَوَامِرَهُ، ونَدْعُو لَهُ كَالرَّغَايَا بِطُولِ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَحُسْنِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع، أن يُرِينَا كَوْنَكَ نَوَكَّ عَنْ قَرِيبٍ رَاجِعٍ؛ وكأخفى زِيَادَتِكَ عَنِ الْاِسْتِغْنَاءِ، لَا يُجِوِّعُنَا فِي قَصَبِكَ إِلَى الْاِسْتِضْعَاءِ، إنه سميعٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البتلق)

تَجَمُّعُ قَتْمَةٍ بِكسرِ القافِ وسكونِ الدالِ المهملة، وهي زَمَائِلُ تُشْتَمَلُ عَلَى حالِ الرِّمِيِّ بِالْبَتْلُقِ، وأحوالِ الرِّمَاءِ، وأَسْمَاءُ طَيْرٍ الواجب، وأَصْطِلَاحُ الرِّمَاءِ وَشُرُوطُهُمْ .
وهذه نَسْخَةُ قَدِّمَةٍ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ
الأديب رحمه الله، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقَرَّرِ الْحَبِيبِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ، وَنَصَّهَا :
الحمد لله الذي سَدَّدَ لِصَلَاحِ الدِّينِ سَهَامٍ الواجب، وَشَدَّدَ بِتَحَاجِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ
الطَّالِبِ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّعْيِ فِي الْمَنَاجِبِ، وَسَهَّلَ الْمُتَتَبِعَ عَلَى
الْقَاصِدِينَ فَامْنَمَ مِنْهُ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبَ، شَهَادَةٌ تَزْجُرُ
طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي
قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى وَهُدًى عَلَى الْمَرَاتِبِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَفَعُوا فِي الْعِلْيَاءِ لِمَاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ، صَلَاةٌ يَسْبِقُ بِهَا الْمَصِلُ
إِلَى بِحَاجِ شَرَفٍ يَنْتَرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالْمُرُورِ وَلَا رُجُوعَ
الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وبعدُ، فَإِنَّ الْعَبِيدَ مِنْ أَحَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا، وَأَجَلَّهَا وَأَجْلَاهَا، وَأَهْبَرَهَا وَأَهْبَاهَا،
وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَاهَا، وَأَغْنَرَهَا قِيَمَهُ، وَأَغْنَرَهَا دِيَمَهُ، بِوُرُودِ الْعَلِيَّةِ فِيهِ إِلَى الْمَنَاجِلِ
تَنْشِيرِ الصُّدُورِ، وَبُوقُوعِهِ فِي شُرُورِ الشَّرْكِ تِيمَ الشُّرُورِ، يُحْصَلُ عِنْدَ مُتَعَاظِهِ
نَسَاطًا، وَيَزِيدُهُ أَنْبَاطًا، وَيُنْشِئُ خَاطِرَهُ، وَيُسْرِحُ نَازِلَهُ، وَيَبْلَأُ عَيْنَهُ قُرَاهُ،

وَقَلْبَهُ مَسْرَةً يُسَجِّجُ الْجَبَانَ، وَتَبَّتْ الْجَنَانُ، وَيُقَوِّى الشُّمُوهَ، وَيُسَوِّى الْخَطُوهَ؛
وَيَسُوِّى الطُّفْرَ، وَيُسَوِّى النَّظْرَ، وَيُرَوِّقُ مِنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرَ، وَيُقَوِّى فِيهِ الْخُبْرَ عَلَى
الْخَبْرِ. قَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ: قَلْبًا يَفْتَحُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِينُ مُرْبِعَ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، فَاسْتَمْتَعَ طَرَفُهُ بِضَرْبَتِهَا،
وَأَنْبَقَى مِنْظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَمْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَاصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَهَذَا دَرُ الْقَاتِلِ:
لَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.
هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!
يَا حُسْنَهُ مَنْ فَعَلَ أَعْتَلَّتْ بِالنِّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَقَاقَتْ أَوَائِلُهُ إِلَى اللَّذَائِذِ
أَوَانِرُهُ؛ وَهَذَا الْقَاتِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هِمَّةٌ وَنَشَاطٌ * يُغَيِّبُ الْحَسَمَ صَحَّةً وَصَلَاةً،

وَرَجَاءُ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إَصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْلَبَ الْاِكْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يَرَى مَوْجِعَ الْوَصْلِ بَعْدَ الصُّدُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَتَعْتُ. * أَحَبُّ نَتْنٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعْنَا!

تَقْفِي رِيَاضَاتِ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ بِمَاعِطَةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ
الْفُتُوهِ، وَجَلَالِ الْمُرُوءِ، وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ، وَطِبِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ
الْمِيتَاقِ؛ لَا يَمْرُقُونَ غَيْرَ الصَّدِّقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ بِصَاحِبِهِمْ
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِيَّمَا تَعَاطَى صَيْدُ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَهُ
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَمُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،
وَأُوتِيَةً إِلَى مَقَارِعِ الْمَاءِ.

لَا يَنْتُمْ سُرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَايَةٍ تَمَّ كَثِيرُ النِّعَمِ ، وَمِصْبَاحُ الظُّلَامِ ، يَفْرَ مِنْ ظِلِّهِ فَرَارًا ،
وَيُرِيكَ بَيَاضَ لَوْنِهِ وَسَوَادَ مِقْيَارِهِ شَيْئًا وَوَقَارًا ، وَلَا يُدَاوِي هُمُومَ لَقَبِهِمْ مِثْلُ كَيْ ،
لَا جُنَيْتُهُ الْخَوَافِي فِي الْخَافِقِينَ نَشْرُوعِي ، وَلَا تَنْهَجُ نُفُوسُهُمُ النَّفِيسَةَ إِلَّا بِأَوْزِهِ ،
يَزِيدِي دَلَالًا بِالْكَاسِبِ الْمَعْتَرَةِ ، وَلَا يُطْرِبُ أَصْحَابَهُمْ خَيْرُ لُغَاتِ الْفَلَاحَةِ ، حِينَ تَمْتَدُّ
كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ فِي الزَّجَاجَةِ مُفَرَّقَةٍ ، وَلَا يَقْرُسُهُمْ إِلَّا الْإِيْسَةُ الْإِيْسَةُ ، وَالِدْرَةُ النَّفِيسَةُ ؛
وَلَا يُلْغِبُ حَرَجَهُمْ غَيْرُ الْمُبْرُجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْفَفُ بِحُسْنِهِ كُلَّ غَايَةٍ وَرَاحٍ ، تَكَادُ
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَحِ عِنْدَ رُؤْيَا النَّسْرِ الطَّائِرِ ، وَتُجَبَّرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكَثْرِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛
إِذَا عَانِيُوا عِقَابًا أَعْقَبَهُمُ الْفَرَحُ ، وَزَجَّ عَنْهُمْ التَّرَجُّ ، وَإِنْ كَرَّ كَرَّ كَيْ فَرَعَهُمُ الْبُوسُ ،
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ التَّاجَ الَّذِي لَمْ يَعْلُ مِثْلُهُ عَلَى الرُّؤُوسِ ، وَإِنْ عَرَضَ غَيْرُ نَوْفٍ
غَيْرِ قَوَا فِي بِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُوا إِلَى أَنْ يَقَعَ يَحْمِلُ أَوْتَارِهِمْ ، وَإِنْ لَاحَ ضَوْعٌ
كَالْهَبِ الْمَصْبُوعِ ، أَلْقَوْهُ فِي الْحَيْسَالِ وَهُوَ بِدَمِهِ مَعْصُوبُغٌ ، وَإِنْ مَرَّ مِرْزَمٌ كَالْخُودَةِ
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ ، وَإِنْ مَرَّ السَّيْطَرُ أَجْنَيْتُهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَإِنْ عَزَّ عَمَدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ، قَدْ تَعَالَوْا
فِي رُتَبِهَا ، وَتَعَالَوْا فِي وَصْفِ وَشَيْهَا .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ صَنِيعَهُ ، وَرَبَّةَ جَمَالِ مَنِيْعِهِ ، وَبَعِيدَةَ الرَّيِّ بِدَيْعِهِ - -

مِنْ كُلِّ قَوَيْسٍ هِيَ فِي التَّيْنِ كَالْحَاجِبِ ، أَوْ النُّونِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تُدَوِّرُ
الطَّائِرَ عِنْدَ الرَّيِّ وَيُنْبِئُهُ ، وَتَهْنُؤُا أَيْنَمَا أَوَّلَى بِهِ مِنْ نَصِيْعِهِ . وَبُنْدُقٍ جُبِلَتْ طِينَتُهُ
عَلَى صَوْبِ الصَّوَابِ ، يَسْتَتِرُ الطَّيْرُ وَلَوْ اسْتَتَرَ بِذَيْلِ السَّحَابِ ؛ كَأَنَّهُ النُّجْمُ الثَّاقِبُ ،
وَالشَّهَابُ الصَّائِبُ ؛ يَرَى الطَّيْرُ كَالسَّحَابِ الْوَاكِفِ ، فَيَنْقَضُ عَلَيْهِ اقْتِحَاضَ الْبَرَقِ
الْخَاطِطِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّسْرُ مِنْ حَقِيْقَةِ رَأْيِنَا ، وَيَغْدُو بِعَدِّ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَإِنَّمَا ، وَيَصْبِرُ
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَامِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سَوَارِ الْقَسَى مَأْسُورًا ؛ فَهَذَا الَّذِي يُقَالُ الْغَالِبُ

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ حينئذ تَنفِرُ النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تماطنت الملوك وأبناء الملوك ، ونظّموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، واعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تَكْيِيسَ الأدوات ، وسامت به فيل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الحقوات ؛ فهو تعب تنشا الراحة عنه ، ولعب لم يكن شيء أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجانب الكريم ، العالى ، الصالح ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ؛ سليل الوزراء ، وتجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العظماء ؛ ابن المقر المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى مآليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرضى نفسه الكريمة بذلك ، ويحبيل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

• تَقَلَّ فَلذَاتُ الْمَوْتِ فِي التَّقَلِّ ! •

وعمد إلى تحصيل آلايه ، سائرًا كالسدر في هالاته ؛ فسار مع سرايا كالجُجُوم ، يتفككون في الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخطون جد القول يوزله ، كتب خلط لم طل الجود يوزله ؛ وأتحدروا في النيل بجمهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية ولم يفتنوا من الأيام بالريح ؛ وظلوا يسرون في تلك المراكب ، التي كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويُسِرُّون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البر متفرجين ، ويطلب ذلك النسم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَىٰ فِيهِمْ بَشِيرٌ * فَأَذْكُرُهُمْ بِمَعْرَاهِ الْمَرِيَا !
كَرَامَتُهُ أَسْتَفْزَتْ حِينَ وَاقَىٰ * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا !

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُصْبِ الرَّاهِي قَدَا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الرَّاهِرِ خَدَا ؛ وَيَتَأَمَّلُونَ
مِجْهَكَ الْأَرْضَ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُصْبِ عِنْدَ خَزِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَلْتَوِقُ أَجْفَانُهُمْ
طَعْمَ الْكَرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَانِئًا ، عَادَ مِنْ وَفْقِهِ لَهُ حَاشِيَا ؛ بَيْنَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقْصَرِينَ وَأَلْتَفُوا مُحَقِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَنْهَمُونَ الْعَيْشَ ، بِالْأَمَةِ
وَالطَّيْشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارَكُ الثَّانِي وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِمَاعَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِدَادِ ،
بِالْبَاقِ الْخِلْدَادِ ؛ فَجَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَلَّتْ بِأَجْجَحِيَّتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَهَبَلَتْ عَنْهَا
فِيهِ تَزُولُ الرِّيسُ ، بِفَادَتِ لَهُ بِالْتَفِيسِ ؛ وَنَحَرَتْ مِنْ قَشِيرِهَا ، وَسَمَحَتْ ضَنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْزِ تَحْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسْمِ ، وَتَرَى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ، فَبَالَهَ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكَابِرِ الصَّيْدُ !
وَبَالَهَ مِنْ يَوْمٍ صَادَرَ بِخَيْرِ الطُّيْرِ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَاجِبٍ مَاشِرُهُ الرَّمَاةَ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مُسْتَدِ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
نَجِيًّا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَتَوَرَّى بِمِرَادِهِ الْمُقْبَلُورَ ، وَيُعْطِيهِ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ تَنَظَّمْتُ مُجْتَمَعًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرِزْتُهُ بِأَنِمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِسْمَةَ قَدْ قُدِّمَتْ لَهُ وَجُعِلَتْ بِرَتْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَخَذْتُ مِنْهَا ، لَعَلَّمْتُ مَادَّةَ عِنْدِي
أَسْتَمُدُّ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تَطْلُعُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِ،

وَأَشْرَبَ هَيْثًا وَأَسْفَى بِاصْبَاحِ، * وَأَذْكَرَ زَمَانًا مَرَّ بِالْأَفْوَاحِ،

* هَبَّتْ بِهِ فَيَا مَعْنَى رِيَّاحِ ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَتَحَبَّبُ الْأَكْبَرَاءِ، * وَأَقْتَسِدِي مَعَ الرِّمَاءِ سَائِرًا،

وَلَا أَزَالُ بِالْبَيْارِغَاتِرَاءِ، * إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرًا،

* نَحْوَهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِ ! *

فَتَارَةً كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَ الْعُقَابِ يَنْحِي الْجَمْرَا،

وَالْكُفَى وَالْكُرْكِيَّ صِنْتُ جَهْرًا، * وَصِنْتُ غِرَاقًا وَصَقْرًا قَهْرًا،

* وَكُنْتُ بِالْإِوَرِّ فِي أَنْشِرَاحِ ! *

وَتَارَةً تَمَّا كَبَدِيرُ السَّمِّ * تَقْبِيهِ أَنْيَسَةُ كَالنَّعْمِ،

وَلَفْلَغُ أَسْوَدٍ مِنْكَ الْمَمِّ، * وَجُرْجُ عَنْ الرِّمَاءِ عَيْحِي،

* وَالضُّوْعُ مَعَ سَيْطَرِ^(١) سَيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِنْتُ يَوْمًا رَمَا * أَتَزَلُّهُ بِالْقَوَيْسِ مِنْ جَوِّ الْمَاءِ،

جَنَاحُهُ يَنْحِي طِرَازًا مُعَلَّبَا، * عَلَى بِيَاضِ شَيْءٍ شَبِهُ الدَّمَا،

* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقَبُولِ، * وَشَمْلَانُ يُجْمَعُ بِالشُّمُولِ،

فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ قُضُولِي، * وَجَامِنَا التَّوْقِيعُ فِي الْوُصُولِ :

* فَسَادُكُمْ يُفْقَرُ بِالصَّلَاحِ ! *

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالكين المعجبة مضروبة .

السَّيِّدُ الْفَاتِي فِي أَمْصَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَسْطِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ التَّنَاقُصِ ، * لَا أَحَدٌ يَنْصَحِيهِ فِي نَوَالِهِ :
* لَا أَخُوهُ مُعِيدُ السَّلَاحِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلُ الْمَالَ بِلا حِسَابِ^(١) !
زَادَهُ اللَّهُ نِعْمًا ، وَأَجْرِي لَهُ فِي النَّدَى يَدًا وَتَبَّتْ لَهُ فِي الْعَمَلِ قَدَمًا بِمَنْتِهِ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيِّدِ الْبُنْدُقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الشتاء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عُلُوِّهِ وَأَجْبَا ، وَسَعَدَهُ
كَوْصِفِ عَيْدِهِ لَسَاةَ جَالِيَا ، وَلَقَضَارَ حَاجِبَا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوَّنَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ، وَتَحَضَّنَا عَلَى اخْتِذِ حَقِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحَنَّنَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ، وَتَاخَذَ بِهَا طَوْرًا
فِي الْجِدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَصَرَّفْنَا مِنْ مَلَذَّةِ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّيِّبُ . فَتَارَةً تَقِيلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكَرْيِ ، وَمُهَاجِرَةِ الْأَوْتَارِ ، وَمُهَاجِمَةِ الْأَخْطَارِ ، وَمُكَابِدَةِ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادَرَةِ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تَدْرُكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَابِرَ ، وَفَلاكَ مِنْ تَحَايِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يَذُمُّ الْمُحِرِّضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةُ لَعِبٍ يُخْرِجُ إِلَيْهَا مِنْهَا
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

على مُلَاذِمَةِ الصَّدِيقِ وَمُجَانَبَةِ الْمَلِكِ؛ فَيَتَسِفُّونَ إِلَيْهَا الدُّجَى، إِذَا جَعَى؛ وَيَقْتَحِمُونَ
فِي بُلُوغِهَا حَرَقَ النَّهَارِ، إِذَا أَنْهَارَ؛ وَيَتَنَعَّمُونَ بِوَعْتِهِ السَّفَرِ، فِي بُلُوغِ الظُّفَرِ؛
وَيَسْتَصْرِغُونَ رُكُوبَ الْخَطَرِ، فِي إِدْرَاكِ الْوَطَرِ؛ وَيُؤَثِّرُونَ السَّهَرِ عَلَى النَّوْمِ، وَاللَّيْلَةِ
عَلَى الْيَوْمِ؛ وَالْبُنْدَقِ عَلَى السَّهَامِ، وَالْوَحْدَةِ عَلَى الْإِكْتِثَامِ.

وَلَمَّا عُدْنَا مِنَ الصَّيْدِ الَّذِي أَتَقَبَّلُ بِهِ حَدِيثُهُ، وَشُرِّحَ لَهُ قَدِيمُ أَمْرِهِ وَحَدِيثُهُ؛ ثَقْنَا
إِلَى أَنْ نَسْقَعَ صَيْدَ السَّوَاحِجِ، بِرَيْهِ الصَّوَادِحِ؛ وَأَنْ نَفْعَلَ فِي الطَّيْرِ الْجَوَارِحِ، بِأَهْلَةِ الْقَيْسِ
مَا تَفْعَلُ الْجَوَارِحُ، تَفْضِيلًا لِلْمُلَازِمَةِ الْإِرْتِمَالِ، عَلَى الْإِقَامَةِ فِي الرَّحَالِ؛ وَأَخْذًا بِقَوْلِهِمْ:

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبَّرَةً * إِلَّا التَّثَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ!

فَبِرْزَا وَتَمَسَّ الْأَصِيلَ تَجُودَ بِنَفْسِهَا، وَتَسِيرُ مِنَ الْأَفْقِ الْفَرَبِ إِلَى مَوْضِعِ رَمْسِهَا؛
وَتُنَازِلُ عِيُونَ النَّوْرِ بِمَقْلَةٍ أَرْمَدَ، وَتَنْظُرُ إِلَى صَفَحَاتِ الْوَرْدِ نَظَرَ الْمَرِيضِ إِلَى وَجْهِهِ
الْمُؤَدِّ؛ فَكَأَنَّمَا كَتَبَتْ أَحْمَى مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى فَرْقٍ، أَوْ عَلِيلٌ يَقْضِي بَيْنَ صَحْبِهِ بِقَايَا مُدَّةِ
الرَّمَقِ؛ وَقَدْ أَخْضَلَتْ عِيُونَ النَّوْرِ لَوْدَاعِهَا، وَهَمَّ الرُّوضُ بِجَلْعِ حُلَّتِهِ الْمُتَوَعَّةِ بَنَهِبِ
شُعَاعِهَا:

وَالطَّلُّ فِي أَعْيُنِ النَّوَارِ تَحْسَبُهُ * حَمَمًا تَحْمِرُ لَمْ يَرَقًا وَلَمْ يَكْكِفْ:

كَلُّوْهُ ظَلَّ عَطَفُ الْعَصْنِ مُشْجَعًا * بِعَقْدِهِ وَتَبَدَّى مِنْهُ فِي شَتَفِ.

بُضْمٌ مِنْ سُنْدِسِ الْأَوْزَاقِ فِي صُرُرِ * خُضِرٍ وَيُجْنَى مِنَ الْأَزْهَارِ فِي صَدَفِ!

وَالشَّمْسُ فِي طَلْقِ الْإِنْسَاءِ تَنْظُرُ مِنْ * طَرْفِ غَدَاوِهِمْ خَوْفِ الْفِرَاقِ خَفَى:

كَهَاشِقِ سَارَ عَنْ أَحْبَابِهِ وَهَفَا * بِهِ الْمَوْتُ قَرَأَ أَهْمٌ عَلَى شَرْفِ.

إِلَى أَنْ نَقَى الْمَغْرِبُ عَنِ الْأَفْقِ حَلَى قَلَائِدِهَا، وَعَوَّضَهُ عَنْهَا مِنَ النُّجُومِ بِحَدَمِهَا
وَوَلَّائِدِهَا؛ فَلَيْلُنَا بَعْدَ آدَاءِ الْفَرَضِ لَيْثُ الْأَهْلَةِ، وَمَتَعْنَا جُفُونَنَا أَنْ تَرَدَّ النَّوْمُ

إِلَّا نَحْلُهُ ، وَتَهَضُّنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوسَّعٌ ، وَعِقْدُهُ مَرَصَّعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ جُجُوعَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعْتَبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبَقَرُهُ فِي حَشَا مَطَالِيعِهِ مُسْتَجِنٌ ، كَانَ
أَمْتَرَجَ لَوْنِهِ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مَسِيكٍ وَصَنَدَلٍ ، وَكَأَنَّ ثَرِيَّاهُ لَامْتَدَادُهُ مُعْلَقَةٌ
بِأَمْرَاسٍ تَكْنَانٍ إِلَى صُمِّ جَنَدَلٍ :

وَلَا حَتَّ جُجُومِ اللَّيْلِ زَهْرًا كَأَنَّهَا * عُوْدٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزُّنْجِ تُنْظَمُ ،

مُحَلَّقَةٌ بِالْمَوْجِ تُحَسَّبُ أَنَّهَا * [طُيُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْحَبْزَةِ حُومٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصُّبْحِ وَلَّتْ يَوْمُهَا * إِلَى الْقَرِيبِ خَوْفًا مِنْهُ نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةٍ ، وَجَدَائِلِ مُتَعَفِّةٍ ، إِذَا نَحَشَ النَّسِيمُ حُصُونَهَا اعْتَنَقَتْ اعْتِنَاقَ
الْأَحْجَابِ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرَّ الْمِبَاهِ مَثُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَائِلِ أَنْبِيَابُ الْحَبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاحِلِ رَقَصَ الْجِلَابِ ، وَإِنْ لَمْ تُنَوِّرْ نُورُهَا حَيَّتْهُ بِأَفْئَاسِ الْمَشُوقِ ،
وَإِنْ أَيْقَظَ نَوَاسِ وَرَقِهَا غَشَّتْهُ بِالْحَانَ الْمَشُوقِ ، فَلَسِيْمُهَا وَأَنْ ، وَتَسِيْمُهَا لَعْرِفَ الْحَنَانِ
عُنُونٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَرَجِيْسِيهَا ضَيْرَانٌ :

وَطَلَّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنِيْمَةٌ * طَوْرًا وَفِي طُرَرِ الرِّيحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَيْرِدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطَرِدٌ ، وَغَضَبُهَا تَارَةٌ يَطْلِفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةٌ
يُعَلِّلُ تَحْتَهُ وَرَقَاتِهِ فَيُحَسِّبُ أَنَّهَا هَمْزَةٌ عَلَى أَلْفٍ ، مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَاقُفٍ
الْحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كُلَّمَا أَعْلَلُ النَّسِيمُ مَعَ الْأَرَجِ كُلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبِ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ النُّصُونُ إِذَا تَنَّتْ * أَعْطَافُهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا اقْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَافِهَا * صَلُحٌ وَمِنْ تَفْجِيحِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَاسَا * شَرِبٌ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَلَسٌ وَعَدْبُ نَطَافِهَا * رَاحٌ وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ حَبَابُ !

يحيط بملقي فطافها صاف، وظلال دوحها صاف، وحصاها لصقاً ما فيها في نفس
الأمير راكد وفي رأي العين طاف؛ إذا دغدغها النسيم حسبت مامها بتمايل الظلال
فيه يتبعج ويحيل، وإذا أطردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الفصون نارة
تتوَّج وتارة تسيل :

فكانه حُب هام بالفصون هوى فقلها في قلبه، وكان النسيم كلف بها غار من
دونها إليه ليلها عن قربه :

والنور مثل عرائس * لفت عَيْن الملاء،

شمرن فضل الأزر عن * سوق خلاخلهن ماء،

والنهر كالسراة تنظر وجهها فيه السماء !!!

وكان صواف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو غلباء بأعلى الرقبتين قيام،
أو أباريق فضية رؤوسها لها أقدام، ومناقيعها المحمرة أوائل ما أنسكب من الندام،
وكان رقابها رماح استنها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما أنطلق وأحمره
ما ألتهب، وكما كالطير الجليل عنه، وكطراز العمر الأول جلته :

من كل أبلج كالنسيم لطافة * عف النسيم مهدب الأخلاق،

مثل البُور ملاحه، وكعمرها * عدداً، ومثل الشمس في الإشراق !

ومهم قسي كالنصون في لطافتها ولينها، والأهله في تحافتها وتكوينها، والأزاهر
في ترائتها وتلوننها، بطوننا مدبجه، وتوتونها مدرجه، كأنها كواكب الشولة في أنمطاتها،
أو أرواق الغطاء في أنصافها، لأوتارها عند القوادم أوتار، ولبناديقها الحواصل
أوكار، إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن انتصت لرمي بدا لها
أنها أحق به من نصيبه، ولعل ذلك الصوت زجر لئنديقها أن يبطى في سيره،

أَوْ يَقْطَعُ النَّرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى
خُرُوجِ بَيْتِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْمَرْءِ ، وَشَفَعَتْ لِحُصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْقَارِبِ أَذْنَابًا مُعَقَّدَةً * لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَا !
إِنْ مَسَّهَا قَمَرٌ مِنْهُمْ وَعَيْنُهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرَا ،
فَهُوَ الْمُسَيِّءُ أَخْيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرَا * وَقَدْ رَأَى طَالِعًا فِي الْمَقَرِّبِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبَيِّنَاتِ كُرَاتُ مَفَقَّةِ السَّرْدِ ، مُتَّحِدَةُ الْعَكْسِ وَالطَّرْدِ ، كَأَنَّهَا تُحِرِّطُ مِنَ
الْمُنْدَلِ الرُّطْبَ أَوْ تُجَيِّتُ مِنَ الْعَبْرِ الْوَرْدَ ؛ تَمْرِي كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسْتَدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ الثَّجُومِ إِذَا مَاسَرَنَ فِي أَفْقِي * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُوبُهَا رَأَى .
مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِيتْ * إِلَّا تَبَاتُ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاهُ ،
تَمْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَيْمُ بِهَا * كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاهُ ،
وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافِقًا فِي الدِّيَارِ وَيَعِي صَمَاءُ !!!

يَصُونُهَا بِجَاوَةِ كَأَنَّهَا دُرٌّ دُرٌّ ، أَوْ دُرٌّ غُرَّرَ ، أَوْ كَيَامَةً تَمْرَ ؛ أَوْ كَأَنَّهَا نَبْلٌ ،
أَوْ غَمَامَةٌ وَبَلْ ؛ سَالِكَةُ الْأَيْدِمِ ، كَأَنَّهَا رُقِيتْ بِالشَّقِي حُلَّةً لَيْلَهَا الْبَيْمُ :
كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَبَتْ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَيْجِمُ ،
أَوْ دَيْمَةً قَدْ أَطْلَمَتْ قَوْمَهَا * مُلَوًّا وَأَنْبَقَتْ تَسْجُمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهُ مَرَكَّزًا ، وَتَقَفَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجَزَا ، وَحَنَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمَرَادِهِ مُرْزَا :

كَأَنَّهُمْ فِي يُمْنٍ أَعْصَلِمِ * فِي نَظَرِ النُّصَيْفِ وَالْجَاهِدِ :

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِحٍ وَاحِدٍ ، * وَأَشْرُقُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ !

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنَحَتِهَا مَصَابَهُ ، مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعَ
يَرْتَادُ مَرَّتَمًا ، فَوَجَدَ وَلَيْكِنْ مَصْرَعًا ، وَأَسَفَ يَتَنَبَّأُ مَاءَ جَمًّا فَوَجَدَ وَلَيْكِنْ السُّمَّ مُتَقَمًّا ،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا قَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُجَدًّا لِمَحَارِبِ الْقَيْسِ وَرُكْمًا ، فَتَبَرَّكَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَلِيلِ ، وَتَدَارَكَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوَّلُنَا تَمَامَ بَدْرِهِ ، وَعَظَمَ فِي نَوَعِهِ وَقَدْرِهِ ، كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٍ فِي خَسَقٍ ،
أَوْ صُبُحَ عَطْفٍ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطْفَ النَّسَقِ ، تَحْسِبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمُنَى غُرَّةَ مُنْجٍ ،
وَتَحَالَهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةَ صُبُحٍ ، عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ ، وَلَهُ كَدْحَيْنِ صَبِيرٍ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ ، لَهُ عُنُقُ ظَلِيمٍ ، وَالْثِقَانَةُ رِيمٌ ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمِثْبَبِ ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ ، * وَوَقْتِ الْوَصَالِ ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ !

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِثْقَالُهُ ثُمَّ قَرَأَ !

فَارْسَلْ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا ، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ نَجْمًا ، فَاسْتَبْشَرَ بِنَجْمَاتِهِ ،
وَكَبُرَ عِنْدَ صِبَاغِهِ ، وَحَصَلَهُ مِنْ وَسْطِ الْمَاءِ بِجَنَاتِهِ .

وَتَلَاهَى كُنَى نَفْيِ الْبَاسِ ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاسِ ، كَأَنَّهُ فِي عَرَانِينَ شَبِيهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ ، إِنْ أَسَفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَامَ ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاتِهِ فَقُلِعَ لَهُ بَيْدُ النَّسِيمِ زَمَامٌ ،
ذَوْعِيَّةٌ كَالْخِرَابِ ، وَنِيقَارٌ كَالْخِرَابِ ، وَلَوْثٌ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيَجْدَعُ فِي الضُّحَى
كَالسَّرَابِ ، ظَاهِرُ الْحَرَمِ ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ طَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِمَامٍ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْقَدِيرِ حَسْبَتَهُ * مُبَيَّضَ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ ،

أَوْ كَارَ فِي أَقْسَى السَّمَاءِ ظَنَنَتَهُ * فِي الْحَوْ شَيْعًا طَائِمًا فِي مَاءٍ ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِيفَةُ الْشُّجْهَالِ تَحْتَ رَزَانَةِ الْمَلَسَاءِ!

فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عَنَانَ بُنْدَقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَجُحِّهِ ، نَحْوَ كَارِدِ آقَقُصْ
عَلَيْهِ تَحِيَّ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَثِيرَ بِالْكَثِيرِ ، وَأَخْطَفَهُ قَبْلَ مَصَالِحَةِ الْمَاءِ مِنْ
وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِرْوَةً حَلَبَاءَ دَنَكْلَاهُ ، وَحُلَّتْهَا حَسَنَاءُ ؛ لَهَا فِي الْقَضَاءِ بَحَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ
ذَوَاتِ التَّبْرِشِجِ وَخَفَرِ رِبَاتِ الْجَمَالِ ؛ كَأَمَّا عَيْتٌ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَهَبٍ ؛
تَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَسْأَلُنِي فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعْطِفُ بِجِيدِهَا كَالْعَلْبِ
الْقَرِيرِ ، وَتَتَدَانَعُ فِي سَيْرِهَا مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَحْطَرَةً صَكَاعِبِ * رَدَاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمِ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرَّيْحُ : لَيْتَ لِي * حَقًّا ذِي الْخَوَافِ أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَانْهَمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرِ ، * وَأَحْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ ثَمَنُ قَادِمِ !
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَفَ بَوَاجِهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفُعِهَا مُنْعِنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ
عَلَى حُكْمِهِ مُدْنِعَةً ؛ فَأَعْجَلَهَا عَنْ أَسْكَالِ الْمُبْطُوطِ ، وَأَسْتَوَلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَاقَتْهَا لَغْلَغَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشِبْهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرْبِي عَلَيْهَا بَغْزَتَهَا ،
وَتُنَافِسُهَا فِي الْحَاسِنِ كَفَرَّتَهَا ؛ كَأَنَّهُمَا مُدَامَةً قُطِبَتْ بِمَآئِنِهَا ، أَوْ عَامَةً شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ
تُجُومِ سَمَائِهَا :

بُشْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْمُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النِّجَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خِلَّتَهَا * فِي الْحُلَّةِ الدَّنَكْلَاءِ بَرَقَ النِّجَامِ !

فَتَهَضُّ الرَّابِعُ لِأَسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ ظَنِّكَ سَعِيدُهُ بِتَحِيَّ وَبِأَلْسِنَا ؛ بَلَغَتْ فِي الْمُلُوكِ
مُبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدَقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَهُ ؛ وَأَقْفَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابُ حَنَفِها، وأدركها الأَجَلُ لَحْفَةً طَيَّرَها من خَفِها، فوَقَعَتْ من الأَثَرِ في كَفِّه،
وَنَفَّرَ ما في بَقايا صَفِّها عن صَفِّه .

وَأَتَتْ في إِثْرِها أَيْسَةً آتَيْتَه، كَأَنَّها المَدْرَأُ العائِسَه، أو الأَدَماءُ الكائِسَه، عليها
خَفَرُ الأَبْكارِ، وَخَفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ المَعانِي التي تُجَلُّ على الأَفْكارِ، وَلِها
أُنْسُ الرِّيبِ، وإِذْلالُ الحَيِّبِ، وَتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبَ من خَوْفِ الرِّيبِ، فَاتُ صُنِّي
كالإِبريقِ، أو النُّصْنِ الوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ، وَصَدْرُ هِيَ
الملبوسُ، شَبَّهَ إلى النُّفوسِ، كَأَنَّمَا رَقِمَ فيه النَهارُ بالليلِ أَوْ قَشَّ فيه العَاجُ بالابْتُوسِ،
وَجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَبِ، يَحْكِي لَوْنُها المَنْتَدِلَ الرُّطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدَيِّمَةُ الصَّدْرِ تَقْوِيكُهُ * أَضَافُ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهارِ!

لِها عُنُقُ خَالَه من رَاكِهِ * شَقَائِقُ قَدْ سُبِجَتْ بالبَهارِ!

فَوَثَبَ انْخِلَامُها مِنْها إلى الغَنيمَةِ، وَنَظَمَ في سِلَكِ رَمِيهِ تلكَ الدَّرَّةَ اليَتيمَةَ، وَحَصَلَ
بِقَصْفِها بَيْنَ الرِّمَاءِ على الرُّبَّةِ الجَسيمَةِ .

وَأَتَى على صَوْتِها حُبْرُجٌ تَسْبِقُ هِمَّتَهُ جَنَاحَهُ، وَيَقْلِبُ خَفَقُ قَوادِمِهِ صِبَاحَهُ، مُدَبِّجُ
المِطَا، كَأَنَّمَا خَلَعَ حُلَّةَ مَنَكِيكِهِ على القَطَا، يَنْظُرُ من قَلْبٍ، وَيَحْطُطُ على رِجْلَيْنِ من ذَهَبٍ:

يُزُورُ الرِّياضَ، وَيَحْفُو الحِياضَ * وَيُسَبِّحُ في اللَّوْنِ كُدْرَ القَطَا،

وَيَغْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُوها، * ولا يَرِدُ المِاءَ إِلا خَطَا!

فَبَدَّرَهُ السَّادُسُ قَبْلَ ارْتِفَاعِهِ، وَأَعَانَ قُوَّتَهُ بِامْتِدَادِ بَاحِهِ، نَحَرَ على الأَلَاءِ كِبِساطِ
أَبْنِ قَيْسٍ^(١)، وَأَقْبَضَ عليه رَأْيِهِ لِحْمَلِهِ بِحُلِيِّ وَحَلِهِ بِكَيْسٍ .

(١) يَشْيرُ إلى قولِ الشَّاعرِ في بَسْطامَ :

نَحَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَرْسُدْ * كَأَن جِيهَ سَيْفٌ مَقْبِلُ :

الأَلَاءُ: بوزن الملاء. شِعْرٌ والأَلَاءُ أَخَصُّ منه .

وتصدّر على السابح مرامه ، ونبا عن بلوغ الأرب مقامه ؛ فصعد هو وترّب له
الى جبل ، وثبت في موقفه من لم يكن له بمراقبتها قبل .

فمن له تسرفو قوائم شداد ، ومناير حداد . كأنه من سُور يُقْبَنُ مَاد ؛ تحسبه
في السماء ثالث أخويه ، ونخاله في الفضاء قبته المنسوبة إليه ؛ قد خلق كالفقراء
رأسه ، وجعل مما قصر من الدلوّك الدّكن لباسه ؛ وأشتمل من الرّياش القسليّ
إزارا ، وألف المزلة فلا تجد له إلا في قنّ الجبال الشّواهي مزارا ؛ قد شابت نواصي
الليل وهو لم يسب ، ومضت النّهور وهو من الحوادث في معقل أشب :

ملكك طيور الأرض شرقاً ومغرباً * وفي الأتقي الأعلى له أخوان !

له حال قتاك ، وحيلة ناسك ، * وإسراع مقدام ، وفرة وأن !

فدنا من معطاره ، وتوتئى ببنده عثقه فوق في منقاره ؛ فكأما هدّ منه مخزأ ،
أو هدّم به بناء مشمخزأ ، ونظر إلى رفيقه ، مبشراً له بما أمتاز به عن رفيقه .

وإذا به قد أظفنه عقاب كاسر ، كأما أضلت صيدنا أفلت من المناسر ؛ إن
حطت فسحاب أنكشف ، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً وبأساً لدى
وكرها العناب والحشف ، بعيدة ما بين المناكب :

إذا أقلمت بلت علواً كأنما * نحاول نارا عند بعض الكواكب !

يرى الكبير والوحش في كفها * ومنقاريها ذا عظام مزاله .

فلو أمكن الشمس من خوفها * إذا طلعت ما تسمت غزاله !

فوثب إليها التام وثبة لث قد وثق من حركاته بتجاعيها ، وربما بأول بندقة فـ
أخطأ قادمة جناحها ؛ فأهوت كمود صريع ، أو طود صديع ؛ قد ذهب بأسها ،

وَتَدَّهَبُ بِدَمِهَا لِإِسْهَاهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُجَادِعُ الْجَوَّ عَنْ عُنَايَاهُ ، وَيَسْتَنْزِلُ الْأَغْصَمُ مِنْ عُنَايَاهُ ؛ لِحَمَلِهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ ، وَرَفْعِهَا بِسَدِّ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَاهُ مِنَ الْحَضِيضِ ، وَنَزْلُهَا إِلَى الرَّفْعَةِ ، جَذْلًا بِرَيْحِ الصَّفَقَةِ .

فوجد التامع قد مر به كركي طويل الشفار ، مريع الثمار ، شوي الفراق ، كثير الاقتراب يستو ويمصر ويصيف بالعراق ؛ لقوادمه في الجو حفيف ، ولأديمه لون سماء طرا عليها غيم خفيف ؛ تين إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ؛ له أثر مخرمة في رأسه كوميض جمر تحت رماد ، أوقية جرج تحت ضناد ، أو فص عقيقي سفت عنه بقايا نمد ؛ ذو منقار كستان ، وعني كنان ؛ كأنما ينوس ، على عودين من أبثوس :

إِذَا بَدَأَ فِي أَفْئِي مُقْلَمَا * وَالْجَوْ كَالْمَاءِ تَقَاوَيْفُهُ

حَسِبْتَهُ فِي لُحْيَةِ مَرْكَا * رَجُلَاهُ فِي الْأَفْئِي مُجَادِفُهُ

فصبر له حتى جازه مجليا ، وعطف عليه مصليا ؛ نخر مضرجا بدمه ، وسقط مشرقا على عذمه ؛ وطالما أفلت لدى الكوايسر من أظفار المنون ، وأصابه القدر بحجة من حمي مسنون ؛ فكثرت الكبر من أجله ، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غير توفى حكا في زيه وقدره ، وأماز عنه بسواد رأسه وصدره ؛ له ريشان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنيه مكان شفه :

لَهُ مِنَ الْكُرْكِيِّ أَوْصَافُهُ * سِوَى سَوَادِ الصَّدْرِ وَالرَّاسِ .

إِنْ شَالَ رَجُلَا وَأَنْبَرَى قَائِمًا * أَفْقَيْتَهُ هَيْئَةَ رَجَاسٍ !

فأضنى العاشر له منصفاء ورماء متلفتا ؛ نخر كأنه صريع الألحان ، أو تزييف بنت الحان ؛ فاهوى إلى رجله بيده ، وأقصص عليه آهضاض الكاسر على صيده .

وَيَمِمْهُ فِي الْمَطَارِ صُوعٌ ، كَأَنَّهُ مِنَ النَّصَارِ مَصْنُوعٌ ، تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَثَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلُهُ رِجْلَاهُ مُسَوَّدَةٌ * كَأَنَّمَا مِيقَارُهُ خَنْجَرٌ
مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَثْمَلُط * جَاءَتْ فِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرُ!

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَبَ ، وَرَمَاهُ حِينَ حَازَاهُ مِنْ كَتَبَ ، فَسَقَطَ كِفَارِيْسُ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ ، أَوْ وَاثِقُ أُصِيبَتْ حَبَّةُ قَوَادِهِ ؛ حَمَلَهُ بِسَاقِهِ ، وَحَدَلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْرَبَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ نَمِيٌّ مَعْرُوفٌ ، ذُو مِيقَارٍ كَصُدُجٍ مَعْطُوفٍ ؛ كَانَ
رِيَاشُهُ فَلَقَ أَنْتَصَلَ بِهِ شَفَقٌ ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ حَلَقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقَ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التَّلُجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ :
إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قُلْتُ بَرَقَ فِي الدُّجَى سَارِي !

فَانْقَضَاهُ الثَّانِي عَشَرَ مِثْمًا ، وَرَمَاهُ مُصَمًّا ؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ ، وَحَصَلَهُ مِنْ قُوْرِهِ ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ السَّرُورِ مَا خَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَأَلْحَقَ بِهِ سَيْطَرٌ ، كَأَنَّهُ مِدْبَهُ مَيْطَرٌ ؛ يَخْطُ كَالسَّيْلِ ، وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْخَيْلِ ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيهِ بَيْنَ ضِدَيْنِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُذْبَرُ بِاللَّيْلِ ؛ يَتَلَوَّى فِي مِيقَارِهِ الْأَيْمِ ،
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي الْيَمِّ :

تَرَاهُ فِي الْجَوْمِ مُتَمَدِّدًا وَفِي قَه * مِنَ الْأَقَاعِي شِبَاعٌ أَرْقَمُ ذِكْرُ:
كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَأَيْمٌ عُنُقُهُ يَدُّهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَةُ الْوَتْرُ!

(١) هو بوضم الصاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو - ويورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :
”صُوعٌ“ فأظنر ما كتبه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه ، فقطع لحيه وعنقه ؛ فوقع كالصرح المرد ،
أو الطرف الممدد .

وأتبعه عازراً أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ؛ كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره ، أو أنطوى على هالة بذره :

ترآه في الجو عند الصبح حين بدا * مسود أجنية مبص حيّزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فمنض تمام القوم إلى التيمه ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المندممه ؛
وفدا ذلك الطير الواجب واجبا ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عينا أو تبرز
حاجبا ، فإلما ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل تميل مجتمع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كقوائد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحتا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داحين للول جُهدنا ، مُدعين له قِلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صرنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرّف بخدمته والاتباء إليه :

فأنت الذي لم يلف من لا يؤده * ويُدعى له في السر أو يدعى له :

فإن كان ربي ، أنت توضح طرقة ، * وإن كان جيش : أنت تحي قيلة !

والله تعالى يعمل الآمال منوطه به وقد فعل ، ويعمله كهفاً للأولياء وقد جعل ؛
بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرقات)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكة وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب المقد، فتطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدقي، كتبت به لملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأثنى قبل سلطته، بالقلمة المحروسة، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكه؛ الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا، وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيما وملكا كثيرا، وأفرد نهارهم بتفريسه حتى أفاد تيمس آمالهم ضياء وزاد قهرها نورا، وشرف به واصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا، مهية أسباب التوفيق العاجلة والأجله، وجامل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُور والآلهة أهله، جامع أطراف القنار لدوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسنَ عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،
وكل لأخبارهم الأجتناس من العز والأنواع، وأنى آملهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، مليةً بتشريف الأئسنة وتكريم الأسماع؛ ونصل على
سيدنا محمد الذى أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه
داراً لهم فى كل دار، وبقره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنىة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به فى تفضيله، لما استصلح
البسدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الفيت شيئاً من الرياض لمطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الأئسنة لترتبيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن
ليتشرف بيت يحل به القمر، وتبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور،
وينار بجمل اللآلى والدُرر؛ ولذلك تجملت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضراره
وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمده الوجود، وتقرير أمر يقارن سمد
الأخية منه سمد السمود؛ وإظهار خطية قول للثريا لا تنظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة بجمل برصيع جوهرها متن السيف الذى يفضله على إبداع هذا
الجوهر به كل سيف؛ ونسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،
ويتق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختار لها أبرك طالع؛ وكيف لا تكون
البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَامَ الشريفة السلطانية أَرَادَتْ أَنْ تُحَصِّنَ المَجْلِسَ السامى بالإحسان
 المُبْتَكِرَ ، وتُفَرِّدَهُ بِالْوَاهِبِ التى يُرْفَعُ بِهَا الحُدُ الْمُتَضَيِّ وَتُعْطَمُ الحُدُ الْمُتَنْظَرُ ،
 وأن تَرْفَعُ من قَدْرِهِ بالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صلى الله عليه وسلم من قَدْرِ صَاحِبِيهِ :
 أبى بَكْرٍ وَعُمَرُ ، فَعَطَبَ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ من تَحْمِيهِ السُّيُوفِ الْمُشْرِفِيهِ ،
 وَأَعَزَّ من تُسْبِلَ عَلَيْهَا سُتُورَ الصُّونِ الْخَفِيهِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُدُورُ الْجَلَالِ الرُّضِيهِ ،
 وَتُجَمَّلُ بِنِعْمَتِهَا الْعُقُودُ : وكيف لا ؟ وهى الدُّرَّةُ الْأَلْفِيهِ ؛ فقال والنَّهْأ وهو الأميرُ
 المذكورُ : هكذا تَرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُرَّان ، وكذا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !! ؛
 وما أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ المَرَامِ الشريفة السلطانية له نَحِيلَهُ ؛ وَأَشْرَفَ
 سَبَقًا غَدَتْ مِنْطَقَةُ بَرْوَجِ سَمَانَتَا لَهُ نَحِيلَهُ ؛ وما أَعْظَمَهَا مُعْجَزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ من
 لَدُنْهَا مُسْلَطَانًا ؛ وَزَادَتْهُمْ مع إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ؛ وما أَغْنَاهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ
 لِإِبْرَاهِمَا : لَيْتَ ؛ وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيهِ كَرَّمَتْ سَامَانَتَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ من أَهْلِ الْبَيْتِ ! .
 وإِذْ قد حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فى رَفَعِ قَدْرِ المَمْلُوكِ ، وَخَصَّصَتْ بِهِ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ التى
 تَفَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَارِ المَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِلْمَلِكِ الْبَاسِطَةِ فى رَفَعِ دَرَجَاتِ عِبِيدِهِ كَيْفَ
 يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَّقُوهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَامَسْتُ وَمَا حُ انْخَطَّ وَأَقْلَامُ انْخَطَّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ
 مَطَالِيعُ التُّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى تَقْلِيمِ سَطُورِهِ ؛ فَاضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَلَتْ
 نَوَاهُ بِالْإِحْسَانِ فَافْتَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاثُ تَجَنُّيسِ لَفِظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْاعْتِرَافُ :
 هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَأَ تَحَارِيرَ
 الْأَحْسَابِ نَحَارًا ، وَتَجَرَّةَ الْأَنْسَابِ يَمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضَافَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشَّرع لكان أقاليم ومدائن وأنصارا؛ فَبَدَل لها من العَيْنِ المِصرِيَّة ما هو باسم والدِها قد تَنَزَّهَ ، وبُغْيُوته قد تَعَرَّفَ ، وبين يَدَيَّ هِباتِهِ وَصَدَقَاتِهِ قد تَصَرَّفَ .



وهذه نسخة صدقِ المَقَامِ الشَّريفِ العالى السَّيْنَى أَنُوكَ ، وَلَدِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» عَلَى بَيْتِ الْمُقَرَّرِ الْمَرْحُومِ السَّيْنَى «بِكْتَمَرِ السَّاقِ» .
وكان العاقِدُ قاضِي القَضَاةِ جلالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِي ، والقائِلُ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ وَالِدُ الزَّوْجِ ، وهى :

الحمد لله مُسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُهَيِّئِ حَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ بِإِتِّصَالِ الرُّؤُوسِ بِالْمَطَرِ ،
وَمُبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ مِنْ دَرَارَى الدَّرَارِى بِأَسْعَدِ كَوَكِبٍ يَنْتَظِرُ ، وَأَحْمَدِ عَاقِبَةٍ تَهْتَرُّهَا
أَعْطَافُ عَظْمَةِ الْمُلُوكِ عَلَى كِبَرِ ، وَتَهْجَبُ عَنْ الْأَنْجَابِ كَمَا تَنْفَتِّحُ الْأَكَامُ عَنْ الثُّمَرِ ،
الَّذِى مَدَّ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمُلُوكِيَّةِ فُرُوعًا أَلْتَفَّتْ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَرَفَّتْ عَلَى
مَنْ أَسْتَظَلَّ بِهَا فِرَاقِبِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى أَطَابَتْ لَنَا جَنَى الْقُرُوسِ ، وَأَطَالَتْ مَنَا مَتْنَى النُّفُوسِ ،
وَأَطَافَتْ بِمُلُوكِنَا حَتَّى مُدَّتْ لِسُؤَالِهِمُ الْأَيْدِى وَخَضَعَتْ لِأَمْرِهِمُ الرُّؤُوسُ ؛ وَنَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ تَحْمِلُهَا عِصْمَةُ نَافِعِهِ ، وَنِعْمَةُ لِحْسَنِ
العَاقِبَةِ جَامِعِهِ ، وَرَحْمَةُ تَبَارِكِ عَلَى أَيْمَتِنَا وَعَلَى أَبْنَائِهِمُ الْبُدُورِ الْعَالِمَةِ ، وَالْأَنْوَارِ
السَّاطِعَةِ ، وَالْبُرُوقِ اللَّامِعَةِ ، وَالْفَيْوُثِ الْهَامِعَةِ ، وَالسُّيُوفِ الْقَاطِعَةِ ،
وَالْأَسْوَدِ الَّتِى هِىَ عَنْ حَرَمِ حَضَرَتِهَا مَافِيهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَرَانَا
مَنْ تَمَسَّكَ لَهُ بِحَسَبِ ، وَشَرَّفَ مِنْ أَعْرَى إِلَيْهِ بِالْقُرْبَى أَوْ أَعَزَّهُ مِنْهُ بِصَهْرٍ أَوْ نَسَبٍ ؛

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضى عنهم، وكرمهم بصلته الشريفة لما زوجهم وتزوج منهم، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد، فإن من عادة النعام أن يتفقد الأرض بمطوره، والبحر أن ينسى الزروع بما قاص من نهره، والمصابيح أن تمتد بأنوارها ما يتوقد، والسما أن لا يتخلوا أفعها من اتصال فرقد بفرقد، ولو توقفت القرى على مقاربة كبير، أو مقارنة نظير، لما صلحت الأعماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر الكثير، ولا صاغت يمين شمالا، ولا جاورت جنوب شمالا، ولا حوت الكائن سهاما، ولا جمع السلك للجواهر نظاما، ولا طمح طرف إلى غاية، ولا قدر لسان إنسان على تلاوة سورة ولا آية، وإنما الصدقات الشريفة الملوكية لها في البر حوائد، وفي الخير حجاباً يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف، الأعظم، العالى، المولى، السلطاني، الملكى، الناصرى، أعز الله سلطانته على من لاذ به تسبيل ذيول الفخار، وتودع في هالات ألقارهم ودائع الأنوار، وتوهم أهلهم لأن يكون منها أحد الأيوبي لذريته الألقار، وتخطب من محبهم كل مصونة ينور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية، الناصرية، على من تعرض لسعابها الماطر، ووقف للأقتراف من بحرها الزاهر - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد، وأتمت له السعادة إذ كان بعد في جلود من ينسب إليه من ولد، وأكثت له بالقرى مزينة مزيد، واستخرجت من بحره جوهرة لا يطمع في التطوق بها كل جيد، وقالت: نحن أحق بتكبل ما بتينا، وتحويل النكوة من أولينا، وتأهيل من قر بنا حينا وقربنا، إلينا، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه وأجبتنا نمراته ببلدنا .

فاقتضى حُسْنَ الاختيار الشريف الملكي الناصري، لولده المقام العالي السني،
أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بارادتهما أقدار الأقدار أن تُرَفَّ أُمُّ الشُّمُوسِ إلى
سُتُورِهِ الرِّفِيعَةِ، وتُصَانَ أَكْمَلُ مَعَاوِلِ الْعَقَائِلِ بِحُجُبِهِ الْمَنِيحَةِ، وتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَرِ
فِي مُسْتَوْدَعِهِ، وتُنَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَارِيِّ بِمَطْلَعِهِ، وتُسَاقَ إِلَيْهِ الْكَرِيمَةُ حَسْبًا، الْعَظِيمَةُ
بَأَيْسِهِ - عَظَّمَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الَّذِي كَمَ لَهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبَ
كَالنَّجُومِ، وَمَذَاهِبَ تَشَبَّهَ بِهَا الْبَرْقُ فَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ الْغُيُومِ، وَصَرَائِبَ تَهْدِمُ فِيهَا عَلَى
كُلِّ نَغِيرٍ قَالَ: وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، مَنْ قَدَرُهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ، وَرَأْيُهُ
لَا يُرَامَى وَلَا يُرَامُ، وَسَيِّفُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُسَيَّمُ وَلَا يُسَامُ، وَهُوَ «سَيْفُ
الدَّوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ اسْتَمَارَ هَذَا اللَّقَبُ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ؛ كَمَ لَهُ فِي مَرَاضِي
سُلْطَانِيهِ مِنْ رَغِيَةِ بَذْلِهَا مَا لَدَيْهِ، وَتَمَنَّجَ فِيهَا بَوْلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَمْرٌ عَلَيْهِ؛ كَمَ تَنَبَّهَتْ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ مِنْ سِنَانِهَا، كَمَ وَهَبَتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعْصَدُ مِنْ حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَتَهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بَحَّرَتْ أَنْهَارًا بِجُحُورِ
مِنْ جَنَابَاتِهَا؛ كَمَ لَسَاءُ الْمُلُوكِ بِشُبُهَيْهِ مِنْ حَرَسٍ، وَبِقُضْبِهِ مِنْ قَبَسٍ، وَكَمَ قَامَ وَقَعَدَ
فِي مَصْلَحَةٍ وَكَانَ أَذْنَاهُمْ مِنْ مِلْكِهِ مَقَامًا لَهَا قَامَ وَأَعْلَامُهُ مَجْلِسًا لَهَا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ
المَقَامَ الْعَالِي السَّنِيَّ وَأَطَاعَ، وَاتَّبَعَهُ إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَامِمْ الْوَالِدِ - أَفْضَلُهَا اللَّهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ الْمُطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفَ وَهُوَ نَاصِرُ السَّنَةِ فَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ،
وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْأَجْتِنَاعِ، وَاتَّبَعَ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
بِرُّبِيَّةِ أَيْمَةِ مُلُوكِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِهَ الْأُمَّةِ اتِّبَاعَ؛ لِعَلِمِهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
وَالِدُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ، لَمْ يَمِجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كُلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وَهُوَ لَهُ
عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، فَاحْتَمَى سُنَّةَ شَرِيفَةِ مُلُوكِيَّةِ مَا بَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبُ
أَوْلِيَائِهَا عَلَى أَمْدَادِ الْمَدَنِيِّ، وَيَكْفَى مِنْ هَذَا مَيِّمُونُ فُلِ «الْمَأْمُونِ» لَهَا تَرْوِجُ

« بُرَّانَ » من أيها « ابنِ سَهلٍ » وخطب « المعتضدُ » إلى « ابنِ طولون » أبنته « قَطْرُ النَّدى » .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدرا هالة مهابة فسلم وقال : لَسَّا لِكَ التَّصْرِفِ
ولِلدِّ التَّصْرِيفِ ، وإذا أَقْبَضَ حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفَ عَبْدٍ فَيَا حَبْدًا
التَّشْرِيفِ ، ويا حَبْدًا السَّبَبُ الَّذِي أَتَصَلَّتْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَحْفَلَتْ
دِيمَ النِّعَمِ وَأَحْتَفَتْ لِلْاجْتِنَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَنَعَمَ سَدْتُ عَلَى إِبْنَانِهِ صُفْرُ الْأَصَابِلِ
وَحُمْرُ النِّعَمِ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى رَفْعِ سُلُوطِهِ مَحَافِيفُ السَّحَابِ وَصَفِيفُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصِرِيرُ الْقَلَمِ ، وَتَمَنَّتْ الْكَوَكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَازِبُ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمَتَانِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوَّلَهُ بِمَقَابِيبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ، وَوَدَّتْ نَسِجَاتُ الْأَنْهَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْأَفْهَاقِ ، وَالْجَمَائِمُ لَوْ أَيْبَحَ لَهَا أَنْ تُفَرَّدَ مَافِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ،
بَلِ الشُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقِ ، وَالرِّيحُ لَمَّا بَدَا لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المَواثِمُ الشريفة - زادها الله شرفًا - بتقرير هذا الكتاب الكريم ، وتبصير
ما يصلح من الدرر لهذا العِقدِ النظيم ، وتقدُّد المرسوم للعالى المولوى السلطانى مأمُر
به وصَدَّقَ ، وتآدب إجلالاً لمقام أبيه الشريف فاطرق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا
ما تصدَّقَ ، بل قال : هذا ما أصدَّقَ المقامُ العالى السَّيْفُ أَنْوَكُ ابْنُ مولانا السلطان
الأعظم ، مالكِ رقابِ الأيمِ ، المَلِكِ النَّاصِرِ ، السَّيِّدِ الْأَجَلِ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْغَازِى ،
الْمُجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمُرَاطِطِ ، الْمُتَأَيِّزِ ، الْمُظْفَرِ ، الْمَنْصُورِ ، الشَّاهِنشَاهِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا
وَالدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُجْبِى الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ
مِنَ الظَّالِمِينَ ، مَلِكِ الْبَسِيطَةِ ، نَاصِرِ السُّنَّةِ ، رُكْنِ الشَّرِيعَةِ ، ظَلِّ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ،

القائم بُسْتَيْتِه وفَرْضِه ؛ وآرِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ الْعَرَبِ وَالسَّجَمِ وَالنُّزْكُ ، خدَاوِدِ طَلَمِ
بادشاه بنى آدم ، بَهْلَوَانِ جِهَانِ ، شَهْرِيَارِ إِيْرَانِ ، إِنْكَنْدِرِ الزَّمَانِ ، مُمَلِّكِ أَصْحَابِ الْمَنَارِ
وَالْأَيْسَرَةِ وَالنُّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ فَاتِحِ الْأَفْطَارِ ، وَاهِبِ الْهَمَلِكِ وَالْأَقَالِمِ وَالْأَمْصَارِ ،
مُيَسِّدِ الْبُهَاءِ وَالطُّغَاءِ وَالْكُفَّارِ ؛ صَاحِبِ الْبَحْرَيْنِ ، حَاطِي الْحَرَمَيْنِ ، خَادِمِ الْقِبْلَتَيْنِ ؛
كَفِيلِ الْعِبَادِ وَالْعِبَادِ ، مُقِيمِ شَعَائِرِ الْحَقِّ وَالْجِهَادِ ؛ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، قَسِمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدِ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ،
الْمُجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، سَيِّفِ الدِّينِ ، وَالدِّ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، أَيْ الْفَتْحِ «قَلَاوُون» خَلْدِ
اللهِ سُلْطَانِهِ ، وَنَصْرِ جُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَأَعْوَانِهِ - : الْمُجَنَّبِ الْكَرِيمِ ، الرَّفِيعِ ، الْمُنِيعِ ،
الْمُصُونِ ، الْمُكْنُونِ ، الْمُهَيَّاتِ الْمَكْرَمَةِ ، الْمُفْخَمَةِ ، الْمُنْعَمَةِ ، بِنْتِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ،
الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْأَجَلِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُجَهِّدِيِّ ، الْمُشِيدِيِّ ،
الرَّعِيْمِيِّ ، الْمُقَدِّمِيِّ ، الْفَيَّاضِيِّ ، الْقَوِيِّ ، الْقُدْرِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الظَّاهِرِيِّ ، الْكَافِلِ ،
السَّيْفِيِّ ، رُكْنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، سَيِّدِ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، نَصِيرِ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ ،
زُهْمِ الْجُيُوشِ ، مَقْدَمِ السَّائِرِ ، قَوْنِ الْأُمَّةِ ، غِيَاثِ الْمِلَّةِ ، مُهَيِّدِ الدُّوَلِ ، مُشِيدِ
الْمَمَالِكِ ، ظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، عَضِدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِكَتْمِ السَّاقِ النَّاصِرِيِّ ،
ضَاعَفَ اللهُ نِعْمَتَهُ .

أَصْدَقَهَا مَا تَقَاتَتْ بِهِ أَنْسَابُهَا إِجْلَالًا ، وَبَلَقَتْ بِهِ أَحْسَابُهَا جَمَالًا ، وَطَلَمَتْ فِي سَمَاءِ
الْمُلْكِ هَلَالًا ، وَلَيْسَتْ نَخَارًا ، وَقَبِيسَتْ أَنْوَارًا ؛ وَأَوْتَتْ إِلَى حَضْرِي حَضْرَيْنِ ، وَوَصَلَتْ
إِلَى مَقَارِمِ أَمِينِ ، وَاسْ (٤) بِأَمْوَالِ وَبَيْنِ ، مَالُولا أَدَبُ الشَّرَفِ ، وَتَجَبُّ الشَّرَفِ ؛
وَالْعَمَلُ بِالشَّرْعِ فِي تَعْيِينِ مَعْلُومِ ، وَتَبْيِينِ مَقْدَارِ مَقْهُومِ ؛ نَخْرَجَ عَنْ كُلِّ وَصْفِ
مَحْدُودِ ، وَقَدِيرِ مَعْدُودِ ؛ وَلَبَّاقَ قَامَ بِهِ مَوْجُودِ ، وَلَكِنْ مِمَّا تَهَلُّ لَهُ الْمَمَالِكُ
وَلَا يَسْتَكْثِرُ لِأَجْلِهِ الْوُجُودِ .

قَدِّمَ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكَ مَا هُوَ بِتَقْدِيمِ مَالِكَ وَالِدِهِ مَعْرُوفٍ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُعْجِدُ مَا لَا ، وَيُجَمِّئُ مَا لَا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، تَجَلَّيَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلٌ وَالدَّهْرُ مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبِضًا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِسْلَامِكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجٍ بِإِحْسَانٍ : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُتَيْنِ بِإِذْنِ والدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمُقَدِّمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خُطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَّالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
مَسْعُودِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمِ بِالْدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضُوَّاحِهَا ، وَسَائِرِ الْمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّهُ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَدَهُ
الْمُسَمَّى أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، بِخَاطَبٍ عَلَيْهِ شِفَاهَا مُحْضُورٍ
مِنْ تَمِّ الْعَقْدِ مُحْضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْلَقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ سَنَةِ آثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .



وهذه نسخةُ صَدَاقِ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ قِلَادُونَ ، مِنْ إِثْنَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله منى الملوك بالمظافرة ، ومكث زينة الأسماء بجهومهم الزاهرة ، ومكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة .

نحمده على نعمه التي شرفت قلدنا ، وصرفت أمرا ، وأطلعت من هالة البشر المنير تنمسا لا تحذف غير الأفق خندرا ، ولا تنقئ الليالي والأيام إلا أن تهللها من الأشعة ياقوتا ومن الكواكب دوا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع من حمة الدين نسبا وصبرا ، وترفع في أبناء الأبناء لها حسبا وذكرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي عصم به ، وخص صفوة الخلق في المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستويق بها الأسباب ، وتستويق الأنساب ، وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية في الأعقاب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري - كثر الله عددهم - شتات الإسلام ، ومحا بيوارق جهادهم ما أمسد من ظلام ، حتى انتهت النبوة إلى من أصبحت به الدولة القاهرة وكل أوقاتها أنوار صباح ، وتوار أقالع ، وسماه سماح ، وأتمى نعم لا تعد إلا مفاقد تيجان الملوك على كل جبين وضاح ، المقام الشريف العالي المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الناصري ، زاد الله شرفه ، وأعلى على شرفات بروج السماء عرفه ، فاحب - لما أجراه الله به وبين سلف من ملوك بيته الشريف من تأييد هذه الأمة ، وتأيد ما شملها بفتوحاتهم المذهبات الفتوح من سوانح النعمة - أن يعمل بقول نبيه المشرف بمواقفة آئيمه ومناعبة حكمه في الترويح ، وأن تقع مواقع أمطاره على كل أرض حرة فتنبت كل زوج بهيج . وكان من بيبه - أدام الله سعدهم - من يطبع في كل أمر أمره العالي أدام الله تمكينه ، ولولا هذا لما رضى سوى أقران الفرسان له قرينه ، وكان من نجبايهم إذا

عُتِّ الأُولاد، وأحبابهم إذا كان كما يقال : الولد ثمرة القود؛ ومن هو لجلتهم جمال، ولدوتهم دلال، ولقايمهم أسد الأشبال - من يعترف كل من عرفه بقضله، ويؤمل في أبنائه ما لأبناء سببه إبراهيم صلى الله عليه وسلم من بركة نسله .

برز المرسوم الشريف العالى، المولى، السلطان، الملكى، الناصرى، أنفذه الله فى الأعطار - بان يتخير لقرسه الكريم، ونسبه الصميم، وصباحه المشرق، وتماسحه المفق، فصادف الإحسان مؤضحه، وأتخى له من مشرق البدر التمام مطلع، ومن هو من هذه النبوة القاهرة على الحقيقة باليمن، ومن هو البحر الزاخر ومن مكنونه يستخرج أنغر الثمين، فبادر الخاطب إليه إلى أختتام هذا الشرف الذى لا يطلو، واجل هذه النعمة التى لولا فضل الله وصدقات سلطانه - خلد الله ملكه - ما كانت مما تمحول، وقال : إن رضى تلك الستور بهذه المخطوبة، أو أهلت تلك السماء العليا هذه المحجوبة، فهى لما أهلت له فى خدمة ذلك المقام الأيمن، وهى كما شاء مالكمها المتصدق من ذوات العفة وإلا فهى مما ملكت اليمن، فأتيت الصدقة الشريفة عوارفها بما هو أشرف مقام، وأعظم لما فى رتبة القهار فهى تسمو بهذا ولا تسامى، وشرفه بما وصلت إليه عند المقر الشريف من المقام الكريم، ولم تكن إلا من ذوات العقود ولا كيد ولا كرامة لما يغفل به الليل البيم، ولا لما يغفل فى جيد الجوزاء من عقد درها النظيم، ولولا إجلال المقام عن التطويل لما اختصر القائل فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أصدق

الطرف الثاني

(في صَلَافَاتِ الرُّسَاءِ وَالْأَعْيَانِ وَأَوْلَادِهِمْ)

وهي على نحو من الصَّدَقَاتِ الْمَلُوكِيَّةِ فِي التَّرْتِيبِ ، إلا أنها أَخْصَرُ ، ومن الْأَقْبَابِ بِحَسَبِ أحوال أصحابها من أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ .

وهذه نسخةُ صَدَاقِ جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب]^(١)
على بنت بيدمر العمري ، من إنشاء الْمُقَرَّرِ الشَّهَائِي بن فضل الله ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُبْلَغُ كُلِّ آمَلٍ مَا يَرْجُوهُ ، وَرَأْيِي ذِمَّةً مَنْ لَمْ يَنْسُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يُخْلِفُوهُ ،
وَمُكْمَلُ الْخَيْرِ لِكُلِّ ذِي بَصَدٍّ مِنْ يَخْفُوهُ ، وَجُبِيبِ كُلِّ مُنِيبٍ يَدْعُوهُ فَأَتِمَّا
وَقَاعِدَا : (وَكَأَنَّ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا نُرَكَّرُ فَضْلَهُ وَنَتَلَوُهُ ، وَنُحِلُّ مُعْضَلَهُ وَنُجَلِّوهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَتَظَاوَرُ عَلَيْهَا الْأَمْرُ الْمُسْلِمُ وَبَنُوهُ ، وَتَبْيِضُ بِهَا وَجُوهُ
الْأَوْدَاءِ ، وَتَسْوَدُّ وَجُوهُ الْأَعْدَاءِ ، يَوْمَ تَبْيِضُ وَجُوهُ تَسْوَدُّ وَجُوهُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي سَعِدَ بِهِ دَوُّوهُ ، وَصَعِدَ قَدْرُ صِهْرِهِ وَحَمُوهُ ، وَشَرَفَ نَسَبُهَا
مَا أَلْتَقَى فِيهِ عَلَى سِقَاحِ هُوَ وَلَا أَوْلَاؤُهُ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحَّيَهُ صَلَاةً لَا يَزَالُ
بِهَا الرُّوْضُ الْأَرْجَحُ يَقْوَاهُ ، وَالسَّحَرُ يُبْلَغُهَا وَلَوْ سَكَتَ وَخُتِمَ بِالْبَرَقِ قُوهُ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فإنَّ أَزْهَى زَهْرِ طَلَابِ مُجْتَئِيهِ ، وَطَالَ بَاقًا فِي الْقَهَارِ مُجْتَبِيهِ ؛ زَهْرٌ كَامِيَةٌ
جَرَتْ عَنْهَا لَأَمَةٌ كَيْمِي ، وَأَبْرَزَتْهَا سُنَّةُ الْإِسْلَامِ مِنْ حِجَابِ ذِي أَتْفَحِي ؛ وَطَلَعَتْ
مِنْ أَفْقِي بَدْرِي طَالَمَا سَنَحَ مُجْتَئِيهِ ، وَحَمِي سَيْفِ أَيْمَنِ فِي كَلْبِهِ بِكَلاَمِهِ مُخْلَوُهُ .

(١) يابض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الختَابُ الجمالِيُّ عبدُ الله بنُ المرحوم سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب ،
أدام الله تعالى عُلاه ، ورحم أباه ؛ هو ولدُ ذلك الوالد ، وطَارِفُ ذلك التالذ ؛ وتَشَوُّ
هذه الدولة الشريفة الكاملية التي أخذ منها حَظُّه بالتمام والكمال ، وأصبحَتْ به
كالغداةِ الحسناء ذاتِ الحُسن والجمال ؛ ولم يَمُتْ أبوه في أيامِ سلطانها - خلد الله
مُلْكَه - حتَّى قَرَّتْ به عينه ، وسَاوَاهُ في الإمرةِ لولا تَفَاوُتِ العدةِ وقِدَمُ المُلْدةِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُ ، وجاءه منه ولدٌ يَجِيبُ ، وأَبْنُ شَاعٍ وذَاعٍ سِرْأبيه ومُحَمَّدٌ وهذا عَجِيبُ !!! .
ولما آتَنَقَلَ والِدُهُ رحمه الله تعالى إلى رحمة رَبِّهِ ، وشَرِبَ بالكأسِ الذي لا بُدَّ لكلِّ
حَيٍّ من شُرْبِهِ - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذلك الأبِ ولم يَزَلْ يَجِدُ حتَّى وَجَدَ ، وظَفِرَ بوالِدٍ إن
لم يكن وَلَدَهُ حقيقةً فإنه عنده مِثْلُ الوَلَدِ ؛ وهو المَقْتَرِ يَدُورُ ، وهو الوَالِدُ الذي لم يَفْقِدْ
معه من وَلَدِهِ ذَرَّةً ، والأبُ الذي هو أَرَأْفُ من كُلِّ أُمٍّ بِرَّهْ ، والتَّيْرُ البَذْرِي الذي
سَعِدَ قِرَانَا ، وصَعِدَ ودَّاسٌ بَقَدَمِهِ أَقْرَانَا ، وقَسَمَ دَهْرُهُ شَطْرَيْنِ : تَهَارَهُ للضُيُوفِ قَرَى
وَلَيْلَهُ لِهَيْئَةِ قُرَانَا .

هذا إلى أنه طَالَمَا طَيَّبَ لَزَاكَةَ أَمْوَالِهِ وتَمَرُّهَا ، وَزَيْنَ في أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمَرُهَا ،
وقَبْدَ شَوَارِدِ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ، مع أنه شَيْدُ المَسَالِكِ وَسَدَّدَ أُمُورَهَا ، وَسَدَّدَ ثُغُورَهَا ؛
وحَمَى بِبَيْضِ سُبُوفِهِ السَّوَادَ الأعظمَ ، وَرَمَى بِصَوَابِ سِهَامِهِ التَّوَائِبَ ولم تُسْتَعْظَمْ ؛
ولم تَزَلْ تُؤَبِّ الأَيَّامَ مُجَرَّبٍ مِنْهُ مِسُورِيَا ، ومُجَرَّدُ حَرًّا كَرِيمًا جَاءَ في أَوَّلِ السَّنَةِ صَفَرًا
بَذْرِيَا ؛ فكان من تَمَامِ رَهْ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَلَدِهِ ، وإِجَالَةُ الرَّأْيِ فيها يكون سببا
لِصِبَاغَةِ عَزَمَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فأنعم له بِعَقِيلَتِهِ المُنَمَّه ، وَرَبِيبَتِهِ التي غَلَّتِ الشمسُ منها
سَافِرَةً مُقَنَّه ؛ وقال : على الخَيْرِ والخَيْرِ ، وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ وَجَدَعَ الحَلَالُ أَنْفَ الغِيَرِ ؛
وما أَسْنَى عَقْدًا يكون مَتَوَلِّيَهُ ، وَمُنْشِئُهُ إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْلِيَهُ ؛ مَوَلَى بِهِ نُظُمَتْ عُقُودُ
الْأَلَى ، وَرُقِمَتْ بِعَلَمِهِ أَعْلَامُ الأَيَّامِ وَذَوَائِبُ اللَّيَالِي ؛ وَسَامَتْ القَضَايا بِهِ إلى مُنْقَدِّ

أحكامها، ومُنِيسِلَ الْفَضْلِ لِحُكْمِهَا؛ الْبَحْرُ الزَّائِرُ، وَالنَّجْمُ الَّذِي تَمَّ تَرْكُ الْأَوَّلِ مِنْهُ
لِلْآخِرِ، وَالْقَامِ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامُ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُتَكَّرِ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ؛ وَالْعَالَمُ الَّذِي مَابَرَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامٌ، وَحُقُوقُهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَالَّذِي وَلَّى الظُّلُمَ مُنْذُ وَلَّى، وَاعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَتَهَامَهُ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِيَ الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ * بَيْقَايِهِ يَحْيَى الْحَزَنَ،
و [هُوَ] ^(١) الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى ^(٢) [سَنَنِ] !
طَوْدُ إِذَا وَازَنْتَهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !
وَالْبَحْرُ طَلَى رِدَائِهِ * قَلْدُ الْمُقُودِ بِلَا تَمَنَ ! ^(٣)

فَاضَاءَ الْخَفِيلَ بِهِ وَبِالْحَاضِرِينَ، وَقَامَ شِعَارُ الدِّينِ حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ : هَذِهِ سَيُوفُ
الْمُجَاهِدِينَ وَهَذَا سَيْفُ الْمُنَاطِرِينَ ؛ وَقِيلَ : هَذَا وَقْتُ جُودٍ قَدْ حَضَرَ، وَمَوْضِعُ
سُرُورٍ يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ مِنْهُ مَا يُنْتَظَرُ ؛ فَأَبْتَدَأَ السَّعْدَ مَحْيَاهُ الْوَيْسَمَ ، وَأَفْتَحَ قَقَالُ :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا



وَهَذِهِ نَسْخَةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَلْطَرِيِّ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمَقَرِّ الثَّوْبَانِيِّ بْنِ
فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبَاءَ ، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَةِ نَسَائِكِهِ
حُبًّا ، وَصَانَ كَرَامِ الْيُتُوثِ الْقَدِيمَةِ الْفَخَارِ بَيْنَ يُنَاضِلٍ عَنْ حَسَبِهِ ذَبَا ، وَبَيْنَاطِرِ الْعَالِيَةِ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بَيُوتًا وَلَمْ يُسَيِّلْ سِوَى السُّمْرِ شُمْرًا لَقْنَا حُجُبَهَا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُ مُحَمَّدًا مِنْ دَعَا قَبْلِ بَثِّ النَّبِيِّ فَلَيْ، وَاسْتَدْعَاهُ لِأَخِذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَأْتِي، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
الْإِسْنَةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا، وَتَسْتَنْطِقُ أَنْوَاءَ السُّرُورِ فَتُضِيءُ الْبَشَائِرَ بَرُوقًا وَتُطْمِطِرُ الرَّحْمَةَ سُحُبًا ؛
وَنَشْهَدُ أَنْ عَمَّا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ مَدَدُهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحَّيْهِ وَعَلَى أَقْرَبَائِهِ صَلَاةَ تَعُظُّ آلًا وَتُحِبُّهَا، مَا سَارَتْ الشُّبُهَاتُ
تَقَطُّعَ الْأَفَاقِ شَرْقًا وَغَرْبًا ؛ وَسَلَّمَ سَلَامًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَشْتَبَكَ وَشِجْهَهُ ، وَأَشَقَبَهُ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَيَّجُهُ ، وَأَنْتَبَهَ
فِي أَرَاكِ الْخَمَائِلِ أَرِيحُهُ ، وَأَتَتَبَّحَ لِإِتْيَانِهِ الْأَفْقَ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ دَعَبِ الْمَشَاءِ تَمْوِيهِ
وَمِنْ لَمَحِ الصَّبَاحِ تَدْبِيحُهُ - مَا أَتَيْتُ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَاهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتَلَفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْتَفِرُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأَتَمِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيُصْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، وَتَمْدُ بِهِ أَيْدِي جَمْعَةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُحْلَدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيُصْعَلُ بِهِ شَرَفُ النِّعْمَةِ ؛ وَهُوَ التَّكْلُحُ الَّذِي تَشْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمْثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَزَى الْمَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِما يَسْتَخْرِجُهُ بِحَفْدَةِ
أَبْنَائِهِ مِنْ أَتَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَعْلَمُهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرِيقَةِ وَجُوهُ
نَخَارِهِ ، وَتَهَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرَفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُجُوهِهِ وَمَطَالِحُ أَلْيَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ الصَّخَارِ مِنْ جُرْئِيَّةٍ بَسَقًا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَتْ مِنْهَا فُصْنَانُ وَاعْتَقَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا مُجِبُّهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شُبُهَةَ

إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا تحبّه إلا ما يفيض على جنباته من النفوس
أو يفيض من السّماح، ولا تحبّه إلا المناقب لولا أن الثّراء جاذبت ما يعرض
في السّماء أنشاء الوشاح، وكان هو الرّائب إلى عمّه، انخاطب إليه ما لم يكن يحبّ
إلا لقسمه، الطّامح بنظره إلى عقيلة الفخار في غرّفيها، الطّامع بخطبة الشّمس شمّس
النّهار إلا أنها في بيت شرفها، المتوقّع من كرم عمّه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية
يد كريمة لا يتبدّل الزّمان إلا إذا حلت شمّسها في بيت حمّله، توقّعاً لنسب لا يزال به
شرف هذا البيت الكريم موجوداً، ونسب إذا عدّ ولدٌ منه الآباء عدّ جدّين سعيدين
هكذا مسعوداً وهذا محموداً، تلقى قصده بإكرام بوّاه أكثاف الشّرف، وأوطأه
فرض الكرامة ممّعاً بتيمّ التّرف، أبتدعاً للكرم المألوف، وأتباعاً للسّنة الشّريفة
إذ كان الأقربون أولى بالمعروف .

فتباركاً جوداً سارع كلّ منهما في أدائه حقّه إلى الواجب، وتجارياً إليه ليتحقّا
شأؤا أبيهما وكلّ منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب، وأتمّ الحناط
الشّرف محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمنّ رغبته في أهل عصبته، وأهل
جنوده إلى أن ساروا إلى الميحاء تحت عصابته - بأن فوض هذا الأمر إلى أخيه
الكبير والدّه الخاطب، وسكت وقال : هو في التصرف وعنى الخاطب، وله الأمر
ولولا الشّرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا : إلا أننا ملك يده، وإذا كان ألم صنو
الأب فأى فرق بين ولدى وولده؟، ولئن أختصّ في نسبة هذه الرّوضة في يومه هذا
فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده، فكلّ هذا العقد، وأشرق به السعد الطّالع
أضواء مما قلّم وأنعم من النّقد، وكان من تمام التّكريم، أن قال قائله :

بسم الله الرحمن الرحيم



وهذه نسخة صديق القاضى تقي الدين، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ من كَانَ حَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَيْئًا من لَمْ يَرِخْ لِسَانِ
السَّنَنِ تَابًا وَبِهَا حَقِيًّا ، وَخَلَعَ أَتُوبَ التَّوَابِ عَلَى من سَرَحَ طَرْفَ طَرْفِهِ فى رَوْضِ
الْكَأْهِلِ وَجَعَلَهُ وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى مِنْ هَرَجٍ جَدُّعٍ تَحْلِيلُهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ وَطَلَبًا جَنِيًّا ، وَنُشْكِرُهُ عَلَى
فَضْلِهِ الَّذِى كَمْ أَجْرُهُ لِقَاصِدِهِ مِنْ بَحْرِهِ الْمَعْرُوفِ سِرِّيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمْنَحُ قَائِلَهَا فى عُرْفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا عَمْدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِى آتَاهُ اللَّهُ الْكَتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، الْأَمْرَ أَمَّتَهُ بِالنِّكَاحِ لِيُكَاتِبَهُمُ الْإِثْمَ
يَوْمَ يُقَرَّبُهُ اللَّهُ نَبِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحِلُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِ
الْكُرْمِ وَالكَرَامَاتِ وَلَيْتَ ، مَا أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفَاقِ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ
كَوْجِبًا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ أَوَّلَى السَّنَنِ بِالِاتِّبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِى أَخْفَى نُورُ مُضْبَاحِهَا شَمْسَ
الصَّبَاحِ ، وَخَفَّتْ عَلَى مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَدَّ الْمَسِيرِ إِلَى رُبُوعِهَا الْإِهْلَةِ
بَاهِلَةِ الْمِصْمَعِ فى الْفُتُوِّ وَالرَّوَّاحِ ، يَالَهَا سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَجْهًا بِجَمِيلِهِ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا
بِلِ أَيْدِيهِ جَرِيْلَةٍ ، بِهَا تَجْمَعُ أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطِيبُ جَنَاهَا ، وَتَبْلُغُ النَفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ
أَقْصَى مُنَاهَا ، وَيُظْفَرُ أَوَّلُو الرِّغْبَةِ فِىمَا أَسَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَنْفَقَتْ
مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِى تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَالذَّرِيسَةَ إِلَى [بَقَاءِ] التَّوَجِّهِ الَّذِى أَظْهَرَ اللَّهُ فى سَمَاءِ الْكَرِيمِ تَجْمَعُ ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ
فى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

ولما كان كذلك رَغِبَ في أَفْتِنَاهُ آثَارِهَا ، وَأَهْتَدَى بِالصُّورِ الْأَمْعِ من أَفْهَارِهَا ؛ مَنْ
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانَ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا انْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ من طَيْبِ عَرَفِهِ ؛ مَا جَدَّ
عَمْرُ الْبِلَادِ السَّاحِلَةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ من كَرَمِهِ ؛
وَرِئِيسُ أَمْنَطَى ذُرْوَةُ الْعِلْيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَأَرْيَحِيُّ لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لَهَا أُودِعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَبْرَزَ لَكَ الْجَوْهَرُ الْمَصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ تَحَكَّتْ لُبْكَاءُ قَلْبِهِ تُغَوِّرُ
الْثَنُورَ وَالْحُصُونُ ؛ لِلَّهِ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكَابِرِ الْأَعْيَانِ ، وَيَتَنَّهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمَرْفُوعِ خَبَرُهَا إِلَى قِيَانِ ؛ تَغْطِبُ من مَلَأَ قَدْرُهَا ، وَاشْتَهَرَ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنِ أَنْ تَرَى الْعُيُونُ لَهَا فِي الصُّورِ شَيْبًا ، وَعَمَتِ الْبَقَاعُ مُحِبُّ بَرَكَةِ أَيْهَا ؛
أَكْرَمَ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُنْدَى فَضْلًا وَيُسَدَّى نَائِلًا ؛ كَمَلَهُ من آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَتَانِقِ مَأْثُورِهِ ، وَصَلَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ يَذْكُرُ اللهَ مَعْمُورِهِ .

فَقُوبِلَ بِالْبَشْرِ قَوْلُ رَسُولِهِ ، وَرُدَّ رَائِدُهُ مُخْبِرًا بِبُلُوغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْبًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْأَنْفَاقِ أَهْمُ سُمُودِهِ ؛ وَتَمَآيَلَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَقْرَاحِ ، وَزَهَتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَّتْ قُبُولُ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق



وهذه نسخةُ صديقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدي ، للقاضي بدر الدين
خطيب بيت الآثار ، على بنتِ شمس الدين الخطيب من بيتِ الآثار ، تُسَمَّى
سُؤْلِي ، فِي مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْأَثَرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقَضَاةِ تَقِيَّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللهُ أَيْامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذى زَيْنَ سَمَاءَ الْمَعَالِي بِبَنَدِيرِهَا ، وَأَثْبَتَ فى رِيَاضِ السَّعَادَةِ يَانِعَ زَهْرِهَا ،
وَأَلْهَمَ قُوَى الْهِمَمِ أَنْ يَسْتَدْلُوا فى الْكَرَامِ غَوَالِي مَهْرِهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي حَلَّتْ مَا حَفَا مِنْ لِبَاسِهَا ، وَسَوَّغَتْ مَا صَفَا مِنْ رُضَابِ
كَاسِهَا ، وَخَصَّنَا بِمَا عَمَّتْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ أَجْناسِهَا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَطْلَقْنَا فى الْإِيمَانِ نَفْسَهَا بِالْأَدَاءِ ، وَبَقِيَ آسَمُهَا عَلَى الْفَتْحِ كَمَا قُضِعَ
الْمُضَافُ فى الْبَدَأِ ، وَرَفَعَ خَبَرَهَا : إِمَّا عَلَى رَأْيِ الرُّوَاةِ لِلشَّهْرَةِ وَإِمَّا عَلَى رَأْيِ الشُّعَاةِ
بِالْإِسْدَاءِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا هَذَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى شَرَعَ النِّكَاحَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَمَنَعَ السَّفَاحَ فَلَمْ يَكُنْ أُمْرُنَا عَلَيْنَا نَحْمَدُهُ ، وَنَهَجَ الصُّوَابَ فَمَا ظَنُّكَ بِالصَّبَاحِ إِذَا ابْتُلِجَ
عَقِيبَ اللَّيْلِ الْمُلَقَّيْمَةِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَلَقَّوْا أَوْامِرَهُ بِالطَّاعَةِ ،
وَأَجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ حَتَّى بَلَغُوا جُهْدَ الْإِسْطَاعَةِ ، وَفَقِهُوا مُرَادَهُ بِمُكَاتَرَةِ الْأَثَمِ فَكَانَ
الْيَضَاعُ عِنْدَهُمْ خَيْرَ رِضَاعِهِ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِهَا يُضَى إِضَاءَةُ الْكَوَاكِبِ فى أَجْرَاجِهَا ،
وَعَفْرَانُهَا يُكَارِ الْبَحَارَ فى أَعْدَادِ مَوْجِهَا ؛ مَا أَتَّصَلَ سَبَبٌ بِالنِّكَاحِ ، وَأَتَّصَلَ نَسَبٌ
بِالسَّفَاحِ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ النِّكَاحَ مِنْ تَحَاسِينِ هَذَا الدِّينِ الْقَيِّمِ ، وَقَضَائِلِ هَذَا الشَّرْعِ الَّذِى
لَا زَالَ شَرْفُهُ بِدَرَجَاتٍ مُشْرِقَاتِ النُّجُومِ وَهُوَ مُحِجٌّ ؛ بِهِ يَحْفَظُ النَّسَبُ الشُّرُودُ ، وَيُرْعَى
عَهْدُ الْقَرِينَةِ الْوَلُودِ الْوُدُودُ .

وَكَانَ فَلَاحُ مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ ، وَأَيَّانِ مَا أَوْدَعَهُ مِنْ نَفَائِسِ الْعُلُومِ وَجَبَّاهُ ؛ تَصَدَّرَ
فى الْمَجَالِسِ ، وَدَرَسَ فى الْمَدَارِسِ ، وَأَوْرَدَ مَا عِنْدَهُ مِنَ النَّفَائِسِ ؛ كَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ
سَيِّطُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ وَإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَاضِي قُضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ وَأَوْحِدِ الْمُجْتَهِدِينَ ؛
وَقَدْ أَرَادَ الْآنَ إِحْصَانَ قَرْنِهِ ، وَإِنْ تَرَلَّ الزُّهْرَةُ مَعَ بَثَرِهِ فى رُبْعِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المجلس العالى (المسمى) وخطبَ الجهةَ المَهْوَنَةَ المُجَبَّةَ ،
النَّيَّةَ ، النَّيَّةَ ، الْعَفِيفَةَ ، الْخَاتُونَ ، عُصْنَ الْإِسْلَامِ ، شَرَفَ الْخَوَاتِينَ ، بَهَامَاتِ ذَوَاتِ
السُّتُورِ ، قُرَّةَ عَيْنِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ ، السَّيِّدَةَ «سُؤلى» بِنْتَ فُلَانٍ ، صَانَةَ اللَّهِ
جَمَاهِيَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصِيدِهِ ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ ذُرَّةٍ فِي عَقِيدِهِ .

فلذلك قامَ خَطِيبُ هذا الحَقْلِ الْكَرِيمِ ، وَالتَّجَمُّمِ الَّذِى لَمْ يَزَلْ تَجَمُّهُ بِالطَّالِعِ الْمُسْتَقِيمِ ،
وقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قلتُ : وهذه نسخةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَلَاحَةِ السَّيْفِيِّ أَزْدَمِرَ ، عَلَى بِنْتِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ «الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ» . أَنشَأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهِ الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ - وَهِيَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرِجِ النُّوْحَةِ الْهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ الْعَنَاصِرِ ، وَمُفَرِّجِ النَّجَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
مَنْ أَكْرَمَ صِنُوفَ أَنْعَقَدَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْعَنَاصِرِ ، وَمُحْصِصِ بَيْتِ الْخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبٍ فَلَتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ الْمُلُوكِ مَا يَنْ مَقْدَمِ وَمُعَاصِرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الْخُلَفَاءِ بِمَاقِلِ الْحَسَبِ ، وَحَصَرَ كِفَائِمَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يَكُنْ بِمَعْرِفَةٍ وَلَا تَسَبُّ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِى
سَنَّ التَّكَاثُفَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْزَقَ بِالْحِلِّ أَتَقَفَ الْغَيْرَةَ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَمَعَهُ ؛ شَهَادَةَ يُسْتَنْشَقُ
مِنْ رِيًّا عَيْرِهَا كُلُّ شَكْدَى أَرْيَحُ ، وَتُجَنِّتُ بِمَارُيْتِمَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ
بَيِّجٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا عَمْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِّ وَقُرَّ فِي الْفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَاسَمْ ، وَأَكْرَمَ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَرْوِيجِ بَيِّنَاتِهِ مِنْ مَحَابِهِ وَإِلَّا فَأَيْنَ كَفُّ رَسُولِ اللَّهِ
مِنْ الْعَالَمِ ؟ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَّنَ الصَّنْ

بالنسب فيهم نخص مصاهرة أخصهم به ؛ صلاة تصل سبب قائلها بسببه ،
وتجمل الفخار بها كلمة باقية في عقبه ؛ وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإن أول ما أحال فيه المطيل ، وشيخ في وصفه الدهن الكليل ، وروقت
تحاسن ذكره على صفحة النهار بدائب ذهب الأصيل - ما توأصت به الأنساب ،
وئوسل بواسطته في دراري الدار إلى شرف الأحساب ؛ وتوقرت عليه النواصي
فاشتكت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصيده المساعي فتأكدت به المودة
في البواطن والظواهر . وهو النكاح الذي تدب الله تعالى إلى مطاياه ، وحض
على التحلي بحله حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته ؛ طلباً للتحسين الكافل بسلوك
تهيج الاستقامة ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأثم يوم القيامة .

هذا وكرهت بيت الخلافه ، وربائب محمد المجد والإنافه ؛ في حيز لو طلب مناو
مكافأتها لطلب معوزاً ، أو رام مقاوم مضاهاتها في ملو الرتبة رام معجزاً ؛ لما
أختصت به من السيادة التي لا يرقى إلى منزلتها ، والمعالى التي لا تسمو النفوس
وإن تمنعت إلى رتبتها ؛ إذ كان الظير لشرف أرومتها ممتنعاً ، والقيض بما ثبت من
طيب جرؤمتها مرتفعاً ؛ فبق معاليها في التطاول لا يسام ، وجوهه نثارها في المائر
لا يسام ولا يسام ؛ فعز بذلك في الوجود مكافئها ، وأمتنع - خوف الهجوم بالاختطاب -
مواهبها ؛ إلا أن الواقف الشريفة المقدسة المتوكلية - زاد الله تعالى في شرفها ،
وأدام رعايتها بحلة الملوك وجماعتها وكفها - مع ما أفردت به من العز الشايع الذي
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذي لا يتاوى ؛ قد رغب تفضلها في أهل الفضل قال
اليهم ، وأختص بأقباله أهل الدين فأقبل بكليته عليهم ؛ محلاً لهم من شريف مقامه
العل محل الاصطفاء ، ومقدماً لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والنفقاء ؛ فوافق

فِي الْفَضْلِ شَنْ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَاوَةَ النِّعَمِ مِنْهَا خَيْرٌ خَاطِبٍ فَتَلَقَّى بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكَ بِصَدَقَةٍ ؛ فَمَعْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمُ مِيزَةَ الطَّرْسِ نَقَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْمُحَامِدِ لِسَانُهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرُ ، الْكَبِيرُ ،
الشَّيْخُ ، الْإِمَامُ ، الْعَالِي ، الْعَامِلُ ، الْعَامِدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ،
الْمُقَوِّهِ ، الْمَصْدَرُ ، الرَّئِيسُ ، الْأَصْلِيُّ ، الْعَرِيقُ ، الزَّيْنِيُّ ، أَبُو الْعَالِي صَدَقَهُ -
الْجَهْمَةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْحَجَّجَةُ ، الْمَعُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرَعُ
الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحْجَبَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، النَّبَوِيُّ ،
الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمِيرُ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ،
الْإِمَامِيُّ ، الْمُتَعَصِّدُ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بَنُ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْنِي بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ
سُلَيْمَانٌ" بَنُ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذَاخَا ، وَعِزُّهُ
الشَّرِيفُ شَاخَا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَلِيَّةِ لِكُلِّ مَنْقِبَةٍ نَاصِحَا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ،
زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقِيلَهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةٌ
شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةٌ عَوْدُهُ وَتَبَاسُّمُهُ ، مَيِّمُونَةٌ فَوَائِمُهُ وَخَوَائِمُهُ ؛ مُفْتَتَحَةٌ بِطَيْبِ
الْعَبَسِ أَزَاهِرُهُ مُقَرَّرَةٌ عَنْ [تَوْرِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا أَمَرَ .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة الثر المسجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في فرقة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية ، بين كل سطرين نحو أضع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه فخر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهر سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلاً من الله ونعمة .

وَأَسْتَخْتُمُا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مَقَادِرًا ، وَأَنْزَلَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَفَّقَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ أَقْتَدَى بِهِمْ لِمَرَادَا وَإِحْسَادَارَا ، أَشْرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَالِيَةَ فِي حَاجَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّلُوا بِالْمَقَانِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَقَانِرِ أَلْسَارًا ، وَأَزَالَ بَضِيَاءَ مُلُوبِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ
الْجَهْلَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُحْبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَمَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَدَّتْهُ أَنْبِيَاؤُهُ : وَنَاهَيْكَ بِهَا خَفَارًا .

أَحْمَدُ حَمْدٌ مِنْ هُدًى إِلَى الْحَقِّ بَجَعْلِهِ شِعَارًا ، وَاسْتِضَاءَ بَنُورِ الْهُدًى فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَتَقَارَا ، وَتَجَزَّ عَنْ شُكْرٍ مَا أَسَدَيْتَ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لَمَّا تَوَالَى
عَلَيْهِ وَبَلَّهَا مَذَارَا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصْدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ حَبِثَتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ، فَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ اتِّصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَغْتَارًا ،
وَأَنَحَدَ بَضِيَاءَ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِغْنَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّْا مِنْ ثِقَلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّقُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَحَ لَذَوِي الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَحَّ عِنْدَ ذَوِي الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ،
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوِي التَّلَوُّبِ السَّلِيمِ ، وَالْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الْمُسْتَقِيمِ ؛ أَنَّ مِثْرَةَ حِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَكَامِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ، وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مِنْ عَلَمِهَا وَعَمَلِهَا
وَعِلْمُهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاصِحَةُ لِمَا خَلَقَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ النَّافِعَةِ ، الْبَاقِيَةُ لِي أَنْ يَأْتِيَ وَعِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمِنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَاةً لِمَنْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَتَرَلَّ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۚ فَتَبَّهْ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّ بِهِ وَحْضَهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ۚ ﴾ . فَتَنَى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْتَفَى اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ ﴾ . فَارْضَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَالِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» . وَقَالَ أَيْضًا : «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» . وَقَالَ أَيْضًا : «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَأْمُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَطَالَمُ وَمُنْتَعَلَمُ» .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْلِيْدَهُ وَتَوْفِيْقَهُ ، وَيَسِّرْ لِي الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مِمَّنْ شَبَّ وَنَشَأَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَتَحَلَّقَى بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْجَلِيلَةِ ؛ وَصَحَّبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقَادَةَ مِنَ الْأَكَاكِيرِ وَالْقُضَلَاءِ ؛ وَأَشْتَغَلَ عَلَيْهِم بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ اشْتِغَالًا يُرْضَى ، وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفِضَى - اسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا وَشَيْخَنَا وَبَرَكْنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامُ ، الْخَبَرُ الْفَهَامُ ، فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْقُضَلَاءِ ، عُمْدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُصَلِّهَاءِ ؛ سِرَاجُ الدِّينِ ، مُقْنَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ ابْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْأَوْحَدُ ، الْكَامِلُ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ - ابْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركتنا والمسلمين في صالح أديته،
بمحمد وآله وصحبه وصيته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس منهج
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،
رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لعلاليه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأي شاء، وأن يفتي من قصد استفتائه خطأ ولغظاً، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه : لعلله بديانته وأمانته، ومعرفة وديانته، وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلقى أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة، ويعلم قدر ما أتم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه،
وليأرقبه مراقبة من يعلم أطلعه على حاشية الأيمن وما تحفى الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يحفى العبد وما يُبدي في الورود والصدور، ولا يستنكف
أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم : فذاك قول سيد قائله . وقد جاء : "جنة العالم لا أدري"
فإن أخطأها أصيبت مقائله " فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق، ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلىَّ في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيحاً ، فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المتقول ووقائمه .

وقد اعتنى وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي تغمده الله تعالى بفقرانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال يديع فصاحته جملةً مدلممةً ؛ وأظهر من مشكلاته ما يسجّر عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارع الأريب .

فلتبق الله حيثئذ فيما يئديه ، وليتحرر الصواب في لفظه وخطه وليراقب الله فيه ؛ فإنه موقعٌ عن الله تعالى قليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخطأ ؛ ويستحضر ما أشتملت عليه من الجلالة ، فإن الله تعالى تولأها بنفسه حيث قال : (لَسْتَ تَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروى عني مالي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أمان الله على إكمالها ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعية في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثاً قعياً .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و"مسلم" و"أبو داود" و"الترمذي" و"النسائي" و"أبن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" و"مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومصليا ومسلما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : « الفقير إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحّد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم
المفيعدين ، رحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان » (بحسب رتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يلبق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له ، لأنه يصير كأنه اتخا على نفسه .

وأما الإجازة بمرآة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يرضه على مشايخ
العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،
يستقرئه إياها من أي مكان اتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدلل
بمفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض
عليه ، في ورقي مربع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن حال ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض على فلان » ، أو : « عرض على وكتبه
فلان » . إما رياسة وتأبيا عن شغل فكره وكذا نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن
مضاهاة من يكتب معه .

وقد احترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، ومجة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزوعي المالكي ، للتجليل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نيابة

لثانيه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذى الأوصاف
التي تكلل شهاب الأئسن عن حدّها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي،
حين عرض عليه "عمدة الأحكام" لحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ
جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو محمدنا في النجاة يوم العرض وتأييدك بها عمده،
وسندنا الذي لا يزال لسان النوق يروى حليته حلاوته عن صفوان بن عسال من
طريق شهنه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنه الشريفة
كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و"شذور
الذهب" وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنا الأمر على أساس
التقوى وأعرضوا عن طرُق الهداية؛ ما أتت من أفق الكرم المحدث كل عارض
صحب، وتخلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفاس الشذور البديعة وحلاوة الكلام
الطيب - فقد عرض على الجناح العالي البارعي، الأوحدي، الأملعي، اللوذعي،
الشهابي، شهاب الدين، نعمة النجباء، أوجد الألباء، تجل السادة العظام، سلاله
الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالي، المولوي، العالي،
الفاضل، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوي، الشمسي، العمري، أطاب
الله حديثه، وجمع له بالإحزاب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة
متفرقة من "عمدة الأحكام" لحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة
جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضاً قصرت دونه القرائح على طول
جهلها، وكانت الإلقاط الموردة فيه لآمة حرب الفقه الباغية عليه فأحسن عند
العرض في مردها، ودين إياه الله تلك الأما كن بكيه لحينه وإحزاب قفله،
وآذن أميناته فيها بأن جواهر الكائين قد حصلت يجمعوها في خزنة حفظه .

حَقْبًا هُوَ مِنْ حَافِظِ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَلِيًّا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْنَعْنِي
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فِيهِ دَرُهُ مَقَامًا وَتَالِيًا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرَضِ عَلَى أَهْلِ طَرِيقِ
وَأَهْلِكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيِّ ، وَصَانَ مَنَطِقَهُ عَنْ خَلَالِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ "الْمَقْدَمَةُ الشَّمْسِيَّةُ" ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانُهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْضِيلِ
فِي حَلَةِ السَّبَاقِ ، وَطَائِقَ بَيْنَ رَفِيعِ شَأْنِهِ وَخَفِضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُتَكَلَّمُنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعْ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الْإِسْتِنَالِ ، وَنَقَبَ فِكْرَهُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ تَعَمُّينَ تَمَيِّزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّعَتْ نَارُ ذَهَبِهِ
تَقَلُّطِي حَاسِدُهُ بِالْإِكْتِهَابِ ، وَرُويَتْ أَحَادِيثُهُ بِالْفَقَّةِ فِي الْعُلُوفِ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ
إِذَا رُويَتْ أَحَادِيثُ الشُّهَابِ ؛ وَانْتَعَزَمَ مِنْ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَفَعَ فِي دِيوَانِ
الْإِنْشَاءِ خَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْقِيْعِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُجَرِّدُهُ وَيُجَبِّرُهُ ؛ وَوَسَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجِّعِهِ ، وَنَحَاهَا بِإِنْشَائِهِ الَّذِي هُوَ عُجْدَةُ التَّنَادِيَنِ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفِيعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَيَانَهُ تَقَالِيسَ الدَّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ "مِصْحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ" ،
وَفَتَحَ بِجَيْشِ بَلَاحَتِهِ مَعَاقِلَ الْمَعَانِي الْمُتَنَعَّةَ وَحَسَبَكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرَى :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَايِدُهُ * لَكِنْ أَرَانَا لِمِرِّ الْفَضْلِ إِنْشَاءً
إِذَا أَرَادَ آذَارَ الرَّاحِ مَنَظْمَتُهُ * نَفْلًا وَيُطْرِبُنَا بِالنَّشْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَبَّدٌ ، وَيُجَرِّدُ عَيْنَهُ بِهَذَا الْوَلَا
الْجَبِيبِ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّاهِمِ ، لَوْلَدِي تَحِيَّاتِ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِثْنَاهُجُ" فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ
وَمِائَةِ سِتِّ مِائَةٍ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذى أَوْصَحَ بِنِجْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَثَرَهُ ، وَأَقْصَحَ لِسَانَهُ بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَثَرَهُ ، فَسَطَمَتْ أَنْوَارُ شَهَائِهِ لِمَنْ أَسْتَبْطَلَهُ وَأَثَرَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعَ مَنَازِلَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْصَوِّصِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْهُدَى ، وَشُهَبِ النَّاصِي وَالْإِقْتِدَا .

وبعد ، فقد عَرَّضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّلِ الْأَفْضَالِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَانِلِ ؛ ذُو الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الدِّيَكَةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّرَكِيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ : ضَعَّ اللَّهُ بِهِ كَمَا قَعَّ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَلَارِيفِ الْعِلْمِ وَتَأَلِيدِهِ - مَوَاضِعَ مَتَمِّدَةٍ مِنْ "الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَأَلِيفَ الْحَبَرِ الْعَلَامَةِ وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرْفِ بْنِ مَرْيَمَ النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَاوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَعَّ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِيحَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ الْغَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كَذَلِكَ عَرَّضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بِإِطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَذَّبًا بِجَاهِدَا مُتَقَنَّا ؛ عَرَّضَ مِنْ أَتَقَنَ حِفْظُهُ ، وَزَيَّنَ بِحُسْنِ الْأَدَاءِ لَقَطُهُ ، وَأَجَزَلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حِظَّهُ ؛ مَرَّ فِيهِ مُرُورُ الْهِمْلَاجِ الْوَسَّاعِ ، فِي فَيْسِجِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَقَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَعَّ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ الْخَيْرِ بِسَبِيهِ ؛ عَلَى عُقُولِهِمْ ، وَوُقُورِ أَرْيَاحِهِمْ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرِهِمْ ، وَأَقْتِدَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقٌ :

سَيِّئَةُ تِلْكَ مِنْهُمْ خَيْرٌ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ * إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعَلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروي عنى الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لى وعنى روايته من مصنفاتى وضربها من منظوم ومتنور، ومتنول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان فى تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن أسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان: وقد عرض على «الأربعين حديثاً» للشيخ محيى الدين النووى رحمه الله، و«الورقات» فى الأصول لإمام الحرمين، و«اللمعة البدرية» فى النحو للشيخ أبيه الدين أبى حيان دقمة واحدة، وهو لدون عشرين سنين، وهو:

الحمد لله الذى أطلع من درارى الأفاضل فى أثق النجاة شمساً، وأظهر من أفاضل الدارارى ما يغض به المخالف طرماً ويرغ به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرقة فى النجاة فطاب جنى وأغرق أصلاً وزكا غرساً؛ وأبرز من ذوى الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريفة فى لمح، وتما بفهمه الثاقب على الأمثال فامسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونرق بكرم بدايته العادة بخاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخُص بالهام التسمية به أولو الفضل والنهى فاسمى به الإكرام ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أنعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأتمسرت .

وبعد، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فتر فيها مرور الصبا، وجرى فى ميدانها جرى الجواد فما حاد عن ستر الطريق ولا كجاً^(١).

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبل خطيب بيت الآلهة ، وكتبه الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دعي أجاب ، وإذا أتم على الأديب بدوق آتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سايمة لم يكن على عجايب عجاب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حُسن الصياغة ، وصيد أوايد المعاني التي من أعمل فكره في آفتانها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على آفتان أدت بها الفاطمة وأفتانها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلائق فيسبح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سُنَّته وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشريعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ، صلاة هامية للفقران ، نامية الرضوان ، ما أجاب عجب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخير رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحقّق لهم دوايب الطروس وتتصّب رماح الأعلام ، ولم تزل رغبة السلف تنوّر عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الكبار يرمحون إلى أفاضى

الأقاليم في طلبه، ويتحملون المشاق والمتاعب فيه ويتحملون بسبه؛ فقد أرغمنا الإمام الشافعي رضي الله عنه وضره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه من هو أحق بالتفضيل عليه قن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يماضد من لا يماضده، وأمر لا يصبر عنه من الله وما يعلم الشوق إلا من يكأده؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المقيّد المقيّد أحلى من قوله: حلتنا فلان أو أنشدنا فلان لنفسه، ولكن:

ما كل من طلب المال نافعاً • فيها ولا كل الرجال حلوًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ ... ممن نظم قوّدت الدرر في أفلاكه لو أنسقت، وكتب فرقم الطروس ووشأها، ووشأها من زهرات الرياض ماغشأها، وحل المترجم فحرق عقل كل ليب وخب لبه، ووقع على القصد فيه فكانه شئ من القيب خص الله به قلبه، وأنى فيه بدائع ما تساوى ابن الصيرفي ولا ابن عندها بحبه؛ وخطب فصّده القلب، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب، وحذر فكانت أجماعه كالحان إصحق وسامعه يبكى بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة بدر في غمامه، أو منبه غصن وهو فوقه حمامه، أو بحر فضائله مثل أمواجه ودره يحكي كلامه؛ لو رآه «ابن نباتة» ما أوردت بالقصاحة أعواده، أو «ابن المنير» ماريت بالبلاغة أبرأده، أو «ابن نجية» ما حظيت بالجلود أجناده؛ فأراد أن يشرف قدرى، ويعرف نكرى؛ فطلب الإجازة مني وأنا أحق بالأخذ عنه، وأستدعي ذلك مني: ورب حليل فقه إلى من هو أفقه منه.

(١) يماض بالأصول ولله: ولا ابن نباتة.

فَنَمَّ قَدْ اسْتَحَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَحُوزِي تَسْمِيعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَائِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ * تَبَسُّيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْقَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبْقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ عَلَى اسْتِدْعَاءِ
بَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مِنْ اسْتَدْعَى كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّ مِنْ اسْتَدْعَى
نِعَمَهُ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخِدْمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدَمِهِ : (١)

أَثَرْتُ الْجَوَابَ بِي إِذْ أَرَدْتَ جَوَابِي * وَعَظَّمْتَ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَايِي :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! * أُجِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !
يَحِبُّ لِكُلِّ لَابٍ لَتَيْنَا تَحَقُّقُوا * وَكَمْ قَدْ أَنَا قَهْرُنَا بِجَابِ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحَةِ أَمْرُنَا * عَرَبْنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (٢)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بَضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُزْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُزْجَاهُ ، وَتَسْمِيعُ أَخْبَارِهِ
عَلِيلٌ ، وَادَّبَ إِخْبَارَهُ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوِّدَةٌ ، وَآمَالِي فِي تَبْيِضِهَا
لِقِصْرِ الْهَمِيمِ مَمْتَدَةٌ ، سُنَائِتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضْلَاءِ أَنْ أَعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لِأَعْرِيفِ لَصَقِلِ الْأَذْهَانُ حَتَّىهَا ، وَمِنْ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أَثَرٍ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالْزَهْرِ فَهِيَ كَالزَّهْرِ ، ثُمَّ عِنْدَ نَيْفٍ وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "تَجْمَعُ الْفَرَائِدُ"
فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَتَشَدُّ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشَفِ الظُّلُومِ : تِسْعَةُ عَشْرَ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَّفْتَ قَدْرِي * بِنَفِيسٍ مِنْ هَذَا :
 بِنِظَامِ شَنْفِ السَّمْعِ بِدُرِّ كَالثَنَاءِ .
 فَارْوَيْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنْ شَدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَنْتَقِي الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظَ مِنِّي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدَقَ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!

أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي ، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

التصنيف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صُنِفَ في فنٍّ من الفنون أو نَظِمَ شاعراً قصيدةً فأُجَادَ فيها أو نحو ذلك ، أن يُكْتُبَ لَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ عَلَى كِتَابِهِ أَوْ قِصِيدَتِهِ بِالتَّقْرِیضِ والمدح ، وَيَأْتِي كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا فِي وَسْعِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي ذَلِكَ .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مُصَنِّفِ وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصِّلُ الشافعي في الاستدلال على أن البسْملة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَفْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا الْعَلَّامُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمُنْتَهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامَهُ ، وَأَصْبَحَ وَنَشِئَتْهُ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عِلْمٍ وَأَبْهَرُ عِلَامَةٍ ؛ فَأَقْسِمُ مَا سَامَ الرُّوحُ حَدَاتِقَهُ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بِوَارِقِهِ ؛ كُلُّ الْأُئِمَّةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِدْلَةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ تَقُولُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ، كَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُعَارِضُ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ مُجْجَةٍ يَكِلُ عَنْهَا الْخَلْقُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى عَمَكِ التَّقْدِيرِ يُعْرِضُهُ ؛ قَدْ أَيْدَ مَا أَدْعَاهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَقَلَّ مِنْهُدٌ كُلُّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَثَرَ ؛ لَقَدْ سُرَّ الشَّافِعِيُّ بِنَصِّ

قوله الذي مذهبه ، وجعل أعلام مذهبه مُنحَبة ، وأتى فيه بِنَكْتِ تُطْرِب من
أَسْرار الحَرْف ، وقَوَائِدُ عُرِفَ بها ما بين ابن الدَّرْهَم وبين البُوني من البَوْن
في تَفَاوُت الصَّرْف :

أَكْرِمَ بِهِ مُصَنِّقًا * فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْأَمْعَى الْمُنِيرِ أَفْرَا !
تَمَّ فِيهِ بُرْدُ حُجَّةٍ * قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَلِيلَ سَيْفِهِ * إِذَا أَلْتَقَى خَصْمًا فَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُخَالَفَ قَطْ يُرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المَقَرَّ الشَّهَابِيُّ بن فَضْلِ اللَّهِ على قَصِيدَةِ مِيمِيَّةٍ ، للشيخ
غَرَسِ الدِّينِ خَلِيلِ الصَّفَدِيِّ المعروف بالصَّلَاحِ الصَّفَدِيِّ ، مَدَحَ بها الأَمِيرَ سَيِّفَ
الدِّينِ أُلْجَاسَ الدُّوَادَارِ النَّاصِرِيَّ ، في شَهْرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَهِيَ :

وَقَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي أَشْرَفَتْ مَعَانِيهَا فَكَادَتْ تُرَى ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَائِفُهَا
فَأَسْمَسَكَ بِهَا الْأَدَبُ لَمَّا كَانَتْ الْمِائَاتُ فِيهَا كَالْعُرَا ؛ فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمِلَةً مِنَ الْبِلاغَةِ
بِوَزْنِهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، لَطِيفَةً لَا تُقَاسُ بِأَمْثَالِهَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُرَكَّبِ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَسِيطِ ؛
فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا مُكْتَسِبًا مِنْ بَيَانِهَا مَخْرَجَ الْخَلْقِ ، مُتَعَجِّبًا مِنْ مُنْشِئِهَا لَغَوِيسَ يُسْرِعُ
الْإِمَارَ فِي الْوَرَقِ ؛ فَمَقَنْتُ إِلَى أَنَّ الْمُدَوَّحَ بِهَا أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتِ دِيمِهِ فَرُوضَتِ
الطُّرُوسُ ، وَبَرَحَتْ مَتَابِعُهُ بِمَا كَانَ مَصُونًا فِي أَخْيَةِ النُّفُوسِ ؛ وَقَدْ اسْتَوْجَبَ هَذَا
الْمَادِحُ حَقْلَ اللَّهِ تَعَالَى قَلْبَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاحِهِ حَقْلًا جَزِيلًا ، وَحُبًّا يَقُولُ بِهِ لِمَنْ قَصَدَ
الْمَسَاوَاةَ بِهِ : لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَا تَخُنْتُ فَلَنَا خَلِيلًا :

مَدَبَرُ الْمُلْكِ لَهُ ۖ عَلَى الْمُلَى مَقَاعِدُ،
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قَصِيدَةٍ نظمها شَرَفُ الدِّينِ عيسى بن حمّاج الشّاعرُ المعروف
بالعالية ، مدح بها النبيّ صلى الله عليه وسلم وختمها أنواع البديع ، ضاعها بها بديعية
الصّغرى الخليلي ، في شهر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ما صورته :

أما بعد حمد الله الذي أحلّ بحرّ البيان ، وأقدر أهل البلاغة من يدبج التّخيل على
ما يشهد بصحّته اليان ، ودلّل برائض أفكارهم صعاب الألفاظ فانتقلوا من مُتون
احاسينها الجباد ، وأوضح لهم طرق الفصاحة فعدت لديهم - بحمد الله تعالى - سهلة
القياد ، وأحيى ميت الأدب بروح الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخاليه ،
وحى نفس الفضل في رُفعة المساجلة أن تصل إليها فرازة الدماوى ولا غرو أن
حماها العاليه ، والصلاة على رسوله عجل صلى الله عليه وسلم أفصح من تطلق بالضاد ،
وأوتى جوامع الكلم فلن تحصر معاني كلامه الأعداد - فإني وقفت على البديعية
اليدية التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللّوذعي المصقع ، أديب الزمان ، وشاعر
الأوان ، شرف الدين أبو الروج عيسى العاليه - أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعه على
مناويه ، وبلغ به من قصب السبق ما يمتنع أن يراه على البعد مضايهه - فالتفتها
الدرة الثينة غير أنها لا تسام ، والخريدة المخدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام :

تَرومُ احتشاماً سَرَقَ لَأَلَاءِ وَجْهها ! * وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الحُسْنِ يُحْنِي وَيَسْتَرْ !

قد أخذت من الاحتشام مقلّاً وحسنّاً لا يفتنى ، وأتقنت من حسادها مكاناً
قصياً فلا تخاف دركاً ولا تخشى :

وَلَمْ أَدِرْ - وَالْأَلْفَاظُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أَمْ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَفِي ؟ !
أَرَادَ الْمُدْعَى بِلَوْغِ شَأْنِهَا الْجُرَى فِي مِضْمَارِهَا قَبِيلَ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضْلَ مِنْهَا عَنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا :

مَا إِنَّ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلَ كَاتِنٍ ! * وَبَيَّنَّهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْتَلُ !
فَأَنَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا : (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ) :

كَمْ جَدَلْتُ يَوْمَ الْوَعْدِ مِنْ جَنْدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا !
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَهْدِلُ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَهِيَ
الْيَدِيمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَنْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْقَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَيَّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا ؟ * وَحَلَّلَهَا مِنْهُ الثُّرَيَّا أَقْرَبُ !
وَأَنَّى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَيْمَامِهَا ؛
وَأَحْدَقَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْتَضَتْ مِنْ أَفْئَانِ الْفُنُونِ ثِمَارَ مَعَانٍ تَلَذُّ
لِنَاظِرِهَا وَتَحْلُو لِنَائِقِهَا ؟ :

وَلَا تُبْسِرْ غَيْرَهَا تَتَمَعًا وَلَا تَنْظُرَا * فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُبْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ !
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرُفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتْ الدَّرْحَى مَالَهُ تَمَنُّي * وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَانْخَلَبَتْ !
لَا يَجْمَعُ أَمَحْتُ أَمْ الْقَصَائِدِ وَكُتُبَةِ الْقُصَادِ ، وَحَطَّ الرَّحَالُ وَمَنْهَلُ الْوُرَادِ ؛ فَارْتَبَتْ
فِي الشُّهُرَةِ عَلَى " الْمَثَلِ السَّائِرِ " ، وَاعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَرَالَةُ الْبَادِي وَسُهُولَةُ الْحَاضِرِ :

فَلَا فَايَظِلُّ فِي عَلَيَّهَا سَمَرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلَاءِ أَسْمَارُ !
فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ سَمَرٍ وَسَمَرٍ ، وَقَرَنْتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهْرٍ
وَزَهْرٍ ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِنِينَ رَوْضٍ وَنَهْرٍ ؛ وَتَفَنَّنْتَ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ ،
وَطَاوَمَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ قَالَتْ وَطَالَتْ ؛ وَدَعَتْ قُرْصَانَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَكْسُوا ،
وَتَحَقِّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعَجَزَ عَنْ مُوَاحَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ زَارُؤُ وَيَعْرُبُ !
إِنْ دُرِّكَتِ الْفَاعِلُهَا فَمَا الدُّرُّ الْمَشْتُورُ ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أُنْجَلَتْ الرُّوضُ أَفْطُورُ ،
أَوْ أُخْطِرَ تَحْرِيرُ وَرُزْنِهَا فَاقِ النَّهْبِ تَحْرِيرُ ، أَوْ قُوِّلَتْ قَوَافِيهَا بِنَفْسِهَا زَكَتْ تَوْفِيرُ وَتَسَمَّتْ
تَوْفِيرُ ، أَوْ تَفَزَّلَتْ أَسْكَنْتِ الْوَرَقَ فِي الْأَغْصَانِ ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ « كَيْفِ »
وَسَلَكَتْ سَبِيلَ « حَسَنِ » ؛ فَأُطْنَبُهَا - لَقَصَاحَتِهَا - لَا يُعَدُّ إِطْنَابًا ، وَإِيجَازُهَا
- بِلَاقَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابًا :

أَرْنِي لِي مَعْرَافًا أَخَا الْفَهْمِ إِنِّهَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْهَيْدِ تُنْسَبُ ؟
هَذَا وَرَاعَةٌ مَطْلَعُهَا نَحْتُ عَلَى سَمَاعٍ بِاقِيهَا شَغْفًا ، وَبَدِيعُ حَلْصِهَا يَسْتَرْقِي الْأَسْمَاعَ
لِعَافَاةٍ وَيَسْتَرْقِي الْقُلُوبَ كَلْفًا ، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالَاةٍ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذِ الْفَضْلُ يَرُدُّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ !
وَبِالْجَمْلَةِ فَمَا ثَرَهَا الْجَمِيلَةُ لَا تُحْصَى ، وَجَمَائِلُهَا الْمَانُورَةُ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْفَى ؛ فَكَأَنَّمَا
« قُسْ بْنُ سَاعِدَةَ » يَأْتِمُّ بِقَصَاحَتِهَا ، وَ« أَبْنُ الْمَقْعَعِ » يَتَّبِعُ بِهَيْدِهَا وَيُرْوَى عَنْ
بِلَاغَتِهَا ؛ وَ« أَمْرُؤُ الْقَيْسِ » يَقْتَبِسُ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا ، وَ« الْأَعْنَى » يَسْتَفِيءُ
بَطْلَمَةَ بَنَدْرِهَا ؛ فَلَوْ رَأَاهَا « جَرِيرٌ » لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْتَرَفَهَا ، أَوْ سَمِعَهَا « الْفَرَزْدَقُ »

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصريها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواتها ، أو أطلع عليها « المتني » لتعيرين جميل ذاتها وحسن أدواتها :
 فلبصائر هاد من فضائلها • يهدي أولى الفضل إن ضلوا وإن حاروا !
 ولا يطيل فبلغ القول فيما أن آيتها المحكمة ناعمة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض
 بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا يقطع شاعر أن يسلك سبلها :
 وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها • على أن من لم يشهد الفضل جاحداً !

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تمتنع بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علينا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فليباشر ذلك » ويوصى بما يناسب .
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومجئنا عند الله طليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة هليلد :

الحمد لله الولي الحميد ، القمّل لما يريد ، نحمدك على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصّلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَحِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ عَمَدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَمْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِكَ الْحُكْمُ لَا تَطْعُ إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْأَفْضَى لَا يَنْتَصِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ
هُوَ كُفٌّ لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذِّيَانَةِ ؛ فَمَنْ
هَذِهِ صِفَتُهُ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْتَمَدَ ، وَيَرْقَى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فَلَانِ الْفَلَائِي الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ ، وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ ؛ فَإِنَّهُ
قَدْ حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خَصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى
أَسْبَابِهَا ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ ... اسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَقَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَأْشُرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ) ؛ وَلْيَجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَقَضَائِ الْخُصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَتِ
وَالْتَّلَاسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُزَاهِمْهُ وَيُقَدِّمَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِبْهُ وَيُطَالِعْهُ
بِمَحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أُمُورِ
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا الْإِلَازِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَإِنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيُقَرَّرُ الْقُرُوضُ ، وَيُزَوَّجُ الْغَالِيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَسَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْتَبُحُ لِمَنْ يَتَلَمَّزُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ؛ وَيَتَحَقَّرُ لِكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَيْرِيَّتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَعْتَمِدِينَ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فليُخْرِجْهُ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُثَبِّتْهُ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيَقْصِبْهُ .

هذا عهدى إليك ، ومُجِّتِي غَدًا عند الله عَلَيْكَ ، فاعلم هذا وأعمل به .
وَكُتِبَ ذلك عن الإِذْنِ الكريمِ الفلاني وهو في عَمَلٍ وَلَا يَحِبُّهُ وَحِكْمُهُ وَقَضَائِهِ ،
وهو نَاقِذُ الْقَضَاءِ والحُكْمِ ماضيهما ، في التاريخِ الفلاني . (ثم يَكْتُبُ الحاكمُ علامته
والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل .



وهذه نُسخة تقليد :

الحمد لله الحاكم العادل الهادي عباده صراطاً مُستقيماً ، الحاكم الذي لا يظلم مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ، المُتَيْبُ من قَدَمِ له
الطاعة من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا يَبِيعُ فِيهِ ولا يَخْلَلُ ، الرَّقِيبُ على ما يَصُدُّ من أفعالهم
فلا يَغَيِّرُ ما يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا ما بَأْتِيهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِل .

أحمدُ على نِعَمِهِ التي تُنْثِي السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأَسْتَعِينُهُ من نِعَمِهِ التي يُرْسِلُهَا
فَيَصِيبُ بها مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ وهو شَلِيدُ الْحَالِ ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بها في الإِقْرَارِ النجاةَ يَوْمَ الْمآلِ ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذي نَمَتَ بأَكْرَمِ الشِّمِّ وأشرفِ الخِصَالِ ، وعَرَفَهُ بما يَجِبُ من عُبُودِيَّتِهِ فقال :
(وَهُوَ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) .
صلِّ الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أَتَّبَعُوهُ في الْأَهْوَالِ والأَهْوَالِ ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ مَنْ حَسُنَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَحُدَّتْ سِيرَتُهُ ؛ وَعُرِفَ بِوَرَعٍ وشهرٍ بِعَافٍ ،
وِدَانَةٍ وَخَيْرٍ وَإِنصَافٍ ؛ وَأَخْصِي نَزَهَ النَّفْسِ عن الأمور الدُّنْيَا ، فَيَقْبَلُ دَرَجًا بِالْأَحْكَامِ
الشَّرْعِيَّةِ ، طَارِقًا بِالْأَوْضَاعِ الْمَرْضِيَّةِ - أَسْتَعِزُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيُرْفَى وَيَتَقَلَّم .

ولما علمنا من حال فلان الفلاني من الأوصاف الحميدة، والأعمال السديده -
استخفنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فَلْيَكُنْ مَمْسُكًا مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْمُتَيْنِ ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَلْيَأْشِرْ مَا قَلَدَاهُ أَعَانَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَبُرَاجِ حُقُوقِ
اللَّهِ تَعَالَى فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُبِينٌ مَنْ أَسْتَمَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَهَادِي مَنْ
أَسْتَرْشَدَهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيَجْتَهِدْ فِي فَضْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَحَاكِبِينَ ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ ، وَيَفْرَقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنِصِفَ كُلَّ ظَالِمٍ
مِنْ ظَالِمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَيَنْظُرَ فِي أُمْرِ
الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ، فَلْيُرَاهُ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ
ذَلِكَ طَالَعْنَا بِحَالِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أُمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْقَاهِرِ : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وَيَنْظُرَ فِي أُمْرِ الْأَيْتَامِ ، وَيَتَنَاطَلَ عَلَى مَا لَمْ مِنْ الْأَمْوَالِ ، وَفَعَلَ فِي ذَلِكَ عَلَى
جَارِي عَادَةِ أَمثَالِهِ مِنَ الْحُكَمَاءِ ؛ مِنْ تَفَقُّهِ وَكُسُوفٍ وَلَوَازِمِ شَرْعِيَّةٍ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْيَتَةِ الْمَرْصُوبَةِ ؛ وَيُقَرِّرُ الْفُرُوضَ عَلَى مُقْتَضَى قَوْلِ
اللَّهِ تَعَالَى : (عَلَى الْوَسِيحِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ) . وَيُزَوِّجُ النِّسْوَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعِدَّةِ
وَالْأَوْلِيَاءِ ، ثُمَّ رَغِبَ فِيهِمْ مِنَ الْأَكْثَفَاءِ ؛ وَيَسْتَلْبِذُ لِنَفْسِهِ مِنْ يَتَلَمُّ أَمَانَتَهُ وَخَيْرَتَهُ ،
وَيَنْظُرَ فِي أُمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْتُورَةِ أَجْرًا عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبقاه على حُجَّتِهِ وَخُدَّتِيهِ ؛ ومن كان منهم خلافاً ذلك يُبْعِدُهُ وَيُقْصِيهِ ، وَيَسْتَبْدِلُ
به ضِرَّةً لِيَقْبُضَ مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَتَعْلَمُ ذَلِكَ وَتَعْمَلُ بِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَخَّرُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِحَسَبِ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيُتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لَهُ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ
رَفَعَهُ ، وَمِنْ اطِّاعِهِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ اخْلَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَّالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَقَقَهُ ؛
الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَوَانِرِ ،
وَأُطْلِعَ عَلَى ضَمَائِرِ النَّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يُطْلِعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ اخْلَافِضِ الرَّافِعِ ،
وَالْمُعْطَى الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُقْسِطُ الْجَلَامِيعِ : (وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ
بِضَرْفٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أَحْمَدُ حَمْدًا يَقْضِي لِلسَّعَادَةِ بِالتَّيسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَارَبِ الْعَسِيرِ ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَأَشْهَدُ
أَنَّ عَمَدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكَتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ
وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ شَهَادَةً يَحْمِلُ الْمُخْلِصُونَ بِهَا جَنَّةً (يُحْمَلُونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَّبِعًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيِّعَةِ ، مُسْتَنَدًا
إِلَى بَيْتٍ مُشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلْدَ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالنُّشْرَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا فُلَانٌ بَنَ فُلَانٍ فُلَانٍ الْقَلَانِي ، قَلْدَنَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانَكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) . وَأَسْتَشْعِرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نَصَبَ حُرْمَتِكَ ، وَنَمْسَكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلَهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَتَنَصَّبُ لِنَفْيِذِ الْأَحْكَامِ أَتَنَصَّبَ مِنْ يُرَاقِبُ اللَّهُ وَيَتَحَاشَاهُ ، وَحَاسِبُ نَفْسِكَ مُحَاسِبَةً مِنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُغُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ، وَأَبْذُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَنُصْرَتِكَ ، وَرَحْبُ التَّعَاكُيْنِ ذَرْعَكَ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الشُّهُودِ وَحَدِّثُهُمْ أَنْ يَزُغُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبُهُمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمُهُمْ أَنْ يَتَّقُوا الصَّدْقَ مُتَطَهِّقِينَ ؛ وَأَنْتَهُمْ عَنِ التَّنَمُّعِ فِيهَا ، وَعَرِّفَهُمُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُؤْدِي مِنَ التَّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظَرًا يُؤْدِي إِلَى صَلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْفُضِيهِ ، وَلَا تَعْرِجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَجَلَّ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظَرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كِبَرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مِمَّا مَعَامَلَةٍ مِنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْصَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْقِسْغِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلْدَنَاهُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعَيِّنَكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَانْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْتَمِيعُ نَيْصِحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِفَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدْرِ مَرَاتِبِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » ثُمَّ قَالَ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفَلَاقِيَّ» بِقِيَّةِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَفَوْضُنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانٍ كَذَا، فليُبَيِّنْ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالات المدالة)

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَتَّهَتْ عِدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ، وَيُسَبَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَبِحُكْمِ الْحَاكِمِ بِعِدَالَةٍ مِنْ تَثَبُّتِ عِدَالَتِهِ لَدَيْهِ، وَيُسَبِّدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قِطْعٍ قَرُخَةٍ الشَّامِي الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كَاتِبَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً، يَبِينُ كُلُّ سَطْرٍ تَقْدِيرَ عَرَضٍ أَصْبَحَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ .

قُلْتُ: وَهَذِهِ تُسَخِّطُ بِحِيلٍ أَنْشَأَتْ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمُ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عِدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْخَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسِينَ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ نَجْمَ الْعِدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَ إِرَائِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجَهَالَةِ مُنْطَمِعٍ لِبَالِيهَا، وَكَلَّ عَقُودَ النِّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفَسَ لَأَلِيهَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَرُقُّ قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الثَّرَا، وَيَمْتَلِئُ مُتَحِيلُهَا صَوْنَةُ الثَّرَا: وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَمْدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمُخْصُوصَ بِمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَالْمَوْصُوفَ بِكَرَمِ الْمَأْثَرِ وَمَأْثَرِ الْكَرَمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عُرَا الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغيها على الناية القصوى؛ وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلما كانت المدلة هي أس الشريعة وعمادها، ودكتها الأعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها؛ لا تقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عديمها إسناد أمر ولا ولاية - فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمد الرواة في صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الأحكام في قبول الشهادة بأخصانها؛ إذ هي الملكة الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتمسكة بسببها الأقوى؛ والحكمة الثانية عن إلحاح إلى ارتكاب الكبائر، والعتان الصارف عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر وسلامة عقائد الضمائر.

ولما كان مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل، الأصل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي القزاري، الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والدة، والحاكم بالعميل الفلاني ومأمعها: أيد الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده - هو الذي ولد على فراش الديانة، وظهرت عليه في الطفولة آثارها، ونشأ في أحياء الصيانة، فرويت عنه بالسند الصحيح أخبارها؛ وأرتضت ثدى العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أمه فامتزج بدمه ولحمه وعظميه؛ وأعلن منادى نشاته بجمل الذكر فاعنى فيه عن الاستخبار، ولاحت عليه لوائح العجابة فقصى له بالكال قبل أن يبلغ قر عمره زمن الإبدار؛ فلم يرد مثيل التكليف إلا وقد ترين من محاسن الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قرّة عين - رُفعت قصة خبره عن حاله فيها من مضمون السؤال طالع الإذن الكريم بسماع بينة المذكور، وكاتب إسماعيل بدآيته،

فَسَمِلَهَا انْطَلُ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْقَاضِيُ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلُ ،
 الْعَلَمِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمَهْدِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَبَدِيُّ ، الْحَقِيقِيُّ ، الْمَدَقُّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْمُجَبِّ ، الْمُجَبِّ ، الْخَطِيبِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْجَلَالِيُّ ،
 الْكَفَّارِيُّ ، الْبَلِّغِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّازِطُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَيَّامِ
 الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْمَالِكُ الشَّرِيفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ، وَلِيُّ الدِّينِ ، شَرَفَ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدَ الْفَضَلَاءِ ،
 مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنَ الدِّينِ ،
 شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَدْرَ الدِّينِ ، شَرَفَ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدَ الْفَضَلَاءِ ، مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِيَّ الشَّافِعِيَّ ، خَلِيفَةَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ
 الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُتَوَفِّيَّةِ ، وَمُفْتِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ :
 أَيْدِ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَيَنْتَظِرُ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ،
 وَلِيُّ الدِّينِ ، الْحَاكِمُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيِّنَةُ بِتَرْكِتِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بِعَدَائِهِ ، وَقِيلَهَا الْقَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَّائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِيهِ الْكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ تَجَلُّسَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ تَبَتَّ عِنْدَهُ وَصَحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمُتَحَرَّرِ الْمَرْغِيِّ ، بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تَبَتَّ بِمَثَلِهَا الْحَقُوقُ الشَّرْعِيَّةُ - عَدَالَةُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ، الْعَدْلُ، الرِّضَى، نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الْمُسَمَّى أَعْلَاهُ : زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقًا، وَسَهَّلَ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقًا، وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا، وَتَحَلَّى بِهِ مِنْ أَدَوَاتِهَا، ثُبُوتًا مَحِيصًا مُعْتَبَرًا، مُسْتَوْفَى الشَّرَائِطِ مُحَرَّرًا.

وَأَنَّهُ - أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ، وَسَدَّدَ نَفْضَهُ وَإِرَامَهُ - حَكَمَ بَعْدَائِهِ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِ، حُكْمًا تَامًا وَجَزَمَهُ، وَقَضَى فِيهِ قَضَاءَ أَرْبَمِهِ، وَأَذِنَ لَهُ - أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ - فِي تَحْمِيلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا، وَبَسْطِ قَلْبِهِ فِي سَائِرِ أُنْدِيَّتِهَا وَأَرْجَائِهَا، وَأَبْرَأَهُ - أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ - مُجْرَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْعُدُولِ، وَنَظَّمَهُ فِي سَلَكِ الشَّهَادَةِ أَهْلَ الْقَبُولِ، وَنَصَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ شَاهِدًا عَدْلًا، إِذْ كَانَ صَالِحًا لِنَفْسِهِ وَأَهْلًا.

فَلْيَبْسُطْ بِالشَّهَادَةِ قَلْبَهُ، وَلْيُؤَلِّفْ عَلَى شُرُوطِ أَدَائِهَا كَلِمَةً، وَلْيُحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ مَلَائِسِهَا الْجَمِيلَةِ، وَأَنَالَهُ مِنَ التَّرَقُّقِ لِرَبِّبَتِهَا الْخَلِيلَةِ؛ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى فِي مَوَارِدِهِ وَمَصَادِيرِهِ، وَلْيَسْلُكْ مَسَالِكَ التَّقْوَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ سَلَكَ الْحَقَّ نَجَا، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. أَوْزَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ هَذِهِ الرَّبَّةِ الْعَلِيَّةِ، وَالْمَثَرَةِ السَّيِّئَةِ.

وَقَدَّمَ أَمْرَ سَيِّدِنَا الْعَبِيدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ، الْعَالِمِ، الْحَافِظِ، وَلِيِّ الدِّينِ، الْحَاكِمِ الْمَذْكُورِ، وَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ عَثُورٍ بِكَاتِبَةِ هَذَا الْإِسْجَالِ، فَكَتَبَ عَنْ إِذْنِهِ الْكَرِيمِ، مُتَضَمِّنًا لِنَفْسِهِ مَسْئُولًا فِيهِ، مُسْتَوْفَى شَرَائِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ. وَأَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُ بِأَعَالِيهِ، الْمَكْتُوبَ بِحَقِّهِ الْكَرِيمِ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

قُلْتُ: وَالْعَادَةُ أَنْ يُعَلِّمَ فِيهِ الْحَاكِمُ عَلَامَةً يَلُو الْبَسْمَلَةَ، وَيَكْتُبُ التَّارِيخَ فِي الْوَسْطِ، وَالْحَسْبَلَةَ فِي الْآخِرِ، كُلُّ ذَلِكَ بِحَقِّهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهِ مَنْ يُشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ كُتَّابِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا فِي سَائِرِ الْإِسْجَالَاتِ الْحُكْمِيَّةِ.

المصنف الثالث

(الكُتُب إلى الثَّوَاب وما في معناها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاءِ أَلْفَاطُهَا مُرْسَلَةٌ ، لِاجْتِنَاحِ فِيهَا لِمَا فَرَغَ
 الْبَلَاغَةُ وَالسَّجْعُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة تَغْرِي الدين الشافعي ، إلى الحُكَّام
 بِالْمُلْكَةِ ، وهو :

أَدَامَ اللَّهُ فُضَالَاتِ الْجَنَابَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْمَجَالِسِ الْعَالِيَةِ ، وَجَعَلَهُمْ قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ
 فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَو (١٥)
 الْأَحْصِيَالِ مِنْ يَعْزِي بِأَمْرِهِ وَيُخْتَلِ ، وَلَا سِيَّامَا
 مِنْ سَارَتْ طَرِيقَةُ فَضْلِهِ الْمُثَلَّى فِي الْأَفَاقِ سَيْرَ الْمَثَلِ ؛ وَلَا زَالَ عَرَفُ مَعْرُوفِهِمْ عَلَى
 دَوَى الْفَضَائِلِ يُفَوِّحُ ، وَجِيَادُ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مَيْدَانِ الْإِحْسَانِ وَتَرْوَحُ ، وَنِيلُ تَبْلِهِمْ
 يَسْرِي إِلَى الْقَصَادِ فَيُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الْغُبُوقِ كَمَا يُجْمَدُ سُرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتوبة إليهم تَغْرِيهِمْ سَلَامًا أَلْفَافًا مِنَ النَّسِيمِ ، وَتُبْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مَزَاجِ
 كَاتِبِهِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَتُبْدِي لِعُلُومِهِمُ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ ، الْعَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
 الْإِمَامِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْبَارِعِيَّ ، الْأَوْحَدِيَّ ، الْأَكْمَلِيَّ ، الْبَلِيغِيَّ ، الْمُقَدِّمِيَّ ، الْخَطِيبِيَّ ،
 الْبَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الْفَضْلَاءِ ، تَغْرِي الْعُلَمَاءَ ، زَيْنَ الْخَطْبَاءِ ، قِبْلَةَ الْأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ الْبُلَّاءِ ،
 صَفْوَةَ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَطِيبَ الْمَوْصِلِ - أَدَامَ اللَّهُ الْمَسْرَّةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الْخَيْرَ
 بِسَبِيهِ ، وَضَعَ بَفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ - وَرَدَ عَلَيْنَا بِطَرَابُلسِ الْمَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ الْمَسْرَةُ
 بِذَلِكَ الْوُرُودِ ، وَتَجَمَّدَ بِخُصْمَتِهِ مَا تَهْدَمُ مِنْ وَثِيقِ الْفُهُودِ ؛ وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الْفَائِيقِ
 الرُّبُوقِ ، وَإِنْشَائِهِ الْمُغْنَى عَنْ نَسْوَةِ الرَّحِيقِ ، وَكَتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّعْرُ الْحَلَالُ عَلَى

التَّحْقِيقُ ؛ مَا زَهَّ الْأَبْصَارَ وَشَنَّفَ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْلَاعِ ؛ فَازَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَتِيبَ فِكْرًا ، وَانْجَمَلَ مِنَ الرُّوْضِ الْأَيْبِيِّ زَهْرًا ،
وَانْجَمَلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقِ عَطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَلِيلُ الَّذِي لَا يُنْسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَئِيَّا لَيْسَ فِيمَا
يُسَيِّدُهُ مِنَ الْأَدَبِ تَحْرِيفٌ وَلَا غَلْطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ بَحْرًا لَمَا كَانَ الدَّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفَطْنُهُ الْكَرِيمَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَهِنَّ إِنْ رَقَّتْ طَرَسًا فُرُوحٌ وَرِيحَانٌ ،
أَوْ بَدَلَتْ رُبًّا فَمِثْلَانِ تَجْرِيانِ ، وَهِنَّ إِنْ نَظَمْتَ شِعْرًا فَيَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ ، أَوْ نَثَرْتَ
تَبَرًّا فَمِثْلَيْنِ الدَّرُّ الْوَانِ ؛ مَا بَرِحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقٌّ لَمْ أَنْ يُسَارِعُوا
وَمِنْ أَبْوَابِ مَعْرِفِهِ يَفْتَحُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُنْسِبُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِ ، وَالنَّيْلُ الَّذِي تَجْرَى لِفَرَاغِهِ مِنْ عُيُونِ اللَّيْلِ
الْمَدَامِيعُ ، وَالتَّرْدِيلُ الَّذِي يُبَشِّدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

• بِعَيْشِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ •

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيَنْشُرْهُ مِنَ الثَّنَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِئُ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وُتُوئِهِ الْإِنْشَاءَ إِنْ شَاءَ ؛ وَيُجِئُ فِي ذَمِّ مُسْتَحَقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْهَجَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدْحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحَضُورِهِ يَتَقَرَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ، وَالْفَضْلَاءُ بِقُضَائِهِ
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ يَحْمَدُهُ يَفْتَرِفُونَ ، وَالْأَدْبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَقِفُونَ ، وَمَنْ يَفْتَحِشُونَ ، وَالطُّلَبَةُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَسَكَّبُونَ ، وَبَنَشْرِ أَثْنَيْتِهِ يَتَسَكَّبُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوَجُودِهِ
يَفْتَحِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَحِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَسْكُو بِإِيثارِهِ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ؛ فَيُجَوِّدُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانًا بَنَانَهُ ، وَيُجَوِّدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفَ لِسَانِهِ •

ثم من قبل أن نبلغ منه الوطر، ومن دون أن يكتفي منه السمع والبصر، عرفنا أنه قصد التوجه إلى البلاد الساحلية، والأعمال الطرابلسية، ليحمل على أهلها من فضائل الباهرة الباسقة، وألفاظه التي هي كالدرر المتناسقة، ويعلّم عرائس الأفكار من أفكاره، ويخبرهم عرائس الأثمار من أشجار عليه، ويريهم البديهة البديعة، والقوافي المحيية المصلحة.

فليقدم الجماعة - أيهم الله تعالى - بإكرامه لإكرام الأهل والأصحاب، وتلقيه بالبر والطلاقة والترحاب، وإحلاله من الإحسان عملاً سامياً، وإنزاله من الانفصال منزلاً عالياً، والاحتناء الوافر بأمره، واستجلاب بئ حمده وشكره، وإيقاظ دُرر قرائده، واكتساب غرر قرائده، والإصغاء إلى المنشور والمنظوم من أقواله، والتعجب من حسن بداهته وسرعة أريجاله.

وليحفظ كل يوم يخدمته غاية الاحتفال، ويستن بأمره احتناء لا يساركة تقصير ولا إهمال، ويرع له حق الضيف الجليل، والقديم الذي إذا رسل عن يده أبق له بها الذكر الجميل، ويساعد على ما توجه بصده كل ساعة يعود نفعها عليه، ويتفق مما آناه الله ويحسن كما أحسن الله إليه.

ونحن نؤكد على الجماعة - أيهم الله - في ذلك كل التأكيد، ونبذل فيه مبالغة ما عليها من مزيد، ونحذرهم من الإهمال والتسويف والتقصير، ومن مقابلة جنابه الكريم بالتر الخفير والخذير اليسير، فإكرام هذا الرجل ليس كإكرام من لم يسر بسيره، وما هو إلا لعابه وفضله وخيره، وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « وليس من يكرم نفسه كالذي يكرم لغيره ».

فلتظموا كل التظيم وتزكوا منزلة تليق بأهل الفضل والإنضال، وترفعوا له المقام وتحفظوا له المقال، ليعود محقق الآمال مبلغ المقاصد، ناشراً الوية النباء

والتَّحَامِدُ ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ، وَنَحْنُ مُتَطَرُونَ مَا يَرِدُ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ الْكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِي هَمِيمِهِمُ اللَّعْلِيَّةِ ، وَمَكَارِمِهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُبْنِي عَنْ التَّكَايِدِ بِسَبَبِهِ وَالْوَصِيَّةِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِغَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيُجَمِّلُ بِوُجُودِهِمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ، بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ .

الصفحة الرابع

(مَا يُكْتَبُ فِي آفَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَنَ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف على مسجد ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ الْمُحَمَّديِّ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَنْجَادَ ، وَمُشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَيْمَةِ وَالْجُمُعَةِ
وَالْجُمُعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرِّشَادِ ، وَجَامِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُبَادَ ، وَمُسَرِّ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّنَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
يَمُنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمُرِيدِ الْإِرْقَادِ ، وَمُقَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لَخِيرَ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّيِّ وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعَظِّمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بِنِيَّةِ خَلِيَّةٍ مِنَ الرِّبَاةِ وَالْعِمَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَلَوْ كَفَحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَتَرْجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادَ .

(١) يياض بالأصل ولعله : من المنازل الحقة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُهُ عَلَى مَوَادِّ نِعَمِهِ الَّتِي جَلَّتْ عَنِ التَّعْدَادِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا وَإِفَاءً وَإِقْرًا نَجْمُهُ
ذَخِيرَةُ لَيُومِ التَّنَادِ ، وَأَسْتَعِذُّ مِنَ اللَّطِيفِ لَوَائِمِ الْفَضْلِ الْخَفِيِّ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَاتَمُ الْخَاتِمُ عَلَى
حَوْضِهِ الْوَرَادُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا أَصْنَى إِلَى الذِّكْرِ وَأُجِيبَ كُلُّ دَاعٍ
مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ .

وبعد ، فَلَمَّا كَانَتْ الْكُتُوبَاتُ مَضْمُونَةً الْأَجْرِ عِنْدَ الْكَرِيمِ ، وَالْأَعْمَالُ مَعْدَّةً
فِي التَّقْدِيمِ ، وَكَانَ بُيَآنُ الْمَسَاجِدِ وَإِقْرَاءُ أَجْرَا ، لِمَنْ أَقَامَ بِوَاجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ
وَسَلَّدَ إِلَى الْخَيْرَاتِ سَبِيلًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي فِي فَلْيُظَنَّ
بِي خَيْرًا » . وَرَأَى الْعُقَلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ عَلَى الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَائِعِ مِنْ أَنْفُسِ قَوَائِدِ
الَّذِينَ وَأَعْلَى - فَلَنَذْكُرَ قِيلَ فِي هَذَا الْإِنْجِيَالِ الْمُبَارَكِ :

هَذَا مَا وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبْدَهُ فَلَان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً فِي مَزِيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً فِي تَهْوِيلِ تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَغْنَيْنَا مَا لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ،
لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الْمُبْرُورَةِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً) . وَقَفَ بِنِيَّةِ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةِ صَالِحَةٍ ، وَنِيَّةِ صَادِقَةٍ ، مَا هُوَ لَهُ
وَفِي مِلْكِهِ ، وَحُوزِهِ وَيَدِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، مِنْ غَيْرِ مُنَاطِيرٍ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا شَرِيكَ ،
(ثُمَّ يَذْكُرُ الْوَقْفَ) .

الفصل السادس في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخة عُمرَةٍ أَعْتَمَرَهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزَرَجِيُّ ، عِنْدَ مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدِ بْنِ قِلَابُونَ » ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ وَمِنْ سَلَفِهِ الْكَرِيمِ عَلَى الْعُلَاقِيْنَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ، وَعَقَدَ لِرِوَاةِ الْمَلِكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطْلَابُ الْمُقَامِ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ، وَسَهْلِ الطَّرِيقِ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مَنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثَ الْمَلِكُ كَارِبًا عَنْ كَارِبٍ ، وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةُ بِالذِّمَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَافِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ لَوْصِيفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَاصِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا اسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَتَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الذَّخِيرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزُ مَنْ كَانَتْ آيَةُ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفَ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بِلَهَاءٍ بِأَشْرَفِ مَلَكٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عُمَرَةُ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةٍ » صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحْبِهِ

خُصُوصًا عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمِّيهِ الْمُتَخَصِّصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاوَزَةِ بِالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخَطَّابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ، الْجَامِعِ لَجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمُنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلِكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَاخْتَارَ يَدَهُ يُفَضِّلُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْقَلَالَ ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُمْ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُتْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُحِبَّ عَنْهُمْ الضَّرَرُ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمَطْهُرِ .

وَلَمَّا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعَظَّمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْهِنْدِ بَيْنَ طَاوِيفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمُلُوكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ، وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِسُلْطَانَةِ الدَّلَائِلِ ، وَأَلْقَاهُ سِرِيرُ الْمُلُوكِ وَصَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّيَاطِلَ ؛ فَهُوَ الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلُوكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةُ الْفَخَارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُودِ وَالْفَخَارِ
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَبِيلَ : بِحَرِّ طَمَى أَوْ بِدَرِّ تَجَلٍّ ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُلُوكَاتِهِ وَأَرْقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلِيَّائِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآوَاخِرَ ، وَأَضْفِيَتْ عَلَيْهِ حُلُلُ الْمَقَائِرِ ؛ وَالْمُنْصَوِّرُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةَ وَتَصَرَّا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَجَ بَحَالَ نَصْرِهِ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَمَتْ
سَيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كرهه، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحق وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم
مرة بعد مرة؛ ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة!!! كم سلك سنن
وأبده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالقرابة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف
تقدمه وإقدامه فكان أعظم ناصير وأشرف منصور، يحمد الله تعالى والناس عن
جميل ذنبه عن الإسلام وحيد فعله، واستقل الجزيل فينبئ الحبيب لمن أم أبوابه
الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله؛ ما حلت رايته الشريفة كعبة إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت؛ ولا جهز عساكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيم، ولا حاصروا قرا للكنار إلا أخذوا
بنواصيم؛ ولا سرسرية لمواجهة غارب إلا نزل على رجليه، ولا نطق لسان الحمد
للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسميه؛ فاختاره الله تعالى على عليم على
العالمين، وأجتهه للذب عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسلطانته وآرثا، وفي الملك
ما يكافؤ الله رين ثلثا؛ ولأموره سدا، ولثغور بلاد الإسلام سدا؛ وقوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاص والمأم؛ وعقد به أمور المسالك
والأملاك، وأطلع بمعادته أئمة البروج في أثبت الأفلاك؛ وسمى الإسلام
والمسلمين من كل جانب شرقا وغربا، وملا بمهاجته البلاد والبياد رعبا وحببا؛
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حكمه وفضله؛ وفرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيدا ملوك العرب والسجم؛ وأمن بمهاجته كل حاضِر وباد،
ونوم سُكَّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطن مهاد؛ وسكن خواطر الجالورين
من جميع الخافوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والمالك؛ قد حسن مع الله
تعالى سيرة وسيرا، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيه خيرا؛
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عليم أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والمُجوع، وأمنهم في أيامه الشريفة بالرخاء من
النجوف والجوع؛ وجمع لهم بين سعادة الدنيا والأخرى، وسهل لهم الدخول إلى بيته
الحرام براً وبحراً، وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار،
وملأ من مهاتمه جميع الأقطار :

فسارت مسير الشمس في كل بلدة * وهبت هبوب الريح في القرب والبعد !

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] العلو
والارتفاع؛ ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يتنهل
بالدعاه قبل أن يدعو لنفسه؛ فكيف من هو تملوكه وابن تملوكه ووارث عبوديته،
ومن لم يرل هو ووالده وإخوته في صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعيم
نعمته، السيد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخرزجي،
فإنه لم يرل مدة أيامه مبتلياً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره
وطول حياته؛ طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشايع العظام .

وأحب أن يُخففه بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة
يتمرها عنه ويؤدي ثوابها لصعائفه الشريفة ويزيد بذلك نفراً؛ فقام عنه بممرتين
شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكثت في باحراميهما وتليتهما، وطولاً فيهما
وسمهما؛ يتقرب بذلك إلى أبواب الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته
الشريفة أن ينعم عليه بنصيب معلوم صدقة عليه، وبنصيبه لأولاده : ليقضي بقية
عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كل رايح وساجد؛ وأن يكون
ذلك مستمرّاً عليه مدة حياته، وعلى قدرته وتسليه وعقبه بعد وفاته؛ لتشمل
صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لظلماته

في أيامه الشريفة الممات ؛ جَصل الله تعالى مولانا السلطانَ وأرث الأعمار ،
وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار ؛ وجعل كَلِمَةَ الْمُلْكِ باقيةً في عقبه ، وبلغه
من النصر والغفر والأجر غايةً أرى ؛ وجعل أيامه كلها مسارَ وبشائر ، ودولته نسر
النواظر ، ومعادته ليس لها آخر ؛ وحيثه بما قد أممه الله له من مُلكٍ والده الشهيد
رحمه الله تعالى :

[أَهَيْتِكَ بِالْمُلْكِ يَاخَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرَايَا وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * تُحِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَلَاقِينَ ^(١) * وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَبَبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْجَنِّشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنْشِدُ فِي التَّجَنِّبِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بَفْدَادِ دَارِ السَّلَامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْدَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكِ النَّاصِرِي * فَصُورُ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمُنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتَهْمِي الْأُسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَقْبَلُ إِلَى أَنْ تَمَّ الْبِلَادَ * بِنُعْمَى ثَنَائِعِ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرِي الْمِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِمُونَ * وَتُهْمِي مَفَازِيكَ سُمَارَهَا ،

[والله يُقْبِضُهُ ^(١)] بعد ما دأبنا ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده
ناصر الدنيا والدين ؛ لأنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه ربما اعتنت الملوك ببعضه، فافتححت على كآبها لإنشاء قوم من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك. كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصائى كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنده أسمه مليكا، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك.

وهذه نسخة عهد بالتطفل، التي أنشأها أبو إسحق الصائى لهذا المذكور :

هنا ما عهد على بن أحمد المعروف بمليكا إلى علي بن عرس الموصلى، حين استخلفه على إحياء سنيته، وأستنايه في حفظ رؤسومه، من التطفل على أهل مدينته السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكثافها، ويمررى معها في سوايدها وأطرافها؛ لما توتجته فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، وراه أهلا له من سد مكانه، والرعاة المهملة التي فطن لها، والرعاة المطرحة التي أعتدى إليها؛ والنعم المائدة على لا يسبها بملأ الطعوم، وغضب الجسوم؛ وردا على من أئسعت حاله، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره بيداع الطيات؛ أخذنا من ذلك كله بنصيب الشريك المتأصف، وصاريا فيه بسهم انخيليط المقايض؛ ومستعملا للدخل اللطيف عليه، والمتوج السجيب إليه؛ والأسباب التي سنشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب، ونستوفى الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسنا ونعم الوكيل.

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين : الفصل الأول فيما آحضت الملوك ببعضه . الفصل الثاني في سائر أنواع المزول، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثاني، فليتب.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحزب الحزين، والركن المنيح، والطود
الرقيق، والعصمة الكالحة، والجنة الواقعة، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة
من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله، ويعمل
رضاه مطلبه، وثوابه مكتسبه، والقربة منه أربه، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه
في مشاعة قدم، ولا يتعوض عنه لماعة قدم، ولا يقدم على ما كرهه، وأنكره،
ولا يتقاعس عما أحب وأمره.

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر،
فإنه إذا كان ذلك هيبه ودينته، وجرى عليه منهاجه وسنته، تكفل الله له بالصلاح
والصلح، وأنصت به إلى الرشد والصلاح، وأظفره بكل بئسه، وأوصله إلى كل
مشيه، ولم يخله من القوز بما يرصد، والحوز بما يقصد، بذاك وعد، وكذلك
يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومعناه، ويتصفحه تصفح
الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتخليده، فإن كثيراً من الناس
قد استنقحه من فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشر والنهم، وجماله
منه على التقه والقرم، فمنهم من فليط في استدلاله، فأساء في مقال، ومنهم من شح
على ماله، فدافع عنه بأحبياله، وكل الفردين ممنوم، وجميعهما ملوم، لا يتعلقان
بغير واضح، ولا يعتريان من لباس قاض، ومنهم الطامحة التي ترى فيها شراكة العنان:
فهي تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم
الأكلي، وفي المشرب للوايد الواعل، وهي أحق بالحرية، وأخلق بالتغيير، وأحرى
بالمروء، وأولى بالفتوة، وقد عرفت بالتطفيل، ولا غار فيه عند ذوي التحصيل،

لأنه مُشْتَقٌّ من الطَّلِيل وهو وقت المساء، وأَوَّانُ العِشَاء؛ فلما كَثُرَ اسْتِمْعَالُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَبِجْزِهِ ، وَأَوَّلُهُ وَأَخِرُهُ ؛ كما قيل للشمس والقمر : قَرَّانٍ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ، ولأبي بَكْرٍ وَحُمَرُ : الْعُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وقد سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَّانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ خُلُودُ الذِّكْرِ ، فهو بَاقٍ بَقَاءَ الْبَهِرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ عَصْرِ ، وما نعرف أَحَدًا نَالًا من الدُّنْيَا حَظًّا من حُطُوطِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلُفُهُ ، وَصِبْتُ يَسْتَبْدِ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ ، فَيَبَّانُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تَذَكَّرُ الْمُلُوكُ بِسِيرِهَا ، فَنَ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَةِهُ ؛ سَعِدَ بِقَضَائِهِ عَيْشُهُ فِي يَوْمِهِ ، وَنَبَّاهُ ذِكْرُهُ فِي غَدِهِ ؛ جَعَلْنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى مَدَاهِ ، وَالْمَذْكُورِينَ كَذِكْرَاهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّعِدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهُ ، وَمُحَاطَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَايَاهُ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ مِنْهَا بِالْفَنِينَةِ الْبَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْقَرِيْبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَأَهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، الْمُلَيَّنَةِ لِلْسَّانِ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الْحُقُومِ ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ ضَرِيحِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَتْسُهُمْ ؛ لِخَلْقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجُودَةِ أَدْوَانِهِمْ ، وَأَثَرِيَاغِ عَلَيْهِمْ ، وَكَفَرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُؤَفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يُعْرِضُ لِمُوسِرِي الثُّجَارِ ، وَبُجْهَزِي الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِيَّةِ الدَّارِ ، وَالْمُرْسِ وَالْإِضَارِ ؛ فَلَانِهِمْ يُوسَعُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ فِي النَّوَابِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرِّائِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَلِّقِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الرَّاعِلِينَ ؛ لِيَتَعَدَّوْا بِذَلِكَ فِي حِمَاظِهِمْ الرِّذْلَ ، وَيَعُدُّوهُ فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ التَّنْذَلَ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ الْبَاسُجُ بِأَسَاعِ طَعَامِهِ ، الْمُبَايِ بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْقَرِيبَةَ فَأَطْعَمَهَا ، وَالْأَيْدِيَّ الْمُتَنَدِّةَ فَأَمْلَأَهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَتَلَتْهُ الْكَرَمُ وَالسَّعَمُ ،

وَإِنَّمَا أَرَادَتِ الْمَنَّ وَالسُّمَمَةَ ؛ فَإِذَا أَحْتَدَى الْأَرَبُ إِلَى طَرِيقِهَا وَصَلَ إِلَى بُيُوتِهِ
مِنْ إِعْلَانِ قَضِيَّتِهَا ، وَفَازَ بِمُرَادِهِ مِنْ ذَخَائِرِ حَسَنَتِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يُصَادِقَ قَهَّارَةَ الثَّوْرِ وَمُدَبِّرِيهَا ، وَيُرَافِقَ وَكَلَاءَ الْمَطَايِخِ وَحَمَالِيهَا ؛ فَإِنَّهُمْ
يُمْلِكُونَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ أَزِمَةَ مَطَاعِمِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ ، وَيَضَعُونَهَا بِحَيْثُ يُحِبُّونَ مِنْ أَهْلِ
مَوَدَّاتِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ ؛ وَإِذَا عَدَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا مِنْ خَلَلَانِهَا ،
وَأَتَّخَذَتْهُ أَخًا مِنْ إِخْوَانِهَا ؛ سَعِدَ بِمُرَافَقَتِهَا ، وَوَصَلَ إِلَى غَايَةِ مِنْ جِهَاتِهَا ، وَمَارِيهِ
فِي جَنَابَاتِهَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَمَّدَ أَسْوَاقَ الْمُسَوِّقِينَ ، وَمَوَاقِمَ الْمُتَبَايِعِينَ ؛ فَإِذَا رَأَى وَطِيفَةً قَدْ زِيدَ
فِيهَا ، وَأَطِيعَةً قَدْ أَحْتَشَدَ مُشْتَرِيهَا ؛ أَتْبَعَهَا إِلَى الْمَقْصِدِ بِهَا ، وَشَبَّعَهَا إِلَى الْمَنْزِلِ
الْحَاوِي لَهَا ؛ وَاسْتَمَلَمَ مِيقَاتِ الدَّعْوَةِ ، وَمَنْ يَحْضُرُهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَانِ وَالْمُرُوءِ ؛
فَإِنَّهُ لَا يَتَلَوَّفُهُمْ مِنْ عَارِفٍ بِهِ بِرَأْيٍ وَقْتُ مَصِيرِهِ إِلَيْهَا لِيَتَبَعَهُ ، وَيَكُنَّ لَهُ لِيَصْحَبَهُ
وَيَدْخُلَ مَعَهُ ؛ وَإِنْ خَلَا مِنْ ذَلِكَ أَخْطَلَطَ بِزُمَرِ الدَّاخِلِينَ ، وَعُصِّبَ الرَّاغِبِينَ ؛
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَجَاوِزَ حَتَبَ الْأَبْوَابِ ، وَيَخْرُجَ مِنْ سُلْطَانِ الْبَوَايِنِ وَالْمُحَاجَبِ ؛ حَقٌّ
يَحْصُلُ حَصُولًا قَلِيلًا مَا حَصَلَ [عَلَيْهِ] أَحَدٌ قَبْلَهُ فَانْصَرَفَ عَنْهُ إِلَّا ضَلِيلًا مِنَ الطَّلَامِ ،
بَرِيحًا مِنَ الْمُدَامِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَنْتَسِبَ الْأَرْصَادَ عَلَى مَنَازِلِ الْمُغْنِيَّاتِ وَالْمُغْنَيْنِ ، وَمَوَاطِنِ الْأَبْلِيَّاتِ (؟)
وَالْمُخْتَنِينَ ؛ فَإِذَا آتَاهُ خَبَرٌ لَجَّحَ يَضُمُّهُمْ ، وَمَاذِيَهُ تَضُمُّهُمْ ؛ ضَرَبَ إِلَيْهَا أَعْقَابَ إِبِلِهِ ،
وَأَنْشَأَ نَحْوَهَا مَطَايَا خَيْلِهِ ؛ وَجَمَلَ عَلَيْهَا حِمْلَةَ الْحَوَاتِ الْمُتَقِمِّ ، وَالثَّمَنِانِ الْمُتَلَتِّمِ ؛
وَاللَّيْلِ الْمَاصِرِ ، وَالْمَقَابِ الْكَاسِرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَجْتَنِبَ جَمَائِعَ الْعَوَامِّ الْمُقْلِينَ ، وَمَحَافِلَ الرِّعَاعِ الْمُفْتَرِينَ ؛ وَأَنْ لَا يَتَقَلَّ
إِلَيْهَا قَدَمًا ، وَلَا يُعَقِّرَ لَهَا كَلِمًا قَدَمًا ؛ وَلَا يَلْقَى فِي حَتَبِ دُورِهَا كَثِيسَانًا ، وَلَا يَبْذُرُ الرِّجْلَ

منها إنسانا ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِسْخَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْرَافُهُ بِمُرُوءَةِ الْمُتَطَفِّلِ يُوصَمُ ؛ والتَّجَنُّبُ لها
أَحْرَى ، والأَكْزُورَارُ عنها أَجْمَى ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمَرَهُ أَنْ يَحْزَرَ الْخَوَانَ إِذَا وُضِعَ ، والطَّعَامَ إِذَا قِيلَ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّقْرِيبِ ، وَالبَحْثِ والتَّنْقِيبِ ؛ عَدَدَ الْأَلْوَانِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ ، وَأَقْتِنَانَهَا فِي الطَّيِّبِ
وَاللَّدِّ ؛ فَيَقْدِرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْمَعَ مع آخَرِهَا ، وَيَتَنَبَّهَ مِنْهَا عِنْدَ آتِهَا ؛ وَلَا يَفُوتُهُ
التَّصِيبُ مِنْ كَثَرِهَا وَقِلِيلِهَا ، وَلَا يَحْطِئُهُ الْحِظُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بِقَلَّةِ
الطَّعَامِ ، وَتَجَزَّاهُ عَنِ الْأَقْوَامِ ؛ أَمَنَّ فِي أَوَّلِهِ إِمْعَانَ الْكَئِيسِ فِي سَعَتِهِ ، الرَّشِيدِ فِي أَمْرِهِ ،
الْمَسْلُوكِ لِبَطْنِهِ ؛ مِنْ كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَلِمَ مِنْ
عَوَاقِبِ الْأَحْمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونَ تَطَرُّفًا ، وَيَقْلُونَ تَأْدِبًا ؛ وَيَطْنُونَ أَنَّ الْمَادَّةَ تَبْلُغُهُمْ
فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وَتَنْتَوِي بِهِمْ إِلَى غَايَةِ سَمِيمٍ ؛ فَلَا يَلْبَثُوا أَنْ يَتَجَلَّجَلُوا تَجَلَّةَ الْوَارِثِ ،
وَيَتَقَلَّبُوا بِحَسْرَةِ الْخَالِطِ ؛ أَعَادَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُنُودِهِمْ ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمَرَهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُقَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْحًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْحًا ، وَيَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عَنِ الْفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ الْكُذْرَةُ فِي حَلْفِهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فِي رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْقِعِ
أَضْرَائِهِ ؛ وَإِنْ قَبِيهَ لَاقَى بِالْجَفَاءِ ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفَاءِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَجَعَ الْأَبْوَابَ ،
وَخَالَطَ الْأَسْبَابَ ؛ وَجَلَسَ مع الْخُضُودِ ، وَأَمْتَرَجَ بِالْجُهُودِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ الْمُتَكَبِّرُ
لَاذِمَّهُ ، وَيَمُرَّ بِهِ الْمُسْتَفْرِيبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَذَمَّرَ ، وَإِنْ كَانَ قَتْلًا
غَلِيظًا مِمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ ؛ وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْخُفَاشَةَ ، وَاسْتَعْمَلَ مع الْخَطَائِبِ لَهُ الْمَلَائِنَةَ ؛
لِيُبَرِّدَ غَيْظَهُ ، وَيَقْلَّ حِدَّةَ ؛ وَيَكُفَّ غَرَبَهُ ، وَيَأْمَنَ شَغْبَهُ ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ الْمَدَى

تكررت الالتطاط عليه فُرف، وَأَنَسَتِ النَّفُوسُ بِهِ فَأُلِفَ؛ ونال من التحالِّ المُجْتَمِعِ عليها، مَكَالٌ من حُشْمٍ وسئل النَّهَابُ إليها .

وقد بلغنا أَنَّ رَجُلًا من المصَابَةِ كان ذا فَهْمٍ وِدْرَايَةٍ، وَعَقْلٍ وَحَصَافَةٍ؛ طَفَلَ عَلَى وَلِيِّهِ ، لرجل ذى حَالٍ عَظِيمَةٍ ؛ فَرَمَقَتْهُ فِيهَا من القومِ النُّيُونُ ، وصُرِفَتْ بِهِمْ فِيهِ الطُّنُونُ ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تَكُونُ أَعَزَّكَ اللهُ ؟ فقال : أَنَا أَوَّلُ من دُعِيَ إِلَى هذا الحقِّ . قيل له : وَكَيْفَ ذَاكَ وَبِمَنْ لَا نَعْرِفُكَ ؟ فقال : إِذَا رَأَيْتُ صَاحِبَ الدَّارِ عَرَفْتَنِي وَعَرَفْتُهُ نَفْسِي . بَقِيَءٌ بِهِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ بَدَّاهُ بِأَن قَالَ له : هَلْ قُلْتَ لَطَبَاخِكَ ؛ أَن يَصْنَعَ طَعَامَكَ زَائِدًا عَلَى عِدَدِ الحَاضِرِينَ ، وَمِقْدَارِ حَاجَةِ المَدْعُورِينَ ؛ قال : نَعَمْ ! قال : فَأَتَمَّكَ تِلْكَ الزِّيَادَةُ لى وَلَا مَثَالِي ، وَبِهَا يُسْتَظْهَرُ لِمَنْ جَرَى بِجَرَايِ ، وَهِيَ رِزْقٌ لَنَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى يَدِكَ وَبِكَ ، فَقَالَ لَهُ : كَرَامَةٌ وَرُحْبَا ، وَأَهْلًا وَفُرْبَا ؛ وَاللَّهِ لَا جَلَسْتَ إِلَّا معَ عِلْيَةِ النَّاسِ وَوُجُوهِ الجُلَسَاءِ ، إِذْ أَطْرَفْتَ فى قَوْلِكَ ، وَتَهَنَّنْتَ فى فِعْلِكَ . فَلْيَكُنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ ، وَيُقْتَنَى طَرِيقُهُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَأَمْرُهُ بِأَن يُكْثَرَ من تَعَاهُدِ الجَوَارِشَاتِ المُتَفِدَّةِ لِلشَّدَدِ ، المُقَوِّيةِ لِلْعَمَدِ ؛ المُشَبِّهَةِ لِلطَّعَامِ ، المُسَبَّلَةِ لِسُبُلِ الانْبِضَامِ ؛ فَإِنَّهَا عِمَادُ أَمْرِهِ وَقَوَائِمُهُ ، وَبِهَا انْظَمَامُهُ وَأَثْبَاتُهُ ؛ إِذْ كَانَتْ تُعَيِّنُ عَلَى عَمَلِ النَّهْوَتَيْنِ ، وَتُنْهَضُ فى اليَوْمِ الْوَاحِدِ الْأَكْثَيْنِ ؛ وَهُوَ يَتَوَلَّاهَا كَذَا كَالْكَاتِبِ الذِّى يَقُطُّ أَقْلَامَهُ ، وَالْجُنْدِىَّ الذِّى يَصْقُلُ حُسَامَهُ ؛ وَالصَّانِعِ الذِّى يُحَدِّدُ آتَهُ ، وَالْمَاهِرِ الذِّى يُصْلِحُ أَدَوَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

هَذَا عَهْدُ عَلِيكَابْنِ أَحْمَدَ إِلَيْكَ ، وَتُحَيِّتُكَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، لَمْ يَأْلَكَ فِيهِ إِرْشَادًا وَتَوْقِيفًا ، وَتَهْدِيًا وَتَثْقِيفًا ؛ وَبَعَثًا وَتَبَصِيرًا ، وَحَثًّا وَتَذَكِيرًا ؛ فَكُنْ بِأَوَامِرِهِ مُؤْتَمِرًا ، وَبِرَوَايِهِ مُزْدَحِرًا ؛ وَلِرُسُومِهِ مُتَّبِعًا ، وَبِحِفْظِهَا مُضْطَلِمًا ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الغرض
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لفظةً وأصطلاحاً)

أما معناه لفظةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة بأخى عشر ميلاً ، واحتج له
الجهنمى بقول مُرَرِّدٍ يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، * وَنَاقِي النَّاسِ إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يريد سيرها في البريد . وقد قدره الفقهاء وصاه المسالك والممالك بأنه أربعة
فراخ ، والفرخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالمباشى ، وهو أربعة
وعشرون أصبعا ، كل أصبع ست شعيرات مُعْتَرِضَات ، ظهر إحداها لبطن الأخرى ،
والشعيرة سبع شعيرات مُعْتَرِضَات من ذنب بفيل أو رذون .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المرتب ، يقال : حبل فلان على البريد .
قال : ويُطلق أيضا على الرسول بريد .

ثم اختلف فيه قليل : إنه عربي . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من
بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أبردته إذا أرسلته . وقيل : من برد
إذا ثبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ، يقال : « اليوم يوم بارد مومنه »
أي ثابت .

وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب . قال أبو السامدات بن الأثير في كتابه
« النهاية في غريب الحديث » : وأصله بالفارسية بريد دم ، ومعناه مقصود
الذهب ، وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلا في البريد قصوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من يقال البريد . وأندد الجوهري لأمرئ القيس :
على كل مقصود الذنابي معاود * بريد السرى بالليل من خيل بربرا .

الأمر الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في « التعريف » : أن البريد كان موجودا في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقيصرية ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن . ثم قال : ولا أعلمه
إلا على القدر المحذور ، إذ كانت حكمتهم تأتي إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في « التعريف » :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له أبنته الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسريع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دعاة القيس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فصل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره السكري: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: ولئيك ما حضر بابي إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لتأم. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه. فريما أسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأنزع الباب وأرفع المحاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام من زياد أيضا.

قال في "الترغيف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه القسيفساء وهي الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفع منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائما، والعمل عليه دائما، حتى أن لبناء الدولة المروانية أن ينقض، ولحقها أن يتكثرت، فأقطع ما بين نهر السند والعراق، لا تصرف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سر، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى أبنته مروان الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيها بينه وبين

مَعْسَكَ أَيْسَهُ بَرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمُهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مُدَّتِهِ وَمُدَّةَ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالُ فِي الْمَرَكَزِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْقَبْرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَامُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبُرْدُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعْدَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَأَسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَارَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَبِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَارَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ أَلْفَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَارَ ، فَأَتَى الْمَامُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعَجُّبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَمْنَتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَدُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَامُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى تُحْمِيَ حَادَّةٌ كَانَتْ فِيهَا مَيْتَةٌ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُؤَيْيَةَ الْبَرِيدَ حِينَ صَلَّوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَعَلَبُوا عَلَيْهِا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصِيدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهَا عَلَى بَقْعَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافَ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأعلنت له الشجب المتعجبة .
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان نبي أيوب إلى آخره فموتهم . وتبعها على ذلك
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
 ملك مصر والشام وحلب إلى القرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
 وزيراً ، وقاضياً ، وكاتباً للأشياء .

قال : وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواسلته بالأخبار
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبتي كل ليلة إلا على
 خير [ولا تصبني إلا على خير] فأفضل ، فمضى له بما كان عليه البريد في الزمان
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه لحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكننت أنا
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
 وهو جناح الإسلام الذي لا يحصى ، وطرف قديمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
 غشي البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وقنع دمشق ونهرها وحرقتها
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وإطلانه من مائر
 الممالك الشامية . ثم مرى هذا السهم إلى الديار المصرية فألحقها بالحمل ، وربما
 بعد الحلي بالعقل ، فلعبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
 ركب البريدي على فرس له ، يسير بها هوينا سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمير الثالث

(بيان معالم السريد)

اعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يريد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، واشتقاق اسمائهم. وقد أشار إليه الجوهرى في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعنى أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه... أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مغلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، متقوس على وجهي اللوح نقشا مزدوجا ماصورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وصل الوجه الآخر ماصورته: «عز مولانا السلطان الملك القلائي: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك القلائي فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شراية من حرير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشراية خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوتسا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، وينهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشراية خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة

ذلك تُدْعَى له أربابُ المَرَاكِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . ولا يزالُ كذلك حتى يَنْعَبَ ويعودُ ، فَيُعِيدُ ذلك اللُّوحَ إلى دِيوَانِ الْإِنشَاءِ .

وكذلك الْحُكْمُ في دَوَاوِينِ الْإِنشَاءِ بِدَمْشَقَ وَحَلَبَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ ، لَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكَتَابَةِ بِحَلِّ ضَرْبِ اللُّوحِ . فَإِنْ كَانَ بِدَمْشَقَ كُتِبَ : « ضَرْبَ الشَّامِ » . وَإِنْ كَانَ بِحَلَبَ كُتِبَ : « ضَرْبَ بَحَلَبَ الْمَحْرُوسَةِ » وكذلك باقِ الْمَمَالِكِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مَرَاكِ الْبَرِيدِ

وهي الْأَمَّاكِتُ الَّتِي تَحْفُفُ فِيهَا خَيْلُ الْبَرِيدِ لِتَغْيِيرِ خَيْلِ الْبَرِيدِيَّةِ فِيهَا فَرَسًا بَعْدَ فَرَسٍ . قَالَ فِي «التعريف» : وَلَيْسَتْ عَلَى الْمَقْدَارِ الْمُقَدَّرِ فِي الْبَرِيدِ الْمُحَرَّرِ ، بَلْ هِيَ مُتَغَاوِيَةٌ الْأَبْصَادِ ، إِذْ أَلْبَلَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ : تَارَةً لُبْعِدِ مَاءٍ ، وَتَارَةً لِلْأُنَيْسِ بَقَرِيَّةٍ ، حَتَّى إِنَّكَ تَرَى فِي [هَذِهِ ^(١١٥) الْمَرَاكِ الْبَرِيدَ الْوَاحِدَ بِقَسْرِ بَرِيدَيْنِ . وَلَوْ كَانَتْ عَلَى التَّحْرِيرِ [الَّذِي عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ] لَمَّا كَانَ تَقَاوُتٌ . وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا الْمُتَقَرِّبَ الشَّهَابِيَّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التعريف» مَا أَرَبْنِي فِي ذَلِكَ عَلَى الْمَقْصُودِ وَزَادَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ أَذْرَى وَأَذْرَبُ . وَهَآنَا أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ ، مَوْحَا لَمَّا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّوْضِيحِ ، مَعَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيبِ التَّرْتِيبِ .

وَيَشْتَمِلُ عَلَى سِتَّةِ مَقَاصِدَ :

المقصود الأول

(في مَرَكِرِ قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز، وما تنهى إليه مراكز كل جهة)

اعلم أن الذي يتفرع عن مَرَكِرِ القلعة ويتشعب منه أربع جهات، وهي: جهة قوص من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعين شاذل وما يليها من سواكن. وجهة الإسكندرية من الوجه البحري. وجهة دمياط من الوجه البحري أيضا، وما يتفرع عنها من جهة غرة من البلاد الشامية.

فاما مَرَاكِرُ قوص وما يليها: فمن مَرَكِرِ قلعة الجبل المحروسة، ومنها إلى مدينة الحسنة، وهي قاعدة الأعمال الجيزية، وقد تهدم الكلام عليها في الكلام على بلاد الملكة في المقالة الثانية. ثم منها إلى زاوية أم حسين، وهي قرية من عمل الجيزة. قال في "التعريف": والمركز الآن بمئنة القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي^(١)، ثم منها إلى دهر ووط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضا. ثم منها إلى أفلوسنا، وهي بلدة من عمل الأشمونيين. ثم منها إلى مئنة بني خصب، وهي مدينة من عمل الأشمونيين، وقد تهدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى مدينة الأشمونيين، وهي قاعدة بلادها، وقد تهدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى ذروة سربام وهي بلدة من عمل الأشمونيين على قم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم، وتعرف بذروة الشريف، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصى بها في زمن الظاهر بيبرس، وتمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشقه بالإسكندرية، وبها

(١) في سيم البلدان لياقوت، قُورَسَا.

دِيَارَهُ وَقُصُورَهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلٌ خَاصٌّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسَيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسَيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَهْتَمُ ذِكْرَهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَلَاءَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسَيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكْرُ عَلَى ضَمَّةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَافَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَافَةُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بِلُزُوزَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرَحَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبَلِينَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبَلِينَا بِإِبْدَالِ الْمَاءِ أَلِفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّفُّ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرَى وَيُسَمَّى خَانَ دَنْدَرَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَهْتَمُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكُزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ الثُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْحُجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ قَفْطَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ قَفْطَ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لِبَطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانِ ، بِهِ حِينٌ تَنْجَعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِجِ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به حين صغيرة يُسقى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تريد ولا تنقص . ثم منها إلى حُمَيْقَة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسقى منها . ثم منها إلى عِيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها حين يُسقى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيان إلى عِيذاب نحو عشرة أيام يسير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عِيذاب من شُعْبَة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد حَرَب يُسمون بنى عامر إلى سَوَاكِن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكتب السلطان تنهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الحيزية . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من بحر عمل الحيزية من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرائف^(١)] . ثم منها إلى طيبلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا . وتعرف برأوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، وعمل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوقين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) - الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مَرْكَر القلعة إلى مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمال القَلْيُوبِيَّة ، وقد تَهْتَم
الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ مَنُوف المُيَا ، وهي قاعدة الأعمال
المَنُوفِيَّة ، وقد تَهْتَم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المَحَلَّة المعروفة
بالمَحَلَّة الكُبْرَى ، وهي قاعدة الأعمال الفَرِيَّة ، وقد تَهْتَم الكلام عليها في المقالة
الثانية . وقد وَهَم في " التعريف " فسمّاها مَحَلَّة المَرْحُوم بلدةً من بلاد الفَرِيَّة
غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهي مدينةٌ من عَمَل الفَرِيَّة . ثم منها إلى
الإسْكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِيْمَاط وَغَزَّة ، فمن مَرْكَر القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهي بلدةٌ
من ضَوَاحِي القَاهِرَة ، وليس المَرْكَر في نفس البلد ، بل بالقرية المُسْتَعِدَّة بِجَوَارِ
الْخَاقِيَّة النَاصِرِيَّة التي أَنشأها السُلْطَانُ المَلِكُ النَاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ على القَرَب من
سِرْيَاقُوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعُشْ ، وكان طويل المدى
في مكان مُنْقَطِع ، وكانت البَرِيدِيَّة لا تَزَال تَنْشَكُّ مِنْهُ ، فَصَلَحَ بِتَقْلِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ
لأُمُورِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ المجاورة لِخَاقِيَّة النَاصِرِيَّة وما يوجدُ فيها ،
وَأَنَّهُ بِمَا حَوْلَهَا [لِكُنْفَى] . ثم منها إلى بَرِّ الْبَيْضَاء ، وهي مَرْكَرُ بَرِّيد مُتَقَرِّدٌ لَيْسَ
حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثم منها إلى مَدِينَةِ بَلْبَيس قاعدة الأعمال الشَّرْقِيَّة ، وقد تَهْتَم
الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخرُ المَرَكَرِ السُلْطَانِيَّة ،
وهي التي تُسَمَّى خَيْلَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُلْطَانِيَّة وَيُقَامُ لَهَا السُّوَأْسُ وَتَصَرَّفُ لَهَا
العُلُوفَات . ثم منها إلى السَّيْدِيَّة . ثم من السَّيْدِيَّة إلى أَهْمُومِ الرُّمَّان قاعدة بلاد
الْبَقْلِيَّة والمَرْتَاحِيَّة ، وقد تَهْتَم ذِكْرُهَا في المقالة الثانية . ومنها إلى دِيْمَاط وَمَنْ أَرَادَ
غَزَّة . وقد تَهْتَم أَنَّ مَدِينَةَ بَلْبَيس هي آخرُ المَرَكَرِ السُلْطَانِيَّة . ثم السَّيْدِيَّة وما بعدها

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ البَرِيد بها مقررة على عُربان دَوَى إقطاعات، عليهم خُيُولٌ موطَّعةٌ يَحْضَرُ بها أربابُها عند هَلالِ كلِّ شَهْرٍ إلى المراكِز، وتَسْتَعِيدُها في آخر الشهر وبأَيِّ غيرها، ومن هنالك سُمِّيَت الشَّهارة . قال في "التعريف" :
 وطيسم وآل من قِبَلِ السُّلطانِ يَسْتَعْرِضُ في رَأْسِ كلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَهْبابِ التَّوْبَةِ ويُدَوِّفُها بالدَّاعِجِ السُّلْطاني . قال : وما دامت تستعِدُّ فهي قائمة ، ومتى أَكْثَرَتْ أَهْلُ قَرْبَةٍ مِنْ قِبَلِهِمْ فَسَدَتِ المراكِزُ، لأنَّ الشَّهْرَ لا يَهْلُ وفي خَيْلِ المُتَسَلِّحِ قُوَّةٌ، لا سِيَّما والعَرَبُ قَلِيلَةُ العَلَفِ .

وأوَّلُ هذه المراكِزِ السَّعِيدِيَّةُ المُقَدَّمُ ذِكْرُها ، ثم منها إلى الخَطَّارة ، ثم منها إلى قَبْرِ الوائلي . قال في "التعريف" : وقد اسْتَعِيدَ به أَهْلُها وَأَسْوَاقُ وَبَسَائِطُ حَتَّى صارَ كأنه قَرْبَةٌ . ثم منها إلى الصَّالِحِيَّةِ ، وهي قَرْبَةٌ لَطِيفَةٌ . قال في "التعريف" : وهي آخرُ مَعْمُورِ الدِّيارِ المِصرِيَّةِ ، ثم منها إلى بئرِ عَفْرَى ، وإلى هَذَا المَرْكَزِ يَحْلِبُ المَاءُ مِنْ بئرِ وِراعه . ومنها إلى القُصَيْرِ . قال في "التعريف" : وقد كان كَرِيمُ الدِّينِ وَيَكُلُ انْخِلاصَ بَقَى بها خَاتَمًا وَمَسْجِدًا وَمِئَذَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَةً ، فَتَهَدَّمَ ذاك كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مِنْ يُعَمِّدُهُ ، وَبَقِيَتِ المِئَذَنَةُ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بها زَيْتُ التَّنَوِيرِ . قال : وهذا القُصَيْرُ يَقَارِبُ المَرْكَزَ القَدِيمَ المَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبِ لِقَنْطَرَةِ الحُسَيْرِ الجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ ماءِ النِّيلِ وَأَوَّانَ زِيادته إِذَا خَرَجَ إلى الرَّمْلِ . ثم منها إلى حَبُوة . قال في "التعريف" : وليس بها ماءٌ وَلَا بَنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هي مَوْقِفٌ يَحْفَ به خَيْلُ العَرَبِ الشَّهارة ، وَيَحْلِبُ المَاءَ إِلَيْها مِنْ بئرِ وِراعه . ثم منها إلى الفَرابي . ثم منها إلى قَلْبِيَا ، وهي قَرْبَةٌ صَغِيرَةٌ بها تُؤْخَذُ المُرْتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ الثُّجَّارِ الوَارِدِينَ إلى مِصرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْها ،

وهناك رمل بالطريق يُحْتَم في الليل ويُحَفَظ ما حوله بالمرَبان ، حتى لا يَمُرَّ أحدٌ
لَيْلاً ، فيكون من القاهرة إلى قَطَا اثْنَا عَشَرَ رِيْدًا . ثم منها إلى صَبِيحَة مُخَلَّة
مَمْن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِرُ على إحدى هذه الكلمات
في تسميتها . ثم منها إلى المُطَلَب ، ثم منها إلى السَّوَادَة . قال في " التعريف " :
وقد جُوتَ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يحتاج إلى تَعْرِيجِ إليها . ثم منها إلى الوَرَادَة ،
قال في " التعريف " : وهي قريةٌ صغيرةٌ بها مَسْجِدٌ على قَارعة الطريق ، بناء
الملك الأشرف « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُون تَمَدَّه الله بِرَحْمَتِهِ ، حَصَلَ به الرِّقُّ
بِمَيْتِ السَّقَّارَة به . قال : وقد كان نَحَرُ الدِّينِ كَاتِبُ المَالِكِ بَنَى إلى جَانِبِهِ خَاتًا
فَبِيعَ بَعْدَهُ . ثم منها إلى يَرْ القَاضِي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما بَعِيدٌ
جِدًا يَلْهُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال في " التعريف " : وقد أَحْسَنَ كَرِيمُ
الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ بِعَمَلِ سَاقِيَةِ سَبِيلِ به وَبَنَاءِ خَانِ حَصِينٍ فِيهِ يَأْوِي إليه من أَلْجَاءِ
المَسَاءِ ، وَيَتَأَمُّ فِيهِ أَمَنًا من طَوَارِقِ القَرَبِج . ثم منها إلى انْقُرُوبَة ، وبها سَاقِيَةٌ
وخابٌ ، بِنَاهُمَا نَحَرُ الدِّينِ كَاتِبُ المَالِكِ ، حَصَلَ به من الرِّقِّ والأَمْنِ ما بِالْعَرِيش .
قال في " التعريف " : وهذا آخر مَرَاكِرِ العَرَبِ الشَّهَارَة . ثم مِمَّا يَلِهَا خَيْلُ السُّلْطَانِ
قَوَاتُ الإِصْطِبَلَاتِ وَالْحَدَمُ يُسْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وتُغْلَفُ منه ، وَأَقْلَسُ الرِّزْقَةِ ،
ثم منها إلى رَمْعٍ ، ثم منها إلى النُّسْلَةِ . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا المَرْكُ
يُسَمَّى طَرَقَايَ حَيْثُ الْجُمُيزُ وَيُسَمَّى سَطْر . قال : وكان في قَلْبِهِ إلى النُّسْلَةِ
المُصَلَّحَةِ . ثم منها إلى النَّارُوم ، ثم منها إلى غَزَّة . يكون من قَطَا إلى غَزَّةِ
أَحَدَ عَشَرَ مَرَّكَأ .

المقصود الثاني

(في مرآة غزوة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية)

والذي يتفرع عنه مرآة ثلاث جهات، وهي : الكرك، ودمشق، وصفد .

فأما الطريق إلى الكرك : فمن غزوة إلى ملاس وهو مرآة بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك .

وأما مرآة دمشق : فمن غزوة إلى الحنين، وهو مرآة بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون : تدارس، وبها خان بناء ناصر الدين نرندار تكرر . قال في "التعريف" : وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فثقل وكانت المصلحة في قتله، ثم منها إلى قطري . قال في "التعريف" : وهو مرآة مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصري، وبه يترسبيل وأثار له . قال : وقد حصل به رفق عظيم^(١) لبعده ما بين [لُد وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُد، ثم منها إلى العوجاء . قال في "التعريف" : وهي زوراء عن الطريق، ولو ثقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة . قال في "التعريف" : وبها خان كان قد شرع في بناءه ناصر الدين دوادار تكرر ثم كل بيد غيره . ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى حمة (ثم منها إلى جينين)^(١) . قال في "التعريف" : وهي على صفد، يعني القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار، حسن البناء جميل النقع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحسن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين .

(١) بياض بأصله والصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ مِنْ جِئِينَ إِلَى ذَرَعِينَ . قَالَ فِي "التعريف" :
ومنها ينزل على مِئَن جَالُوت ، وهو مَرْكُزٌ مُسْتَجِدٌ حَصَلَ بِهِ أَكْثَرُ الرِّقِّ وَالرَّاحَةِ مِنْ
العَقِيَةِ الَّتِي كَانَ [يُسَلِّكُ^(١)] عَلَيْهَا بَيْنَ جِئِينَ وَيَسَانَ مَعَ طُولِ الْمَدَى . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى
يَسَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْجَمَامِجِ . قَالَ فِي "التعريف" : وهو مَرْكُزٌ مُسْتَجِدٌ عِنْدَ جَمِيرِ
سَامَةِ ، كُنْتُ أَنَا الْمَشِيرَ بِهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّقُّ لِبَعْدِ
مَا كَانَ بَيْنَ يَسَانَ وَزَحْر . قَالَ : وَقَدْ كَانَ الطَّرِيقُ قَدِيمًا مِنْ يَسَانَ عَلَى طَبِيعَةِ أَسَمِ ،
ثُمَّ إِلَى أَرْبَدَ ، وَكَانَتْ غَايَةُ فِي الْمَشَقَّةِ ، إِذْ كَانَ الْمَسَافِرُ مَا بَيْنَ يَسَانَ وَطَبِيعَةِ أَسَمِ يَحْتَاجُ
إِلَى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِهَا مَعْتَبَةٌ لِلْقَارِسِ دُونَ الْقَرَسِ ، وَإِنَّمَا يَبْتَغِيهَا الْقَرَسُ
سَبَاحَةً ، وَكَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَشَقَّةِ مَا لَا يُوصَفُ ، لَا سِوَا أَيَّامِ زِيَادَةِ الشَّرِيعَةِ وَكَلْبِ
الْبَرْدِ : تَقَطُّعُ الْمَاءِ وَمُتَابَعَةُ الْعَقَابِ الَّتِي لَا يَسْقُهَا جَنَاحُ الْعُقَابِ . وَلَكِنْ الْأَمِيرُ
الطَّبِيفُ كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَتَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ وَجَعَلَهَا عَلَى الْقَصِيرِ حَيْثُ هِيَ الْيَوْمَ ،
وَقَتَلَ الْمَرْكُزَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى زَحْرَيْنِ غَرِقَ بَعْضُ الْبَرِيدِيَّةِ الْجَلِيلِينَ بِالشَّرِيعَةِ . ثُمَّ مِنْ
الْمَجَامِجِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى زَحْرٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَفَسٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْجَامِجِ .
قَالَ فِي "التعريف" : وَكَانَ قَدِيمًا فِي الْمَكَانِ الْمَسْمُومِ بِرَأْسِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا مَلَكَ الْأَمِيرُ
الْكَبِيرُ شَكْرَ كَافِلِ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَتَلَ الْمَرْكُزَ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجَامِجِ ، فَتَقَرَّبَ بِهِ الْمَدَى
فِي بَيْنِهِ وَبَيْنِ طَفَسٍ ، وَكَانَ بَعِيدًا فَمَا جَاءَ إِلَّا حَسَنًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّنَمَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى غَابِغٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْكُصُوفَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقِ الْهَرُوسَةِ .

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمُوصَّلَةُ إِلَى صَفَدَ : فَمِنْ جِئِينَ الْمَقْدِمِ ذِكْرُهَا إِلَى تَيْنِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى [حِطْلِينَ^(١)] وَبِهَا قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشَق وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة
إلى حِمص وحمّة وحلب، وإلى الرّجبة، وإلى طرابلس، وإلى جعبر، ومضياف
ويروت وصيدا وبعلبك والكرك وأذريعات)

فأما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشَق إلى القَصِير . والذي
رأيتُه في بعض الدّسائير أنه من دِمَشَق إلى خانٍ لاجين ، ثم إلى القَصِير . قال
في " التعريف " : ثم من القَصِير إلى القطيفة ، ثم منها إلى القسطل . ورأيتُ
في الدّستور المذكور أن من القَصِير إلى خان الوالي ، ثم إلى خان العروس ، ثم إلى
القسطل ، ثم منها إلى قارا ، ثم منها إلى بريح العطش . ويقال فيه البرج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مقطع طريق ، وموضع خوف ، فبقِيَ به قاضي
القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن مصري رحمه الله مسجداً وبركة ، وأجرى
الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل ، فبدل الخوف أمناً ،
والوحشة أماناً ، أتابه الله على ذلك . ثم منها إلى الفسولة ، ثم منها إلى شمينين ،
ثم منها إلى حمص ، ثم منها إلى الرستن ، ثم منها إلى حمّة ، ثم منها إلى لطمين ،
ثم منها إلى طرابلس ، ثم منها إلى المعرة ، ثم منها إلى أقرانا ، ثم منها إلى لباد ، ثم منها
إلى قنسرين ، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرّجبة : فمن القطيفة المقدّمة الذّكر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مركز ، وإنما بها خانٌ تُفرّق به صدقة من الخبز والأخذية ونبال النّواب
إلى جليل ، ثم منها إلى المصنع ، ثم منها إلى القرينين ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها
إلى البيضاء ، ثم منها إلى تدمر ، ثم منها إلى أرك ، ثم منها إلى السخنة ، ثم منها إلى

قُبَابِبَ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم حُطْل . ثم منها إلى الرَّجَبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فنِ النَّسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَس] ^(١) إلى أَقْسَارٍ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ، ثم منها إلى عِرْقَاءَ، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .
وأما طريق جَعْبَرُوما يليها : فنِ حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَامِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحِصْنِ، ثم منها إلى جَعْبَرٍ إلى عَيْنِ بَذَالٍ، ثم منها إلى صِهْلَانٍ، ثم منها إلى الْخَابُورِ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنٍ .
وأما طريق مِصْبَايَ : فنِ حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْبَايَ .

وأما طريقُ صَفَدَ : فنِ دِمَشْقَ إلى بَرِجِ الْفُلُوسِ، ومنه إلى أُرَيْنَةَ، ومنها إلى لُغْرَانٍ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريقُ بَيْرُوتَ : فنِ دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُونٍ، ومنها إلى زُبْدَانَ، ومنها إلى الْحُصَيْنِ، ومنها إلى بَيْرُوتَ .

وأما طريقُ صَيْدَاءَ : فنِ دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُونِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ، إلى جَزِيرَةِ صَيْدَاءَ، إلى كَرْكِ نُوحٍ، ثم منه إلى بَلْبَلَكَ . قال في "التعريف" : وأهْلُ أَنَّ مِنْ صَيْدَاءَ إلى بَيْرُوتَ قَدْرُ مَرَكَا .

وأما بَلْبَلَكَ ، فلها طريقان : إِحْدَاهُمَا مِنْ خَانَ مِيسْلُونِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحٍ إلى بَلْبَلَكَ . والثَّانِيَةُ مِنْ دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَلْبَلَكَ .

ومن أَرَادَ مِنْ بَلْبَلَكِ حِمَصَ، تَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَى الْقَصَبِ، ثم إلى النَّسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ، وبعدها تَمَسِّينَ، ثم حِمَصُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق الكرك : فن دِمَشْق - في المراكز المذكورة في الوصول من غَزَّة إلى دِمَشْق - على عكس ما هُتِم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البُرج الأبيض ، ومنها إلى حُصْبَات ، ومنها إلى [ديبج ^(١)] ومنها إلى [اكره] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذريعات ، مَقَرَّ وِلَايَةِ الْوَلَاةِ بِالصَّفْقَةِ الْقَبِيلَةِ : فن طفس المقدمة الذَّكْر إلى أذريعات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مَرَاكِرِ دِمَشْق إلى كل جِهَةٍ .

قال : فاما مقدار الولايات ، فن كل واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصود الرابع

(في مركز حلب وما يتفرع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وههنا وما يليهما ، وقَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ المعروفة بِقَلْعَةِ الرُّوم ، وآيَامُس مَدِينَةِ الْفَتْوحَاتِ الْجَاهَانِيَةِ ، وَجَعَبَر)

فاما الطريق الموصلة إلى البيرة : فن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى الساجور ، ثم منها إلى كنساس ^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البر الشرقي من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أَجَلٌ تُقَوِّدُهَا ^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل فلام الاسلام ، وعقائل المعامل التي لم تنقوع على طول الأيام »

ظلم ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بَهْسَنِي وما يليها : فن حَلَب إلى السموقة، ثم منها إلى سَندَرَا،^(١)
[ثم منها إلى بيت القار^(٢)] ثم منها إلى عَيْتَاب ، ثم منها إلى بَهْسَنِي .

ثم منها يُدْخَلُ إلى جهة قَيْسَارِيَّة والبلادِ المعروفةِ الآنَ ببلادِ الرُّومِ وهي بلاد
الشُّرُوب . قال في "التعريف" : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحِيزِ القريبِ إلينا منها : قَيْسَارِيَّة ودرندة ، وإنما اسْتَقَرَّ المَعْرُوفُ أَنَّ
آخِرَ حَدِّ الممالكِ الإسلامية من هذه الجهة - بَهْسَنِي .

وأما طريق قلعة المَسامِين وما يليها : فن عَيْتَابِ المَقْدَمَةِ الذِّكْرُ إليها، وهي وَسَطُ
الْعُرَاتِ ، وهو خُلُجَانٌ دَائِرَةٌ عليها . ثم من قلعة المَسامِين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكَحْتَا، وهي آخرُ الحَدِّ من الطَّرَفِ الآخَرِ .

وأما طريق آيَاس : فن حَلَبَ إلى أَرْحَاب ، ثم منها إلى تَبْرِيْن ، ثم منها إلى بَقْرَا،
ثم منها إلى بَقْرَاسَ ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخرَ الحَدِّ مما على بلادِ
الأَرَمَنِ . قال : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحِيزِ ما اسْتَضَفْنَا ، فصار من بَقْرَاسَ
إلى بَايَاسَ، وهي أوَّلُ جِيلِ الأَرَمَنِ ، ثم من بَايَاسَ إلى آيَاسَ .

وأما طريق جَمْعَر : فن حَلَبَ إلى الجَبُولِ ، ثم منها إلى بَالِسَ ، ثم منها إلى جَمْعَرِ .
قال في "التعريف" : هذه جُمْلَةٌ مَرَاكَ حَلَبَ . أما بقايا القلاعِ ومَقَارُ الولاياتِ ،
فن شُعِبَ هذه الطَّرُقِ ، أو من وَاحِدَةٍ إلى أُخْرَى .

(١) في التعريف سَندَرَا .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مَرَاكِر طَرَابُلُس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللاذقية : فن طَرَابُلُس إلى مَرَقية ، ثم منها إلى بَلَنْيَاس ، ثم منها إلى اللاذقية ، ثم منها إلى صِهْيُون ، وهي قلعة جليلة كانت دَارَ مُلْك . ثم منها إلى بَلَاطُكُس . قال في "التعريف" : ومن شاء فن صِهْيُون إلى بُرْزَيْد ، وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه ، ومن شاء فن بَلَاطُكُس إلى العليقة أول فلاح الدعوة مما على بَلَاطُكُس ، ثم منها إلى الكهف ، ثم منها إلى القُدُوس ، ثم منها إلى انطواي ، ثم منها إلى الرصافة ، ثم منها إلى مِصْيَاف . قال في "التعريف" : فهذه جلة مَرَاكِر طَرَابُلُس . فأما مَقَارُ الولايات فن واحدة إلى أخرى ، ثم ذكر جميع مراكز البَرِيد بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف تَمَالِيكا إلى حَضْرَةِ الأردو، حيث هو مُلْك بني هُولاكُو، فلهم مَرَاكِر تسمى خَيْل الأوثاق وخيل الياق يحمل عليها، لا تُشْتَرَى بِمَالِ السُلْطَان ولا يُكَلَّف قَتْنُهَا ، وإنما هي على أَهْلِ تلك الأرض، نحو مَرَاكِر الْعَرَب في رَمْل مِصْر ونحو ذلك .

المقصود السادس

(في معرفة مَرَاكِلِ الْحِجَازِ الموصلة إلى مَكَّة الْمُشْرِفَةِ والمدينة النبوية على ما سلكها)

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاکرام، إذ كانت من

بِحَقِّ الطَّرِيقِ الموصلة إلى بَعْضِ أَقْطَارِ الْمَلَكَةِ

وكما ضُبِطَتْ تلك المراكز فقد ضُبِطَتْ هذه بالمَرَاكِلِ . وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مَرَحَلَتَيْنِ بِسَبْرِ الْأَثْقَالِ ، وديب الأقدام، [ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالقبّة واليَّبع نحو ستة أيام . أما من يُسافر على الثَّجِبِ مُخْفًا مع الجَدِّ في السَّيْرِ لئانه يقطعُها في نحو أحد عشر .

ثم أوَّلُ مَصِيرِهِم من القاهرة إلى البركة المعروفة بِرُكَّةِ الْحَاجِّ ، ثم منها إلى الْبُؤْيُبِ ، ثم منها إلى الطَّلِيحَاتِ ، ثم منها إلى المنصرح ، ثم منها إلى مرا كع موسى ، ثم منها إلى مجرود ، وبها بئر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسِعٌ يَلَأُ منها . ثم منها إلى المنصرف ، ثم منها إلى وادى القِيَابِ ، وهو كثير الرَّمْلِ . ثم منها إلى أوَّلِ تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وهو وادٍ أَفْجَحٌ مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى الْمُتَّقِ ، ثم منها إلى نِيْلٍ ، وبها ماء طَيِّبٌ . ثم منها إلى جَسَدِ الْحَيِّ ، ثم منها إلى بئر يبدرا ، ثم منها إلى تمد الحصا ، ثم منها إلى ظُهرِ الْقَبَّةِ ، ثم منها إلى سَطْحِ الْقَبَّةِ ، وهو عُرْقُوبُ الْبَقْلَةِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَفَايِرَ . ثم منها إلى حَفْرِ عَلَى جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من الحفائر . ثم منها إلى عَشْرِ الْغُرَابِ ، ثم منها إلى أَمْرِ الشَّرْفَةِ ، ثم منها إلى مَقَارَةِ شُعَيْبٍ ، وبها ماءٌ وَمَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادى عَقَّانَ ، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّخِيمِ ، ثم منها إلى عِيُونِ الْقَصَبِ ، وبه ماءٌ نَاعٍ وَأَبْجَةٌ قَصَبٍ نَائِتَةٌ فيها . ثم منها إلى الْمُؤَلِّعَةِ ، وبها ماءٌ في آبارٍ . ثم منها إلى الْمُدْرَجِ ، ثم منها إلى سَلَمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وبها ماءٌ مَلَحٌ . ثم منها إلى الْأَمِيَلَاتِ ، ثم منها إلى الْأَزْتَمِ ، والنَّاسُ يَقُولُونَ : الْأَزْتَمُ بِاللَّامِ بَدَلُ التَّوْنِ ، وبه آبارٌ بها ماءٌ رَدِيءٌ يُطْلَقُ بَهْلَنَ مَنْ شَرِبَهُ ، لَا يَسْقَى مِنْهُ غَالِبًا إِلَّا الْجَمَلُ ، وَهِيَ نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي عَنَتَرٍ . ثم منها إلى الْوَجْهِ ، وبه آبارٌ قَلِيلَةُ الْمَاءِ ، وما هو داخل الْوَادِي يَعْزُ الْمَاءُ فِيهِ غَالِبًا وَلَا يُوجَدُ فِيهِ إِلَّا حَفَايِرُ ، وَيَقَالُ : إِنَّهُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ تَقْصَبَ مَائُهُ ، وفيه يَقُولُ بَعْضُ مَنْ سَجَّ مِنْ الشَّعْرَاءِ وَعَزَّ عَلَيْهِ وَجُودُ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ " قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي " وَجْهِهِ " بغيرِ حَيَاءٍ !

ثم منه إلى المحاطب، ثم منها إلى أكرا، ثم منها إلى رأس القاع الصغير، ثم منه إلى قبر القروى، ثم منه إلى كلخا، ثم منها إلى آخر القاع الصغير، ثم منه إلى الحوراء، وبها ماء غير صالح. ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها، وهو مضيق صعب. ثم منها إلى مغارة نبط، وبها ماء صلب ليس بطريق الجحاز أطيب منه. ثم منها إلى وادي الثور، ثم منها إلى قبر أحمد الأخرج الدليل، ثم منه إلى آخر وادي الثور، ثم منه إلى رأس السبع وعرات، ثم منها إلى دار البقر، ثم منها إلى الينبع، وهي النصف والرُّبع من الطريق، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، وبها يُودع المُجَّاج ما ثقل عليهم إلى حين العود، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم. ثم منها إلى المحاطب في الوعر. ثم منها إلى رأس وادي بدر، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق. ثم منها إلى رأس قاع البروة، ثم منه إلى وسط قاع البروة، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر، وبها يحرم المُجَّاج ولا يفتشون الجحفة، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حبي المدينة إليها بقوله: «وَأَتَقُلُّ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ» فلو مر بها طائر لحُم. ثم منها إلى قديد بضم القاف. ثم منه إلى عقبة السويق، ثم منها إلى خلص، وبه مصنع ماء. ثم منها إلى صُفَّان، ثم منها إلى مدرج علي، وهو كثير الوعر. ثم منه إلى بطني سر، والعامية يقولون: مرو، بزيادة واو، وبه عيون تجري وحدائق. ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها، ثم من مكة إلى منى، وبها ماء طيب من آبار مُحَفَر، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف، وإليها ينتهي سفر المُجَّاج.

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم.

الطريق إلى المدينة النبوية
(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مضى المراحل المتقدمة الذكر، إلى وادي بدر المتقدمة الذكر، إلى رأس وادي الصفراء، وبه عيون تجري وحدائق وأشجار. ثم منها إلى وادي بني سالم، ثم منه إلى وادي الغزالة، ثم منه إلى القرش، ثم منه إلى بئر علي، وبها ماء طيب. ثم منها إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والصحة والاکرام.

ومن شاء ذهب إليها من البئع إلى رأس تقب علي عند طرف الجبل، ثم إلى وادي الصفراء، ثم في المراحل المتقدمة الذكر إلى المدينة. وهي أقرب الطريقين للذهاب من مصر، وتلك أقرب للعائد من مكة.

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطريق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أن الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدباسة والقاهرة والقواخيت وغيرها، وأن المتبادر
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص؛ وأن أغلاه قيمة وأغلاه
رتبة الحمام الرسائي، وهو الذي يتخذه الملوك لحمل المكاتبات، ويُسَمَّى عنه بـ«الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، ومدد الرياش المعتبرة فيها، وهي
رياش أجنحتها وأذناها، وبين الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفأريه،
والفراسة في تجارته في حال صغره، والزمان والمكان اللذين بالإفراخ، وما يجري
يجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فاغنى
عن ذكره هنا .

والمختص من بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من اهتم بشأنيه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري هذا
الجبسرى .

فاما الاختيأ به والاختيأ بشأته - فقد أعنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والنَّاصِر منهم . وتتأقَس فيه رؤساء الناس في العراق لا سيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المطار" أنهم تتأقَسوا في أقتانته ، ولمعجوا
 بذكره ، وبالقوا في أتمانته ، حتَّى بلغ مَن الطائر الفأريه منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ مَن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تُباع يتضنا الطائر المشهور بالقراءة بشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأَنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه
 ولا العدل من أخذ الحمام ، والمتأقَس فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأتريها ،
 والتعت لمشهورها ، حتَّى وجَّه أهل البصرة إلى بكار بن شَيْبَةَ البكراني قاضى مصر ،
 (وكان في فضله وحفله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بجمامات لم مع
 يقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولَّى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متَجَرّاً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما أتى بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من أعنى به من الملوك [وتقله]^(١)
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالقوا حتَّى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تمام الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاحب القوارس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للنَّاصِر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض الأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر ورأى شيه ، وألوشوم التي تؤسم في كل عضو ، وألوان الطيور وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظن أن كتاب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مقدمته .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدم أن الطائر الذي يبع بالف دينار طار من القسطنطينية إلى البصرة ، وأن الحمام أرسل من مصر إلى البصرة بمحضرة القاضي بكار قاضي مصر .

وذكر ابن سعيدي في كتابه "حبا المحل وجنى النخل" أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ، ذكر لوزير يعقوب بن كلث أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها . وكان يمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوفيه بطاقة يأمر فيها من هونت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعها الوزير يعقوب بن كلث وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أخرب القرايب لديه .

وذكر أيضا في كتابه "المغرب في حل المغرب" أن الوزير الهأوري المغربي ، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفرقية من بلاد المغرب فناء إلى مصر ، والمهدة عليه في ذلك .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على سراً في
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة

إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص
وأسوان وعبذاب . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمناس ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها بروج قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعبذاب والإسكندرية
ودمناس .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصليحية ، ثم منها إلى قنينا ،
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

اعلم أن الأبراج من غزّة تتشعب فيها مسارج الحمام إلى غير جهة دمشق وإلى جهتيها .

فأما غير جهة دمشق، فن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غزّة إلى القدس الشريف، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فن غزّة إلى لُد، ومن لُد إلى قاقون، ومن قاقون إلى جيبين . ومن جيبين تتشعب المسارج إلى غير جهة دمشق وإلى جهتيها .

فأما ما إلى غير جهة دمشق : فن جيبين إلى صفد . وأما ما إلى جهة دمشق : فن جيبين إلى يسان، ومن يسان إلى أربد، ومن أربد إلى طقس، ومن طقس إلى الصنمين، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "العرف" : ومن كلّ واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من يسان إلى أذريط مقر ولاية الولاية بالصفقة القليلة، ومن طقس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعب مسارج الحمام من دمشق إلى غير جهة حلب، وإلى جهتيها .

فأما إلى غير جهة حلب : فتسرح من دمشق إلى بعلبك، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهة حلب : فتسرح من دمشق إلى قارا، ثم من قارا إلى حصص،

ثم من حصص إلى حماة، ثم من حماة إلى المعرة، ثم من المعرة إلى حلب .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

بُرجُ الحَمَام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى بهسنا . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شات^(١)] مما حوكمنا [ثم من القرىتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقيب ، ومنها إلى الرحبة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقيب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقيب ، ثم يُسرح على الجناح من قباقيب إلى الرحبة^(٢)] . قال : وبما ذكرتم ذكر مراكب الحَمَام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحَمَام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر حُجْنِ التَّلْجِ والمرَّاكِبِ المُعَدَّة لِجَلِّ التَّلْجِ الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التَّلْجِ

إِعلم أَنَّ ماءَ نَيْلِ مِصرَها كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يُساويه فيه نهر من
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة
القيظ بها في زمن الصيف، ومُغْشِية الهواء الذي قد لا يتأتى معه تبريد الماء، وكان
التَّلْجُ غير موجود بها، وكانت الملوك قد آتت الرقابة مع اقتدارها على تحصيل
الأشياء العزيرة، وولّوهم يحملها من الأماكن البعيدة - إجمالاً لحال الرقابة،
واظهاراً لأبهة الملك - دعاهم كمال الرقابة والأبهة إلى جلب التَّلْجِ من الشام إلى
مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تلج بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوامل" أن أول من حيل إليه التَّلْجُ
النجاش بن يوسف بالعراق. ثم لاغتناء ملوك مصر بالتَّلْجِ قرروا له حُجْناً تحمله في البر
وسُفْناً تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل التلج من الشام
قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تَقَمِّده الله
بِرَحْمَتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ في السنة، لَا تَرِيدُ عَلَى ذَلِكَ . قال : ودامتْ عَلَى أَيَّامِ سُلْطَانِنَا
(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السُّلْطَنَةِ الثَّالِثَةِ ، وَبَقِيَتْ صَدْرًا مِنْهَا ،
ثُمَّ أَخَذَتْ فِي التَّرِيدِ إِلَى أَنْ بَلَغَتْ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّجًا فِي مَمْلَكَتِي الشَّامِ وَطَرَابُلُسَ ،
وَرُبَّمَا زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ . قال : وَآخِرُ عَهْدِي بِهَا مِنَ السَّبْعَةِ إِلَى الثَّمَانِيَةِ تُطْلَبُ
مِنَ الشَّامِ وَلَا تُكَلَّفُ طَرَابُلُسُ إِلَّا الْمُسَاعَدَةَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَوَاقَاتِ
وَدَوَاعِي الضَّرُورَاتِ .

قال : وَالْمَرَّاتُ تَأْتِي دُمِيَاطَ فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ التَّلْجُ فِي النَّيْلِ إِلَى سَاحِلِ
بُولاقَ ، فَيُنْقَلُ مِنْهُ عَلَى الْبَغَالِ السُّلْطَانِيَةِ ، وَيُحْمَلُ إِلَى الشَّرَافِيحَاءِ الشَّرِيفَةِ ، عَلَى
مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

وَقَدْ بَحَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ الْمَرَكَبَ إِذَا سَفَرَتْ سَفَرًا مَعَهَا مِنْ يَتَدَرَّكُهَا مِنْ ثَلَاثِينَ
لِمَدَارَاتِهَا . ثُمَّ الْوَاصِلُونَ بِهَا فِي الْبَحْرِ يَعُودُونَ عَلَى الْبَرِّ .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في المهجن المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حَدَّثَ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَةِ «محمد بن قلاوون»
وَأَسْتَمَرَّ . وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يُجْعَلُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ خَاصَّةً . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَكَزَ
مِنْ دِمَشْقَ إِلَى الصَّنَمِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَانِيَّاسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَيْسَانَ ،

ثم منها إلى جِيبَيْن ، ثم منها إلى قَاقُون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى فَرَزة ، ثم منها إلى العَرِيش ، ثم منها إلى الوَرَادَة ، ثم منها إلى المُطَلِب ، ثم منها إلى قَطِيعا ، ثم منها إلى القَصِير ، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة ، ثم منها إلى بَلْبِيس ، ثم منها إلى القَلْعَة .

قال : والمستَقَرُّ في كُلِّ مَرَكَبٍ هُجْنٌ : نَحْسَةٌ لِلْأَحْمَالِ ، وَهَجْنٌ لِلْهَجَانِ ، تَكُونُ كُلُّ قَلْعَةٍ نَحْسَةً أَحْمَالٍ . وهذه الْمُجَنُّ من الشام إلى العَرِيش على المملكة الشَّامِيَّة ، خَلَا جِيبَيْنِ فَإِنَّمَا عَلَى صَفَدٍ . ومن الوَرَادَةِ إلى القَلْعَة هُجْنٌ من المَنَاحِثِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالْكَلْفَةِ عَلَى مَالٍ مُضَرٍ . وَلَا تَسْتَقِرُّ هذه الْمُجَنُّ بهذه المَرَكَزِ إِلَّا أَوَّانَ حَمْلِ التَّلْجِ ، وَهِيَ : حَرِيرَانُ وَتَشِيرَانُ الثَّانِي . وَبَعْدَ قَلَاتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ قَلْعَةً ، مُتَقَارِبٌ مُدَدٌ مَا بَيْنَهَا ، ثُمَّ صَارَ يُزِيدُ عَلَى ذَلِكَ . وَيُجَهِّزُ مَعَ كُلِّ قَلْعَةٍ بَرِيدِيٌّ يَتَذَكَّرُهُ ، وَيُجَهِّزُ مَعَهُ ثَلَاثُ خَيْلٍ بِجِلْمِهِ وَمُدَارَاتِهِ ، يُجْعَلُ عَلَى فَرَسٍ بِرِيدِيٍّ ثَانٍ . قال : وَأَسْتَقَرُّ فِي وَقْتِ أَنْ يُجْعَلَ التَّلَاجُ عَلَى خَيْلِ الْوَلَايَةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّلْجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَكَبِ وَالْمُجَنِّ حَتَّى أَتَاهُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، خُرِنَ بِالشَّرَاجِمَانِ السُّلْطَانِيَّةِ . قال في "التعريف" : وَمَذْهُبُ أَنْ يُجْعَلَ مِنَ التَّلْجِ عَلَى الظُّهْرِ مَا يُجْعَلُ ، أَسْتَقَرُّ مِنْهُ خَاصُّ الْمَشْرُوبِ ، لِأَنَّهُ يَصِلُ أَنْظَفَ وَأَمْنَ عَاقِبَةً ، عَلَى أَنْ الْمُتَسَقِّرِينَ يَأْخُذُونَ الْجَاشِي مِنْهُ بِمَحْضُورِ أَمِيرٍ يَجْلِسُ وَشَادَ الشَّرَاجِمَانِ السُّلْطَانِيَّةِ وَخُرَانَهَا . أَمَا الْمَقْذُولُ فِي الْبَحْرِ فَلَيْسَ عِنْدَ ذَلِكَ . قال : وَلِلْمُجَهِّزِينَ بِهِ مِنْ الْخَلْعِ وَرُسُومِ الْإِنْعَامِ رُسُومٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَعَوَائِدُ مُسْتَمَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ وَاصِلَ التَّلْجِ فِي كُلِّ قَلْعَةٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تُكْتَسَبُ بِهِ رَجْعَةٌ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ تَعْلُفِهِ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع رُفِعَ النَّارُ فِي اللَّيْلِ والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هؤلاء من النار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً و[يُنَارُ] الدخان نهاراً، للإعلام بحركة النار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة، وهي من أقصى نفوذ الإسلام كالبيعة والرحبة، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجند بالقرات إن كان بكرة علم به عشاء، وإن كان عشاء علم به بكرة. ولما رُفِعَ من هذه النيران، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العمد، وتارة في غير ذلك. وقد أُرْصِدَ في كل منور الديابب والنظارة، لرؤية ما وراهم وإيراء ما أمامهم، ولم على ذلك جوامع مقررّة كانت لا تزال دارة . قال : وكان يُنَوَّرُ بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من الصباح بحجة أمر سوي التتوير، ويستريحهم أهل البلد حباً للملوك، فترى [ناره أو دُخانُه بحرية الروم والجرف أيضاً، ويرفع فيهما أوفى إحداهما فيرى^(١)

من كل منهما بواحد الميكل، ويرفع فيه فيرى [القتاطر، ويرفع بالقتاطر فيرى بالرحبة وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كواثيل، ويرفع فيها فيرى في منطرة قباقب، ويرفع فيها فيرى في حفير أميد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنطرة أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة^(٢) بين أرك^(١) وتدمر، ويرفع فيها فيرى بمنطرة تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنطرة البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى بتيّة العقاب، ويرفع فيها فيرى بمذنة العروس، ويرفع فيها ليا حوها، إنذارا للرعايا وصما للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمساع، ويرفع به فيرى بتل قرية الكنيّة، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمتور المعمول بازاا البر الذي برأس الجبل المتحد إلى بيسان المعروف بقبة البريد، لا عدول بطريق البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حوها، ويرفع من هذا المتور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين، ثم يرفع منه فيرى بجبل خمسة، ثم يرفع منه فيرى بشرقة قاقون، ثم يرفع منه فيرى بأطراف أعمال نابلس^(٣)] ويرى على قصد الطريق ينزوة الجبل المصايب لجبل بابا، ويرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال المطلّة على غزة، ويرفع بغزة على أعلى الحدب المعروف بحدب غزة، ثم [لأمتور^(٤)] لا إخبار بسان التار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذي في التريف : وقد عدل الآن طريق الخ قننه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناورٌ تشعب إلى ما تخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبٍ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلىح الله بين الفتيين ، وأمن جانب الجهتين ، فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرف عن البال . وهذه المناور رؤسومٌ قد عفت ، وجسومٌ [أكلت شمل النار أرواحها^(١)] فأنطلقت .

على أنه قد نصَّ في التعريف " على مناوِر طريق البيرة ، ومناوِر طريق الرحبة ، وهما من نفس الملكة .

قلت : وهذه المناوِر مأخوذة من ملوك الهند . فقد رأيتُ في بعض الكتب أن ببلادهم مناوِر على جبال مرتفعة ، ترى النار فيها على بُعد أكثر من هذه .

على أن مرتبتها بهذه الملكة أولاً أتى بحكمة مكرية لا تساوى مقدارا ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الناية القصوى . وذلك أن البريد يأتى من سرعة الخبَر بما لم يأت به غيره ، والחסام يأتى من الخبَر بما هو أسرع في البريد ، والمناوِر تاتى من الخبَر بما هو أسرع من الحسام . وناهيك أن يظهر عنوان الخبَر في الفرات بمصر في مسافة يومٍ وليلة .

(١) الزيادة من الصريف (ص ٢٠١) .

الفصل الثاني

من الباب الرابع من الخاتمة في المحرقات

قال في "التعريف": وهى مواضع مما بلى بلادنا من حد الشرق داخلة في تلك المملكة (بمعنى مملكة بني هولاكو من التار) يجهز إليها رجال فتحرق ذرعها، كأرض البقعة والترنار والقينة، وباشرة، والعتاخ، ومشهد ابن عمر، والمويلح، وبلاد يينوى من بر الموصل التى يقال، إن يؤسس عليه السلام يبعث إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج المحرق، ومنازل الأورانية، وهى أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. ويولد سنجار - المنطق والمنظرة والمريدة، وتحت الجبال عند التليلات، وكذلك التارات، وأعلى جبل سنجار وما إلى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكفون علوة نخلهم بل يكونها إلى ما تبيت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض محصية سلكوها، وإذا كانت محصية تجنّبوها، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً محصية، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قسدوا بلادنا، فإذا أرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرقيق، والدفع عن مباحة الأطراف ومهاجمة النفوس.

وكان طريقتهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكثرون عند أنباء النصح في كهوف الجبال ويطلقون الأودية، ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهوائه زعزع، تعلق النار موقدة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعت، لتجده

التعالب في القُدو، والكلاب في الطلب، فحرق ما سرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، مع ألقه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة، وعشاء الأيام المعتمة. وكان يتفق في نظير هذا الإحراق من خزانة دمشق جمل من الأموال. قال: وكان الاهتمام بذلك في أول الأمر قبل أن يقطنوا بقصد التحريق، ثم نبههم على ذلك أهل المداجاة، فصاروا يربطون عليها الطرق، ويمسكون منها بالأطراف، وقتل عديد من الرجال بسببها، وأحرقوهم بأشد من نارها.

وذكر أن مما كان يختب تحرقه - أرض الجبال، من حيث إنها بلاد بقية السلف الصالح من ذرية شيخ الإسلام الإمام الكبير العارف بالله «عبد القادر الجيلاني» المعروف بالكيلاني، نفع الله تعالى بركاته، لتعظيمهم من الجهتين، مع ما لهم عند ملوكا من المكانة العالية: لقديم سلفهم، وصميم شرفهم، ولما للإسلام وأهله من إسعافهم بما تصل إليه القدرة وسبله الإمكان.

قلت: ويتم القول في هذا الطرف قد تم ما كنت أحاوله من التأليف، وأهتم به من الجمع، وبالله التوفيق، وإليه الرغبة، وهو حسي ونعم الوكيل.

وأعلم أن المصنفات تتفاوت في الخطوط إقبالا وإذبارا: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك. على أنه قل أن يتفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه.

قال المسعودي في كتابه «التبيين والإشراف» وقد أنه ترك الخواطر، ويتفق الضمائر؛ ودعا كان الآثر أحسن تأليفا، وأتم تصنيفا، لحكمة التجارب، وخشية التبع، والاحتراش من موانع المضار. ومن هاهنا صارت العلوم نائمة، غير متناهية، لوجود الآثر ما لا يحده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة، ولا نهاية محدودة.

على أن من شيم كثير من الناس إطرأ المتقدمين، وتعتز كُتب السالطين؛
ومدح الماضي، وذم الباقي؛ وإن كان في كُتب المتقدمين ما هو أعظم فائده،
وأكثر عايته .

ثم حكي عن الجاحظ - على جلالة قدره - أنه قال : كُنتُ أُؤلف الكتاب الكثير
المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الاستماع تُصني إليه ،
ولا الإردادات تُقيم نحوه ، ثم أُؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأحسله
عبد الله بن المُقفع ، أو سهل بن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ممن صارت
أسمائهم في المُصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لثمن
إلا لئسبها المتقدمين ، وليا يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ،
ومناقبه على المناقب التي عني بتشديد .

قال : وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس ، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل
الذين أعطوا كل شيء حقه من القول ، ووقوه قسطه من الحق ؛ فلم يرفعوا المتقدم
إذا كان ناقصاً ، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً ؛ فليشمل هؤلاء تُصنف العلوم ،
وتدون الكتب .

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المُصنفين ، وعين
أعيانهم ، فما ظنك بغيره ؟ .

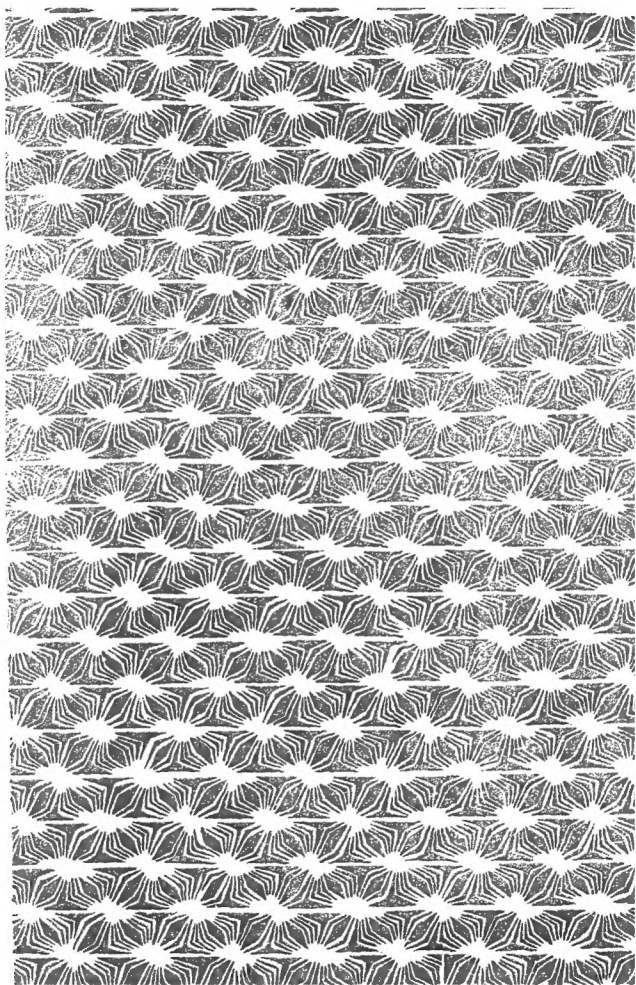
لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ، وفاق سلعته ، والمسارة إلى
استيكابه قبل انقضاء تأليفه ، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتساقان في ميدان
الطرس إلى آكتابه ، ومزجيب تجارته للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه . فضلاً من
الله ونعمته ، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

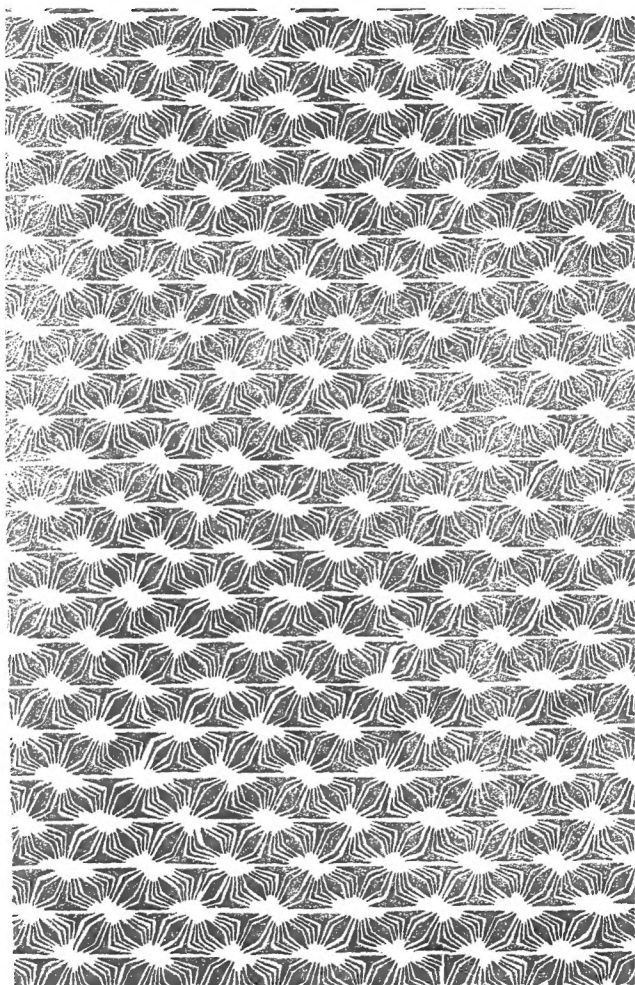
قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَالِيَقَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُجِزَتْ هَذِهِ النُّسخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَمْرِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةَ قَبْلَهُ ، فَقِيرٌ رَحِمَهُ رَبُّهُ النَّبِيُّ الْفَاتِحُ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
أَبْنِ مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، تَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَائِلَةِ ، بِحِطِّ
بْنِ الْقَصْرِيِّ : خَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَرَّ عِيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَطَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ





 Bibliotheca Alexandrina



0698748